مكة المكرمة - جامعة أم القرى
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
الدراسات العليا الشرعية
فرع العقيدة

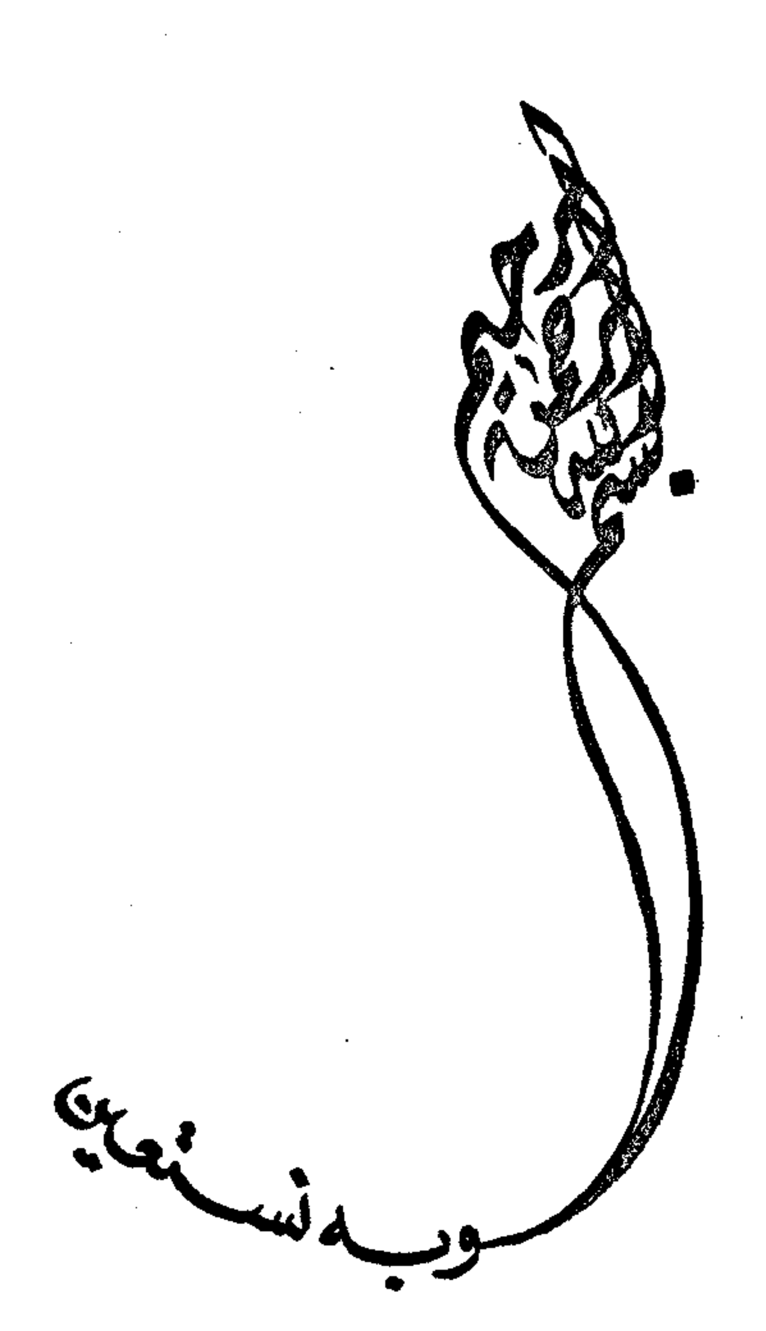
العقيدة
أساس التربية والنظم الإسلامية

رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في الشريعة الإسلامية

إعداد الطالب
محمد حافظ الشريده

إشراف
فضيلة الشيخ الأستاذ محمد قطب

١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م



بسم الله الرحمن الرحيم
وبه نستعين

الإهداء

إلى الدعاة المؤمنين في كل زمان ومكان . . .

إلى الغرباء في الجاهلية المعاصرة . . .

الذين تربوا على العقيدة الربانية . . .

ويسعون لتربية الأجيال عليها . . .

وإقامة المجتمع الإسلامي . . .

أهدي هذه الرسالة

شكــــر وتقديـــــر

أحمد المولى تبارك وتعالى وأشكره أولا وآخرا ظاهرا وباطنا على أن جعلني مـــن طلبة العلم ووفقني لاتمام هذا البحث وذلل لي عقباته •

وأسأله عز وجل بأسمائه الحسنى وصفاته العليا أن يجعل عملي كله خالصا لوجهــه الكريـم •

وأصلي وأسلم على صاحب الخلق العظيم سيدنا محمد القائل : (من لا يشكر الناس لايشكـر الله)*

وعملا بهذا الحديث الشريف واعترافا بالجميل : فانني أقدّم خالص الشكر والتقديـر لفضيلة الشيخ الكبير المفكر الاسلامي المعروف الداعية العلامة الأستاذ محمد قطـب ــ حفظه الله وبارك فيه ونفع به وختم له بالباقيات الصالحات ــ على ما أحاطني به من رعاية وعناية ونصح وارشاد •

فقد أعارني ــ وفقه الله ــ سمعه وبصره ، ولم يأل في عوني جهدا ، ولم يبخل علي بوقت ــ في الجامعة وخارجها ــ رغم كثرة مهامه وأعماله • واعتصـر ــ سدّد الله خطـاه ــ ذهنه ، واختلس من وقته الثمين ما مكنه من قراءة هذه الرسالة عدة مرات ، وفتــح أمامي أبوابا كنت غافلا عنها ، وحل لي مشكلات استعصت عليّ •

ولن أنسى له ــ أطال الله بقاءه ــ ان شاء الله ، نصائحه المفيدة وتوجيهاتـــه السديدة وآدابه الجمة وأخلاقه العالية ــ ومعاملته الكريمة وأسلوبه الحكيم وأحاديثــه الممتعة وعاطفته الحارة ولهجته الصادقة ومعاشرته الحسنة وجانبه اللين •

---

* رواه أحمد في المسند ٢/٩٥
وأبو داود ٤/٢٥٣
والترمذي وقال حديث صحيح •
انظر تحفة الأحوذي للمباركفوري ٦/٨٧ جميعهم عن أبي هريرة (رضي الله عنه)

وقد كان لهذا كله أكبر الأثر — بعد توفيق الله تعالى — في اخراج هذه الرسالة على هذه الصورة المتواضعة •

فأسأل الله العلي القدير أن يجزيه عني — وعن المسلمين — أحسن الجزاء وأبره وأكرمه وأوسعه وأعظمه ، وأن يجزل له المثوبة في الدارين ، وأن يمتعه بالصحة والعافية ، وأن يشرح له صدره ويضع عنه وزره ويرفع له ذكره — في الحياة وبعد الممات• وأن يرفع درجاته في المهديين ، وأن يجمعنا جميعا تحت لواء سيد الأنبياء والمرسلين — صلى الله عليه وسلم — يوم الدين •

كما لايفوتني أن أتوجه بخالص الشكر وعظيم الامتنان والتقدير لمشرفي في مرحلة الماجستير معالي الدكتور راشد الراجح — مدير الجامعة — حفظه الله ، الذى استفدت منه خلقا جما وعلما غزيرا وتوجيها قيما ، والذى تتلقى منه هذه الجامعة الفتية كل رعاية وعناية وجهد • فجزاه الله عني — وعن زملائي طلبة العلم من مختلف أرجاء المعمورة — خير الجزاء •

كما أشكر جميع القائمين على جامعة أم القرى (الزاهرة) وأخص بالذكر جميع المسؤولين عن كلية الشريعة والدراسات الاسلامية •

كما أشكر جميع شيوخي وأساتذتي الأفاضل في الثانوية الشرعية بنابلس وفي كلية الشريعة بالجامعة الاردنية ، وأخص منهم بالذكر من تربيت على يديه سنوات عديدة فضيلة الأستاذ الدكتور عبد الله عزام (حياه الله وبياه) •

كما أشكر كل من ساهم في هذه الرسالة بجهد قليل أو كثير ••

لهؤلاء جميعا أقدم خالص دعواتي وأجمل تحياتي ••

والسلام •••

المقدمــــــــــة

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وســـــيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله الا الله وحده لاشريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله " يا أيها الناس اتقوا ربكم الــــذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا اللـــــه الذى تساءلون به والأرحام ان الله كان عليكم رقيبا " (النساء : ١) ((يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وأنتم مسلمون)) (آل عمران : ١٠٢) ((يا أيهـا الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطـــع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما)) (الأحزاب : ٧٠ و ٧١) .

أما بعــــــد :

كان الناس قبل البعثة النبوية فى جهل وضلال وتخبط وفوضى ... لايعرفـــون حقا ولا ينكرون باطلا ، وشاءت ارادة البارى عز وجل أن تستفيق البشرية من سباتها العميق فبعث اليها رسوله محمدا (صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه الى يوم الديـــن) ، داعيا اليه باذنه وسراجا منيرا ، ليخرج الناس من عبادة الطاغـوت الى عبادة ذى العزة والجبروت ، ومن جور الأديان الى عدل الايمان ، ومن ضـــيق الدنيا الى سعة الدنيا والآخرة . فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ بما كلفـــه الله تعالى به خير قيام ، فبلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، ونصح الأمة ، وجاهــــد فى الله حق جهاده حتى أتاه اليقـــين .

وقد كان مدار دعوته ـ صلى الله عليه وسلم ـ طيلة حياته على كلمة التوحيــــد (لا اله الا اللــــه) ، التى بعث بها الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ من قبلـه ، ((ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت)) (النحل/٣٦) .

ومكث رسول الهدى ـ عليه الصلاة والسلام ـ طيلة العهد المكى وهو يدعـــو لهذه الكلمة ويربى أصحابه الكرام عليها .. حتى أذن الله لهم بالهجرة الـــــى المدينة واقامة الدولة الاسلامية ، بعد أن تربوا على هذه العقيــدة .

ولم يبدأ نبي الله (عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم) بالدعوة الى اصلاح أي جانب من جوانب الحياة الانسانية — مع أن اصلاح أي هذه الجوانب عمل جليل — لأن العليم الخبير تبارك وتعالى يعلم أن هذا ليس هو الحل الناجع والدواء الشافي وانما طريق الخلاص هو الصراط المستقيم الذي سار عليه جميع الأنبياء والمرسلين (عليهم صلاة الله وسلامه أجمعين)، وهو: ((اعبدوا الله مالكم من اله غيره)) (الأعراف: ٥٩ و ٦٥ و ٧٣ و ٨٥).

وقد اعترف الناس — على كر العصور — بأن الله عز وجل هو الخالق الرازق، ولكن كثيرا منهم أبى أن يعترف بأن للمولى جل وعلا حق الأمر والنهي، فبعث الله النبيين لتوضيح هذه الحقيقة: وهي أن من سلم لله تعالى بالخلق، فان عليه أن يسلم له سبحانه بواجب العبودية على الخلق، من الطاعة المطلقة لرب العالمين في كل الأمور، ومن قصر الحاكمية والتشريع والتصرف عليه وحده.

ومن المعروف أن للناس — من آمن منهم ومن كفر — مناهج يسيرون عليها في تنظيم حياتهم: اما المنهج الرباني المتمثل في الاستسلام التام لله في كل زمان ومكان ومجال وأمر. واما المناهج الجاهلية المتمثلة في عبادة الطاغوت — وهو كل ماعبد من دون الله — وطاعته. وكلا المنهجين منهج حياة، وفي الحالين تقع العبادة، ولكنها تختلف: فأما عبادة الله فهي الطمأنينة والسلام والسعادة في الدنيا وجنة عرضها السماوات والأرض في الآخرة. وأما عبادة الطاغوت والشهوات فهي المنكر والخوف والشقاء في الدنيا ولعذاب الآخرة أشد وأبقى.

وقد جاءت العقيدة الالهية التي رضيها الخالق لعباده بالأسس والتوجيهات التي تلبي حاجات الانسان — المادية والروحية — وتتناسب مع الفطرة السوية، وتحقق مصلحة الفرد والمجتمع والدولة في آن واحد. وماجاءت به هذه العقيدة من مبادئ وأصول وقواعد، كفيل بحل مشاكل الفرد والجماعة في

أسرع وقت وبأقل التكاليف ، لأن البارى جل ذكره هو وحده الخالق ، وهو وحده الذى يعلم مايصلح عباده ومايضرهم فى معاشهم ومعادهم .

ان العقيدة الاسلامية هى الهدى والنور والخير والرشاد والحق والصواب والأمن والسلام ، وهى سفينة النجاة فى الحياة المؤدية لرضوان الله وجنته بعد الممات. ان هذه العقيدة تعلم أتباعها ـ فيما تعلم ـ أن ليس لهم من أنفسهم شئ بل انهم ومايملكون لله عز وجل .

وهذه العقيدة تجعل أصحابها آمنين مطمئنين لايخافون ولايجبنون ولايبخلون ولايحزنون ، يحمدون الله فى الضراء ، ويشكرونه فى السراء ، ويرضون بما جرى به القضاء ، ويجاهدون الأعداء ، ويذلون لصاحب الكبرياء ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن الفحشاء ، يعملون فى الأرض وقلوبهم متجهة للسماء .

وتوجيهات العقيدة الربانية أعظم وأوسع نظام عرفته البشرية فى تاريخها ، فهى توجه أعمال الفرد ـ حاكما كان أو محكوما ـ الظاهرة والباطنة فى جميع الأمور والأحوال . وتوازن بين المادة والروح وبين العبادات والمعاملات وبين العلم والدين وبين الدنيا والآخرة ، دون أن يطغى جانب على جانب : ((وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولاتنس نصيبك من الدنيا)) (القصص : ٧٧) .

وطريقة العقيدة الالهية فى تربية النفس طريقة فريدة وعجيبة : فهى أولا تنشئ الايمان فى القلوب ، ثم تجعل هذا الايمان يزداد بالعمل الصالح والعلم النافع ، وأثناء ذلك ترغب فى طاعة الله وثوابه .. وتحذر من معصيته وأليم عقابه .. وتغرس فى النفوس حب كل مايؤدى لرضوان الله وكراهية كل مايؤدى لسخطه جل وعلا ، ولو أدى ذلك لفقد ـ أو بذل ـ الرخيص والنفيس .

وكما أن العقيدة هى الركيزة الكبرى لتربية النفس فهى كذلك الركيزة الكبرى لتربية المجتمع ، سياسيا وحربيا واقتصاديا وأخلاقيا وتعليميا ... وأهداف وبواعث

الأنظمة الاسلامية التي توجه حياة المجتمع نظيفة نظافة مصدرها وغاياتها ووسائلها ، وليست هذه النظافة مقتصرة على تعامل المسلمين فيما بينهم ، بل هي شاملة لكافة الناس في جميع الأحوال وفي كل الأمور .

ومع أن هذه التوجيهات التي تنظم حياة الأمة المسلمة هي تنظيم عادل للمجتمع الا أنها في الوقت نفسه طاعة وعبادة لله رب العالمين .

وقد استطاعت عقيدة التوحيد أن تجعل من القبائل المتنازعة ومن الشعوب المختلفة ومن الأجناس المتعددة ومن الألوان الكثيرة ... بعد اعتناق الاسلام خير أمة أخرجت للناس ورائدة الأمم في شتى الميادين ، وارتفعت راية (لااله الا الله) فوق أصقاع كثيرة من المعمورة . وطفق المسلمون يعمرون الأرض على ضوء المنهج الرباني ، وعرف كل من الحاكم والمحكوم واجباته فأداها من تلقاء نفسه وحقوقه فأخذها من غير عنف ، وآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ، ونصرهم على أعدائهم . لأنهم عضوا على تعاليم الكتاب والسنة بالنواجذ ، قاموا بواجب العبودية فاستحقوا التمكين من رب البرية .

((وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا : يعبدونني لايشركون بي شيئا)) (النور : ٥٥) .

وهؤلاء الذين انسابوا في الأرض يبلغون الناس دعوة الله وينشرون الحق والعدل والحرية ويقمعون الظلم والضلال والاستعباد ، هم الذين تربوا على عقيدة التوحيد التربية الايمانية العميقة البطيئة ، على يد خير المربين وصاحب الخلق العظيم ومن هو بالمؤمنين رؤوف رحيم (صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم). اذا أردت نماذج حية في الزهد والروحانية : فستجدهم ممن يغبطهم النبيون والصديقون والشهداء، واذا أردت شواهد في الاقدام والجرأة والثبات والفداء : فستجدهم أنشودة عذبة

فـــى فـم الزمان ! واذا أردت أمثلة يضربها المثل فى الصبر والتوكـــــــل : فستجدهم ـ رضوان الله عليهم ـ صبروا على صبر أشد من الصبر وتوكلوا على من بيده الخلق والأمـــر ! واذا أردت نوعيات فى الحكم والعدل : فستجدهم قمة فـــى ملك العدالة وعدالة الملك ودرة متلألئة على جبين العظماء وصفحة ناصعة من صحائف المجـد ! لله درهم ! فقد جمعوا بين المعرفة والسلوك ، فاستحقوا سعادة الدنيـــا والآخـــرة ورضوان مالك الملك وملك الملوك .

وحين ابتعد المسلمون عن دينهم رويدا رويدا .. وحين انحرفوا فى مفهـــــوم الألوهية وفى مفهوم الايمان بالقدر .. وحين تركوا الجهاد فى سبيل الله وركنـــوا الى الدنيا والى الذين ظلموا .. وحين حدث فى حسهم الانفصام النكد بين الديـــن والدنيا وبين العلم والايمان وبين المعاملات والعبادات وبين المعرفة والسلوك ... وحين تهاونوا فى الأمـر بالمعروف والنهى عن المنكر .. وحين فسد الولاء والعلماء .. حينذاك جرت عليهم السنة الربانية ، لأنهم ضيعوا الشرط الذى به يمكنون فـــى الأرض ،وسلط الله عليهم الأعداء ، وقذف فى قلوبهم حب الدنيا وكراهية المـــوت ، وعاقبهم بعدم الاستجابة لهم ، وأذلهم للبشـر ، وجعل بأسهم بينهـــم !!

وجاء الاحتلال العسكرى الكافر المدمـر لديار المسلمين .. وأزال الخلافـــــة الاسلامية التى كانت الشمس لاتكاد تغيب عنها ! وجاء هذا الاحتلال معه بغزو أشـد خطرا وفتكـا من الأسلحة المدمرة الا وهو الغزو الفكرى !

وأعداء الله يعرفون ـ كمعرفة المسلمين ـ أن العقيدة الربانية هى مصدر حيـــاة المسلمين وسعادتهم فى الدارين ، وقد تنوعت وسائلهم فى حربهم لها ، فتـــارة يحاربونها بالسنان ، وتارة باللسان ، وتارة بالتشكيك فيها ، وتارة بوضع الســـم فـــى الدسم ، وتارة بالتظاهر بها ومحاربتها من الداخل .. وأخيرا وجــــدوا أن أنجح الحلول للقضاء عليها ـ عن طريق الاستشراق ،والتنصير ، والغزو الفكرى

لمناهج التربية ووسائل الثقافـــة والاعلام ـــ هو أن يربوا من أحفاد المســلمين على أيديهم من يفكـــر بعقول أجنبية ويكبر الحضارة المادية ـــ الجاهلية ـــ ويناهض الحضارة الاسلامية ٠٠ ويقوم هؤلاء بتسلم مراكز التوجيه فى العالم الاسلامى ٠٠ وبذا يوفرون على أنفسهم الوقت والجهد والمال والعساكر والسلاح ! حين يقوم المستغربون بمهمة محاربة العقيدة الاسلاميـــة ٠

وهكذا أصبحت أمتنا المعاصرة فى مؤخرة الأمم ـــ فــى شــتى الميادين ـــ فقدت روحانية الاسلام من جهة ٠٠ وفقدت ماعند الأمم الكافرة المعاصرة من تقدم مـــادى من جهة أخـــرى ٠٠ فكأنها بذلك جمعت بين خسارة الدارين ـــ والعياذ بالله ـــ! ولكن ارادة الله شـاءت أن يظهر دينه على الدين كله ، وأن تكون كلمة الحق هـــى العليا وكلمة الباطل هى السفلى ، وأن يذهب الزبد جفاء وأن يبقى ماينفع النـــاس فى الأرض ، فبعث لهذه الأمة من يجدد لها أمور دينها ، وكان على رأس هـــؤلاء الأئمة الأعـــلام :

محمد بن عبد الوهاب ، وحسن البنا ، والمودودى ،وسيد قطب ، ومصطفــــى الســـباعى ٠٠٠

فدعا هؤلاء المجاهدون الناس الى العودة لتعاليم الكتاب والسنة والعض عليهما بالنواجـذ ، فاستجاب لهم أناس رضوا بالله وحده ربا وبالاسلام وحده دينـــــا وبمحمد ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ قدوة ونبيا رســولا ،وقام هؤلاء الدعاة بتربيـــة أتباعهم على العقيدة الربانية٠٠ وعلى أن يكون الله غايتهم والقرآن دستورهم والجهـــاد سبيلهم والموت فى سبيل الله أسمى أمانيهم٠

وعن طريق هؤلاء تمت الصحوة الاسلامية ٠٠ وانتشرت حركات البعث الاسلامى فـــى العالم تدعو لاعادة الحياة الاسلامية عن طريق التربية الايمانية ٠٠ وقامت هذه الجماعات والحمد لله ـــ بدور مشكور فى تربية المسلمين على الاسلام من جديد ٠٠ ولكن هـــذا الجهد بحاجة الى تقويم! ٠

ان طريق الخلاص : هو تربية الأمة المعاصرة على ماتربت عليه الأمة فى عصورها الأولى : الايمان العميق ، والتكوين الدقيق ، والعمل المتواصل . طريق الخلاص يرتكز على هذه العقيدة التى هى قضية المسلمين فى الماضى والحاضر والمستقبل . وحين توجد القاعدة الاسلامية الصلبة التى تربت على عقيدة التوحيد ففهمت (لااله الا الله) وعملت بمستلزمات (لااله الا الله) .. حينئذ يتنزل نصر الله عليها — كما وعد سبحانه — ، فأما الذين يموتون من هؤلاء فانهم ينالون رضا الله ويموتون وهم مطمئنين ، وتكون دماؤهم مشاعل على الطريق ، وأما الذين يعيشون حتى قطف الثمرة فانهم يذوقون حلاوة النصر ويفوزون بسعادة الدنيا والآخرة .

سأثار لكن لرب ودين وأمضى على سنتى فى يقين

فاما الى النصر رغم الطغاة واما الى الله فى الخالدين !

لأهمية هذه العقيدة — التى هى قضية المسلمين فى الماضى والحاضر والمستقبل — ولدورها الكبير فى تربية النفس والمجتمع ، ولكونها هى الطريق الوحيد لسعادة الدارين .. ولأن هذا الموضوع يحتوى على موضوعات كثيرة ، ويتطلب من صاحبه الاطلاع على مختلف العلوم الشرعية ، ولرغبتى الشديدة فى أن يشرف على رسالتى أحد أبرز أعلام التربية الاسلامية والفكر الاسلامى المعاصر فضيلة الشيخ الداعية الأستاذ الحبيب (محمد قطب) حفظه الله وبارك فيه ... لهذا كله .. اخترت الكتابة فى هذا الموضوع الهام ، الذى لاأعلم أن أحدا تناوله من جميع جوانبه فى كتاب واحد .

ولو استقبلت من أمرى ما استدبرت — ولو تفتح عمل الشيطان — لأخذت أحد جوانب هذا البحث فحسب ، لأن كل جزئية منه تحتاج الى بحث مستفيض وصبر عجيب ودقة نظر واطلاع واسع ووقت كبير !ولكن مالايدرك جله لايترك كله .

ولو لم أكن صاحب هذا البحث ، لتحدثت عن الجهد الذى بذل لاخراجه على هذا النحو ، ولكن الاسلام علمنا عدم تزكية أعمالنا ، وأن تكون أفعالنا — لاأقوالنا — هى التى تتحدث عنا ، دون رياء أو اعجاب بنفس أو انتقاص لآخرين .

ورحم الله علماءنا العاملين ، الذين دونوا لنا هذا التراث الزاخر بالعلم والحكمة ، ثم جئت ومن على شاكلتى — لآخذ به الشهادات وأطلب به الوجاهة والمناصب والأموال !

ورغم أن هذه الرسالة المتواضعة قد أخذت من وقتى وجهدى مالا يعلمه الا الله تعالى ، الا أننى لست نادما على شئ من ذلك ، لأننى بحمد الله وفضله — اطلعت على آلاف المراجع — فى العقيدة والتفسير والحديث والسيرة والسياسة الشرعية والجهاد والاقتصاد والتربية والتاريخ والأخلاق والثقافة الاسلامية ونظام الاسلام والمذاهب الفكرية والدوريات — وقمت بأخذ صفوة ماحوته هذه المصادر وأودعتها فى هذه الرسالة ، دون تطويل ممل ولاايجاز مخل .

فان أصبت فبتوفيق من الله وفضله ، والحمد لله على ذلك حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه كما ينبغى لجلال وجهه وعظيم سلطانه .

وان أخطأت فأستغفر الله ، ومستعد للرجوع الى الحق — ان شاء الله — فى لمح البصر ، ورحم الله امرءا أهدى إلي عيوبى وجزاه عنى خير الجزاء حيث أرشدنى الى الزلة قبل يوم الزلزلة !

ماكان فى هذه الرسالة من صواب فمن الله ، وماكان فيها من خطأ فمنى ومن الشيطان ، والله تعالى ورسوله — صلى الله عليه وسلم — منه بريئان ، وكل انسان يؤخذ منه ويرد عليه الا المعصوم (صلوات ربى وسلامه عليه) ، والكمال لله وحده ، نكم من انسان — كما قيل — كتب شيئا وأولاه من الوقت والجهد مارآه له أهلا ، ثم وجد فيه بعد ذلك هنات وزلات ، وقال لو قدمت كذا أو أخرت كذا أو أجملت

فـــى كذا أو أسهبت فى كذا .. وهذه طبيعة البشـر ، فسبحان المليـــك المقتـدر ، الذى تفرد بالكمال والاحسان ، واستعلى على العيب والنقصان .

وقد بذلت وسعى – بل ومافوق طاقتى – لتخرج هذه الرسالة على أحسن وجه ، والله أسأل أن يعلمنا ماينفعنا وأن ينفعنا ماعلمنا ، وأن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وأن يجعل علمنا الضئيل حجة لنا لاعلينا ، وألا نكون ممن أوتـى آيات الله فانسلخ منها ! وأن يجعل هذا فى ميزانى و ميزان شيخى الفاضـــل (محمد قطـــب) ((يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضرا وماعملت من ســـوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا)) (آل عمران : ٣٠) انه ســـميع مجيـــب .

هذا وقد جعلت هذه الرسالة فى مقدمة وتمهيد وثلاثة أبواب وخاتمة .

تحدثت فى المقدمة : عن أهمية الموضوع وعن سبب اختيارى له وعن منهجـــى فى البحـــث .

وتحدثت فى التمهيد عن أثر العقيدة فى تربية الرعيل الأول – رضى الله عنـــه – رعاة ورعية أفرادا ومجتمعا .

وتناول التمهيد كذلك : تعريفات للعقيدة والاسلام والتربية والنظم (لغـــة واصطلاحا وطبيعة كل منها) .

أما الباب الأول : فكان بعنوان أثر العقيدة فى تربية النفس . وقـد حـــوى ســـتة فصـــول .

الفصـــل الأول : أثر الايمان بالله تعالى فى تربية النفـــس .

الفصل الثانـــى : أثر الايمان بالملائكة الكرام فى تربية النفس .

الفصـــل الثالث: أثـر الايمان بالأنبياء والمرسلين فى تربية النفس .

الفصـــل الرابـع : أثر الايمان بالكتب السماوية فى تربية النفـــس .

الفصـــل الخامس : أثر الايمان باليوم الآخـر فى تربية النفـــس .

الفصل السادس : أثر الايمان بالقضـــاء والقدر فى تربية النفـــس .

أما الباب الثانـي : فكان بعنوان : ارتكاز التوجيهات التي تنظم حيـاة المجتمع الاسلامي على العقيدة الربانيـة .

وقـد حـوى أربعة فصـول :

الفصـل الأول : التوجيهات السـياسـية .

" الثانـي : " الحربيـة .

" الثالـث: " الاقتصاديـة .

" الرابـع: " الأخلاقيـة .

أما الباب الثالث : فكان بعنوان صور من واقع المجتمعات المختلفة .

وقـد حـوى ثلاثـة فصـول :

الفصـل الأول : واقع المجتمع الاسلامي في عصوره الأولـى .

" الثانـي : " المجتمعات الكافرة المعاصـرة .

" الثالـث : " أمتنا المعاصرة وكيف نعيد تربيتها .

وفي هذا الفصل الأخـير مبحثان :ـ

المبحـث الأول : واقع مجتمعاتنا الجاهلية المعاصرة .

المبحـث الثانـي : كيف نعيد تربية هذه المجتمعات على الاسلام من جديد .

أما الخاتمة : فقد حوت خلاصة الرسالة ، والنتائج التي توصلت اليها .

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد ألا اله الا أنت أستغفرك وأتوب اليك .

سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبعه واقتدى به الـى يوم يبعثـون .

***** مكـة المكرمـة *****

* أبو معـاذ *

مدخل إلى البحث

تمهيـــــد :ـ

كان العرب قوما فوضى ، فى قفـر من الأرض موضع احتقار الفرس والـــروم وآخر أمة ينتظر لها أمـر ! كانوا قبائل متنازعة على الحياة ، متنافسة فـى الشرف ، يتنازعون على مواقع الغيث ومنابت العشب ، كل قبيلة تعتز بقوتها وتفتخر بأنسابهـا ومآثرها ـ حتى فى الظلم والعدوان ـ !

كان الواحد منهم لا يعترف الا بقبيلته ، فكانت العشيرة عصابة متكافلة علـــى حماية نفسها والاعتداء على غيرها ...

فجاءت العقيدة الاسلامية تنقض كل مايتمسك به العربى من هذه الموازين.. فحلت هذا التجمع الموجه للشـر باسم القبيلة ، وأحلت مكانه الأمة . وأقامت الحقـوق البشرية ،وجعلت التعاون على البر والتكافل على النظام العام ، والاتحاد على الفكر السامى ...مكان علاقة الدم.وأحلت سلطان الشريعة فوق كل سلطان ، وجعلـت هيمنة الدولة للخير العام فوق كل هيمنة ، وهدمت القصاص الظالم وأقامت القصـاص العادل ، وصارت العزة للشرع القاهر والسلطان القائم عليه ، وحرمت دعوى الجاهلية وأوجدت المسؤولية الشخصية ،فما يغنى عن أحد ـ فى ميدان العمل ـ نسبـه ولا جاهه ولا ماله .

أصبح الناس بهذه الدعوة سواء ، لا شريف ولا وضيع ، أحسنهم أنفعهم ، وأكرمهـم أتقاهـم.

قضت هذه العقيدة على التناحر ... وأحلت مكانه التنافس لاقرار الحق وبسط الخير وفعل الصالحات . وملأت القلوب حبا وسـلاما .

جاءت هذه الدعوة برسالة التوحيد والتحرير ، وتركت أثرها الخالد فى الانسانية جمعاء ، وصرخ مؤذن هذه الرسالة بالنداء الخالد المدوى (الله اكبر) فتضاءلـت بهذه الصرخة كل عظمة أمام عظمة الله .

وتحررت النفوس من الأوهام الباطلة والعقائد الكاذبة المضلة ، وصارت العبودية لله وحده ، يتساوى الناس فيها ويتحررون من سواها .

بهذا أدرك الانسان مكانته ، ونال حريته فى عقله وفكره وقلبه وعمله .

ظهرت هذه الامة فجأة من بين تلك الصحارى التى لايكاد يعرفها أحد .. أمة جديدة بدأت تمثل دورها على مسرح الحياة بعد أن ظلت نهبا مقسما ، تتساوى كل قبيلة منها القبيلة الأخرى فيحتدم النزاع وتقع الحروب .. هاهى ذى تتحد ويجمع شملها الشتيت للمرة الأولى .. وتقلب فى وقت قصير امبراطورية كسرى وقيصر ، وتوالى فتوحها وانتصارها فى أرجاء المعمورة حتى وصلت جيوشها الظافرة الى الهملايا ..

لم تكن تلك الامة فاتحة فحسب بل كانت داعية ومبصرة . وهذا الامتياز الذى تفردت به هذه الامة فى التاريخ انما هو نفحة من رسالة الله التى اختار لها صفوة عباده وأكمل مخلوقاته محمد — صلى الله عليه وسلم — فكان يوم بعثته يوم مولد العدل الذى كانت البشرية فى انتظاره ، وبشيرا برحمة الله التى تعامل الناس بها للمرة الأولى . فالبعثة المحمدية مولد الانسانية التى كانت قبل ذلك أمنية الخواص . وأقامت العقيدة التى جاء بها رسول الله صلى الله عليه وسلم — دولة فى الأرض ، تعد الصدق من دعائم دينها ، والحياء من شعب ايمانها ، والرحمة من أسلحة نضالها واقامة الحق من شعائر مجتمعها ، واماطة الأذى عن الطريق من أخلاقها .

لقد استطاعت هذه العقيدة أن تكبح جماح قوم اتخذوا الصحراء القاحلة مكانا لهم ، واشتهروا بالشجاعة والحروب والأخذ بالثارات ، وتمسكوا بالأعراف والتقاليد والعادات ، فجعلت العقيدة من هؤلاء خير أمة أخرجت للناس .

وقد فتحت هذه العقيدة أمام الناس أبواب العمل للدنيا والآخرة معا ، وجاءت لترقية الروح والجسد ، بعد أن أوصدت الملل والأديان والنحل تلك الأبواب وقصرت وظيفة البشرية على الرهبانية أو المادية !

صدمت هذه الدعوة دين قريش وعقلها فسخرت من الراعى وهبت الى الايذاء والعدوان !

وجاءت هذه الدعوة بالمساواة لقوم قضوا أعمارهم فى التفاخر بالأحساب والأنساب . وهذا يصور لنا شجاعة وصبر محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى أنشأ هؤلاء ورباهم على هذه العقيدة .

لقد أرسل النبى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لقوم بعدت الشقة بينهم وبين هدى السماء ، ففشا فيهم الظلم وعمهم الجهل وظهر فيهم الفساد . حكامهم كفرة فجرة ، ليس لهم عاصم من نظام ولا وازع من دين أو خلق ،ولا رادع من وعى الجماهير وثورتها . وشعوب الأرض كالسائمة لا تعرف حقا ولا تنهى عن منكر ، ولا تفكر فى ثورة أو اصلاح .

عالم يسوده قانون المخلب والناب ، القوة فوق القانون !

فى هذا العهد القاتم بعث محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليخرج الناس من ظلمات الجاهلية الى نور الاسلام .

وتأبت مكة على الاسلام .. وقاومت هديه بكل قسوة ..

وربى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قلة مؤمنة ـ طيلة العهد المكى ـ ، هاجر بهم الى المدينة حيث كون مجتمعا وأقام دولة .. ثم دانت الجزيرة العربية كلها بدين الاسلام . فكان نجاحه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى العهدين ـ المكى والمدنى ـ معجزة باهرة ! وكان انتشار الاسلام من بعده أعجوبة الأعاجيب!

كيف استطاع محمد بن عبد الله — عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم — أن يكـــون من عرب الجزيرة أمة تحمل رسالة وتنشـــئ حضارة وتصنع تاريخا يظن لأول وهلـــة أنه من الخيال أو الأساطير ؟

كيف خلقت رسالة الاسلام من الفرقة وحدة ، ومن الضعف قوة ، ومن الأمية علمـــاء ومن البداوة حضارة ، ومن الحفاة العراة رعاة الشاء خير أمة أخرجت للناس ؟

ذلك ســـر العقيدة الربانية — التى بعث بها جميع الأنبياء من عند اللـــــه — وذلك عطها فى تربية النفس والمجتمع والدولة !

هل توزن الدعوات بميزان القوة والاتساع فتتبوأ مكان العظمة بما تم لها من فتوح وبما أحرزت من نصر وبما كسبت من أنصار ؟ لا ...

كان الناس قبل اعتناق هذه العقيدة فى فوضـــى من الأفعال والأخلاق والسياسة والاجتماع ... لا يخضعـــون لسلطان ولا يقرون بنظام ولا ينخرطون فى سلك . يســـيرون على الأهواء ويركبون العمياء ويخبطون خبط عشـــواء !!

وحين دخلوا حظيرة الايمان : اعترفوا للخالق عز وجل بالحاكمية والأمر والنهـــى والسلطان ، وألزموا أنفسهم بالعبودية التامة والطاعة المطلقة لله عز وجل ، وأعطـــوا من أنفسهم القادة ، واستسلموا للحكم الالـــهى تماما ، وتنازلوا عن أهوائهم وأنانيتهم ووضعوا أوزارهم ، وأصبحوا عبيدا لله وحده ، لا يملكون نفسا ولا مالا ولا تصرفا الا ما يحبه الله ويرضاه . لا يحاربون ولا يصالحون الا باذن الله تعالى ، ولا يرضون ولا يســخطون ولا يعطون ولا يمنعون ولا يصلون ولا يقطعون الا باذنه ووفق أمره جل وعلا .

كانوا اذا أسلموا انتقلوا من الجاهلية — بخصائصها وعاداتها — الى الاســـلام — بخصائصه وعاداته — ، وكان هذا التحول العظيم يتم بعد اعتناق العقيدة من غـــير تـــوان .

لقد عرف الجيل الأول — رضى الله عنه — معنى الاسلام معرفة حقــه ، عرفـــوا

أنه خروج من حياة الى حياة ، ومن حكم الى حكم ، ومن فوضى الى نظـــــام وخضوع واستسلام لله تعالى ، ومن أنانية الى عبودية . فاذا دخلوا فى الاســـلام فلا فتيات فى الرأي ولانزاع مع الدســـتور الاسلامى ، ولاخيرة بعد الأمر ، ولامشاقة للرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، ولا تحاكم الى الطاغوت ، ولا تمسك بعادات وتقاليـــد جاهلية . وأصبح خليفتهم كولى اليتيم ان استغنى استعف وان افتقر أكـــــل بالمعروف ، وأصبحت الأرض التى اغتصبها الملوك يفسحونها لمن يشاؤون ويضيقونهـا على من يشـــاؤون .. أصبحت أرض الله من ظلم قيد شـبر منها طوقه من ســـبع أرضـــين يوم القيامة (١) !

لقد قام رسول الله وخير المربين وقدوة العالمين ــ صلى الله عليه وســـلم وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعه باحسان الى يوم الدين ــ فى هذا المجتمـــع ، فحل عقاله وفك اساره ، ثم حل منه محل الروح والنفس ، وشغل منه مكان القلــب والعين ، واندفع اليه ــ صلى الله عليه وسلم ــ الحب الصادق كاندفاع الماء الـى الحدور ، وانجذبت اليه النفوس والقلوب انجذاب الحديد الى المغناطيس ! كأنمـا كان ــ صلى الله عليه وسلم ــ من القلوب والأرواح على ميعاد ، وأحبه رجال أمتـــه وأطاعوه حبا وطاعة لم يســمع بمثلهما فى تاريخ المحبين ، ووقع من خوارق الحـــب والتفانى فى طاعته وايثاره على النفس والأهل والمال مالم يحدث قبله ، ولم يكـــن ــ صلى الله عليه وسلم ــ كعامة المصلحين الذين ينحصر دورهم فى مكافحة بعض الأدواء الاجتماعية والعيوب الخلقية فحسب ، ولكنه أتى الاصلاح من بابه ، ووضــع علـــى قفل الطبيعة البشرية مفتاحه ، ذلك القفل المعقد الذى أعيى فتحه جميع المصلحين فى عهد الفترة ــ قبل الاسلام ــ ، وكل من حاول فتحه من بعده بغير مفتاحه !

---

(١) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من أخذ شبرا من الأرض ظلما طوقه الـى ســبع أرضين .
مســلم ٣/ ١٢٣ .

وكان ذلك آيــــة توفيقه ــ صلى الله عليه وسلم ــ لأنه أصاب الغرض وضـــــرب على الوتـــر الحساس ، وأصاب الجاهلية فى مقتلها ، وثبت على دعوته ثبـــــوت الراسيات ، لا يثنيه عن ذلك أذى أو كيـــد أو اغـــراء .

لقد رضـــع العرب حب القتال وكأنهم ولـدوا مع السيف ، وهم من أمة ســـن أيامها حرب بســـوس وداحس والغبراء ، وما حرب الفجار ببعيد .

ولكن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ كبح طبيعتهم الحربية ونخوتهم العربيـــة فانقهروا لأمره وكفوا أيديهم ، وتحملوا من قريش ما تسيل منه النفوس فى غير جبـــن أو عجـــز ، ولم يسجل التاريخ حادثة دافع فيها مسلم فى مكة عن نفسه بالســـيف ، مع كثرة الدواعى الطبيعية الى ذلك وقوتها ، وذلك غاية ما روى فى التاريخ من الطاعة والخضوع ، حتى اذا تعدت قريش فى الطغيان وبلغ السيل الزبى ، أذن اللـــه لرسوله ــ ولأصحابه ــ فى الهجرة ، فهاجروا الى المدينة وقد سبقهم اليها الاسلام ، والتقى المهاجرون بالأنصار ، لا تجمع بينهم الآصرة العقيدة ، فكان أروع منظـــر لسلطان الدين شهده التاريخ .

وكان الأوس والخزرج لم ينفضـــوا عنهم غبار حرب بعاث ، ولا تزال سيوفهم تقطـر دما ، فألف الاسلام بين قلوبهم ، ثم آخى رسول الله ــ صلى الله عليـــه وســـلم ــ بينهم وبين المهاجرين ، فكانت أخوة تزرى بأخوة الأشقاء ، وتبذ كل ما روى فى التاريخ من خلة الأخـــلاء .

كانت هذه الجماعة الوليدة ــ المؤلفة من المهاجرين والأنصار ــ نواة للأمـــــة الاسلامية الكبيرة التى أخرجت للناس ، ومادة للاسلام فكان ظهور هذه الجماعـــة ــ فى هذه الساعة العصيبة ــ وقاية للعالم من الانحلال الذى يهدده .

ولم يزل النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ يربيهم تربية دقيقة عميقة ، ولم يزل القــــرآن يسمو بنفوسهم ويذكى جمرة قلوبهم ، ولم تزل مجالس العلم النبوية تزيدهم رســـوخا

فى الدين وعزوفا عن الشهوات وتفانيا فى سبيل المرضاة ، وحنينا الى الجنـــات وحرصا على العلم وفقها فى الدين ومحاسبة للنفس . يطيعون قائدهم وموجههـــم ومربيهم — صلى الله عليه وسلم — فى المنشط والمكره والعسر واليســر وينفــــرون فى سبيل الله خفافا وثقالا .

بهذه العقيدة الربانية وبهذه التربية الايمانية بعث رسول الهدى — صلى الله عليه وسلم — فى العرب حياة اسلامية جديـــدة .

عمـد — عليه أفضل الصلاة والسلام — الى الذخائر البشرية ، فأوجد فيهـــا — باذن الله — الايمان والعقيدة وبعث فيها الروح الاسلامية الجديدة ، وأثار مـــن دفائنها وأشعل مواهبها ، ثم وضع كل واحد من أصحابه فى محله فكأنما خلق له !

عمد الى أناس خامدين حيارى .. فما لبث العالم أن رأى منهم — بعد اعتناقهم عقيدة التوحيد — نوابغ من عجائب الدهر وعباقرة من سوانح التاريخ !

ها هو ذا عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — كان يرعى الابل لأبيه ، ولــم يتبوأ من قريش مكانة عالية ، ولا يحسب له أقرانه حسابا .. اذا به بعد اعتناق العقيدة يفجأ العالم بعبقريته وعظمته ، ويدحر بجيوش المسلمين كسرى وقيصر عن عروشـــهما ، ويحكم دولة اسلامية تجمع بين ممتلكات الفرس والروم وتفوقهما فى الادارة والنظـــام فضلا عن العدل والتقوى الذى لا يزال فيه المثل السائـر !

وها هو ذا خالد بن الوليد — رضى الله عنه — كان أحد فرسان قريش الشبان ، انحصرت كفاءته الحربية فى نطاق محلى ، ولم يحرز الشهرة الفائقة فى نواحى الجزيـرة العربية ... اذا به بعد اعتناق العقيدة الربانية يلمع سيفا الـهيا لا يقوم له شـىء الا حصـــده ، وينزل كصاعقة على طواغيت الفرس والروم ويترك ذكرا خالدا فى التاريخ لا ينســى !

وها هو ذا عمرو بن العاص ـ رضى الله عنه ـ ترسله قريش فى سفارتها الى الحبشة تسترد المهاجرين المسلمين فيرجع خائبا .. اذا به يفتح مصر وتصبح له صولة عظيمة !

وها هو ذا سعد بن أبى وقاص ـ رضى الله عنه ـ لم يسمع به أحد فى تاريخ العرب قبل الاسلام كقائد حربى أو زعيم سياسى .. اذا به يتقلد مفاتيح المدائن ، وينبسط باسمه فتح العراق وايران ، بعد قيادته للجيوش الاسلامية فى معركة القادسية !

وها هو ذا سلمان الفارسى ـ رضى الله عنه ـ كان موبذان فى احدى قرى فارس لم يزل ينتقل من رق الى رق ومن قسوة الى قسوة ... اذا به يطلع على أمته كحاكم لعاصمة بلاد فارس التى كان بالأمس أحد رعاياها !

والغريب أن هذه الوظيفة لم تغير من زهادته وتقشفه ، فيراه الناس وهو يسكن فى كوخ ويحمل الأثقال على رأسه !

وهذا سالم ـ مولى أبى حذيفة ـ يرى فيه الخليفة عمر ـ رضى الله عنهما ـ موضعا للخلافة حيث يقول : لو كان سالم حيا لاستخلفته !

وهذا زيد بن حارثة يقود جيش المسلمين الى معركة مؤتة ، وفيه مثل جعفر ابن أبى طالب وخالد بن الوليد ! ويقود ابنه أسامة جيشا فيه مثل عمر بن الخطاب !! ـ رضى الله عن الصحابة أجمعين ـ .

هاهم أولاء الذين اعتنقوا هذه العقيدة وتربوا على يد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يتفجر العلم من جوانبهم ، وتنطق الحكمة على ألسنتهم ، أبر الناس قلوبا ، وأعمقهم تفكيرا ، وأقلهم تكلفا ، يتكلمون فينصت الزمان ، ويخطبون فيسجل التاريخ !!

كانوا ـ رضوان الله عليهم ـ بفضل تمسكهم بلا اله الا الله كتلة بشرية مستزنة فيها الكفاية التامة فى كل نواحى الحياة ، كتلة هى فى غنى عن غيرها وغيرها ليس غنيا

عنهــا ، أسست حكومتها ــ وليس لها عهد بها ــ فلم تضطر الى أن تستعين في ادارتها بحكومة أجنبية ، أسست دولة تمد رواقها على رقعة متسعة من قارتين عظيمتين ــ آسيا وافريقيا ــ وملأت كل ثغر وسدت كل عوز ، برجال يجمعون بين الكفاية والديانة والقوة والأمانــة .

كان منهم ــ رحمهم الله ــ الأمير الكفء والخازن الأمين والقاضي العادل والقائد العابد والوالي الورع والجندي التقــي .

ولا تزال العقيدة الاسلامية التي أنجبت هؤلاء ، مادة لا تنقطع ومعينا لا ينضب ، أنجبت ــ وتنجب ــ رجالا يرجحون الهداية على الضلالة ويجمعون بين الصلاح والكفاية ، سيرتهم درة في تاريخ البشرية الطويل !

انحلت العقدة الكبرى ــ عقدة الكفر والجاهلية ــ فانحلت العقد كلها .. وانتصر الاسلام على الجاهلية ــ في المعركة الأولى ــ فكان النصر حليفه في كل معركة ، دخل الناس في الاسلام ــ من بعد ما تبين لهم الهدى ــ بقلوبهم وجوارحهم ، وعرضوا أجسادهم للعذاب الشديد اذا بدرت منهم زلة تستوجب الحد !

نزل تحريم الخمر والكؤوس المتدفقة على راحاتهم ، فحال أمر الله بينها وبين الشفاه المتلمظة والأكباد المتقدة ، وكسرت دنان الخمر فسالت في سكك المدينة .

حتى اذا خرج حظ الشيطان من نفوسهم ، بل خرج حظ نفوسهم من نفوسهم وأنصفوا من أنفسهم انصافهم من غيرهم ، وأصبحوا في الدنيا رجال الآخرة ، وفي اليوم رجال الغد ، لا تجزعهم مصيبة ، ولا تبطرهم نعمة ، ولا يشغلهم فقر ، ولا يطغيهم غنى ، ولا تلهيهم تجارة ، ولا تستخفهم قوة ، ولا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا .

وأصبحوا للناس حكاما عدولا ، قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسهم أو الأقربين ، حين ذاك : وطأ الله تعالى لهم أكناف الأرض وأصبحوا قدوة للبشرية ودعاة الى دين الله .

لقد كان هذا التحول الذى أحدثته هذه العقيدة الربانية فى نفوس المؤمنين وبواسطتهم فى المجتمع الانسانى أغرب مافى تاريخ البشر ، غريبا فى سرعته ، غريبا فى عمقه ، غريبا فى سعته وشموله !

تحولت نفسيتهم بهذا الايمان الواسع العميق الواضح تحولا عجيبا ! فاذا آمن أحدهم بالله انقلبت حياته ظهرا لبطن ، تغلغل الايمان فى أحشائه وتسرب الى جميع عروقه مشاعره ، وجرى منه مجرى الروح والدم ، واقتلع جراثيم الجاهلية وجذورها ، وغمر العقل والقلب بفيضانه ، وجعل منه رجلا آخر ، وظهر منه من روائع الايمان واليقين والصبر والشجاعة ، ومن خوارق الأفعال والأخلاق ماحير العقل والفلسفة وتاريخ الأخلاق ، وعجز العلم عن تعليله بشئ غير الايمان الكامل العميق .

وكان هذا الايمان مدرسة خلقية وتربية نفسية ، تملى على صاحبها الآداب العالية ، من صراحة ارادة وقوة نفس وأقوى وازع عرفه تاريخ الأخلاق وعلم النفس عن الزلات البشرية ، حتى اذا جمحت السورة البهيمية ـ فى بعض الأحيان وسقط الانسان سقطة حيث لاتراقبه عين ولا تتناوله يد السلطة تحول هذا الايمان نفسا لوامة عنيفة ، ووخزا لاذعا للضمير ، يرتاح معه صاحبه اذا اعترف بذنبه أمام السلطة ، وعرض نفسه للعقوبة الشديدة مطمئنا راضيا ، تفاديا من غضب الله وأليم عقابه .

وكان هذا الايمان حارسا لأمانة الانسان وعفافه وكرامته ، يكبح نفسه عن النزوع الى المطامع والشهوات الجارفة ـ فى الخلوة والوحدة ـ وقد وقع فى تاريخ المسلمين من قضايا العفاف عند المغنم وأداء الأمانات الى أهلها مايعجز التاريخ الانسانى عن نظائره ، وما ذاك الا نتيجة رسوخ العقيدة فى نفوس أتباعها ، ومراقبة الله تعالى واستحضار علمه وعظمته وأليم عقابه .

أقامت هذه العقيدة عوج الحياة ، وردت كل فرد فى المجتمع الى موضعه لايقصر عنه ولايتعداه — وأصبحت الأمة المسلمة أسرة واحدة — لافضل لعربى على عجمى ولالأبيض على أسود الا بالتقوى .

واقتلعت هذه العقيدة جذور الجاهلية وحسمت مادتها وسدت نوافذها . وأصبحت الطبقات والأجناس — فى مجتمع العقيدة الربانية — متعاونة متعاضدة ، لايبغى بعضها على بعض .

وأصبح كل واحد فى المجتمع راعيا ومسؤولا عن رعيته . وأصبح المسلمون أعوانا على الحق ، أمرهم شورى بينهم ، يطيعون الخليفة ماأطاع الله فيهم ، وأصبح المجتمع الاسلامى رشيدا عاقلا مسؤولا عن أعماله .

مكث — صلى الله عليه وسلم — طيلة العهد المكى يدعو الناس الى الاسلام لايكنى ولايلوح ولايلين ، ولايحابى ولايداهن ولايستكين . وصاحت قريش به وبالمؤمنين من كل جانب ، ورموه عن قوس واحدة ، وأضرموا البلاد عليه نارا ليحولوا بينه وبين أبنائهم واخوانهم ، فأصبح الايمان به والانحياز اليه جد الجد ، لايتقدم اليه الا جاد مخلص هانت عليه نفسه وعزم على أن يقتحم لأجله الأهوال .

تقدم فتية من قريش لايستخفهم طيش الشباب ، ولايستهويهم مطمع دينوى ، انما همهم الآخرة وبغيتهم الجنة ، سمعوا مناديا ينادى للايمان أن آمنوا بربكم فضاقت عليهم الحياة الجاهلية بما رحبت ، ورأوا أنهم لايسعهم الا الايمان بعقيدة التوحيد ، فآمنوا . فكانت رحلة شاقة لما أقامت قريش بينه وبين الناس من عقبات ، فوضعوا أيديهم فى يد النبى صلى الله عليه وسلم — وأسلموا نفوسهم وأرواحهم لله عز وجل ، وهم من حياتهم على خطر ومن البلاء على يقين .

فما كان من قريش الا ماتوقعوه ، قد نثرت كنانتها ، وأطلقت عليهم كل سهامها فما زادهم ذلك الا صبرا وثقة وتصليبا .

ولم يزدهم البلاء والاضطهاد فى الدين الا متانة فى عقيدتهم ، وحمية لدينهم ومقتا للكفر وأهله ، واشمالا لعاطفتهم ، وتمحيصا لنفوسهم .

هذا والرسول — صلى الله عليه وسلم — يغذى أرواحهم بالقرآن ، ويربى نفوسهم بالايمان ، ويخضعهم أمام رب العالمين خمس مرات فى اليوم عن طهارة بدن وخشوع قلب وخضوع جسم وحضور عقل . فيزدادون يوميا سمو روح ونقاء قلب ونظافة خلق ، وتحررا من سلطان الماديات ومقاومة للشهوات ، ونزوعا الى رب الأرض والسماوات .

كان العهد المكى فترة تربية واعداد .. تربية بالعقيدة ، واعداد لحمل الأمانة الكبرى — التى لم تحملها أمة أخرى من قبل — وهى تحقيق منهج الله فى واقع الحياة ، وقيادة البشرية على ضوء هدى الله .

وكانت التربية قد آتت ثمارها بالفعل فى نفوس الفئة المختارة التى تربت خلال ثلاثة عشر عاما — على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

كانت (لااله الاالله) قد تعمقت فى نفوسهم حتى أصبحت واقعهم الذى يحيونه وزادهم الذى يتقوتون به . وعرفوا حقا معنى الالوهية ومعنى العبودية .

لم تعد الأرباب الزائفة تخطر فى مشاعرهم أو تمارس سلطانها عليهم ..

لا الأصنام التى يعبدها المشركون عبادة حسية ولا القبيلة ، ولا عرف الآباء والأجداد الذى يلتزمون به من دون الله ، ولا الهوى الذى يتخذونه الها فيعميهم ويصمهم عن الحق . انما هو اله واحد لاشريك له فى الخلق والأمر والتدبير . ولهذا الاله الواحد — جل جلاله — تتجه نفوسهم بالعبادة والطاعة والرجاء والخشية ، ويتمثلون صفاته تعالى التى عرفهم بها .. فتتعمق هذه الصفات فى نفوسهم وتحيط بكل جنباتها ، فتشكل مشاعرهم نحو الخالق وتحددها .

رفعتهم هذه العقيدة من واقع الحس القريب في العبادة ، الى الله الذى لاتدركه الابصار . رفعتهم من واقع الأرض المحدود الى واقع الصورة المتكاملة التى يكملها اليوم الآخر .. رفعتهم من المصالح القريبة ومجالس اللهو وغارات الجاهلية الى أن يعيشوا للعقيدة ، يعطوها فكرهم وجهدهم وعواطفهم ، ويحتملوا في سبيلها الأذى والحرمان ، راضية نفوسهم بلا اله الا الله .

جعلتهم هذه العقيدة يعيشون مولدا جديدا ـ لم يكونوا يعرفونه من قبل ـ فلما عرفوه وتذوقوه أصبح بالنسبة اليهم هو الحياة ..

تلك كانت فترة التربية في العهد المكي ، يطوف بهم القرآن الكريم في آيات الله المنظورة ـ في الكون .. فى الدقة المعجزة والضخامة المعجزة .. فى الحياة والموت .. في عجائب الرزق .. في تدبير الكون .. فى علم الله الشامل .. فى قدرته التى لاتحد .. فى معجزاته التى أيد بها أنبياءه ـ عليهم الصلاة والسلام ـ فى املائه للكفار ثم أخذه لهم .. فى مشاهد القيامة ـ بنعيمها وأهوالها وعذابها .. فى قصة آدم والشيطان .. فى الحديث عن الملائكة والجن .. فى أخلاقيات هذه العقيدة وكل ما يتصل بها من موضوعات ..

ومن خلال التربية بالعقيدة كان يتم الاعداد ..

هل كان من الممكن أن تقوم هذه الامة بحمل الأمانة الكبرى في الأرض دون أن يتعمق في قلوبها معنى (لا اله الا الله) ، ودون أن تتربى على التجرد لله ؟ ! وكيف تقوم بحمل هذه الأمانة ، وتبقى على مستواها الرفيع حين يمكن الله لها فى الارض ؟ من أين كان يتأتى لهذه الأمة ان تقدم نماذجها الرفيعة في تحقيق العدل الربانى ـ في واقع الحياة ـ لو لم تترب تلك التربية الفذة بلا اله الا الله ؟ ومن اين لها أن تعطى تلك النماذج الفريدة من الوفاء بالعهد والصدق والأمانة والعدل ؟ ومن أين لها أن تكتب ذلك التاريخ الفذ ـ الذى كتبته فى واقع الأرض ـ فى كل مجالات الحياة ؟

ألا إنها العقيدة الربانية الركيزة الكبرى للتربية الاسلامية التى قام عليها ذلك البناء كله ، وما كان يتأتى من غيرها أن يقوم .

وحين علم الله تعالى من قلوب هذه الفئة أنها تجردت لله وأخلصت له نقلها النقلة الثانية — الهائلة — لتقوم بدورها المطلوب .. كانت النقلة الأولى نقلة العقيدة وكانت النقلة الثانية من فترة الابتلاء والتمحيص الى الاستخلاف والتمكين .

وكما كان الكتاب والسنة هو أداة النقلة الأولى من الكفر الى الايمان ، فكذلك كان هو أداة النقلة الثانية .

والحديث عن العقيدة لم ينقطع في العهد المدنى بل استمر — على ذات النمط المكى وان كان فى حيز أقل — لأن الحديث هناك كان للتأسيس وهنا جاء للتذكير .

والموضوعان الجديدان اللذان استغرقا أكبر مساحة من السور المدنية هما التشريعات والتنظيمات ، والجهاد في سبيل الله ، وقد عولجا انبثاقا من العقيدة ومن خلالها ، لأن الكل عبادة لرب العالمين !

كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وخلفاؤه من بعده — رضوان الله عليهم — حريصين كل الحرص على تربية الأمة الاسلامية تربية ايمانية ، وعلى اقامة الدولة على أساس قرآنى .

ومن واقع التاريخ الاسلامى يبرز عنصر التربية واضحا جليا فى فتراته المشرقة . وحين ضعف هذا العنصر أو تلاشى .. دبّ في جسم الأمة دبيب الضعف ، وأصابها ما أصاب الأمم الماضية من نزاع وتخلف وانحلال .

ومن فضل الله أن هذه العقيدة الالهية — ممثلة في الكتاب والسنة — مازالت باقية بين أيدى المسلمين ، ومازالت صالحة للعمل في كل زمان ومكان ومجال ، ومازالت قادرة أن تبلغ بالفرد والمجتمع والدولة ما بلغت بها من قبل ، اذا وجد دعاة صادقون يسيرون على ما سار عليه السلف الصالح — رضى الله عنه — ، ويجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، ولا يستعجلون اقتطاف الثمرة قبل نضجها ، فمن استعجل

الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه !

لقد مكث رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ثلاثة عشر عاما ــ في مكة المكرمة ــ يدعو الى الله ويربي أتباعه المؤمنين . وعلى الرغم مما يبدو في الظاهر من أن الدعوة لم يكتب لها النجاح في هذا العهد الا أنها في الحقيقة حققت أعظم نصر للاسلام على الكفر ، لأن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ استطاع فيها أن يربى عددا من اصحابه على العقيدة ، وأن يكوّن منهم جماعة اسلامية متميزة بعقيدتها وسلوكها وأهدافها .

وكانت دار الأرقم بن أبى الأرقم ــ رضى الله عنه ــ التى اتخذها عند الصفا هى مدرسته التى ربى فيها الرعيل الأول من الصحابة ــ رضوان الله عليهم ــ ، وهذه المدرسة بحق أكبر وأعظم مدرسة عرفها التاريخ ــ القديم والحديث ــ فقد خرّجت رجالا صدقوا ما عاهدوا الله عليه قاموا بأكبر تحوّل عالمى عرفته البشرية !

ان كتاب الله الكريم ــ كتاب التربية الأول ــ هو الذى قام بدور التربية ، حيث إن له منهجا فريدا فى التربية ، يربى بآياته متى صادفت الفطرة السليمة ، والقلب المتوقد ، والعقل الواعى ، والقدوة الحسنة .

وكان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ هو المبلغ عن ربه ، وصاحب التطبيق العملي لمنهج القرآن ، والداعية الذى فهم دعوته ، والمربى الذى أوتى كل صفات التربية المثلى . فوصل ــ صلى الله عليه وسلم ــ أصحابه بالله عز وجل ، عن فهم ومعرفة وايمان ، وعرفهم أن ماجاء فى القرآن الكريم أوامر للتنفيذ ، فكان زاد قلوبهم ومطهر نفوسهم ، وموجّه سلوكهم ، وصلة بينهم وبين خالقهم .

وبهذا كان لقاء دار الأرقم تربية . كما كان قيام الليل تربية . كما أن المحنة قامت بدورها في التربية !

ولما أمعن المشركون في تعذيب المؤمنين ، أمرهم النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ بالهجرة الى الحبشة ، ليعبدوا الله فيها بعيدا عن الفتنة والأذى .

وحين أسلم أناس من الأوس والخزرج بعث رسول الله — صلى الله عليه وسلم — اليهم الصحابى الجليل مصعب بن عمير — رضى الله عنه — داعيا ومربيا ، فكان يدعو أهل المدينة الى الله ، ويربي من أسلم منهم ، ويعلّمهم القرآن وما أخذه عن النبى — صلى الله عليه وسلم — فى مكة .

واستمرت التربية الاسلامية فى المدينة — بعد الهجرة — على نطاق أوسع ، فقد بدأ القرآن ينزل بالتشريع .. وتناول الأسرة والمجتمع ، والعلاقات بين الدولة الاسلامية وغيرها . فاتسع مجال التربية تبعا لاتساع أغراضه وتعدد أوامره ونواهيه واتخذ النبى — صلى الله عليه وسلم — من المسجد مركزا لدعوته ، يصلى فيه بالمسلمين ، ويبلّغ فيه ما أنزل اليه من ربه ، ويلقى فيه الوفود ، ويعقد فيه مجالس العلم والمشاورة .

ولم يشغله الجهاد وادارة الدولة عن مهمته في تربية المؤمنين ، حتى لحق — صلى الله عليه وسلم — بالرفيق الاعلى . ونجحت تربيته نجاحا منقطع النظير ، ليس له في تاريخ البشرية الطويل من مثيل . ووصل بالمجتمع المسلم في واقع الحياة الى غاية من الرفعة والسمو لاتدانى .

وفي عهد خلافة الصديق — رضى الله عنه — التى كانت سنتين ونيّف ، توحدت الجزيرة العربية — بعد قمع المرتدين — وسارت الجيوش الاسلامية الظافرة لفتح الشام والعراق ..

وجاءت خلافة الفاروق — رضى الله عنه — والدولة الاسلامية الفتية في حالة حرب مع الفرس والروم .. فكان هو القائد الاعلى لجيوش المسلمين ، يرسم لها الخطط ويبعث اليها بالمدد والتموين .

ثم بدأ المجتمع الاسلامي يتحول من مجتمع عربى الى مجتمع عالمى ، يضم أجناسا شتى ، ولغات وثقافات متباينة .. وخشى عمر أن تضيع نصاعة العقيدة في غمار هذه الكثرة الغالبة ، وأن يتأثر المجتمع الاسلامى الجديد بتقاليد تلك الشعوب وأخلاقها

وعقائدها ،فكان اهتمامه بأمر التربية عظيما ،فاختار أمراء الامصار من فقهاء الصحابة ليكونوا ولاة مربين ،كما كان يبعث منهم دعاة جمعوا بين التربية والتعليم .

وسيمر معنا عند الحديث عن التوجيهات السياسية نماذج حية من سيرة أمير المؤمنين عمر ــ رضى الله عنه ــ

ثم جاءت خلافة ذى النورين ــ رضى الله عنه ــ فكانت بركة ويمنًا وسلامًا . وقد سار ــ رحمه الله ــ سيرة صاحبيه مع كثير من السماحة واللين ،ورضى فيه المسلمون عن خليفتهم الراشد ،وأحبوه كل الحب ،وكان ــ رضى الله عنه ــ شديد الحرص على وحدة الامة والبعد بها عن مظان الفرقة والخلاف ،وحسبه أنه جمع الامة على قراءة واحدة ومصحف واحد وأن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بشره بالجنة ،ومات وهو عنه راض .

لقد ارتفع رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بالمجتمع الاسلامى الى أوج فوق مألوف البشر ــ كما سنرى فيما بعد باذن الله ــ ومداومة التحليق قريبا من هذا المستوى فى حاجة الى مداومة التربية والتذكير ،والى القدوة الحسنة ،والى حزم الحاكم ويقظته .

فقد اتسعت الدولة الاسلامية فى عهد عمر وعثمان ــ رضى الله عنهما ــ اتساعا كبيرا فى فترة وجيزة ،وجهد عمر فى تربية هذه الامة ،ومثل هذا لايتم فى سنين ، بل بحاجة الى استمرارية فى التربية ،وكانت هذه الامة بعد هذا الاتساع الجديد والامتزاج الرائع والثراء الواسع معرضة لهزات وعواصف ــ شأن كل عهود الانتقال ــ وعمر ــ رضى الله عنه ــ كان يقظاً واقفاً للفتن بالمرصاد ، يحول بين الامة وبين الاختلاف ما استطاع الى ذلك سبيلا ،وكان له من طبيعة تكوينه وطاقته وحزمه مامكّنه من حمل المسلمين على الجادّة .

وكانت الامة فى حالة حرب منذ العهد المدنى واستمرت حتى الشطر الثانى من عهد عثمان ، وكانت مشغولة بالجهاد فى سبيل الله فى عدة ميادين . فلما وضعت الحرب أوزارها فرغ المسلمون لحياة الراحة والدعة ،وكانت أسبابها مهيأة باقبال الدنيا وكثرة الاموال .

وقد أتعب عمر ـ رضى الله عنه ـ نفسه وأتعب من بعده ، إ فضيق على نفسه وأهلـه ، ووسع على الناس • وحين جاء عثمان ـ رضى الله عنه ـ كان أبرز مافيه جوده ولينه وبره بأهله وقرابتـه •

اتهم عثمان ـ رحمه الله ـ فى عدله ، وطعن فى عرضه ، وأوذى فى شخصه ، وشرع فى قتله •• فما زاده ذلك الا صبراً وتسامحًا وعفوًا ، لانه يعمل على ارساء قواعد الرسالة ورياضـة الامة على استعمال حقها • وآثر ـ رضى الله عنه ـ أن يضحى بنفسه ويلقـى الله شهيدا على أن يحدث حدثًا فى مجتمع المدينة المنورة ليس له سابقة فى عهـد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا فى عهد العمريـن !

وقد تألم المسلمون لفداحة الجريمة ، وحز فى نفوسهم مقتل الخليفة على هـذه الصورة المحزنـة •

واتخذ أعداء الاسلام من هذه المأساة دليلا على أن الاسلام لم يغير من النفوس ، وأن العقيدة لم يكن لها أثر فى واقع الحياة وسلوك المسلمين • وهذا زور وبهتان !!

" كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون الا كذبا" (الكهف : ٥)

ان سلطان العقيدة على النفوس وتأثيرها فى واقع الحياة واضح لكل ذى عينين • ولا يدعى أحد أن من عمل العقيدة تحويل معتنقيها الى أناس معصومين • وحسب العقيدة فى هذا أن ترتفع بأصحابها ـ حتى فى حالة الخلاف ـ عما ألفه الناس من اسفاف • وأن تظهر من ثنايا هذا الخلاف قيم كريمة لم ترها البشرية من قبل فى حـرب ولا سـلام •

مع التأكيد على أن الفتنة ـ التى انتهت باستشهاد الخليفة الراشد عثمان ـ لـم تكن عن ملأ من المسلمين ورضاهم ، بل كانت نتيجة مؤامرة عصابة من أعداء الاسلام استمرت تنخر فى كيان الامة أكثر من عشر سنين ، وتولى كبرها عبد الله بن سبأ ـ ابن السوداء ـ وأتباعه ، الذين أسلموا تقية ونفاقًا لمحاربة الاسلام من الداخل ! وتبعهم ضعـاف العقول والايمان من أمصار دولة مترامية الاطراف ، بهرتهم عبارات الامر بالمعروف والنهى

عن المنكر ، وحذرهم الكتب الملفقة بأسماء الصحابة وأمهات المؤمنين !

ان التربية القرآنية التي أخرجت مجتمعاً تسوده الحرية والمساواة والضمانات القوية وبدأ محاسبة الحكام — لاول مرة في تاريخ الدول — لاكبر دليل على سلطان العقيدة ، وعلى أن منهجها الفريد هو الوحيد للبناء — لبناء النفس والمجتمع والدولة — ، والاخذ بيد الانسانية الى أرفع الافاق .

وان الصور المشرقة الكريمة التي وصلت اليها الامة المسلمة — في عصورها الاولى — بفضل تربية العقيدة ، لأعز وأكرم ماتفتخر به الانسانية في تاريخها الطويل . انها صورة البشرية في أسمى صورها وأرفع ذراها ، انها لوحة الحكم المؤمن النظيف الذي فسر معنى الخلافة في الارض ، وأذاق الانسانية حلاوة الحكم بما أنزل الله .

ولا يغض من قيمتها ماصادفها من أخطاء ، وماحدث بعدها من فتن ، فقد ظلت أسوة صالحة للتطبيق في كل زمان ومكان . واستطاعها عمر بن عبد العزيز — وغيره — في فترات التاريخ الاسلامي .

انما توزن الدعوات بما قامت عليه من مبادئ ، وما تضمنت من خلق ، وما أحدثت من قيم ، وما بلغ أتباعها من سمو ، وما أمرت الحياة من مثل ، وما أقرت فيها من موازين ... وذلك سر عظمة عقيدة الاسلام .

فعقيدة التوحيد — التي جاء بها الاسلام — رسالة تربية وتشريع ، ورسالة خلق وجهاد ، ورسالة سمو وقيم ...

وكذلك نبي الاسلام — صلى الله عليه وسلم — سر عظمته أنه على خلق عظيم !

وعناصر الرسالة ثلاثة : عقيدة وعبادة وتشريع .

فالعقيدة : أصل وفطرة .

والعبادة : صلة وتربية .

والتشريع : أمن ونظام .

وجوهر الرسالة : خلق واحسان . ووسيلتها : قدوة وتربية .

وأول ميادينها : النفس والضمير .

فهدف العقيدة الاسلامية :

اقامة مجتمع اسلامي نظيف ، نظيف العقيدة ، نظيف العلاقات ، نظيف المشاعر والسلوك . تبدأ بالفرد فترده الى فطرته السليمة ، وتربى فيه الضمير المرهف الحساس ، وتروضه على الخلق الكريم والادب الفاضل ، وتقيم الاسرة على المودة والفضل والرحمة ، وتكوّن المجتمع على الحب والتكامل والعدل ، وتنظم العلاقة بين المسلمين وغيرهم على أساس العدل والحق والوفاء .

وتربية العقيدة الربانية شاملة .. لاتقتصر على المساجد ، ولاتختص بالعبادة دون السلوك ، ولاتهتم بالفرد وتترك المجتمع ، ولاتعنى بالقول وتهمل العمل ، انما تشمل كل جوانب النفس البشرية ، وتعمل فى كل ميادين الحياة الانسانية .

وعلى أساس هذا الشمول يقوم منهج العقيدة ـ ممثلة فيما ورد فى الكتاب الكريم والسنة المطهرة ـ فى تربية النفس والمجتمع .

وقبل أن نتحدث بالتفصيل عن أثر العقيدة الربانية فى تربية النفس والمجتمع ، سنذكر ـ فى الصفحات التالية باذن الله ـ

وتعريف العقيدة : (لغة ، واصطلاحاً ، وعلاقة العقيدة بالايمان) .

وتعريف الاسلام : (لغة ، واصطلاحا ، وعلاقة الاسلام بالايمان) .

وتعريف التربية : (لغة ، واصطلاحا ، ومفهوم التربية فى الاسلام) .

وتعريف النظم : (لغة ، واصطلاحا ، وطبيعة النظم الاسلامية) .

ملحوظة :

اقتبسنا الصفحات الماضية (التمهيد) بتصرف واختصار مما كتبه السادة :

عبد الرحمن عزام : بطل الابطال من ص ٨ ـ ١١ ومن ص ٩٩ ـ ١٤٤ .

ومحب الدين الخطيب : مع الرعيل الاول من ص ٤ ـ ١٤ .

ومحمد قطب : دراسات قرآنية من ص ٢٦٢ ـ ٢٦٦ .

وأبو الحسن الندوى : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين من ص ٨٩ ـ ١٢١ .

ومحمد شديد : منهج القرآن فى التربية من ص ٥ ـ ٦٥ .

أولاً :

تعريف العقيدة

العقيدة لغة :

اذا أردنا معرفة معنى العقيدة لغة ،فلابد من الرجوع الى مصدرها ومشتقاتها فى معاجم اللغة فمما ورد من معانيها مايأتى :

عقد : العين والقاف والدال ،أصل واحد يدل على : شدّ ،وشدة وثوق . واليه ترجع فروع الباب كلها .

من ذلك : عقد البناء ،والجمع : أعقاد وعقود .

وعاقدته : مثل عاهدته .

والعقد : عقد اليمين .

وعقدة النكاح : وجوبه وابرامه .

والعقدة : الضيعة ، والجمع : عقد

ويقال : اعتقد فلان عقدة : أى اتخذها .

واعتقد قلبه على كذا : فلا ينزع عنه ،وكان له عقيدة .

واعتقد الشيء : صلب

والعقيدة : الحكم الذى لايقبل الشك فيه لدى معتقده .

والعقد : نقيض الحل .

والعقد : الخيط ينظم فيه الخرز ،وجمعه : عقود .

وعقد التاج فوق رأسه واعتقده : عصبه به ،كما قال الشاعر :

يعتقد التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب

وعقد قلبه على الشيء : لزمه .

وتعقد الاخاء : استحكم .

والعقدة : موضع العقد ،وهو ماعقد عليه .

والعقد : القلادة . وليس له معقود : أى عقد رأى .

وجاء فلان عاقداً عنقه : اذا لواها تكبراً • ويقال لمن تهيأ للشر : عقد ناصيته •

ولمن سكن غضبه : قد تحللت عقده •

وعقد اليمين والعهد : أكدهما على نفسه • والاعتقاد الجازم : الضمان والعهد •

والمعتقد : مصدر ميمي بمعنى الاعتقاد ، ومايعتقده المرء من أمور الدين •

واعتقدت كذا : عقدت عليه القلب والضمير •

والعقيدة : مايدين الانسان به (أي ماعقد عليه القلب) •

وله عقيدة حسنة : أي سالمة من الشك • والجمع عقائد •

والعقد : الجمع بين أطراف الشيء ، ويستعمل ذلك للاجسام الصلبة ،

ثم يستعار ذلك للمعاني • ومنه قيل : لفلان عقيدة ، وقيل للقلادة : عقد •(١)

---

(١) انظر : ابن زكريا : معجم مقاييس اللغة ٤ /٨٦
وابن منظور : لسان العرب ٣ /٢٩٦ ـ ٢٩٨
والزمخشري ـ أساس البلاغة ـ ص ٣٠٨ •
والاشبيلي : مختصر العين ص ٣٥ •
والرازي : مختار الصحاح ص ٤٤٥ •
والفيومي : المصباح المنير ٢ / ٤٩ •
والاصبهاني : المفردات ص ٥١٠
والزبيدي : تاج العروس ٢ /٤٣٠ ـ ٤٣٢
وأحمد رضا : معجم متن اللغة ٤ /١٥٧ و ١٥٨
والبستاني : محيط المحيط ٢ /١٤٣٧
ومجمع اللغة العربية : المعجم الوسيط ٢ /٦٢٠
ووجدي : دائرة المعارف ٦ /٥١٨ •

نخلص من ذلك :

الى أن العقد — مصدر العقيدة — بمعنى هو ومشتقاته :

الشد ، وشدة الوثوق ، والعهد ، والوجوب ، والابرام ، والصلابة ، والربط ، واللزوم ، والاستحكام ، والتأكيد ، والضمان ، والجمع ، ومايدين الانسان به .

فاذا استعمل فى الامور المعنوية — كعقد النكاح مثلا — كان مجازا .

واذا استعمل فى الامور المادية — كعقد البناء مثلا — كان حقيقة .

واذا استعمل فيما يعقد عليه الضمير — كالمعتقدات مثلا — كان حقيقة عرفية .*

---

* انظر المراجع السابقة .

العقيـــدة اصطلاحا :

لم ترد كلمة عقيدة ـ بهذا اللفظ ـ فى القرآن الكريم ، وأنمـــا وردت فيه الفاظ مشتقه من الفعل الثلاثى عقد ، من ذلك :

قوله تعالى :

" ولاتعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله " (البقرة : ٢٣٥)

وقوله تعالى : " والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم " (النساء : ٣٣)

وقوله تعالى : " يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود " (المائدة : ١)

وقوله تعالى : " ولكن يؤاخذكم بما عقّدتم الايمان " (المائدة : ٨٩)

وقوله تعالى : " واحلل عقدة من لسانى " (طه : ٢٧)

وقوله تعالى : " ومن شر النفاثات فى العقـد " (الفلق : ٤)

ومعلوم أن الاحكام الشرعية تنقسم الى قسمين :[1]

أحكام علمية (أصلية) وأحكام عملية (فرعية)

فالاولى : يقصد بها العلم ، ولاتتعلق بالعمل ، كوحدانية الله تعالى .

وقد دوّن لها علم التوحيـــد .

والثانية : يقصد بها كيفية العمل دون الاعتقاد ، كالصلاة مثلا .

وقد دوّن لها علم الفقـــه .

وفيما يأتى بعض ماورد فى الكتب القديمة والحديثة من تعريف للعقيدة :

تعريف العقيدة فى الكتب القديمـــة :

جاء فى : المواقف[2] ، وشرح العقائد النسفية[3] ، ومجموعة الحواشى البهية[4] ،

---

(١) محمد يوسف الشيخ : محاضرات فى العقيدة ألقاها علينا عام ١٣٩٧ هـ .
(٢) الايجى : المواقف ١/٣٨ .
(٣) رمضان الحنفى : شرح العقائد النسفية ص ٨ .
(٤) التفتازانى : مجموعة الحواشى البهية ١/٨ .

والجوهر الفريد [١] ، والتعريفات [٢] :

" العقيدة الاعتقاد هى مايقصد بها نفسه دون العمل " .

وورد فى لوامع الأنوار البهية [٣] :

الاعتقاد : هو حكم الذهن الجازم . فان كان موافقا للواقع فهو صحيح ، والا فهو فاسد .

والاعتقاديات : هى التى لم تتعلق بكيفية عمل ، مثل : اعتقاد وجوب القادر المختار ، (وتسمى أصلية أيضا) .

وورد فى المسامرة [٤] :

العقيدة : قضية جزم فيها بثبوت المحمول للموضوع أو نفيه عنه .

وتتفق حاشية الدسوقى وحاشية الكلنبوى [٥] :

على أن العقائد ــ جمع عقيدة ــ بمعنى المسألة المعتقدة ، كثبوت القدرة لله تعالى . أى اثبات المسائل الاعتقادية بدلائل قطعية . أو بمعنى آخر : الاعتقاد الجازم ، المطابق للواقع ، الناشىء عن دليل .

وجاء فى شرح المقاصد [٦] :

العقائد الدينية : هى العلم بالقواعد الشرعية الاعتقادية المكتسبة من أدلتها اليقينية .

وجاء فى شرح الاحياء [٧] :

العقيدة : هى مايدين الانسان به ، وماعقد عليه قلبه .

وجاء فى موسوعة اصطلاحات العلوم الاسلامية [٨] :

الاعتقاد بالمعنى المشهور : يقابل العلم . وبالمعنى غير المشهور : يشتمل على العلم والظن .

---

(١) الحمزاوى : الجوهر الفريد ص٦ .
(٢) الجرجانى : التعريفات ص ١٥٨ .
(٣) السفارينى : لوامع الأنوار البهية ١/ ٤ .
(٤) الكمال بن أبى شريف : المسامرة ص ١٠ .
(٥) الدسوقى : حاشية على أم البراهين ص١٥ ، والكلنبوى : حاشية على شرح الصديقى ١/ ٥ .
(٦) المكناسى : شرح المقاصد ١ /٨ .
(٧) الزبيدى : شرح الاحياء ٢/ ١٧ .
(٨) التهانوى : موسوعة اصطلاحات العلوم الاسلامية ٤/ ٥٩٤ .

والاعتقاد ان كان مطابقا للواقع : فهو اعتقاد صحيح والا فهو فاسد .

وجاء فى دائرة المعارف الاسلامية .

الاعتقاد : هو التصديق بأن الشئ هو ذلك ، وقد يفيد الظن فقط . وقد يفيد الاقتناع التام . وتستعمل هذه الكلمة أيضا بصفة خاصة : للدلالة على قبول العقائد الدينية (١) .

وقد كثر استعمال كلمة العقائد منذ القرن السادس الهجرى ، وذلك بعد ظهور العقائد النسفية (٢) .

وقبل ذلك كانت تستعمل الكلمات الآتية فى مباحث العقائد : علم الكلام ، علم التوحيد ، أصول الدين ، الفقه الأكبر .

وقبل أن ننتقل الى تعريف العقيدة فى الكتب الحديثة ، نشير الى أن هناك ارتباطا وثيقا بين معنى العقيدة لغة ، ومعناها فى الاصطلاح — عند علمائنا القدامى — :

فان الشد والتأكيد والربط والجمع وما عقد عليه القلب ... الخ تؤدى هذه الكلمات معنى الاعتقاد الجازم فى القلب ، بحيث يتغلغل فى أعماق النفس ، ويصعب زعزعته أو الشك فيه .

---

(١) مجموعة من المستشرقين : دائرة المعارف الاسلامية ٣/ ٥٤٠ .

(٢) مؤسسة فرانكلين : الموسوعة العربية ص ١٢٢٢ .

تعريف العقيدة فى بعض الكتب الحديثة :

جاء فى رسالة العقائد [١] :

العقائد : هى الأمور التى يجب أن يصدق بها قلبك ، وتطمئن اليها نفسك، وتكون يقينا عندك ، لايمازجه ريب ولايخالطه شك .

وجاء فى كتاب الاسلام عقيدة وشريعة [٢] :

العقيدة : هى الجانب النظرى الذى يطلب الايمان به أولا — وقبل كل شئ — ايمانا لايرقى اليه شك ، ولاتؤثر فيه شبهة .

وجاء فى كتاب العقائد الاسلامية [٣] :

العقيدة : هى التصديق بالشئ والجزم به دون شك أو ريبة ، فهى بمعنى الايمان . يقال : اعتقد فى كذا : أى آمن به .

وجاء فى كتاب الكواشف الجلية [٤] ، ورسالة شرح الواسطية [٥] :

الاعتقاد : مصدر اعتقد كذا ، اذا اتخذه عقيدة له . بمعنى : عقد عليه الضمير والقلب ودان الله به . وأصله : من عقد الحبل أو عقد البيع ، ثم استعمل فى التصميم والاعتقاد الجازم .

وجاء فى رسالة علوم القرآن :

العقيدة هى مايجب على كل مكلف أن يحيط به علما وأن يصدقه تصديقا يبلغ أن يصبح اعتقادا راسخا فى نفسه ، تصدر عنه كل تصرفاته حتى يلقى الله تعالى [٦] .

---

(١) حسن البنا : العقائد ص ٤٢٩ .
(٢) محمود شلتوت : الاسلام عقيدة وشريعة ص٢٢ .
(٣) سيد سابق : العقائد الاسلامية ص ٨ .
(٤) السلمان : الكواشف الجلية ص ٣٠ .
(٥) الهراس : شرح العقيدة الواسطية ص ١٣ .
(٦) عبد البديع صقر : التجويد وعلوم القرآن ص ٥٥ .

وجاء فى كتاب لمحات فى وسائل التربية الاسلامية [1] :

الاعتقاد والعلم والمعرفة كلها بمعنى واحد : هو الايمان المطابق للواقع الثابت بالدليل — وهذا المعنى يوافق ماورد فى الكتب القديمة —

وجاء فى كتاب الاسلام كما فهمت [2] :

العلم أعلى درجات المعارف ، فاذا تأصل فى النفس وامتزج بدم الانسان وانعقد عليه قلبه ، سمى حينذاك (عقيدة) .

وجاء فى كتاب العقيدة الاسلامية [3] :

العقيدة : هى مايؤمن به المرء ، ويراه عن اقتناع قلبى أكيد ، وعلى أساس هذا الذى يؤمن به ويراه يذهب فى حياته — أى يسلك — .

وجاء فى كتاب العقيدة والأخلاق [4] :

العقيدة : هى الجانب النظرى الذى يجب على المؤمن الايمان به أولاه ايمانا مبنيا على التصديق الجازم . مع الشعور بالرضا والقبول واقبال النفس عليه والاطمئنان به .

وجاء فى كتاب طرق تدريس الدين [5] :

العقيدة : هى الايمان الراسخ بكل ماورد فى صريح القرآن الكريم وصحيح الحديث النبوى بما له صلة بالأركان الثلاثة للعقيدة وهى الالهيات والنبوات والسمعيات .

---

(١) محمد أمين المصرى : لمحات فى وسائل التربية الاسلامية ص ٩٢ .

(٢) محمد القاسمى : الاسلام كما فهمت ص ٤٦ .

(٣) عبد الغنى عبود : العقيدة الاسلامية والأيدولوجيات المعاصرة ص ١٧ .

(٤) محمد بيصار : العقيدة والأخلاق ص ٩٧ .

(٥) عابد الهاشمى : طرق تدريس الدين ص ١٥٥ .

وجاء فى كتاب عقيدة المؤمن [١] :

العقيدة : هى مجموعة من قضايا الحق البدهية المسلّمة بالعقل والسمع والفطرة ، يعقد عليها الانسان قلبه ويثنى عليها صدره ، جازما بصحتها قاطعا بوجودها وثبوتها لايرى خلافها أنه يصح أو يكون أبدا .

ولله در الأستاذ القرضاوى حيث يقول [٢] :

ان السعادة أن تعيش لفكرة الحق التليد
لعقيدة كبرى تحل قضية الكون العتيد
وتجيب عما يسأل الحيران فى وعى رشيد
من أين جئت ؟ وأين أذهب ؟ لم خلقت ؟ وهل أعود ؟
فتشيع فى النفس اليقين وتطرد الشك العنيد
وتعلّم الفكر السوى وتصنع الخلق الحميد

ونلاحظ أن معظم تعريفات العلماء المعاصرين مقتبسة من تعريفات العلماء المتقدمين ، ولكنها صيغت بأسلوب أدبى حديث .

---

(١) أبو بكر الجزائرى : عقيدة المؤمن ص ٢١ .

(٢) الراشد : المنطلق (نقلا عن مجلة التربية الاسلامية) ص ٧٣ .

علاقـــة العقيدة بالايمان :

هذا ويقتضى البحث الاجابة عن هذا التســاؤل :

مالفرق بين كلمة الايمان وكلمة العقيـــدة ؟ (١)

عرفنا فيما سبق معنى العقيدة لغة واصطلاحا ، وأما الايمان فى اللغة: فهــو التصديق ـ كما قال بذلك جمهور أهل اللغة (٢) ـ

وأما الايمان فى الاصطلاح : فقد اختلف العلماء فى معناه الى عدة مذاهــب ، أهمها : مذهب الجمهور ومذهب الحنفية .

فمذهب الجمهور الى أنه : تصديق بالقلب واقرار باللسان وعمل بالجـــوارح (فهو عقد وقول وعمل) (٣) .

ومذهب الحنفية الى أنه : المعرفة بالقلب والاقرار باللســان (٤) .

ونرى : أن الايمان والعقيدة تؤديان الى معنى واحد، مع الاشارة الى أن الايمان أوسع من العقيدة ، فبينهما عموم وخصوص مطلق ؛

فكل ايمان عقيدة ، وليس كل عقيدة ايمانا !

---

(١) انظر المقال القيم للأستاذ المبارك فى بحوث الاسلام والحضارة ١/٢٥٣ .
(٢) انظر : ابن سيده : المخصص ١٣/٨٣ .
والزمخشرى : أساس البلاغة ص ١٠ .
والجوهرى : الصحاح ١/٤٦ و ٤٧ .
والفيروز آبادى : القاموس ٤/١٩٧ .
والأزهرى : تهذيب اللغة ١٥/٥١ .
والزنجانى : تهذيب الصحاح ٢/٨١١ .
(٣) انظر ابن تيمية : الايمان ص ١٤٦ .
وابن تيمية : رسالة التسعينية ٥/١٥٦ .
وابن حزم : الفصل ٣/١٨٨ و ١٩١ .
والخازن : لباب التأويل ١/٢٢ .
والآمدى : غاية المرام ص ٣١١ .
والنشار والطالبى : عقائد السلف ص ١١٢ و ١١٣ .
(٤) ابن أبى العز الحنفى : شرح الطحاوية ص ٢٢٧ .
والقارى : شرح الفقه الأكبر ص ٨٥ .
وعبد العزيز البخارى : كشف الأسرار ١/١٨٥ .
وابلاغ : أبو حنيفة المتكلم ص ١٣٠ .

فالايمان والعقيدة يشتركان : فى أنهما تصديق .

ويختلفان : فى أن الايمان تصديق وعمل [١] ، والعقيدة تصديق فحسب [٢] .

فتعريف الحنفية للايمان يراد ف تعريف المتكلمين للعقيدة ، فهما — الايمان والعقيدة — يتعلقان بالقلب ولا دخل للجوارح فيهما .

وتعريف الجمهور للايمان يؤدى معنى العقيدة ، ويزيد عليها ركن العمل .

فالمرء اذا لم يتبع اعتقاده بالعمل ، فانه يطلق عليه لفظ (مؤمن) ظاهرا ، ولكن ايمانه ناقص فى الحقيقة !

---

(١) عند الجمهور .
(٢) عند الحنفية .

ثانياً :

تعريف الإسلام

الاســــلام لغـــــة :

ســـلم : السين واللام والميم ، معظم بابه من الصحة والعافية ، ويكون فيــه مايشــذ ، والشاذ عنه قليل .

فالسلامة : أن يسلم الانسان من العاهة والأذى وقلب سليم أى سالم ، واللــه جل ثناؤه هو السلام ، لسلامته مما يلحق ـ المخلوقين من العيب والنقص والفنـاء .

قال تعالى : " والله يدعو الى دار الســلام " (يونس : ٢٥) .

فالسلام هو الله عز وجل ، وداره : الجنــة .

والسلام : هو السلامة ، والاستسلام . وهو الاسم من التسليم .

والسّـلام : المسالمة والمصالحة .

والسّلم : السلف . والقاء المقادة الى ارادة المسلمين ، والاستسلام .

والسّلم : المسالم ، تقول : أنا سلم لم سالمنى ، والسّلم كذلك الانقياد والاستسلام . وأخذه سلما : أى جاء به منقادا لم يمتنع وان كان جريحا . والسّلم كذلك : الاســلام . وقرأ أبو عمرو : " أدخلوافى السّلم كافة " (البقرة : ٢٠٨) يذهب بمعناها الــى الاســلام .

قال الشــاعر :

فلســت مبدلا باللــه ربــا ولامستبدلا بالســلم دينـا .

والسّلم كذلك : السلام ، قال الشاعر :

وقفنا فقلنا ايه سلم فسلّمت فما كان الا ومؤها بالحواجــب

والسلم : الصلح ، يفتح ويكسر ويذكر ويؤنث .

والتسليم : الرضا بما قدره الله تعالى وقضاه ، والانقياد لأوامره ، وبذل الرضــا بالحكـم ، وهو كذلك : الســلام .

وتسلّم الشــئ : للمطاوعــة ، وسلّمت اليه الشئ فتسلمه : أخذه . والتســالم : التصالح . واستسلم : انقاد ، وأسلمته : خذلته .

وأسلم أمره الى الله تعالى : أى سلّم ، فهو مسلم . وأسلم : من الاسلام : أى دخل فى السلم وهو الاستسلام .

والاسلام : هو الاذعان ، لأنه يسلم من الاباء والامتناع ، وهو الاستسلام والانقياد ، ويجوز أن يكون من التسليم .

وعندما يقال : فلان مسلم . فيه قولان :

أحدهما : أنه مستسلم لأمر الله تعالى . والثانى : أنه مخلص لله تعالى العبادة ، من قولهم : سلّم الشىء لفلان أى خلّصه ، وسلم له الشىء أى خلّص له .

والمسلم التام الاسلام : مظهر الطاعة عن ايمان بها .

يقول ثعلب : الاسلام باللسان ، والايمان بالقلب (١) .

وقوله تعالى : " واجعلنا مسلمين لك " (البقرة : ١٢٨) أى مخلصين لك .

(وأصل الاسلام فى اللغة التبرؤ ، تقول أسلمت أمر كذا الى فلان : اذا تبرأت منه اليه . فسمى المسلم مسلما : لأنه تبرأ من كل شىء الى الله عز وجل . وانتقل اسم الاسلام بعد ذلك الى جميع الطاعات) (٢) .

والحاصل أن الاسلام : هو اظهار الانقياد والخضوع لما جاء به النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ والالتزام به . ثم صار اسما لدينه الذى جاء به ودعا اليه) .

---

(١) انظر التعريف اللغوى فى :
ابن زكريا : معجم مقاييس اللغة ٣/٩٠ .
والجوهرى : الصحاح ٥/١٩٥٠ ـ ١٩٥٣
والأزهرى : تهذيب اللغة ٢/٤٤٩ ـ ٤٥٢ .
وابن منظور : لسان العرب ٢/١٩٢ و ١٩٣
والزمخشرى : أساس البلاغة ص ٢١٨ .
والرازى : مختار الصحاح ص ٣١١ ، والفيومى : المصباح المنير ١/٣٠٦و٣٠٧ .
والزبيدى : تاج العروس ٨/٣٣٧ ـ ٣٤٠ .
وأحمد رضا : معجم متن اللغة ٣/١٩٩ ـ ٢٠١ .

(٢) محمد فريد وجدى : دائرة معارف القرن العشرين ١/٦٠٢ بتصرف يسير .

الاســـــلام اصطـــلاحا :

الاسلام هو دين الأنبياء والمرسلين ـ عليهم أفضل الصلاة وأتم التســـــليم ـ من لد ن آدم الى محمد ـ عليهما الصلاة والسلام ـ • وهو الاستسلام لله عز وجـــل فى أمره ونهيه على لسان الوحـــى •

ويطلق الاسلام على معنيـــين :

على النصوص التى أوحى الله تعالى بها مبينا دينه •

وعلى عمل الانسان فى ايمانه بهذه النصوص واستسلامه لها •

والاسلام بالمعنى الأول يختلف سعة وشمولا من رسول الى رسول ـ مع اتفاقـــه بالمبادئ والأصول ـ والاسلام ـ الذى جاء به محمد صلى الله عليه وســــــلم ـ أشمل وأوسع من كل رسالة سابقة له ، وهو الدين الوحيد ـ منذ بعثته صلى الله عليه وسلم الى أن يرث الله الأرض ومن عليها ـ الصالح لكل زمان ومكان ومجال •

وبناء الاسلام يقوم على خمسة أركان هى : الشهادتان والصلاة والزكاة والصـــوم والحج • وهذه الركائز ليست كل الاسلام ـ وان كان الأساس عادة من جنس البناء ـ فأساس الاسلام : هو الأركان الخمسة ، وبناؤه هو أحكام الله تعالى فى مختلف شـــؤون الحياة (ولا توجد قضية من قضايا الوجود البشرى الا وللاسلام فيها حكم ، ومجموع هـــذه الأحكام هى بناء الاسلام الذى يقوم فوق أركانه) •

وللاسلام مؤيدات هى طريق قيامه ، تتمثل فى : الجهاد ، والأمر بالمعـــروف ، والنهى عن المنكر • وهذه المؤيدات غير المؤيدات الربانية المتمثلة بعقوبة الفطـــرة فى الانحراف عن الاسلام ، أو العقوبات الربانية فى الدنيا والآخـــرة •

فالاسلام : عقيدة وعبادة ومنهـــج حياة •

عقيـــدة : الشهادتان وأركان الايمان •

وعبادة : صلاة وزكاة وصوم وحـــج •

ومنهج حياة : سياسية واقتصادية وحربية واجتماعية وأخلاقية وتعليمية ...

ويقابل الاسلام : الجاهلية ، وحيثما كان الحق فهو الاسلام ، وحيثما كان الباطل فهو الجاهلية (١) .

وفيما يأتي تعريفات مختلفة للاسلام * .

قال الامام الطبري .

(الاسلام : هو الانقياد بالتذلل والخشوع وترك الممانعة) .

ونقل ـ رحمه الله ـ بسنده عن قتادة في قوله تعالى : " ان الدين عند الله الاسلام " (آل عمران : ١٩) .

(الاسلام : شهادة أن لا اله الا الله (٢) ، والاقرار بما جاء به من عند الله ، وهو دين الله الذي شرع لنفسه وبعث به رسله ودل عليه أولياءه ، لا يقبل غيره ولا يجزي الا به) .

ونقل أيضا عن أبي العالية قوله :

(الاسلام : الاخلاص لله تعالى وحده ، وعبادته لا شريك له ، واقام الصلاة ، وايتاء الزكاة ، وسائر الفرائض لهذا تبع) (٣) .

وقال الامام القرطبي في قوله تعالى : " ان الدين عند الله الاسلام " : الدين في هذه الآية : الطاعة والملة ، والاسلام : بمعنى الايمان والطاعات) (٤) .

وقال الامام ابن كثير في قوله تعالى : " ان الدين عند الله الاسلام " اخبار منه تعالى بأنه لا دين عنده يقبله من أحد سوى الاسلام وهو : اتباع الرسل فيما بعثهم الله به في كل حين ، حتى ختموا بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذي سد جميع

---

(١) انظر : سعيد حوى : الاسلام ١/٥ ـ ١٦ .
وابن تيمية : اقتضاء الصراط المستقيم ص ٤٥٥ و ٤٥٦ .

* انظر تعريف الاسلام في كتاب محمد بن عبد الوهاب : فضل الاسلام ص ٢٣٠ (ضمن مجموعة الحديث)
والحكمي : معارج القبول ٢/٢٤ ـ ٤٠ ، وابن رجب الحنبلي : جامع العلوم ص ٢٥ .
والشنقيطي : أضواء البيان ٧/٦٣٦ ، ودراز : المختار من كنوز السنة ص ٦٩ ـ ١٠٤ ،

(٢) ولم يذكر شهادة أن محمد صلى الله عليه وسلم ـ عبده ورسوله ! ولعل ذلك سهو أو سقط . يدل على هذا قوله بعد ذلك والاقرار بما جاء به من عند الله) !

(٣) الطبري : جامع البيان ٣/٢١٢ .

(٤) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ٤/٤٣ .

الطـرق اليه الا من جهته ـ صلى الله عليه وسلم ـ) (١)

وقال الامام النـــووى .

(الاسلام : هو فعل الواجبات ، والانقياد الى عمل الظاهر) (٢) .

وقال الامام ابن تيمية :

(والاسلام يجمع معنيين : أحدهما : الاستسلام والانقياد ، فلا يكون متكبرا .

والثانى : الاخلاص ، فلا يكون مشـركا .

والاسلام يستعمل لازما معدّى بحرف اللام :*

كقوله تعالى : " أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السماوات والأرض طوعا وكرها واليه يرجعون " (آل عمران : ٨٣) .

وقوله : " قل ان هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين " (الأنعام : ٧١)

وقوله " وأنيبوا الى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون " (الزمر : ٥٤)

ويستعمل متعديا ، مقرونا بالاحسان :

كقوله تعالى : " بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خـــوف عليهم ولاهم يحزنون " (البقرة : ١١٢) .

وقوله : " ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفا" (النساء : ١٢٥) .

فقد أنكر تعالى أن يكون دين أحسن من هذا الدين ، وهو اسلام الوجه للـــــه عز وجل مع الاحسان . وأخبر أن كل من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربــــه ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون .

وجماع الدين : ألا نعبد الا الله . وأن نعبده بما شـرع .

---

(١) الصابونى : مختصر تفسير ابن كثير ١ / ٢٧٢ .
(٢) النـووى : الأربعين النووية وشرحها ص ١٥ .
* وقد أخذ هذا المعنى العلامة دراز وتوسع فى الحديث عنه انظر كتابه المختـار من كنوز السنة ـ ص٦٩ فما بعدها .

وهذان الأصلان : هما تحقيق الشهادتين اللتين هما رأس الاسلام ، شهادة أن لا اله الا الله وشهادة أن محمدا رسول الله .

فشهادة أن لا اله الا الله ، تتضمن اخلاص الألوهية له عز وجل .

وشهادة أن محمدا رسول الله تتضمن تصديقه في كل ما أخبر ، وطاعته في كل ما أمر .

ومن دعا الى غير الله فقد أشرك ، ومن دعا اليه بغير أذنه فقد ابتدع فالاسلام يتضمن الاستسلام والانقياد والاخلاص (١)

ويقرر ـ رحمه الله ـ أن الاسلام : هو الأعمال الظاهرة كلها .

وقوله تعالى : " ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه " (آل عمران : ٨٥) عام في الأولين والآخرين بأن دين الاسلام هو دين الله الذي جاء به أنبياؤه ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وعليه عباده المؤمنون .

وقوله تعالى : " بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن .. " (آل عمران : ١١٢) فسر اسلام الوجه بما يتضمن اخلاص قصد العبد لله بالعبادة له وحده ، وهو محسن بالعمل الصالح المشروع المأمور به . (٢)

وقال الامام الغزالي :

(الاسلام : هو التسليم بالاذعان والانقياد ، وترك التمرد والاباء والعناد) (٣)

وقال الامام المودودي :

(الاسلام : هو الانقياد والامتثال لأمر الآمر ونهيه بلا اعتراض) (٤)

وقال العلامة دراز :

(الاسلام : هو الانقياد الظاهر لجميع أوامر الله أصولا وفروعا) . (٥)

---

(١) ابن تيمية : الحسبة من ص ١٩٠ ـ ١٩٦ ، واقتضاء الصراط المستقيم من ص ٤٥٠ ـ ٤٥٤ .

(٢) ابن تيمية : الزيارة ـ المسألة الرابعة ص ٤٢١ ـ ، والايمان ص ٣٦١

(٣) الغزالي : احياء علوم الدين ١١٦/١ .

(٤) المودودي : مبادئ الاسلام ص ٤

(٥) دراز : المختار من كنوز السنة ص ٢٠٩

وقال العلامة شلتوت :

(الاسلام : هو دين الله الذى أوحى بتعاليمه في أصوله وشرائعه الى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكلفه بتبليغه للناس كافة ودعوتهم اليه) (١)

وقال العلامة الزرقاء :

(الشريعة الاسلامية : هي مجموعة الأوامر والأحكام الاعتقادية والعملية التي يوجب الاسلام تطبيقها لتحقيق أهدافه الاصلاحية في المجتمع) (٢).

علاقة الاسلام بالايمان :

للاسلام اصطلاحا حالتان :

الاولى : أن يطلق على الافراد غير مقترن بذكر الايمان ، فهو حينئذ يراد به الدين كله ـ أصوله وفروعه ـ من اعتقاداته وأقواله وأفعاله ، كقوله تعالى : " ان الدين عند الله الاسلام" (آل عمران : ١٩) ، وقوله تعالى : " ورضيت لكم الاسلام دينا" (المائدة : ٣) ، وقوله تعالى : " ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين" (آل عمران : ٨٥) وكقوله (صلى الله عليه وسلم) : (اذا أسلم العبد فحسن اسلامه يكفر الله عنه كل سيئة كان زلفها ، وكان بعد ذلك القصاص : الحسنة بعشر أمثالها الى سبعمائة ضعف والسيئة بمثلها الا أن يتجاوز الله عنها)(٣) وقوله (صلى الله عليه وسلم) : " المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر مانهى الله عنه" (٤) .

ولذا فان الانقياد ظاهرا بدون ايمان لا يكون حسن اسلام بل هو النفاق ، فكيف تكتب له حسنات أو تمحى عنه سيئات كما في الحديث الاول ؟

---

(١) شلتوت : الاسلام عقيدة وشريعة ص ٩
(٢) الزرقاء : المدخل الفقهي ١ / ٣٠
* انظر الحكمي : معارج القبول ٢ / ٢٤ ـ ٤٠ (٣) الزبيدى : التجريد الصريح ١ / ٦٨
(٤) المصدر نفسه ١ / ٤٧

الثانية : أن يطلق مقترنا بالاعتقاد ، فيراد به حينئذ الأعمال والأقوال الظاهرة .
كقوله تعالى : " قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم " (الحجرات : ١٤)

وكقوله (صلى الله عليه وسلم) لسعد بن أبى وقاص ــ رضى الله عنه ــ وقد أعطى رهطا وسعد جالس فترك ــ صلى الله عليه وسلم ــ رجلا هو أعجبهم لسعد فقال : يارسول الله مالك عن فلان ؟ فوالله انى لأراه مؤمنا . فقال ــ صلى الله عليه وسلم ــ : أو مسلما . . (١) أى أنك لم تطلع على ايمانه ، وانما اطلعت على اسلامه من أعماله الظاهرة .

وفسره النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ بذلك كله في حديث وفد عبد القيس عن ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ قال :
(ان وفد عبد القيس لما أتوا النبى صلى الله عليه وسلم ــ قال : من القوم ؟ ــ أو من الوفد ؟ ــ قالوا : ربيعة . قال : مرحبا بالقوم ــ أو بالوفد ــ غير خزايا ولا ندامى . فقالوا : يارسول الله ! انا لانستطيع أن نأتيك الا في الشهر الحرام ، وبيننا وبينك هذا الحى من كفار مضر ، فمرنا بأمر فصل نخبر به من وراءنا وندخل به الجنة . وسألوه عن الأشربة . فأمرهم بأربع ونهاهم عن أربع . بالايمان بالله وحده ، قال : أتدرون ما الايمان بالله وحده ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : شهادة أن لا اله الا الله وحده لاشريك له وأن محمدا رسول الله ، واقام الصلاة وايتاء الزكاة وصيام رمضان . وأن تعطوا الخمس من المغنم . ونهاهم عن : الحنتم والدباء ، والنقير ،

---

(١) المصدر نفسه ١ / ٦٠
أو مسلما : بسكون الواو فقط بمعنى بل ، اضراب عن قول سعد . والمراد به نهيه عن قطعه بايمان من لم يختبر باطنه .
انظر فتح المبدى للشرقاوى ١ / ٦١ .

والمزفت ـ وربما قال المقير ـ وقال : احفظوهن وأخبروا بهن من وراءكم) (١)

وقد جعل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ صيام رمضان وقيام ليلة القدر ايمانا واحتسابا من الايمان :

قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " من صام رمضان ايمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه " ـ وفي رواية : من قام ـ (٢)

وقال أيضا : " من يقم ليلة القدر ايمانا واحتسابا غفر له ماتقدم من ذنبه " (٣)

وفى الصحيح أيضا : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

" الايمان بضع وستون شعبة ، والحياء شعبة من الايمان " (٤)

وهذه الشعب المذكورة قد جاءت فى الكتاب والسنة فى مواضع متفرقة : منها ماهو قول القلب وعمله ، ومنها ماهو من قول اللسان ، ومنها ماهو من عمل الجوارح .

---

(١) الزبيدى: التجريد الصريح ١ / ٨٣
من القوم أو من الوفد : شك ممن روى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ . الا فى الاشهر الحرم : لحرمة القتال فيه عندهم .
والحى : منزل القبيلة ثم سميت القبيلة به اتساعا لأن بعضهم يحيا ببعض . وندخل به الجنة : اذا قبل ، أى يكون سببا لنا في دخولها ، والا فالدخول برحمة الله . عن الاشربة : أى عن ظروفها . أو عن الأشربة التى تكون في الأوانى المختلفة . واستشكل قوله : فأمرهم بأربع مع ذكر خمسة ! واجيب : بأن قوله : وأن تعطوا الخمس من المغنم معطوف على أربع ، أى أمرهم بأربع وباعطاء الخمس وبأن أداء الخمس داخل في عموم ايتاء الزكاة لأن كلا فيه اخراج مال معين في حال دون حال ، وبأنه عد الصلاة والزكاة واحدة ، لانها قرينتها في كتاب الله . وبأن الخمسة تفسير للايمان وهو أحد الأربعة المأمور بها . والثلاثة الباقية حذفها الراوى نسيانا أو اختصارا . وبأن الأربعة اقام الصلاة .. الخ وذكر الشهادتين تبركا بهما ، كما فى قوله تعالى : " واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه وللرسول .. ان كنتم آمنتم بالله .. " (الانفال : ٤١) ، لأن القوم كانوا مؤمنين . وربما كان القوم يظنون أن الامر مقصور على الشهادتين كما كان ذلك ـ فى صدر الاسلام . ولم يذكر الحج : لانه قصد بيان مايمكنهم فعله في الحال . والحنتم : جرار ، كان ناس ينتبذون فيها يضاهون به الخمر . والدباء : اليقطين . والنقير : جذع ينقر وسطه . والمزفت : ماطلى بالزفت . والمقير: ماطلى بالقار والمقصود النهى عن الانتباذ فيها ، وهو أن يجعل فى الماء تمر ليحلو ويشرب.
انظر فتح المبدى ١ / ٨٣ ، ٨٤ وقد نسخ هذا النهى انظر شرح ثلاثيات مسند احمد ١ / ١٥٥ ـ ١٥٧ و ٢ / ٩١ ـ ٩٣ .

(٢ ، ٣) التجريد الصريح ١ / ٦٥ و ٦٦ (٤) المصدر نفسه ١ / ٤٥

ولما كانت الصلاة جامعة لقول القلب وعمله وقول اللسان وعمله وعمل الجوارح سماها الله ايمانا فى قوله عز وجل : " وماكان الله ليضيع ايمانكم" [١] (البقرة : ١٤٣) اى توجهكم الى بيت المقدس في الصلاة قبل تحويل القبلة .

وهذا هو المعنى الذى قصده علماء السلف بقولهم : (الايمان اعتقاد وقول وعمل . والاعمال كلها داخلة فى مسمى الايمان) . وقد أنكر السلف على من أخرج الأعمال من الايمان .

وكتب عمر بن عبد العزيز (رحمه الله) ـ كما أشرنا الى ذلك من قبل ـ الى عدى ابن عدى : (ان للايمان فرائض وشرائع وحدودا وسننا فمن استكملها استكمل الايمان ، ومن لم يستكملها لم يستكمل الايمان) .[٢]

وللايمان اصطلاحا * حالتان :

الأولى : أن يطلق على الافراد غير مقترن بذكر الاسلام ، فحينئذ يراد به الدين كله .

كقوله تعالى : " الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور" (البقرة : ٢٥٧) . وقوله : " الم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق" (الحديد : ١٦) وقوله : " وعلى الله فليتوكل المؤمنون" (ابراهيم : ١١) .

ولهذا حصر الله تعالى الايمان فيمن التزم الدين كله باطنا وظاهرا في قوله جل وعلا : " انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون. الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم" (الانفال : ٢ : ٤) وقوله عز وجل : " الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما انزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون" (البقرة : ٣ و ٤)

---

(١) البيهقى : الاعتقاد ص ٨٠

(٢) ابن حجر : فتح البارى ١/ ٤٥

* انظر الحكمى : معارج القبول ٢/ ٢٤ ـ ٤٠

وكحديث أبى ذر ــ رضى الله عنه ــ :

(جاء رجل الى أبي ذر فسأله عن الايمان . فقرأ : " ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر) .. الى قوله " أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون" (البقرة : ١٧٧) .

فقال الرجل : ليس عن البر سألتك .

قال أبو ذر : جاء رجل الى النبى صلى الله عليه وسلم ــ فسأله عن الذى سألتني عنه ، فقرأ عليه النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ كما قرأت عليك ، فقال له الذى قلت لى . فلما أبى أن يرضى قال له ادن فدنا . قال : ان المؤمن اذا عمل حسنة سرته ورجا ثوابها واذا عمل السيئة ساءته وخاف عقابها . (١)

والثانية : أن يطلق الايمان مقرونا بالاسلام ، وحينئذ يفسر بالاعتقادات الباطنة .

كما فى قوله تعالى : " والعصر ان الانسان لفى خسر . الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر " (العصر : ١ ــ ٣)

وكما فى حديث جبريل : حين سأل رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ عن الايمان والاسلام والاحسان .. (٢)

وكما فى قول النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى حديث الجنازة : " اللهم من أحييته منا فأحيه على الاسلام ومن توفيته منا فتوفه على الايمان " (٣) وذلك أن الاعمال بالجوارح. وانما يتمكن منها فى الحياة فأما عند الموت فلا يبقى غير قول القلب وعمله .

قال العلامة ابن رجب الحنبلى رحمه الله :

(وأما وجه الجمع بين هذه النصوص وبين حديث سؤال جبريل عليه السلام عن الاسلام

---

(١) اخرجه اسحاق بن راهويه . وقال ابن حجر عقب ايراده هذا الحديث منقطع وله طريق أصح منه فى التفسير .
ابن حجر : المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية ٣/٧٤ .
(٢) البغوى : شرح السنة ١/٩ والزبيدى : التجريد الصريح ١/٧٥
(٣) ابن الأثير : جامع الأصول ٦/٢٢٣

والايمان وتفريق النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ بينهما وادخاله الأعمال في مسمى الاسلام دون الايمان : فانه يتضح بتقرير أصل : وهو أن من الأسماء ما يكون شاملا لمسميات متعددة عند افراده واطلاقه فاذا قرن ذلك الاسم بغيره صار دالا على بعض تلك المسميات ، والاسم المقرون به دالا على باقيها ، وهذا كاسم الفقير والمسكين ، فاذا أفرد احدهما دخل فيه كل من هو محتاج ، فاذا قرن أحدهما بالآخر دل أحد الاسمين على بعض أنواع ذوي الحاجات والآخر على باقيها .*

" فهكذا اسم الاسلام والايمان اذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر ودل بانفراده على مايدل عليه الآخر بانفراده ، فاذا قورن بينهما : دل أحدهما على بعض مايدل عليه بانفراده ، ودل الآخر على الباقي . وقد صرح بهذا المعنى جماعة من الائمة ... وأهل السنة والحديث مختلفون في ذلك ، فمنهم من يدعي أن الجمهور على أنهما شيء واحد ، ومنهم من يحكي عنهم التفريق بينهما .(١)

وقال العلامة الشنقيطي (رحمه الله) في تفسيره للاية الكريمة: " قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم ..." (الحجرات : ١٤) .

ذكر الله تعالى في هذه الآية الكريمة أن هؤلاء الأعراب ــ وهم أهل البادية من العرب ــ قالوا آمنا ، وأن الله جل وعلا أمر نبيه ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن يقول لهم : " لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا " ، وهذا يدل على نفي الايمان عنهم وثبوت الاسلام لهم . وذلك يستلزم أن الايمان أخص من الاسلام ، لأن نفي الأخص لا يستلزم نفي الاعم .

وقد ذكرنا ــ من قبل ــ أن مسمى الايمان الشرعي الصحيح ، والاسلام الشرعي الصحيح : هو استسلام القلب بالاعتقاد ، واللسان بالاقرار ، والجوارح بالعمل .

---

* انظر ابن سلوم : مختصر لوامع الأنوار البهية ص ٢٨٥

(١) ابن رجب الحنبلي : جامع العلوم والحكم ص ٢٥ و ٢٦

فهو اسم واحد كما يدل عليه قوله تعالى : " فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين" (الذاريات : ٣٥ و ٣٦) .

واذا كان ذلك كذلك فانه يحتاج الى بيان وجه الفرق بين الايمان والاسلام في هذه الآية الكريمة ، لأن الله تعالى نفى عنهم الايمان دون الاسلام ، ولذلك وجهان معروفان عند العلماء أظهرهما – عندي – :

أن الايمان المنفي عنهم في هذه الآية هو مسماه الشرعي الصحيح ، والاسلام المثبت لهم فيها هو الاسلام اللغوي – الذي هو الانقياد والاستسلام بالجوارح دون القلب . وانما ساغ اطلاق الحقيقة اللغوية هنا على الاسلام مع أن الحقيقة الشرعية مقدمة على اللغوية – على الصحيح – ، لأن الشرع الكريم جاء باعتبار الظاهر ، وأن توكل السرائر الى الله . فانقياد الجوارح في الظاهر بالعمل ، واللسان بالاقرار يكتفى به شرعا ، وان كان القلب منطويا على الكفر .

ولهذا ساغ ارادة الحقيقة اللغوية في قوله تعالى : " ولكن قولوا أسلمنا " لأن انقياد اللسان والجوارح في الظاهر اسلام لغوي مكتفى به شرعا عن التنقيب عن القلوب .

وكل انقياد واستسلام واذعان يسمى اسلاما لغة . ومنه قول زيد بن عمرو بن نفيل العدوي :

وأسلمت وجهي لمن أسلمت	له الأرض تحمل صخرا ثقالا
دحاها فلما استوت شدها	جميعا وأرسى عليها الجبالا
وأسلمت وجهي لمن أسلمت	له المزن تحمل عذبا زلالا
اذا هي سيقت الى بلدة	أطاعت فصبت عليها سجالا
وأسلمت وجهي لمن أسلمت	له الريح تصرف حالا فحالا

فالمراد بالاسلام في هذه الأبيات : الاستسلام والانقياد .

واذا حمل الاسلام في قوله تعالى : " ولكن قولوا أسلمنا" استسلمنا وانقدنا بالألسنة والجوارح ، فلا اشكال في الآية .

وعلى هذا القول : فالاعراب المذكورون منافقون ، لانهم مسلمون في الظاهر وهم كفار في الباطن .

الوجه الثاني :

أن المراد بنفي الايمان في قوله تعالى : " لم تؤمنوا " نفي كمال الايمان ، لانفيه من أصله . وعليه : فلا اشكال ايضا : لانهم مسلمون مع أن ايمانهم غير تام ، وهذا لا اشكال فيه عند أهل السنة والجماعة القائلين بأن الايمان يزيد وينقص .

وانما استظهرنا الوجه الأول ـ وهو أن المراد بالاسلام معناه اللغوى دون الشرعى وأن الأعراب المذكورين كفار في الباطن وان أسلموا في الظاهر ـ لأن قوله عز وجل : " ولما يدخل الايمان في قلوبكم " يدل على ذلك ، لأن قوله تعالى " يدخل" فعل في سياق النفي ، وهو من سياق صيغ العموم ، والمعنى : لادخول للايمان في قلوبكم .

والذين قالوا بالوجه الثاني : ذهبوا الى أن المراد بنفي دخول الايمان نفى كماله .

وقوله تعالى في هذه الآية " قالت الأعراب" المراد به : بعض الأعراب ، وقد استظهرنا أنهم منافقون لدلالة القرآن على ذلك ، وهم من جنس الاعراب الذين قال الله تعالى فيهم :

" ومن الاعراب من يتخذ ماينفق مغرما ويتربص بكم الدوائر " (التوبة : ٩٨) .

وانما قلنا ان المراد بعض الاعراب في هذه الآية ، لأن الله تبارك وتعالى بين في موضع آخر أن منهم من ليس كذلك ، وذلك في قوله تعالى : " ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول الا انها قربة

لهم سيدخلهم الله في رحمته ان الله غفور رحيم" (التوبة : ٩٩)(١)

والخلاصـــة :

اذا أطلق الاسلام على الافراد ــ غير مقترن بالايمان ــ فيراد به حينئـذ : الايمان والاسلام معا •

واذا أطلق الايمان على الافراد ــ غير مقترن بالايمان ــ فيراد به كذلك : الاسلام والايمان معا •

واذا قرن بين الاسلام والايمان :

فيراد بالاسلام : الاعمال الظاهرة • ويراد بالايمان : الأعمال الباطنة •

ولذا فاننا نذهب مع من يرى أنهما ــ الاسلام والايمان ــ اذا اجتمعا افترقـــا • واذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخـــر •

ــ والله تعالى أعلـــم ــ

---

(١) الشنقيطي : أضواء البيان ٦٣٦/٧ ــ ٦٣٩ بتصرف يسير •
وانظر الفرق بين الايمان والاسلام في :
القرطبي : الجامع لاحكام القرآن ٤٤/٤
وابن تيمية : الحسبة ص ١٩٦ ، والايمان ص ٣٦٠ ــ ٣٦٣
وابن حجر : فتح الباري ٥٠/١ ، وابن رجب الحنبلي : جامع العلوم والحكم من ص ٢٣ ــ ٣٢
وابن سلوم : مختصر لوامع الانوار البهية ص ٢٨٥
والغزالي : احياء علوم الدين ١١٦/١ ــ ١٢٠
والنووي : شرح الأربعين النووية ص ١٥
وحمود التويجري : فتح المعبود من ص ١٦٢ ــ ١٨٥
وحافظ الحكمي : معارج القبول ٢٤/٢ ــ ٤٠
ومحمد دراز : المختار من كنوز السنة من ص ٦٩ ــ ١٠٤ ، ٢٠٩ ــ ٢١٦
والشرقاوي : فتح المبدي ٤٣/١ ــ ٤٦

ثالثاً :
تعريف التربية

التربيـــة لغــــــة :

(رب) : المكونة من الراء والباء تدل على أصول :

الاصل الاول : اصلاح الشيء والقيام عليه . فالربّ : المالك ، والخالق، والصاحب ، والمصلح للشيء

والاصل الثانى : لزوم الشيء والاقامة عليه .

والاصل الثالث : ضم الشيء للشيء ، ومن هذا الباب : الربابة وهى العهد

و (ربأ) الراء والباء والحرف المعتل وكذلك المهموز منه يدل على أصل واحد ، وهو: الزيادة ، والنماء ، والعلو .

والـــــرب في الأصل : التربية ، فهما مترادفان . وأرباب : جمع رب.والربوبية للــــه تعالى . ولفظ الرب يشمل معاني المالك ، والمصلح ، والسيد ، والمدبـــــــــر ، والمربى ، والمنعم ، والقيم ، وزوج المرأة .

والــرب (اذا قيل مطلقا) : فتدل الالف واللام على معنى العموم . فاذا أطلـــــق غير مضاف فلا يراد منه الا الله تعالى .

ولايقال لمخلوق : هذا الربّ ــ معرّفا بالألف واللام ــ كما يقال لله تعالـى. وانما يقال : هذا ربّ كذا ورب كذا (لان الله تعالى هو المالك الحقيقى)

وتربي الصبي : أحسن القيام عليه ، وأصله : تربيه .

وربوت في حجره أربو ربوا وربوّا : نشأت .

ورب الرجل النعمة يربها ربا : اذا تممها .

وربّ بالمكان وأربّ : اذا قام بــه .

وربّ الشيء يربه ربا : أى رباه ورعاه ليبلغه كمـاله ٠

وربّ زيد الأمر ربا : اذا ساسه وقام بتدبيره ٠

ويربون العلم : يقومون به ٠

وربّ الضيعة : أصلحها وأتمها ٠

ورباه تربية وترباه : أى غذاه ٠

وأربت الحنطة : زكت ٠

وأنا أربأ بك عن هذا الامر : أى ارتفع بك عنه ٠

ورب الولد ربا : وليه وتعهده بما يغذيه وينميه ويؤدبه ٠

وربّ فلان : ملـك ٠

وتراب القوم : تعاهدوا

والمرتب : المنعم ، ورب النعمة ، والمنعم عليه أيضا ٠

والرباني : هو الذى يعبد الرب ـ وهو العارف بالله ـ وقيل : هو المعلم الـــذى يغذو الناس بصغار العلوم قبل كبارها ، فان حرم خصلة فليس بربانى ٠

والربى : هو العالم الراسخ في علوم الدين ٠

ويقـال : فلانة ربة البيت ٠ والربيبة : الحاضنة ٠

وارتبت المرأة شعرها بالدهن : أصلحته ٠

والبنت ربيبة وجمعها ربائب ٠ والتربيب : التربية ٠

والربيب : ابن امرأة الرجل من غيره ٠

والرابية : ما ارتفع من الأرض ٠

وهكذا فان للتربية لغة عدة معان : أهمها :[1]

اصلاح الشيء ، والقيام عليه ، ولزومه ، وضمه .

والزيادة ، والنماء ، والاتمام .

وحسن القيام على الصبي ، والرعاية ، والتدبير ، والتغذية ، والسياسة ، والارتفاع ـ العلو ـ .

والتعليم ، والتزكية ، والرعاية .

---

(١) الزمخشري : أساس البلاغة ص ١٥٠ .
وابن زكريا : معجم مقاييس اللغة ٢/ ٣٨١ و ٤٨٣
والاصفهاني : اصلاح الوجوه والنظائر ص ١٨٩
وابن قتيبة : تفسير غريب القرآن ص ٩
وابن مطرف الكناني : القرطين ١/ ٣
وابن حيان : تحفة الأريب ص ١٠٨
والصاغاني : التكملة والذيل والصلة ١/ ١٣٣
والزاوي : مختار القاموس ص ٢٣٤
ومجمع اللغة : معجم ألفاظ القرآن ١/ ٤٦٢
وابن دريد : جمهرة اللغة ١/ ٢٨
والشرتوني : أقرب الموارد ٣/ ١٨٢
والصعيدي : الافصاح في فقه اللغة ١/ ٢١٤
والابياري : الموسوعة القرآنية ٣/ ٨٥٦

التربيـــة اصطـــلاحـا :

لم ترد كلمة التربيـــة ـ بهذا اللفظ ـ فى القرآن الكريم وقد وجدت من خـلال استعراضى للآيات القرآنية الكريمة ـ بوساطة المعجم المفهرس لألفاظ القــرآن (١) ـ أن مشتقات التربية وردت كما يأتـــى :

رب ، ربائبكم ، يربو ، يربى ، ربيانى ، نربك ، ربوة .

ونلاحظ أن كلمة (ربيانى) فى قوله تعالى " وقل رب ارحمهما كما ربيانـــى صغيرا " (الاسراء : ٢٤) ، وكلمة (نربك) فى قوله تعالى : " قال ألـــم نربك فينا وليدا " (الشعراء : ١٨) هما الكلمتان الوحيدتان اللتان وردتا فـــى كتاب الله الكريم تتعلقان بمعنى التربية . مع أن كلمة (رب) وكلمة (ربائبكـــم) تشيران أيضا لمعنى التربيـــة .

وفيما يأتى بعض أقوال علمائنا القدامى (عليهم رحمة الله) فى تعريف التربية :

تعريـف التربية فى بعض الكتب القديمـــة :

أ ـ يقول الهــــروى (٢) :

((يقال لمن قام باصلاح شـئ واتمامه : قد ربه ويربه ، فهو رب له وراب ، ومنه سمى الربانيون : لقيامهم بالكتـــب)) .

ب ـ ويقول البيضاوى وأبو السعود (٣) :

((التربية هى تبليغ الشـئ الى كماله شيئا فشيئا)) .

---

(١) محمد فؤاد عبد الباقى : المعجم المفهرس من ص ٢٨٥ ـ ٢٩٩ .
(٢) القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ١/١٣٧ .
(٣) الخفاجى : حاشية الشهاب ١/٨٨، وأبو السعود : ارشاد العقل السليم ١/١٣ .
ملاحظة : ان تعريف أبى السعود للتربية هو تعريف البيضاوى نفسه لهـــــا .
ولذا فاننا نجزم أن أبا السعود المتوفى عام ٩٥١هـ ، قد أخذ عن البيضاوى المتوفى عام ٦٤١ هـ .

جـ ــ ويقول الراغب الأصبهاني (١) :

((التربية انشاء الشئ حالا فحالا الى حد التمام)) ٠

د ــ ويقول الغزالي (٢) :

((الطريقة في رياضة الصبيان من أهم الأمور وأوكدها ٠٠ وقلب الصبي جوهرة نفيسة خالية عن كل نقش وصورة ، وهو قابل لكل مانقش ، ومائل الى كل مايمال به اليه ، فان عود الخير وعلمه نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة ، وان عود الشر شقى وهلك ٠

وصيانة الأب لابنه : بأن يؤدبه ، ويهذبه ، ويعلمه محاسن الأخلاق ، ويحفظه من قرناء السوء ٠٠٠))

تعريف التربية في بعض الكتب الأجنبية :

جاء في كتاب مقدمة في فلسفة التربية (٣) :

التربية : هي مجموعة من النشاطات العملية المرتبطة ببعضها لتحقيق هدف عام ٠

وجاء في كتاب في فلسفة التربية (٤)

التربية بمعناها الواسع : تشير الى أي فعل أو خبرة لها أثر في صياغة العقل أو الخلق أو القدرة الجسمية لدى أحد الأفراد ٠

وبالمعنى الفني : هي العملية التي ينقل بوساطتها المجتمع من خلال المدارس والمعاهد والجامعات وغير ذلك من مؤسسات تراثه الثقافي عن قصد ــ أي معرفته المتجمعة وقيمه ومهاراته ــ من أحد الأجيال الى جيل آخر ٠

---

(١) الأصبهاني : المفردات ص ٢٦٩ ٠

(٢) الغزالي : احياء علوم الدين ٣/٧٢ بتصرف يسير ٠
وقد عقد الغزالي في كتاب رياضة النفس فصلا بعنوان : بيان الطريق في رياضة الصبيان في أول نشوئهم ووجه تأديبهم وتحسين أخلاقهم ٠
انظر الاحياء : ٣/٧٢ و ٧٣ و ٧٤ ٠

(٣) أوكونور : مقدمة في فلسفة التربية ص ١٢٧ ٠

(٤) نيللر : في فلسفة التربية ص ٣٦ ٠

وجاء في كتاب روح التربيـــة (١) :

التربيـــة : هي فـن تحويل الشعوري الى اللاشـــعوري

وجاء في كتاب التربية العامـــة (٢) :

التربيـــة : هي جملة الأفعال والآثار التي يحدثها بإرادته كائن انساني فـــي كائن انساني آخر ـ وفي الغالب : راشد في صغير ـ والتي تتجـــه نحو غاية قوامها أن تكون لدى الكائن الصغير استعدادات منوعة ، تقابـل الغايات التي يعد لها حين يبلغ طور النضج .

والتربيـــة الحقـــة : هي تربية للحرية عن طريق الحريـــة .

وجاء في كتاب التربية في العصر الحديـــث (٣) :

التربيـــة : هي مشاركة الفرد في الشعور الاجتماعي للجنس البشري . وتأتـــي باستخدام الظروف الاجتماعية التي يعيش فيها الطفل في اثارة ميولـــه . وعن طريق هذه المطالب الاجتماعية يشعر الطفل بدافع له الى العمـل ، متأثرا بوشائج تربطه بمجتمعه ، وبدافع يخرجه من شعوره الضيق وعملـه المحدود ، فيعتبر نفسه مسؤولا عن صالح المجموع الذي ينتمي اليه . وعن طريق استجابات غيره لأنواع نشاطه ، يتعلم ما لهذه الاستجابات مـــن معان اجتماعية ، وتنعكس قيمتها عنده على من حوله .

---

(١) غوستاف لوبون : روح التربية ص ٣٠٦ .
(٢) أوبير : التربية العامة ص ٢٧ .
(٣) جون ديوي : التربية في العصر الحديث ١/ ١٧ .

وجاء في كتاب القيمة الاقتصادية للتربية [١] :

التربية : هي استخراج مالدى الفرد من قدرات كامنة ، وتنميته خلقا وعقلا حتى يصبح حساسا بالنسبة للاختيارات الفردية والاجتماعية ، قادرا على العمل والنشاط بمقتضى مايختاره منها . وتمكين هذا الفرد من الاستجابة لدوره الاجتماعي عن طريق التعليم المنظم ، وتدريبه وتعويده النظام ، وتشكيل قدراته وتنمية ذوقه والارتقاء به .

وي**قــــول هـــــورن** [٢] :

التربيــــــــة : هي العملية الخارجية للتوافق الممتاز مع الله من جانب الانســـان الحر الواعي الناضج جسما وعقلا ، كما يعبر عن هذا التوافـــق في بيئـــه الانسان العقلية والانفعالية والارادية .

ويقول **بســــتالوزي** [٣] :

التربيــــــــة : هي النمو المتزن المنسجم لجميع قوى الفرد تنمية متلائمة .

ويقول **ســــيمون** [٤] :

التربيـــــــة : هي الطريقة التي بها يكون العقل عقلا آخر ، ويكون القلب قلبا آخر .

ويقول **ملتـــون** [٥] :

التربيــــة : هي التي تجعل الانسان صالحا لأداء أي عمل ـ عاما كان أو خاصا ـ بدقة وأمانة ومهارة في السلم والحرب .

ويقول مـــلي [٦] :

التربيـــــــة : هي تهذيب القوى الطبيعية للطفل ، كي يكون قادرا على أن يعود حياة خلقية صحية جيدة .

---

(١) شولتز : القيمة الاقتصادية للتربية ص ٢٩ .
(٢) نيللر : في فلسفة التربية ص ٣٧ .
(٣) الا يراعي روح التربيةهنا ، وذكر كلمة (النمو) وكلمة (تنمية) في التعريف خطأ ، اما من المترجم ! واما من المؤلف !
(٤) عبد الحميـــد فايد : رائد التربية العامة ص ٢٧ .
(٥ ، ٦) المصدران نفسهما : ص٦ و ص ٢٧ ، ٢٨ .

تعريف التربية فى بعض الكتب العربية الحديثة :

يقول عبد الحميد فايد [١] :

التربية : هى مساعدة الطفل على انماء جميع ملكاته وقواه وتكييفها ، وايجاد التوازن بينه وبين البيئة التى يعيش فيها ، واظهار ملكاته الكامنة ، بغية اعداده للحياة السعيدة الكاملة والنجاح فيها ، بحيث يصبح مواطنا عاملا : قوى الجسم ، صحيح العقل ، نقى الوجدان ، متسق التفكير ، حسن التعبير ، متعاونا مع أبناء وطنه ، ومحبا للانسانية .

ويقول نظمى خليل [٢] :

التربية : هى اعداد الولد أو البنت لجميع أنواع النشاط التى تكون أو التى يجب أن تكون حياة البالغ المتكاملة .

ويقول محمود دنيا [٣] :

التربية : هى كل المؤثرات المختلفة التى توجه وتسيطر على حياة الأفراد وتحدث فى المجالات التى يتحرك فيها الفرد ، فى المنزل والمدرسة والمجتمع .

ويقول البستانى [٤] :

التربية : عبارة عن طريق يتوصل بها الى نمو قوى الانسان ، الطبيعية والعقلية والأدبية ، فينطوى تحتها ضروب التعليم والتهذيب ، التى من شأنها انارة العقل وتقويم الطبع واصلاح العادات والمشارب ، واعداد الانسان لنفع نفسه وقريبه ، فى مراكزه الاستقبالية .

---

(١) عبد الحميد فايد : رائد التربية العامة ص ٢٨ .
(٢) نظمى خليل : مفهوم التربية ص ١١ .
(٣) محمود دنيا : التربية وأثرها ص ١١ .
(٤) البستانى : دائرة المعارف ٦/٨٦ .

ويقول الابـــراشـــى (١) :

التربيــــــة : هى اعداد المرء ليحيا حياة كاملة ، ويعيش محبا لوطنه ، قويا فـــى جسمه ، كاملا فى خلقه ، منظما فى تفكيره ، رقيقا فى شعوره ، ماهـــرا فى عمله ، متعاونا مع غيره ، يحسن التعبير بقلمه ولسانه ، ويجيـــــد العمل بيـــده .

ويقول عبد المجيد عبد الرحيم (٢) :

التربيـــــــة : هى اعداد الأفراد اعدادا صالحا للحياة الاجتماعية السوية وماتتمـيز به من حضارة ، طبقا لنظام اجتماعى معين .

ويقول صالح نابـــى (٣) :

التربيـــــــة : صلة بين المعلم والمتعلم ، الغرض منها مساعدة المربى للمربـــى للبلوغ به الى مستوى معين وفقا لأهداف مرسومة ، فهى فعل وانفعـــال وتأثـــر وتأثير باعتبارها علاقة انسانية قوامها استعدادات فكرية .

ويقول عبد الرحمن البانـــى (٤) :

التربيـــــــة : هى المحافظة على فطرة الناشـــئ ورعايتها ، وتنمية مواهبـــه واستعداداته كلها ، وتوجيه هذه الفطرة وهذه المواهب نحو صلاحها وكمالها ، والتدرج فى هذه العملية .

ويقول مؤلفو التربية وطرق التدريـــس (٥) :

التربيـــــــة : علم يبحث فى كل ما من شأنه أن يؤثر فى نمو الناشئ وتطوير استعداده ووظائفه : النفسية والعقلية والخلقية والروحية .

---

(١) الابراشى : روح التربية والتعليم ص ٧ .
(٢) عبد المجيد عبد الرحيم : مبادئ التربية ص ١٣ .
(٣) صالح نابى : أسس التربية الاسلامية ص ١ .
(٤) النحلاوى : أصول التربية الاسلامية ص ١٣ .
(٥) النحلاوى وزملاؤه : التربية وطرق التدريس ص ٥٤ .

ملاحظات على التعريفات السابقة :

جاءت هذه التعريفات ـ التى مرت معنا آنفا ـ مختلفة ، وذلك حسب تصور كل باحث لمفهوم التربية . ولكن هذه التعريفات تلتقى فى نهاية المطاف بقصد اصلاح الفرد وتهذيبه ، وتناولت هذه التعريفات تربية الفرد واصلاحه ولم تتعرض لتربية المجتمع ! مع أن تربية المجتمع أمر ضرورى وذلك لشدة تأثيره على الأفراد ، فلا بد من اصلاح الفرد والمجتمع لكى تؤتى التربية أكلها .

وركزت هذه التعريفات على تربية الطفل ، ولكنها لم تلتفت الى الانسان فى مختلف مراحل عمره ! مع أن التربية لازمة فى كل مراحل الحياة ، ولابد من توجيه جهد خاص لتربية الشباب حتى لاينحرفوا عن المبادئ التى تلقوها فى طفولتهم ، بل ان الشخص الناضج ذاته لايستغنى عن توجيه من هم أكثر منه خبرة وأوسع أفقا وأكثر تعلقا بالقيم العليا .

وتحدثُ هذه التعريفات عن المواطن الصالح ، وأغفلت هدف التربية الأكبر وهو ايجاد الانسان الصالح ! وايجاد الانسان الصالح من خلال التربية العامة لايتم الا فى ظل عقيدة ربانية صحيحة .

وقد اقتبس كثير من الباحثون العرب تعريفاتهم للتربية ، من تعريفات الأجانب لها ، وصاغوها بأساليبهم الخاصة !

ونستطيع أن نعرف التربية باستقراء جميع التعريفات السابقة بأنها :

(تزكية الفرد وتعليم المجتمع لايجاد الانسان الصالح) .

تعريف التربيـــة الاســـلامية :

لقد كثرت الكتابة أخيرا عن التربية الاسلامية ــ وهذا مايبشر بالخير ــ ولكـــن قليلا من الباحثين من عرف التربية الاسلامية التعريف الصحيح • وجل من كتب عـــن التربية الاسلامية لم يعرف لنا ــ مع الأسف ــ معنى التربية لغة واصطلاحا •

ولعل أول من ألف عن التربية بمنظور اسلامي في العصر الحديث ــ حســـب اطلاعي ــ هوشيخنا الأستاذ محمد قطب (حفظه الله) •

وهذه طائفة من التعريفات الاسلامية للتربيـــة :

يقول الاستاذ الجنـــدى :

(التربية الاسلامية : هي الاعداد الروحي والنفسي للفرد ، بحيث يكون مؤهلا لتلقـى التعليم والثقافة على نحو موجه ، فيأخذ ماهو أساسي بناء وماهـــو سبيل أن يمده بالقدرة على أداء رسالته في الحياة والمجتمع ــ هذه الرسالة الجامعة بين هدفي الدنيا والآخرة ــ من حيث البناء والعمل والسعي الى آفاق التقدم دون أن يكون ذلك على حساب القـــيم الخلقية أو المسؤولية الفردية ، بل لحسابها ودعما لها) • (١)

ويقول الشيخ ســـيد سابق :

(التربية الاسلامية : هي تحقيق النمو المتكامل للفرد بأبعاده المادية والعقلية والروحية ، بشكل لا يسمح للفرد بأن يحصل على أفضل مافي الحياة الدنيـــا فحسب ، بل عليه أن يتطلع الى مكانة روحية سامية في الآخرة) (٢) •

---

(١) أنور الجندى : التربية وبناء الأجيال ص ١٥٣ •

(٢) سيد سابق ومحمد عدلان : التربية العقلية في الاسلام ص ١ •

ويقول الشيخ الغزالى :

((والتزكية : هى أقرب الكلمات وأدلها على معنى التربية ، بل تكاد التزكيـــة والتربية تترادفان فى اصلاح النفس وتهذيب الطباع وشد الانسان الى أعلى ، كلما حاولت المثبطات والهواجس أن تسف به وتعوج))(١)

ويقول الاستاذ النحلاوى :

((التربية الاسلامية : هى التنظيم النفسى والاجتماعى الذى يؤدى الى اعتنـاق الاسلام وتطبيقه كلا فى حياة الفرد والجماعة .

وهى أيضا : تنمية فكر الانسان وتنظيم سلوكه وعواطفه على أســاس الاسلام ، وبقصد تحقيق أهداف الاسلام فى حياة الفرد والجماعـة فى كل مجالات الحياة))(٢) .

ويقول الاستاذ يالجن :

((التربية الاسلاميـة : هى تنشئة الطفل وتكوينه انسانا متكاملا من جميع نواحيـه المختلفة ، فى ضوء المبادئ التى جاء بها الاسلام))(٣)

ويقول الاستاذ المقـرى:

((التربية الاسلاميـة: هى عملية تعليم وتزكيـة))(٤)

وجاء فى توصيات المؤتمر العالمى للتعليم الاسلامى :

((التربية : هى رعاية نمو الانسان فى جوانبه المختلفة .. وتوجيهها نحو الصـلاح والوصول بها الى الكمال))(٥) .

---

(١) محمد الغزالى : نظرية التربية الاسلامية ص ١ .
(٢) النحلاوى : أصول التربية الاسلامية ص ٢٠ و ٢٦ .
(٣) مقداد يالجن : التربية الأخلاقية الاسلامية ص ٥٤ .
(٤) المقرى : تربية النفس فى ظل القرآن ص ٤ .
(٥) المؤتمر العالمى الأول للتعليم الاسلامى : توصيات المؤتمر ص ٣ .

المفهوم الاسلامي للتربية :

قبل الحديث عن مفهوم التربية الاسلامية أوضح بأنني لم أجد ـ حسب اطلاعي ـ باحثا مسلما متخصصا في التربية كتب عن التربية الاسلامية ـ في جميع مجالاتهـا ـ بأسلوب علمـي .

وأدعو المولى تبارك وتعالى أن يقوم على كل ثغر من ثغور الاسلام ـ وهي كثيرة ومختلفة ـ من يقوم به خير قيام ، لئلا يؤتى من قبله . ولا أعني أن ماكتب عن التربية الاسلامية بأقلام طائفة من الباحثين المخلصين ـ ولانزكي على الله أحدا ـ غير صحيح أو لايفيد كلا ! ولكن معظم هؤلاء الأفاضل غير مختصين في التربية .

وعن المفهوم الاسلامي للتربية : يقول شيخنا الفاضل محمد قطب ،

((طريقة الاسلام في التربية : هي معالجة الكائن البشري كله معالجة شاملة ، لاتترك منه شيئا ولاتغفل عن شيء ، جسمه وعقله وروحه حياته المادية والمعنوية وكل نشاطه على الأرض .

انه يأخذ الكائن البشري كله ـ ويأخذه على ماهو عليه ـ بفطرته التي خلقه الله عليها ، لايغفل شيئا من هذه الفطرة ، ولايفرض عليها شيئا ليس في تركيبها الأصيل . ويتناول هذه الفطرة في دقة بالغة ، فيعالج كل وتر منها ، وكل نغمة تصدر عن هذا الوتر فيضبطها بضبطها الصحيح . وفي الوقت ذاته يعالج الأوتار مجتمعة ، لايعالج كلا منها على حدة فتصبح النغمات نشازا لاتناسق فيها . ولايعالج بعضها ويهمل البعض الآخر فتصبح النغمة ناقصة غير معبرة عن اللحن الجميل المتكامل الذي يصل في جماله الآخاذ الى درجة الابداع)) (١) .

---

(١) محمد قطب : منهج التربية الاسلامية ١ / ١٩ .

ويقول أيضـــا :

((وتقوم التربية الاسلامية على أساس أن العبادة الصحيحة لله هي وسيلة التزكيـة للنفس الانسانية التي يشير اليها القرآن الكريم : " ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها " (الشمس : ٧ ـ ١٠) . وهي كذلك وسيلة التربية ، ذلك أن الهدف الأخير للتربية : هو تزكية النفس . ومـن ثم كانت وسيلة التزكية هي نفسها وسيلة التربية)) (١)

ويقول الاستاذ الربيـــع :

((تعتمد التربية الاسلامية ـ في مفهومها العام ـ على وسيلتين همـــا : العلم ـ أو التعلم ـ ، ورياضة النفس وتهذيبها .

وهاتان الوسيلتان في واقع الأمر لايمكن الفصل بينهما بأي حال . لأن العلـــم وحده ، لايكفي للسيطرة على نوازع الهوى ، مالم تشترك معه العوامل التربوية الأخـــرى التي تنقل الأفكار والتوجيهات ، من الآفاق المطلقة ـ أو المثالية ـ الى مجال العمـل والحركة والتطبيق))(٢)

ويقول الاستاذ بارم :

((والهدف من التربية الاسلامية ينحصر في فهم أصول الدين وأحكامه وآدابـــه وأغراض الشريعة ومقاصدها السامية ، لارتباط ذلك بمناهج السلوك الديني والاجتماعي السليم التي ينبغي على الفرد المسلم أن يتبعها ، ويتقيد بالقيم الروحية والفكريـــة الفاضلة ، والمثل العليا التي يدعو اليها . ليحقق له ذلك السعادة التامة والفـــلاح المطلـق في الدنيا والآخرة)) (٣)

---

(١) محمد قطب : النظرية التربوية الاسلامية ص١ .
(٢) عبد العزيز الربيع : اعداد الفرد من وجهة التربية الاسلامية ص ٣١٩ .
(٣) محسن بارم : التربية الاسلامية وأهدافها ص ٢١٣ .

ويقول الشيخ أبو زهـــرة :

تقوم التربية الاسلامية على عناصر أربعة هـــى :

تهذيب النفس وتربية الوجدان ، وتقويم اللسان .

وتمكين كل عامل أن يعمل بمقدار طاقته ، وانتفاع الجماعة من كل الكفايات وتسهيل ذلـــك .

واشراف الجماعة على توجيه القوى المختلفة للعمل .

والتربية العسكرية العامة ، بحيث يكون كل مسلم مجاهدا مقاتلا اذا طلـــب للميدان (١) .

ويقول الاستاذ أحمد جمال :

(المنهج الاسلامى للتربية يقدم القدوة العملية فى هذا المنهج ،القدوة العملية: من الأب فى بيته وبين أبنائه وبناته ، والقدوة العملية : من المدرس فى المدرســة والجامعة ، والقدوة العملية : من الحاكم بين محكوميه) (٢)

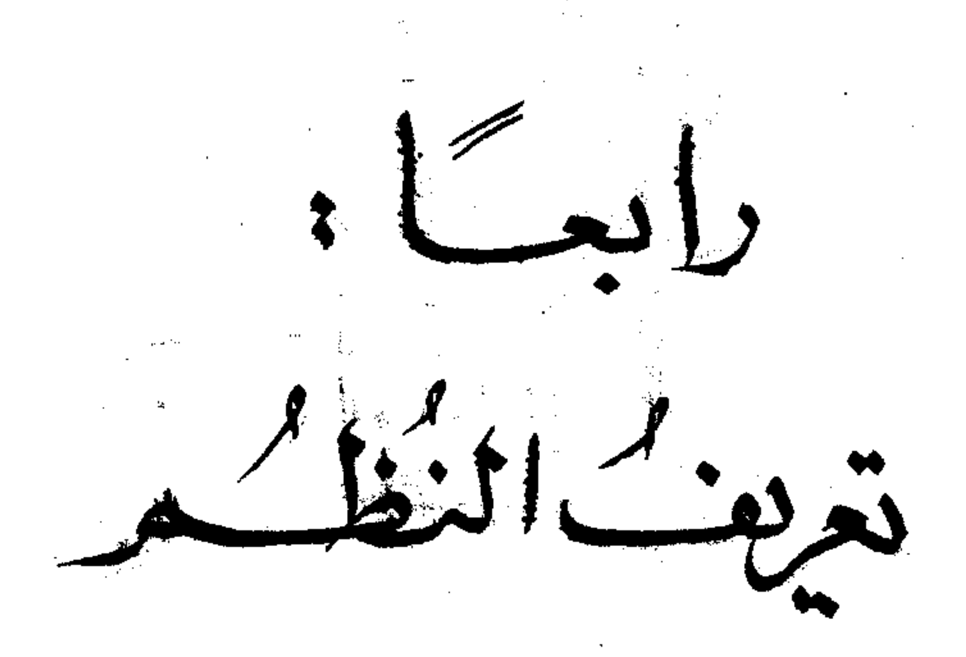
وهكذا نجد أن التربية فى مفهومها الاسلامى تمتاز عن غيرها : بأنها وســـيلة لارضاء الله تعالى ، وليست غاية فى حد ذاتها .

كما تمتاز بأنها تعنى أيضا بالفرد طيلة حياته ، فى روحه وفكره وجسده وأخلاقــه وعلاقته بغيره ، كما تعنى بالمجتمع – فى الوقت نفسه – سياسة واقتصادا وأخلاقـــا وجهادا وثقافا وسلوكا ...

ووسائل التربية الاسلامية نظيفة – فى كل زمان ومكان ومجال – نظافة غايتهـــا وبواعثها وثمرتها . وتهدف الى ايجاد الانسان الصالح والمجتمع الصالح للفـــوز بسعادة الداريـــن .

---

(١) محمد أبو زهرة : تنظيم الاسلام للمجتمع ص ١٧٢ .
(٢) أحمد جمال : دور التربية فى بناء المجتمع ص ٢٤ .


رابعاً:
تعريف النظم

النظـــم لغـــــة :

نظـم : النون والظاء والميم : أصل يدل على تأليف شـيء .

ونظم الشيء الى الشيء ينظمه نظما : ضمه ولفه ، ومثله : نظمه .

ونظم الأمر : أقامه . وتنظم الأمر : استقام ، والانتظام : الاتساق .

والنظـــام : ملاك الأمر وقوامه ، وجمعه : أنظمة .

والنظام ماانظمت فيه الشئ ، وهو الخيط الذي ينظم به اللؤلؤ .

والنظـــم : الثريا ، على التشبيه بالنظم من اللؤلؤ .

وحل القوم نظم من جراد : أي صف منه . والنظم : رجل الجـــراد .

وجاءنا نظم من جراد ، وهو الكثير . وأنظمت الدجاجة ، اذا صار في جوفها بيض .

والنظم : الكلام المنظوم ، ويقابله النثر .

وتقول : هذان البيتان ينتظمهما معنى واحد .

وتقول : القوم على نظام واحد : أي على منهج غير مختلف .

وتقول : هذه أمور عظام ، لو كان لها نظام .

ويقال لثلاثة كواكب من الجوزاء : نظم وطعنه فانتظمه : أي اختله .

ونظمت اللؤلؤ : أي جمعته في السلك ، والتنظيم مثله ، ومنه : نظمت القمر ونظمته .(١)

---

(١) الزمخشري : أساس البلاغة ص ٤٦٣ .
والجوهري : الصحاح ٥/٢٠٤١
وابن زكريا : معجم مقاييس اللغة ٥/٤٤٣ و ٤٤٤ .
والرازي : مختار الصحاح ص ٦٦٧ .
والبستاني : فاكهة البستان ص ١٤٦٩ .
ووجـــدي : دائرة المعارف ١٠/٣٠٩ .

النظـــم اصطلاحـــــا :

النظام والنظم والأنظمة بمفهومها الشائع لم تستعمل الا فى العصر الحديـــث • وسنورد الآن تعريفات بعض الباحثين (للنظم) بشكل عام ، ثم نتبع ذلك بتعريفات بعض الباحثين (للنظم الاسلامية) ، ثم نعرف (النظم) الاسلامية من خـــلال استقرائنا لجميع التعريفات السابقة •

أولا : تعريف النظام (بشكل عام) •

جاء فى كتاب النظم الاسلامية [1] :

النظم : كلمة تطلق على كل شئ يراعى فيه الترتيب والانسجام والارتبـــاط • وهى ـ بهذا الاعتبار ـ تشبه العقد من حيث انتظام أحجاره بعضها مع بعـــض •

ونظم أية دولة تتكون من مجموعة القوانين والمبادئ والتقاليد التى تقـــوم عليها الحياة فى هذه الدولة •

وجاء فى كتاب مدونة النظم الاسلاميـــة [2] :

النظام العام : هو فكرة أو اعتبار يقوم فى ذهن المشرع الوضعى ـ بالمعـــنى الواسع ـ يؤدى الى أن يعتبر حكم أنه من الأحكام الآمرة لايجوز الاتفاق علـى مايخالفــه •

وجاء فى كتاب نظام الحكم فى الاســـلام [3] :

التنظيم : يقصد به مجموعة من الأحكام اصطلح شعب على أنها واجبـــة الاحترام وواجبة التنفيذ لتنظيم الحياة المشتركة فى مجتمع هذا الشعب •

---

(١) حسن ابراهيم وعلى ابراهيم : النظم الاسلامية ـ ص٤ •
(٢) مصطفى كمال وصفى : مدونة النظم الاسلامية ص ٨١ •
(٣) محمد العربى : نظام الحكم فى الاسلام ص ٢١ •

وجاء في كتاب نظام الادارة في الاسلام [١] :

كلمة نظام : تعني الطريق الذي يحدد السير وضبطه • كما تعني المسار الذي يجب أن يتحراه السلوك ويستهدفه •

ان النظام في معناه الأول (وهو الخيط) : ينظم حبات العقد ، ويوفر لهما الاتساق ويمنعها من الانفراط •

وفي معناه الثاني (الملاك والقوام) : يعني الأساس الذي يجب أن تصدر عنه قرارات التنفيذ بالذات ، أو هو الاطار الذي يجب ألا تخرج عنه هذه القرارات •

وجاء في كتاب نظام الحكم الاسلامي [٢] :

المقصود بالتنظيم : هو وجود هيئة حاكمة منظمة مهمتها الاشراف على الاقليم ومن يقيمون عليه • بحيث يكون لها أن تصدر الأوامر الملزمة لكل أفراد الجماعة •

أما قاموس أكسفورد [٣] :

فيعرف النظام بأنه : مجموعة من الأشياء متصلة بعضها ببعض ، بحيث تتكون منها وحدة مركبة •

ويقول صبحي الصالح [٤] :

لكل دولة مبادئ وتعاليم في السياسة والادارة والاقتصاد ، تصاغ في بدء نشأتها صياغة نظرية ، فيحسن القوامون عليها تطبيقها أو يسيئون ، ويزيدون أصولها أو ينقصون •• وقد تستعصي هذه النظريات كلها — أو بعضها — على التطبيق ، ثم تظل في أعين الباحثين مجموعة من القوانين التي سنها الشارع في بعض المجتمعات للتنظيم فما أحراها أن تسمى (بالنظم) على اختلاف الهيئات والعصور •

---

(١) القطب طبلية : نظام الادارة في الاسلام ص ١٠ •
(٢) محمود حلمي : نظام الحكم الاسلامي ص ٢٠ •
(٣) محمود عبد المولى : أنظمة المجتمع والدولة ص ١١٩ •
(٤) صبحي الصالح : النظم الاسلامية ص ٥٥ •

ثانيا : تعريف النظم الاسلامية :

يقول الاستاذ سيد قطب :

((والدين)) فى المفهوم الاسلامى هو المرادف لكلمة ((النظام)) فى الاصطلاحات الحديثة [مع شمول المدلول للعقيدة فى الضمير ، والخلق فى السلوك ، والشريعة فى المجتمع .. فكلها داخلة فى مفهوم ((الدين)) فى الاسلام .

ومن ثم لايمكن أن يكون هناك نظام يقبله الله ويقره الاسلام ، مالم يكن هذا النظام مستمدا من التصور الاسلامى الاعتقادى ، وتمثلا فى تنظيمات وتشريعات مستمدة من الشريعة الاسلامية دون سواها ..

وأهم من هذا كله أن يذعن أصحاب هذا النظام لألوهية الله وربوبيته فلا يدعون لأنفسهم حق اصدار الشرائع والأنظمة ، لأن هذا الحق لله وحده فى الاسلام . وهنا يفترق النظام الاسلامى عن كل الأنظمة البشرية الافتراق الأساسى [1] .

ويقول الاستاذ محمد قطب (حفظه الله) :

((لاشك أن فى الاسلام تنظيمات اجتماعية واقتصادية وسياسية تشمل حيزا غير قليل من القرآن وحيزا أكبر من السنة ، ولكن الاسلام مع ذلك ليس نظاما بالمعنى المفهوم فى النظام الديمقراطى أو الشيوعى أو .. الخ

انه عقيدة أولا ونظام بعد ذلك منبثق من العقيدة .

وهذا تذكير وتوكيد بأن النظام ليس هو الأساس ، انما العقيدة هى الأساس .

وتلك مزية النظام الاسلامى على غيره من النظم الجاهلية ، ولو حققت للناس بعض النفع فى المدى القريب)) [2] .

---

(١) سيد قطب : العدالة الاجتماعية ص ٩٨ و ٩٩ .

(٢) محمد قطب : دراسات قرآنية ص ٤٢٦ .

ويقول الاستاذ عبد القادر عودة :

((والنظام الاسلامى أشبه مايكون بالآلة التى تنتج الكهرباء والعقيدة الاسلامية هى النور الذى تعمل الآلة لانتاجه . فاذا عطلت الآلة .. انقطع النور وانتهى الاسلام)) (١)

ويقول الاستاذ محمد المبارك :

((تشعر كلمة نظام بانتظام العقيدة والأخلاق والعبادة والتشريع فى سلك واحد يربطها به الاسلام نفسه .

وهى تقابل مافى بعض اللغات الأوربية من كلمات تركب باضافة (Isme) التى تضاف الى المذاهب . أو تصدر بلفظ (Systeme) الدال على الطريقة المتميزة ، أو النظام الذى يستقل به دين أو مذهب بوجه عام ، أو فى ناحية خاصة تضاف اليه)) (٢) .

ويقول الاستاذ محمد المبارك :

((نقصد بالتنظيم الاسلامى فى مجموعه : المناهج التى رسمها الاسلام لسلوك المسلم وسلوك الجماعة المسلمة ليستقيم أمر المجتمع المسلم)) (٣) .

ويقول الاستاذ عابد الهاشمى :

((نظم الحياة فى الاسلام : هى ماالختطه الله تعالى للانسان فى آفاق الحياة (الروحية والخلقية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية ..) بما أنزله فى كتابه الكريم وشرحه رسوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى الحديث واجتهاد العلماء والمفسرين)) (٤)

---

(١) عبد القادر عودة : الاسلام وأوضاعنا السياسية ص ٧٨ .
(٢) المبارك : نظام الاسلام (العقيدة والعبادة) ص٤ ٢ .
(٣) العربى : نظام الحكم فى الاسلام ص ٢١ .
(٤) الهاشمى : طرق تدريس الدين ص ٢٥٩ .

ومع الاعتراف بقصر الباع وقلة الاطلاع ، فاننا نعرف النظم الاسلامية بأنها :

((مجموعة الأحكام التي رتبها الاسلام للفرد والمجتمع والدولة ، في جميـــــع شـــئون الحياة)) تحقيقا لقوله تعالى : " ياأيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة" * أي في الاسلام بمجموع حياتكم ، " ولاتتبعوا خطوات الشيطان .. " * وخطوات الشيطان متمثلة في النظم والأوضاع الأخرى غير الاسلام .

---

* ســورة البقــرة : ٢٠٨ .

طبيعة النظم الاسلامية :

لقد بات من نافلة القول اثبات شمولية الاسلام ، وأنه يشمل بتوجيهاته وتنظيماته وتشريعاته جميع شؤون الدنيا والآخرة صغيرها وكبيرها ، فلا تكاد سورة قرآنية تخلو من الحديث عن جانب من جوانب الحياة . كما أن سنة النبي (صلى الله عليه وسلم) تتسم بالشمول أيضا . وكما أنه بات معلوما من الدين بالضرورة أن الصلاة من شعائر الاسلام - ولايستطيع مسلم أن يكابر في ذلك - فكذلك النظم الاسلامية - السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية والثقافية والأخلاقية والتربوية والنفسية .. جزء لايتجزأ من دين الله تعالى . والحق تبارك وتعالى القائل في محكم التنزيل :

" قد أفلح المؤمنون ، الذين هم في صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون " (المؤمنون : ١-٤) .

هو نفسه القائل :

" فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما " (النساء : ٦٥) .

والله عز وجل القائل :

" ياأيها الذين آمنوا لاتقتلوا الصيد وأنتم حرم " (المائدة : ٩٥) .

هو نفسه الذي أمر عباده بقوله :

" ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا عدوي وعدوكم أولياء " (الممتحنة : ١)

والله عز وجل الذي أمر عباده بقوله :

" ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى " (البقرة : ١٧٨) .

هو نفسه الذي أمر عباده بقوله :

" قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولاباليوم الآخر ولايحرمون ماحرم الله ورسوله ولايدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون" (التوبة : ٢٩) .

فاذا سلمنا بأن الاسلام يدخل فى حسابه الفرد : حالصحته وسقمه ، غنـاه وفقره ، جوعه وشبعه ، ظمئه وريه ، صغره وكبره ، فراغه وشغله ، حياته وموته ، حالة كونه حاكما ومحكوما ، ضعيفا وقويا ، صغيرا وعظيما ، ذكرا أو انثى ، حرا أو عبدا ، أبيض أو أسود ، عربيا أو عجميا ...

واذا سلمنا بأن الاسلام يوجه أنظمة الحياة المختلفة .. وأنه ينظم معاملات الأفراد بعضهم ببعض ، ومعاملاتهم بالدولة ، ومعاملات الدولة بهم ، ومعاملات الدولة بغيرها ..

واذا سلمنا بأن الاسلام دين ودولة ، دينا وآخرة ، مصحف وسيف ، ثقافة وخلق علم وقضاء ، قانون ومعاملات ...

اذا سلمنا بكل هذا ـ اعتقادا وقولا وعملا ـ نكون حينئذ فهمنا طبيعة النظم الاسلامية وفهمنا الاسلام الصحيح الذى قال الله تعالى عنه : " اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا " (المائدة : ٣) وقال فيه : " ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين " (آل عمران : ٨٥) ونكون حينئذ أتباع الشريعة التى قال الله عز وجل عنها : " ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولاتتبع أهواء الذين لايعلمون " (الجاثية : ١٨)

أما اذا ادعينا الاسلام وآمنا بأنه الدين الذى لايقبل الله تعالى دينا سواه ، ثم أخذنا به فى أحد جوانب الحياة فحسب ، فاننا بذلك نكون ممن شملتهم الآية الكريمة : " أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ، فما جزاء من يفعل ذلك منكم الا خزى فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون الى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون " (البقرة : ٨٥) .

وكما يقول الاستاذ سيد قطب (رحمه الله) :

((ومع أن هذا النص القرآني كان يواجه ابتداء حالة واقعة من بني اسرائيل فانه في ايحائه للنفس البشرية ــ ولرجال الدين بصفة خاصة ــ دائم لايخص قوما دون قوم ولايعني جيلا دون جيل .

ان آفة رجال الدين ــ حين يصبح الدين حرفة وصناعة لاعقيدة حارة دافعة ــ انهم يقولون بأفواههم ماليس في قلوبهم ، يأمرون بالخير ولايفعلونه ، ويدعون الى البر ويهملونه ، ويحرفون الكلم عن مواضعه ، ويؤولون النصوص القاطعة خدمة للغرض والهوى ، ويجدون فتاوى وتأويلات قد تتفق في ظاهرها مع ظاهر النصوص ولكنها تختلف في حقيقتها عن حقيقة الدين لتبرير أغراض وأهواء لمن يملكون المال والسلطان ! كما كان يفعل أحبار يهود !

والدعوة الى البر والمخالفة عنه في سلوك الداعية اليه ، هي الآفة التي تبلبل قلوب الناس وأفكارهم لأنهم يسمعون قولا جميلا ويشهدون فعلا قبيحا فتتملكهم الحيرة بين القول والفعل* ، وتخبو في أرواحهم الشعلة التي توقدها العقيدة ، ان الكلمة لتنبعث ميتة وتصل هامدة مهما تكن طنانة رنانة متحمسة اذا هي لم تنبعث من قلب يؤمن بها .

ولن يؤمن انسان بما يقول حقا الا أن يستحيل هو ترجمة حية لما يقول ، وتجسيما واقعيا لما ينطق .. عندئذ يؤمن الناس ويثق الناس ، ولو لم يكن في تلك الكلمة طنين ولابريق .. انها حينئذ تستمد قوتها من واقعها لامن رنينها ، وتستمد جمالها من صدقها لامن بريقها .. انها تستحيل يومئذ دفعة حياة لأنها منبثقة من حياة)) (١) .

---

* ذكرني هذا القول بوصف الشاعر للواحد من هؤلاء :

ذئب تــراه مصليــا فاذا مررت به ركــع !
يدعو وجـل دعائـه مالفريسـة لاتقـع ؟
عجل بها ياذا العـلا ان الفؤاد قد انصدع !!

(١) الظـلال ٦٨/١ .

وهذا مثال يوضح كيف أن تطبيق جوانب من النظم الاسلامية وترك جوانب أخرى منها ،لاينجي صاحبه ــ فردا أو مجتمعا أو دولة ــ من عذاب الله ! نقول : لو أن استاذا يعلم تلاميذ مجمع الحصص ، ومن بين تلاميذه طالب لايحضر الا درسا واحدا من واجباته ــ ويهمل بقية دروسه نهائيا ــ ،ومع كونه لايطيع استاذه في تحضير بقية دروسه الا أنه شديد الاحترام والتقدير لأستاذه !

هل يصدق عاقل أن هذا الطالب سينجح في نهاية العلم ؟

ولو حللنا هذا المثال : لوجدنا أن اطلاق لفظ (طالب) عليه صحيح ، لانه يأتي معزملائه الى فصل الدراسة . وسيأخذ ــ كبقية زملائه ــ شهادة في نهاية السنة ،لكنها شهادة رسوب! واحترامه الشديد لاستاذه لن يغير من نتيجته النهائية . ولله المثل الاعلى ! ينطبق هذا المثال على من احترم الدين ، وتسمى بأسماء المسلمين ،وأطاع الله في جوانب من الحياة ،وعصاه في بقية الجوانب . فهذا قد يطلق عليه لفظ (مسلم) في الدنيا ، لانه نطق بالشهادتين ــ مع أنه لم يعمل بمقتضاهما ــ ، ولكن مشاركته المسلمين في احدى مجالات الحياة لاتنجيه من عذاب الله تعالى يوم القيامة ،وسيأخذ ــ والله أعلم ــ شهادة (راسب) في جهنم ! * ولاينفعه كون اسمه اسلاميا ،أو أنه يكن الاحترام والتقدير للاسلام والمسلمين ! وصدق الله العظيم " يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا : انظرونا نقتبس من نوركم قيل : ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا . فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ينادونهم : ألم نكن معكم ؟ قالوا : بلى ! ولكنكم فتنتم أنفسكم ،وتربصتم وارتبتم ،وغرتكم الأماني ، وغركم بالله الغرور . فاليوم لايؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا ،مأواكم النار، هي مولاكم ،وبئس المصير " . (الحديد : ١٣ ــ ١٥) .

---

* مع التنبيه على أنه : يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من ايمان !

والاســـلام بطبيعته الشاملة يتعامل مع النفـس ، فى علاقتها مع الله تبـــارك وتعالى ومـع غيره . ويتعامل مع المجتمع ، فى علاقته مع الفرد ومع الدولة ، ويتعامل مع الدولة ، فى علاقتها مع الرعية ــ سواء كانت مسلمة أو كافرة ــ ، ومع بقية الدول .

ولايترك الاسلام صغيرة ولاكبيرة فى الحياة كلها الا ينظمها ويوجهها نحو الخـير والفلاح فى الدارين .

ولكن هذه الحقائق ــ مع كونها من بديهيات الاسلام ــ صارت غريبة اليوم على حس كثير من المسلمين ، بسبب غربة الاسلام اليوم فى الأرض !

قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " بدأ الاسلام غريبا وسيعود كما بـدأ غريبا فطوبـى للغرباء " وفى رواية أخرى : " ان الدين بدأ غريبا ويرجع غريبـا ، فطوبى للغرباء الذين يصلحون ماأفسد الناس من بعدى " . (١)

ولله در الامام ابن القيم حيث يقول :

((ومن له ذوق فى الشريعة واطلاع على كمالها وتضمنها لغاية مصالح العبـاد فى المعاش والمعاد وجيئها بغاية العدل الذى يسع الخلائق ، وأنه لاعدل فـوق عدلها ولامصلحة فوق ماتضمنته من المصالح :

تبين له أن السياسة العادلة جزء من أجزائها وفرع من فروعها . وأن من أحـاط علما بمقاصدها ووضعها مواضعها وحسن فهمه فيها : لم يحتج معها الى سياسـة غيرها البتـة)) (٢) .

---

(١) انظر هذا الحديث برواياته المختلفة فى مسلم ١ /١٣٠ .
وسنن الترمذى ٥/ ١٨ .
وقال عنه الترمذى : حديث حسن صحيح .
وسنن ابن ماجة ٢ /١٣٢٠ .
والطبرانى : المعجم الصغير ١ /١٠٤
والساعاتى : الفتح الربانى ١ /١١٤ .
ومعنى طوبى : نعم مالهم ، وغبطة لهم .

(٢) ابن القيم : الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية ص ٤ .

يقول الاستاذ المودودى

(هل هناك ترابط أو انسجام بين نظم الاسلام الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والدينية ؟ والجواب : بينهما ترابط كترابط أصل الشجرة مع دوحتها ، وترابط دوحتها مع فروعها وترابط فروعها مع أوراقها . ليس هناك ـ فى الحقيقة ـ الا نظام واحد ينشأ من الايمان بوحدانيه الله ورسالات رسله . منه يتولد النظام الخلقى ومنه يتشكل نظام الشعائر التعبدية ، وعليه يتأسس النظام الاجتماعى ومنه يصدر النظام الاقتصادى . ان جميع هذه النظم شعب مختلفة وأجزاء منوعة لنظام واحد تتماسك وتنسجم بعضها مع بعض وتغذى بعضها بعضا .

واذا انعدمت عقيدة التوحيد والرسالة ، وانعدمت الأخلاق التى تنشأ من هذه العقيدة ، يستحيل أن يقوم نظام الاسلام الاقتصادى أو السياسى) (١)

ويقول الاستاذ سيد قطب :

(والاسلام منهج حياة شامل متكامل : يشمل الاعتقاد فى الضمير والتنظيم فى الحياة ، لا بدون تعارض بينهما فحسب ، بل فى ترابط وتداخل يعز فصله ، لأنه حزمة واحدة فى طبيعة هذا الدين .

وليس فى التصور الاسلامى نشاط انسانى لا ينطبق عليه معنى العبادة ، أو لا يطلب فيه تحقيق هذا الوصف . وليس هناك من وصف فى المنهج الاسلامى لنظام الحكم ، ونظام الاقتصاد ، والتشريعات الجنائية ، والتشريعات المدنية ، وتشريعات الأسرة . . وسائر التشريعات التى يتضمنها هذا المنهج . . ليس هناك من هدف الا تحقيق معنى العبادة فى حياة الانسان . . .) (٢)

---

(١) المودودى : مفاهيم اسلامية حول الدين والدولة ص ١٢٤ و ١٢٥ .

(٢) سيد قطب : خصائص التصور الاسلامى ص ١٨٥ بتصرف يسير .

يقول أيضا :

((ان القاعدة التي يقوم عليها النظام الاسلامي تختلف عن القواعد التي تقوم عليها الانظمة البشرية جميعا .. انه يقوم على أساس أن الحاكمية لله وحده وسائر الانظمة تقوم على أساس أن الحاكمية للانسان ،فهو الذي يشرع لنفسه .. وهما قاعدتان لاتلتقيان . ومن ثم فالنظام الاسلامي لايلتقي مع أى نظام . ولايجوز وصفه بغير صفة الاسلام)) (١)

ويقول الاستاذ محمد قطب :

((لقد درجنا في أيامنا الاخيرة - بسبب العدوى الوافدة الينا من الغرب - أن نحدث عن الاسلام كنظام - سياسي واقتصادي واجتماعي .. الخ - ولاشك أن في الاسلام تنظيمات سياسية واقتصاديه واجتماعية وتربوية وأخلاقية .. ولكن الحديث عن أى تنظيم أو نظام اسلامي بمعزل عن العقيدة انما يفقده روحه ،ويحوله - كأى نظام آخر - الى نظام تقوم عليه " الدولة " وتحرسه تنظيماتها ولا زيادة ! وليس الأمر كذلك في الاسلام !

حقيقة أن النظم الاسلامية متميزة في ذاتها ،لأنها من صنع الله تعالى . فهي خالية من عيوب القصور البشري ،والهوى البشري ، والنظرة البشرية الجزئية ،التي ترى شيئا وتغفل عن أشياء ،وترى مصلحة الجيل الواحد ولا ترى مصلحة كل الاجيال ، بل ترى زاوية واحدة من الشئ الواحد ولا ترى الزوايا كلها مجتمعة في آن ..

ولكن هذه الميزة - على ضخامتها ليست الميزة الوحيدة في النظام الاسلامي . والوقوف عندها ،تفكيرا . أو تنفيذا ،يفقد النظام أهم خصائصه ، وهي قيامه على العقيدة وانبثاقه منها ..)) (٢)

---

(١) سيد قطب : العدالة الاجتماعية ص ٩٤ .
(٢) محمد قطب : دراسات قرآنية ص ٢٦٦ .

ويقول الاستاذ الضنــــاوى :

((وليس من قبيل المصادفـة ـ وقد ربط الاسلام أنظمته بفكرته الشاملة عن الكــون والانسان والحياة ووظيفة هذا الانسان فى الوجود ـ أن يأتى القرآن الكريـــــم بقواعد التشريع ومبادئ أنظمة الحكم والاقتصاد والاجتماع فى طيات آيات التوجيـــــه والتشـــريع .

ولعل قوله تعالى : " والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش واذا ماغضبوا هـــم يغفرون . والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهـــم ينفقون " (الشورى : ٣٧ و ٣٨) خير مثل فى هذا الصـدد)) [1] .

---

(١) محمد على الضناوى : الطريق الى حكم اسلامى ص ٤٢ .

الباب الأول

أثر العقيدة في تربية النفس

وفيه / أثر الإيمان بالله وملائكته وكتبه
ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر
في تربية النفس

الفصل الاول

أثر الإيمان بالله تعالى

في تربية النفس

تمهيــــد :

يقول المولى تبارك وتعالى فى محكم التنزيل : " آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لانفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير " (البقرة : ٢٨٥) .

وجاء فى الحديث الذى رواه أبو هريرة (رضى الله عنه) :

(كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوما بارزا للناس فأتاه رجل فقال : ماالايمان ؟ قال : الايمان أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه ورسله ، وتؤمن بالبعث) . وفى رواية أخرى : (أن تؤمن بالله وحده ، وملائكته وكتبه ورسله وبالبعث بعد الموت والجنة ـ والنار وبالقدر خيره وشره) . [١]

والايمان ـ كما يقول الامام ابن القيم ـ :

((له ظاهر وباطن : فظاهره قول اللسان وعمل الجوارح ، وباطنه تصديق القلب وانقياده ومحبته . فلا ينفع ظاهر لاباطن له وان حقن به الدماء وعصم به الذرية ، ولايجزئ باطن لاظاهر له الا اذا تعذر بعجز أو اكراه وخوف وهلاك [٢]))

((وليس الايمان هو الاقرار دون الاعتقاد ، فقد أخبر الله تعالى عن المنافقين اقرارهم بالايمان ، ونفى عنهم سمته بقوله " وماهم بمؤمنين " (البقرة : ٨) بل الايمان كلمة جامعة للاقرار بالله وكتبه ورسله .. وتصديق الاقرار بالفعل [٣])).

---

(١) الشرجى : التجريد الصريح ١/ ٧٥ .
والبغوى : شرح السنة ١/ ٩ .

(٢) ابن القيم : الفوائد ص ٨٥ .

(٣) الجصاص : أحكام القرآن ١/ ٢٥ .
والشوكانى : فتح القدير ١/ ٣٥ .

معـــنى الايمان باللـــه :

الايمان بالله : هو توحيده ـ عز وجل ـ في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاتـــه .

فتوحيد الألوهية* : هو اخلاص العبادة لله تعالى وحده ، من المحبة والخـــوف والرجاء والتوكل والدعاء وجميع العبادات ظاهرها وباطنها ، وألا يجعل فيهـــا شيئا لغير الله .

أو هـــو : أن يتخذ العباد المولى (تبارك وتعالى) محبوبا ومألوها ، وأن يفردوه بالاخبات والطاعة ...

وهذا التوحيد : أول واجب على المكلف ، وقد أفصح القرآن به كل الافصاح وهو الذى جعلوا لله تعالى فيه شركاء (١) !

وأما لفظ (الـه) : فهو بمعنى مألوه أى معبود . وهو الذى تألهه القلـــوب بالمحبة والخضوع .. وأجمع على ذلـــك العلماء (٢) .

ولفظ الجلالة (الله) : هو أكبر الأسماء وأجمعها للمعانى . وقد اختصه المولـــى جل وعلا لنفسه ، وقدمه على جميع أسمائه ، وأضاف أسماءه كلها اليـــه ، فكل ما يأتى بعده من أسماء نعت له (٣) .

واختلفوا فيه : هل هو مشتق أم لا (٤) ؟ وهذه مسألة خلافية ـ كما يقول الأستاذ البنا ـ لايترتب عليها أمر عملـــى (٥) .

وتوحيد الألوهية يتضمن جميع أنواع التوحيد بخلاف غيره .

---

(١) المقريزى : تجريد التوحيد المفيد ص٧ ،
والصنعانى : تطهير الاعتقاد ص٦ .
والعاصمى : حاشية كتاب التوحيد ص١١ ،
وحمد بن عتيق : ابطال التنديد ص١٥ .

(٢) أبو بطين : جواب أبى بطين ص١٠ ،
وعبد الرحمن آل الشيخ : قرة عيون الموحدين ص ١٤ و ١٥ .

(٣) الجمل : الأسماء الحسنى ص ٣٥ .

(٤) الزجاج : تفسير أسماء الله ص ٢٥ .
والمودودى : المصطلحات الأربعة ص ١٣ .

(٥) البنا : رسالة العقائد ص ٤٤٣ .

* محمد نعيم : الايمان ص ٧ .

توحيـــد الربوبيـــة[١] :

هو العلم والاقرار بأن الله عز وجل رب كل شئ وخالقه ومليكه ورازقه ، وأنـــــه المحيى المميت النافع الضار المتفرد باجابة الدعاء عند الاضطرار ، والمدبر لأمــــور خلقه أجمعين ، والذى له الأمر كله ، وبيده الخير كله . (ويدخل فيه الايمان بالقدر) .

أو : هو الاعتقاد بأن الله تعالى وحده هو خالق العالم وهو ربه ورازقه . (وهذا التوحيد لاينكره المشـــركون) .

توحيـــد الأسماء والصفات[٢] :

وهو أن يوصف المولى عز وجل بما وصف به نفسه ، وبما وصفه به رسوله (صلى الله عليه وسلم) من صفات الكمال ونعوت الجمال ، من غير تكييف ولاتمثيل ولاتحريف ولاتعطيل .

أو : هو الاقرار بأن الله على كل شـــئ قدير وبكل شئ عليم وأنه سـميع بصــــير وأنه الحى القيوم الذى لاتأخذه سنة ولانوم وأنه تعالى لايشبهه شئ لافـــى ذاته ولافى صفاته ولافى أفعاله .

(ولابد لهـذا التوحيد من توحيد الألوهية وتوحيد الربوبيــة)[٣] .

---

(١) محمد بن عتيق : ابطال التنديد ص١٤ ،
والعاصمى : حاشية التوحيد ص ١١ .
والصنعانى : تطهير الاعتقاد ص٦ .
وعبد الرحمن آل الشيخ : قرة عيون الموحدين ص ٤ .

(٢) سليمان آل الشيخ : تيسير العزيز الحميد ص ١٩ .
والعاصمى : حاشية التوحيد ص١١ .
ومحمد بن عتيق : ابطال التنديد ص١٥ ،
ومحمد نعيم : الايمان من ص ١٥ ــ ٢١ .

(٣) وتقسيم التوحيد الى هذه الأقسام اصطلاح متأخر جدا مع ماجد من الاصطلاحات فى مختلف العلوم . ولكن معناه كان موجودا . وهو فى حقيقته الاعتراف بالله تعالى وتوحيده بأفعاله . انظر التركى : أصول مذهب الامام أحمد ص ٩٠ .

ومأخذ أسماء الله تعالى التوقيف عليها ، اما بالكتاب واما بالسنة واما باجمـــاع الامة عليها . ولايجوز اطلاق اسم عليه تعالى من طريق القياس[1] .

وأما صفات الله تعالى : فان المعنى الذى يقصد باللفظ فى صفاته تعالـــى يختلف اختلافا كليا عن المعنى الذى يقصد بهذا اللفظ عنـــه فى صفات المخلوقين[2]

وعلينا التمسك بالأمور الآتية لئلا نحيد عن جادة الصواب :

١ــ تنزيه الله تعالى عن مشابهة صفات خلقه " ليس كمثله شئ وهو السميع البصـير " (الشورى : ١١) .

٢ــ الايمان بما وصف الله تعالى به نفسه أو بما وصفه به رسوله (صلى الله عليه وسلم) ايمانا مبنيا على التنزيه .

٣ــ قطع الطمع عن ادراك حقيقة الكيفيـــة[3] .

والله تعالى متصف بصفاته أزلا وأبدا ، وأسماؤه لاتشتق من صفاته وأفعاله، وانمـا أسماؤه تدل على صفاته .

فمن صفاته : المكر والكيد ولكنه تبارك وتعالى لايسمى ماكرا أو كائدا .

وهكذا نرى ــ كما يقول الاستاذ سيد قطب[4] ــ أن معنى الايمان باللـــه . افراده ــ عز وجل ــ بالألوهية والربوبية والعبادة . ومن ثم افراده بالســـيادة على ضمير الانسان وسلوكه فى كل أمـــر .. وليس هو كل اعتقاده فى الله . . . انما هـــو صورة واحدة من صور الاعتقاد فيه ــ سبحانه ــ صورة التوحيد المطلق الناصع القاطـع .

---

(١) عبد القاهر البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٣٢٧ .

(٢) حسن البنا : رسالة العقائد ص ٤٧٠ .

(٣) الشنقيطى : المعين والزاد ص ٣٨ .

(٤) أحمد فائز : طريق الدعوة فى ظلال القرآن ٢/ ٦٠ .

(والعقيدة فى الله : ليست ترفا فى التفكير ولا نافلة للنفس ولا حاشية على هامش الحياة ولا مظهرا من مظاهر الخوف أو الضعف ، انما هى فطرة الله التى فطر الناس عليها ، وحاجة ملحة للنفس والروح ، اذا فقدت تركت فراغا فى النفس لا يملأ ، وجوعة فى الروح لا تسد ، وخرابا فى الضمير لا يعمر [١]) . ومن هنا لابد من أن يتبع الايمان العمل ، قال تعالي : " والعصر ان الانسان لفى خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر " (العصر ١ ـ ٣) . فكلمة التوحيد كالمفتاح للاسلام ولابد لكل مفتاح من أسنان. قيل لوهب بن منبه [٢] : أليس (لا اله الا الله) مفتاح الجنة ؟ قال : بلى ! ولكن ليس مفتاح الا له أسنان ، فاذا جئت بمفتاح له أسنان فتح لك والا لم يفتح لك .

وقال عمر بن عبد العزيز : (ان للايمان فرائض وشرائع وحدوداً وسننا ، فمن استكملها استكمل الايمان ، ومن لم يستكملها لم يستكمل الايمان) [٣] .

(واذا جردت الجواهر النفيسة من أصدافها والأشياء الغضة عريت من غلافهما ، صارت عرضة للآفات والتقلبات ، وأوشكت أن تأخذها الحوادث . وكذلك المصباح اذا لم تكن له زجاجة ولم يوضع فى مشكاة لعبت به الرياح يمنة ويسرة ، وربما عصفت به عاصفة فأطفأت نوره) [٤] .

ويوصينا الشيخ دراز ـ رحمه الله ـ بقوله [٥] : (فاحفظوا ايمانكم فى مشكاة من تقوى المعاصى ، تدرؤون بها عن ريح الشيطان وعواصف الفتن . وارفعوا على أساس الايمان بنيانا من فعل الخيرات ، تزدادوا ايمانا الى ايمانكم ، ونورا الى نوركم . " والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم " (محمد : ٤٧) .

---

(١) محمد شديد : منهج القرآن فى التربية ص ٨٥ و ٨٦ .

(٢) ابن الفاسى : جمع الفوائد ١ / ٧ ، والبغوى : شرح السنة ١ / ٤٧ .

(٣) ابن حجر العسقلانى : فتح البارى ١ / ٤٥ .

(٤ ، ٥) محمد عبد الله دراز : المختار من كنوز السنة ص ١٠٣ و ١٠٤ .

((والآن الى أثـــر الايمان باللــه فى تربيـــة النفـــس))

النشـــأة الجديـــدة :

ان أهمية الايمان بالله - عز وجل - نابعة من كونها تحول خامات الجاهليــة - بعد اعتناق العقيدة - الى مضرب الأمثال ومايشبه الأساطير . ومن كونها تحدث انقلابا وتغييرا هائلا فى الأفراد والمجتمعات ، تخرج النفوس من ظلمات الشـرك والشك والجاهلية الى نور اليقين والهداية والتوحيد .

وخير دليل على ذلك : ماضى العرب فى الجاهلية .. وحياتهم فى الاســلام وواقعهم المزرى اليوم ..

فقد كانوا فى الجاهلية قبائل متدابرة متنافرة .. يغزو بعضهم بعضا ، يعتدى القوى على الضعيف ويسلبه حقه ، دون وازع من خلق أو ضمير ، ويئد الرجل منهم ابنته وهى حيـة !! ويعبدون أصناما لاتملك لنفسها ولالغيرها نفعا ولاضرا .. لم تجمعهم حكومة ولم يوحدهم قانون .. بالاضافة لتأخرهم فى الحضارة المادية .

وشاءت ارادة البارى - تبارك وتعالى - أن تستفيق البشرية جمعاء من سباتهـا العميق .. فبعث اليها رسوله محمدا - صلى الله عليه وسلم - داعيا اليه باذنه وسراجا منـيرا .

وما أن انبثق نور القرآن من بطحاء مكـة .. وما أن دوى نداء التوحيـــد (لااله الا اللــه) فى ربوع الجزيرة العربية .. حتى أضاء هذا النور الوهـاج قلوب أناس آمنوا بالله وحده ربا وبالاسلام دينا وبمحمد - صلى الله عليه وسـلم - نبيا ورسولا . وباعوا نفوسهم لله .. وقاموا بنشر الدعوة فى سبيله ، لاخراج العبـاد من عبودية الطاغوت الى عبادة ذى العزة والجبروت ، ومن جور الأديان الى عـدل الاســلام .

وبزغت – بفضل الايمان بالله – شمس حضارة الاسلام على الأرض .. وخفقت أعلام التوحيد من المحيط الأطلسى غربا حتى بلاد الصين شرقا ، فى فترة وجيزة من عمر الأمم !

فما الذى جعل هؤلاء الحفاة العراة رعاء الشاء ، وهم لم يتعلموا فى مدارس أو جامعات ، ولم يتلقوا نظريات فى السياسة ، ولم يتدربوا فى كليات حربية ، ولم يكونوا أكثر عددا وعدة من أعدائهم ...

ما الذى جعلهم يحطمون جيوش كسرى وقيصر – أكبر قوتين فى الأرض آنذاك – ويزيلون الظلم والفساد عن كواهل عباد الله المستضعفين ؟

انه الايمان بالله تعالى روح الحياة – الذى أعطى ثماره المرجوة فى أسرع وقت وأكثر مما يتوقع ، وبفضل هذا الايمان أصبح الجيل القرآنى الفريد الذى تربى على مأدبة الله فى الأرض ، نجوما متألقة فى سماء الكون ، يقتدى بها من شاء من عباد الله أن يستقيم !

وحينما ابتعد الخلف عن سيرة السلف : ونحوا كتاب الله عن واقع الحياة ، وأصبح القرآن يتلى للتبرك ، أو يستجدى به فى المساجد وعلى قارعة الطريق ، أو مقدسا لحلف الايمان فى المحاكم – لا للحكم به فى الأحكام – أو مذاعا للاستمتاع بصوت القارئ – لا لتدبره والعمل به – ! وحينما حصل الانفصام النكد بين الدين والسياسة والعلم والايمان ، وحينما حلت القوانين الأرضية مكان الشريعة الاسلامية !... رجع العرب الى حالتهم التى كانوا يعيشونها فى الجاهلية ، وألقى الله تعالى فى قلوبهم الوهن – حب الدنيا وكراهية الموت – ونزعت المهابة من صدور عدوهم منهم ، وكانت النتيجة أن تحكم بهم شذاذ الآفاق ، وصاروا مستعمرين لشرق أو لغرب ، ورضوا أن يكونوا فى ذيل القافلة البشرية – بعد أن كانوا سادتها فى شتى الميادين – .

وكأن الشاعر الجاهلي الذى وصف قبيلة (تيم) بقوله :

ويقضى الأمر حين تغيب تيم ولا يستأذنون وهم شهود !

كأنه يصف هذه الأمة فى هذه الأيام ، حيث تقوم الدول الكبرى بما تشاء دون أن تحسب حسابا للمسلمين فى الأرض ، وما أحداث فلسطين وأفغانستان ولبنان وغيرها من البلاد الاسلامية عنا ببعيدة !

* *

وفيما يأتى نتحدث عن أحد الصحابة الكرام الذين أثر بهم الايمان بالله وأحدث فى نفوسهم انقلابا هائلا — جعلهم رهبانا فى الليل فرسانا فى النهار — وجعل من سيرتهم تاجا متلألئا على جبين التاريخ — القديم منه والحديث — نورد أولا كلمات عن حياته — رضى الله عنه — فى الجاهلية .. ثم نتبع ذلك لمحات من حياته فى الاسلام .. لنرى كيف يحول الايمان بالله النفس البشرية من الانحطاط والهمجية الى أعلى آفاق الانسانية ! هذا الصحابى الجليل هو أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) .

(حياته فى الجاهلية)

كان عمر بن الخطاب يضرب جارية بنى عمرو بن مؤمل العدوى — واسمها زنيرة — لترجع عن الاسلام حتى يفتر ! فاذا فتر قال لها : معذرة اليك ! ماتركتك ابقاء عليك ولا رحمة بك ! ولكنى قد أعييت !! (١)

لقد خصص عمر بعض أوقاته لتعذيب أمة ضعيفة فقيرة .. وكان بعد أن يكل من التعب يظهر لها حقيقة مايدور بخلده — لئلا تظن المسكينة بأن فى جوفه ذرة من رحمة عليها .. أو أن تعذيبها قد توقف — فيقول لها متوعدا : ماتركتك ابقاء عليك ! ومتذرا — وهذا لون آخر من التعذيب النفسى وحرب الأعصاب — : بأنه تعب ! ولن يرحمها فى المستقبل !

---

(١) الامام أحمد : فضائل الصحابة ١ / ٨٤ .
محمد الهاشمى : المحبر ص ١٨٤ .
وابن الأثير : الكامل ٢ / ٤٧ .
وابن حجر : الاصابة ١ / ١٥٩ .

ولذلك حق لعامر بن ربيعة — رضى الله عنه — أن يعجب زوجته التى رأت من عمر رقة — أثناء هجرتهم الى الحبشة — . (والله لايسلم عمر حتى يسلم حمار الخطاب)! (١)

* * *

خرج عمر متقلدا السيف .. فلقيه رجل من بنى زهرة فقال : أين تعمد ياعمر ؟

فقال : أريد أن أقتل محمدا ! قال : وكيف تأمن من بنى هاشم وبنى زهرة وقد قتلت محمدا ؟ فقال له عمر : ماأراك الا قد صبأت وتركت دينك الذى أنت عليه .

قال : أفلا أدلك على العجب ياعمر ؟ ان أختك× وختنك×× قد صبوا وتركا دينك الذى أنت عليه ..

فمشى عمر حتى أتاهما وعندهما رجل من المهاجرين يقال له خباب . فلما سمع خباب حس عمر توارى فى البيت .. فدخل عمر عليهما فقال : ماهذه الهينمة التى سمعتها عندكم ؟ — وكانوا يقرؤون سورة طه — فقالا : ماعدا حديثا تحدثناه بيننا . قال : فلعلكما قد صبوتما ؟ فقال له ختنه : أرأيت ياعمر ان كان الحق فى غير دينك ؟

فوثب عمر على ختنه فوطئه وطأ شديدا ! فجاءت أخته فدفعته عن زوجها .. فنفحها بيده نفحة فدمى وجهها !

قالت وهى غضبى : ياعمر ! ان كان الحق فى غير دينك .. أشهد أن لااله الا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .

فلما تبين عمر قال : أعطونى هذا الكتاب الذى عندكم فأقرأه — وكان عمر يقرأ الكتب — فقالت أخته : انك رجس ، ولايمسه الا المطهرون . فقم فاغتسل أو توضأ .. فقام فتوضأ .. ثم أخذ الكتاب فقرأ :

" طه ... حتى أتى الى قوله تعالى : " اننى أنا الله لااله الا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى " (طه : ١ — ١٤) .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ٥٧/٢ .
× هى فاطمة بنت الخطاب (رضى الله عنه)
×× هو سعيد بن زيد (رضى الله عنه)

فقال عمر : دلوني على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ! ... (١)

لقد تجسس عمر على بيت أخته ـ أقرب الناس اليه ـ !

ودخله دون موعد أو استئذان أو سلام !! وحاسبهم على همساتهم ـ ماهـذه الهينمة التي سمعتها عندكم ؟

وبطش بختنه أمام أخته !! وحين قامت أخته لتنحيه عن زوجها الذى لم يقترف ذنباً ، لم يتمالك عمر نفسه .. وماكان منه الا أن ضرب أخته .. فشجها !!

فهل بعد هذه الجاهلية من جاهلية ؟

---

(١) انظر قصة اسلام عمر في :

الزهرى : المغازى النبوية ص ٤٧

والبستى : الثقات ١/ ٧٤

وابن كثير : المختصر ١/ ١١٨

وابن حجر : الاصابة ٤/ ٣٨١

والعصامي : سمط النجوم العوالى ٢/ ٣٦٢

وابن الاثير : الكامل ٢/ ٥٨

والطبرى : الرياض النضرة ٢/ ١٠ ـ ٢٢

وابن الجوزى : تاريخ عمر بن الخطاب ص ١٠ و ١١

ملحوظة :

مما يثير الدهشة : ما صنعه ناشر كتاب ابن الجوزى (تاريخ عمر) حيث كتب على غلاف الكتاب : (تاريخ عمر بن الخطاب أول حاكم ديمقراطي فى الاسلام) !

وكأن موضة الديمقراطية وجدت منذ العلامة ابن الجوزى (ت ٥٩٧ هـ) !

بالاضافة الى هذه الخيانة العلمية ، فان هذا يؤدى الى الطعن فـي حكم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحكم أبى بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ لأنهما لم يحكما بالديمقراطية مثل عمر !

واخشى أن يأتي اليوم الذى تكون فيه الدكتاتورية هي موضة العصر ، فيقال : عمر أول دكتاتور في الاسلام !! كما قيل عن الصحابي الجليل أبى ذر الغفـاري =

حياته في الاسلام : عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال :

(سمع عمر بكاء صبي .. فتوجه نحو أمه وقال لها : اتقي الله وأحسني الى صبيك . ثم عاد الى مكانه .. فسمع بكاء الطفل فعاد الى أمه ، فقال لها مثل ذلك . ثم عاد الى مكانه فلما كان من آخر الليل سمع بكاءه . فأتى أمه فقال لها : ويحك ! انك أم سوء ! أرى ابنك لايقر منذ الليلة ! فقالت : ياعبد الله ! قد أبرمتني منذ الليلة .. اني أريغه عن الفطام فيأبى ! قال : ولم ؟ قالت : لأن عمر لايفرض الا للفطيم ! قال : وكم له ؟ قالت : كذا وكذا .. قال : ويحك ! لاتعجليه .

فصلى الفجر وما يستبين الناس قراءته من غلبة البكاء ! فلما سلّم قال : يابوساً لعمر ! كم قتل من أولاد المسلمين ! ثم أمر مناديا فنادى : ان لاتعجلوا صبيانكم عن الفطام .. فانا نفرض لكل مولود في الاسلام . وكتب بذلك الى الآفاق [١]

يا لله ! كيف أثرت عقيدة الايمان في نفس عمر فجعلتها شفافة طاهرة نقية ! لم يرحم في الجاهلية أمة أو أختا أو ختنتا .. ولكنه في الاسلام يبكى لبكاء طفل رضيع ! اى والله ! يبكي حتى ما يستبين الناس قراءته في الصلاة ! لقد بكى قلبه قبل أن تدمع عيناه وتبلل الدموع لحيته ! ولماذا لايبكي وهو القائل :

(لو أن سخلة ذهبت بشاطئ الفرات لأخذ بها عمر يوم القيامة) ! [٢]

= رضي الله عنه ـ بأنه أول اشتراكي في الاسلام ! !
الهينمة : الصوت الخفي .
وصبا يصبو : اذا خرج عن دينه

(١) ابن الجوزي : صفة الصفوة ١ / ٢٨٢ ، والشفاء ص ١٨١
والماوردي : الأحكام السلطانية ص ٢٠٢

(٢) وفي رواية (لو مات جدي بطف العراق ...) وطف العراق : اسم موضع بناحية الكوفة .
انظر : ابن الأزرق : بدائع السلك ١ / ١٠٢ =

خرج عمر يعس بالمدينة ذات يوم .. فمر بدار رجل من المسلمين . فوافقه قائما يصلى فوقف يستمع قراءته . فقرأ : " والطور ... حتى بلغ : ان عذاب ربك لواقع ، ماله من دافع " (الطور : ١ ـ ٨)

فقال عمر : قسم ورب الكعبة حق !

ونزل عن حماره ، واستند الى حائط .. فمكث مليا .. ثم رجع الى منزله .. فمكث شهرا يعوده الناس .. لا يدرون ما مرضه ! ! (١)

وعن ابن عمر قال : (صليت خلف عمر فسمعت حنينه من وراء ثلاثة صفوف) (٢) !!

ولنستمع الآن لشهيد الاسلام سيد قطب ـ طيب الله ثراه ـ ليحدثنا عن بكاء عمر ـ رضى الله عنه ـ بعد استماعه لهذه الآيات :

(... وعمر ـ رضى الله عنه ـ سمع السورة قبل ذلك ، وقرأها وصلى بها ، فقد كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يصلى بها المغرب * ، وعمر يعلم ويتأسى ولكنها فى تلك الليلة صادفت منه قلبا مكشوفا وحسا مفتوحا ، فنفذت اليه وفعلت به هذا الذى فعلت ، حين وصلت اليه بثقلها وعنفها وحقيقتها اللدنية المباشرة ، التى تصل القلوب فى لحظات خاصة ، فتتخللها وتتعمقها في لمسة مباشرة كهذه اللمسة . تلقى فيها القلب الآية من مصدرها الأول ، كما تلقاها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأطاقها لانه تهيأ لتلقيها !

= وابن الجوزى : الشفاء ص ٦١
والطبرى : الرياض النضرة ١٣٢/٢
والكتانى : نظام الحكومة النبوية ٢٦٨/١

(١) الغزالى : احياء علوم الدين ١٨٤/٤ .
وابن رجب الحنبلي : التخويف من النار ص ٣٠

(٢) الاصبهانى : حلية الأولياء ٥٢/١

* الصابونى : صفوة التفاسير ٢٦٣/٣

أما غيره فيقع لهم شيء مما وقع لعمر ، حين تلفذ اليهم بقوة حقيقتها الأولى! (١)

وهكذا يفعل الايمان بالله في تربية النفس وصقلها !

الاستعـــلاء !

ان الاستعلاء الصحيح : يكون بالاعتزاز بالله تعالى ، والاعتزاز بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، والاعتزاز بالاسلام ، والاعتزاز بالمؤمنين والاعتزاز بالنفس .

فالاعتزاز بالله سبحانه وتعالى : يكون بحب الله وطاعته وتنفيذ أوامره ونواهيه على الوجه المطلوب . ويكون في الوقت نفسه بالكفر بالطاغوت (وهو كل ما يعبد أو يطاع من دون الله ، من انسان أو حيوان أو نبات أو جماد أو مخلوق ..). والاعتزاز بالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : يكون بحبه والعمل بما جاء به من عند الله ، والسير على نهجه القويم ، واتخاذه قدوة ومثلا أعلى " قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم " (آل عمران : ٣١)

والاعتزاز بالاسلام : يكون بالاستسلام التام والانقياد الكامل لما جاء به الدين الحنيف ، وتحكيم شريعة الله ـ قولا وعملا ـ في كل زمان ومكان ومجال .

ويكون ايضا : بالاعتقاد بأن من ابتغى الهدى والعزة في غيره أضله الله وأذله في الدارين ومن " يتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم .. " (النساء : ١١٥). والاعتزاز بالمؤمنين : يكون بمحبتهم وموالاتهم ومناصرتهم وايثارهم ومناصحتهم والتعامل معهم بأخلاق (لا اله الا الله) ، والذلة عليهم والعزة على أعدائهم .

ويكون هذا الاعتزاز أيضا : بالشعور بأن أي مسلم مرتبط ـ عقيدة ـ فحسب ـ بقافلة المؤمنين الممتدة من آدم (عليه الصلاة والسلام) الى آخر مؤمن حين يرث الله الأرض ومن عليها .

---

(١) سيد قطب : الظلال ٦/٣٣٩٤

والاعتزاز بالنفس : يكون بايمانها بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره .

ويكون باقامتها شعائر الله ، من صلاة وصيام وزكاة وحج وجهاد . .. ويكون بمجاهدتها الشيطان والهوى ... حتى تصل الى مرتبة الاحسان والتقوى .

ويكون بتحويلها من نفس امارة بسوء ونفس لوامة الى نفس مطمئنة !

ان من ثمرات الايمان بالله ومن آثاره في النفس البشرية : الاستعلاء : أى التحرر من الطواغيت الناطقة والصامتة المادية والمعنوية ! والتحرر من كل سيطرة تحجب المرء عن الله رب العالمين .

والتحرر من كل عبودية لغير الله .. ومن كل دين غير الاسلام . والتحرر من المغريات والشهوات ، ومن كل القيم الزائفة والأعراف السائدة والعادات المستحكمة — اذا تعارضت مع العقيدة — . والتحرر من الظلم والذل والمعصية والجبن والدناءة ... والتحرر من التكبر والبطش والفحش والتسلط والاستعباد والعدوان والغدر والخيانة ومساوىء الاخلاق ..

التحرر من كل ما ذكرناه .. والانتقال من ذل المعصية الى عز الطاعة ، ومن جور الاديان الى عدل الاسلام ومن ضيق الدنيا الى سعة الدنيا والآخرة !

وسنرى بعد قليل — باذن الله — كيف ربى هذا الايمان رجالا رفعوا أعناقهم عاليا فلم تنحن لغير الله ، وكيف استعلى هؤلاء البررة على متاع الأرض فلم ينغمسوا — كغيرهم — في الشهوات والملذات ، وكيف حطموا الطواغيت ومرغوها بالتراب .. ومع ذلك : ازدادوا تواضعا لله ، وزهدا وتقشفا في الحياة ، " يمشون على الأرض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما " (الفرقان : ٦٣)

ما رأى العالم أرحم ولا أعدل ولا أكرم ولا أصدق ولا أبر — بعد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام — منهم !

ولاعجب في ذلك فقد كانوا رهبانا في الليل فرسانا بالنهار ، (أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود) (الفتح : ٢٩) .

اجتمع أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يوما فقالوا : والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر لها به قط ، فمن رجل يسمعهموه ؟ فقال عبد الله بن مسعود : أنا . قالوا : انا نخشاهم عليك . انما نريد رجلا له عشيرة ، يمنعونه من القوم ان ارادوه . قال : دعونى فان الله سيمنعني . فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام في الضحى ــ وقريش في انديتها ، حتى قام عند المقام ثم قال : بسم الله الرحمن الرحيم ــ رافعا بها صوته (الرحمن علم القرآن ..) ، ثم استقبلها يقرؤها ..

وتأملوه ، فجعلوا يقولون : ماقال ابن أم عبد ؟ ثم قالوا : انه ليتلو بعض ماجاء به محمد ! فقاموا اليه فجعلوا يضربون في وجهه ، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ماشاء الله ان يبلغ .. ثم انصرف الى اصحابه وقد أثروا بوجهه ! . فقالوا : هذا الذى خشينا عليك ! فقال : ماكان أعداء الله أهون علىّ منهم الآن ، ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها غدا ! قالوا : حسبك ، قد أسمعتهم ما يكرهون .[1]

* * *

الله أكبر ! انها نفحة من نفحات الايمان بالله هبت على قلب عبد الله بن مسعود ، (رضى الله عنه) ذاك الذى كان يدعى (رويعى الغنم)[2] ، فجعلته مستعليا على

---

(١) الكلاعي : الاكتفاء ١/٢١٣ ، وابن اسحاق ، السيرة ص ١٦٦ ، وابن الاثير الكامل ٢/٥٧ .

(٢) انظر قول أبي جهل لابن مسعود (يارويعى الغنم) ، حين صعد ابن مسعود على صدره ليحتز رأسه في معركة بدر . اليافعى : مرآة الجنان ١/٨٨ ، والذهبى : التاريخ الكبير ١/١٠١ ، وابن الاثير : الكامل ٢/٨٨ ، والبستي : الثقات ١/١٢٢ .

صناديد قريش ـ لأنهم أعداء الله ـ فيبلغهم كلام الله في عقر دارهم ، مستعليا على آلام الجسد ، فلابد دون الجنة من الصبر على الابتلاء ! ان رويعى الغنم ـ هذا ماكانت تصفه به الجاهلية ـ أصبح فى تاريخ الاسلام صاحب أكبر مدرسة فقهية عرفتها البشرية ، وكان من ثمرتها فقه الامام الأعظم أبى حنيفة النعمان ! خرج أبو ذر الغفارى (رضى الله عنه) ـ بعد أن أسلم ـ حتى أتى المسجد ، فنادى بأعلى صوته (أشهد ألا اله الا الله وأن محمد رسول الله) !

فثار القوم .. فضربوه حتى أضجعوه ! فأتى العباس فأكب عليه فقال : ويلكم ! ألستم تعلمون أنه من غفار وأن طريق تجاركم الى الشام عليهم ؟ فأنقذه منهم . ثم عاد من الغد بمثلها .. وثاروا اليه فضربوه ! فأكب العباس عليه فأنقذه .(١)

* * *

ماأعظم أثر الايمان بالله حين يستقر فى نفوس معتنقيه !

فها هو أبو ذر يقول بعد أن أسلم مباشرة : (والذى نفسى بيده لأصرخن بها بين ظهرانيهم) ! مع تيقنه بنتيجة عمله هذا ، فقام وأعلن اسلامه أمام الملأ !

فما الذى دفع هذا الصحابى لأن يستعذب الاضطهاد فى سبيل الله ولم يسلم الا منذ لحظات ؟ والجواب معروف : انها عقيدة الايمان بالله تبعث فى قلب صاحبها شجاعة نادرة واستهانة بالموت ، وتجعل المؤمن يشعر بأنه وحده ـ ولا أحد غيره ـ المكلف بحمل هذه العقيدة ونشرها بين الناس ، فلا ينتظر أن يقوم الآخرون بأداء هذا الواجب واسقاطه عنه .

كان بامكانه ـ رضى الله عنه ـ أن يقول لنفسه ان مصلحة الدعوة تتطلب أن أنجو من الأذى فى البداية لنشر العقيدة فى بيئة أخرى صالحة ! ولكن أباذر جهر بالدعوة ، وأعلن أمام الأشهاد شهادة التوحيد ، ولكن بعد ذلك مايكون ! وهكذا يفعل الايمان بالله فى تربية النفس على الاستعلاء .

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٣ / ٣٤ .
وابن عبد البر : الاستيعاب ٤/ ٦٣ .
وابن حجر : الاصابة ٤/ ٦٣ .

... فدعاهم النجاشي ، فلما حضروا صاح جعفر بن أبي طالب (رضي الله عنه) بالباب : يستأذن عليك حزب الله !

فقال النجاشي : مروا هذا الصائح فليعد كلامه ، ففعل ، قال : نعم فليدخلوا بإذن الله وذمته ، فدخلوا ولم يسجدوا له .

فقال : ما منعكم أن تسجدوا لي ؟

قالوا : انما نسجد لله الذي خلقك وملكك ! وانما كانت تلك التحية لنا ونحن نعبد الأوثان [١] .. !!

* * *

ان مدرسة دار الأرقم بن أبي الأرقم ـ التي بخل الزمان بأن يجود بمثلها بقيادة الرحمة المهداة الى العالمين (صلى الله عليه وسلم) ، تناديناعبر هذا الجدار الزمني الطويل : (نحن قوم أعزنا الله بالاسلام وأعز الاسلام بنا ، ولو ابتغينا العزة بغيره أذلنا الله) . وتعلمنا ألا نتطلع لغير السماء ! فما دامت الحياة والموت بيد الله تعالى وحده ، وما دام الرزق من عند الله وحده ، وما دام كل شيء يجري بقضاء وقدر ... فلا نامت أعين الجبناء الذين يعطون ولاءهم لغير الله ! ها هو ذا جعفر (رضي الله عنه) يعلنها صريحة مدوية ، في أدق الظروف وأحرجها ، بدون خوف أو مواربة ، ومن غير أن يلتمس الفتاوى والمعاذير ! (لا نسجد الا لله) .

اننا بحاجة الى مثل تلك السجدات التي سجدها أولئك الرعيل الأول لرب العالمين ، فملأت كيانهم عظمة الله ، وانتزعت من أعماق نفوسهم كل خوف وعبودية لأي بشر !

---

(١) ابن الزبير : المغازي النبوية ص ١١٣ .
والأصبهاني : حلية الأولياء ١/١١٤ ،
والبستي : الثقات ١/٦٤ .

حـــب اللــــه :

من آثـــار الايمان بالله ، أن يحب المرء خالقه ـ لما يغذوه من النعـــم ـ حبا يملك عليه كل مشاعره وأحاسيسه وخواطره ، فيجعل أعماله ـ السرية والعلنيــة ـ وحياته كلها لله رب العالمين .

ومن أحب الله تعالى : فانه لايبالى بنفس أو بأهل أو بمال أو بجاه أو بـــأى منفعة دنيوية ، اذا شعر بأن نعمة الايمان ستسلب منه .

وهذا الحب : يربى النفس على الجهر بكلمة الحق ـ أمام أى بشر ـ ولو أصبحت حياته ـ أو رزقه ـ فى خطر ! لأنه مشتاق للعيش فى جناب من أحب .

وهو الحب الخالص لله عز وجل لاشريك له ، لئلا يحبط العمل : " قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لاشريك له " (الأنعام : ١٦٢ و ١٦٣) .

وهو الحب : الذى يؤدى الى العمل الصالح ، فلم يكن حب الله ـ يوما ـ مجـــرد مشاعر طيبة فى القلب ، لاينبثق منها سلوك صحيح فى الحياة !

قال تعالى : " قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم " (آل عمران : ٣١) .

وحب الله هو الذى يجعل المسلم يختار رضى الله على أى متاع دنيوى ، لأنـــه يعلم أن ماعند الله خير وأبقـــى .

ومن صفات الذين يحبون الله تعالى ويحبهم الله أنهم : " أذلة على المؤمنـــين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولايخافون لومة لائم " (المائدة : ٥٤) .

ولله در القائـــــل :

عذابــه فيك عـــذب ... وبعده فيــك قـــرب
وانـــت عندى كروحـــى ... بل أنت منها أحـــب
حسبى من الحب أنـــى ... لما تحب أحـــب !

ويطير قصير النظر فرحا اذا سمع الحديث : " قيل للنبي صلى الله عليه وسلم : الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم ! قال : المرء مع من أحب " (١)

ويظن هذا أن مجرد الحب ـ بدون العمل بمقتضياته ـ يؤدي الى الجنة !

وها هو ذا الحسن البصري ـ رحمه الله ـ يبين لنا المقصود بهذا الحديث : (ابن آدم ! لاتغتر بقول (المرء مع من أحب) . انه من أحب قوما : اتبع آثارهم . ولن تلحق بالابرار حتى تتبع آثارهم ، وتأخذ بهديهم ، وتقتدي بسنتهم ، وتصبح وتمسي وأنت على منهاجهم ، حريصا أن تكون منهم ، فتسلك سبيلهم وتأخذ طريقهم . وان كنت مقصرا في العمل فانما ملاك الامر : أن تكون على استقامة . أما رأيت اليهود والنصارى وأهل الأهواء المردية ، يحبون أنبياءهم وليسوا معهم ! لأنهم خالفوهم في القول والعمل وسلكوا غير طريقهم ، فصار موردهم الى النار !) (٢)

ويقول الامام ابن تيمية : (فمن كان محبا لله تعالى لزم أن يتبع الرسول (صلى الله عليه وسلم) . فيصدقه فيما أخبر ، ويطيعه فيما أمر ، ويتأسى به فيما فعل) . (٣)

يقول (صلى الله عليه وسلم) : " لايجد أحد حلاوة الايمان : حتى يحب المرء لايحبه الا لله ، وحتى أن يقذف في النار أحب اليه من أن يرجع الى الكفر بعد اذ أنقذه الله ، وحتى يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما " (٤)

قال الامام النووي : (معنى حلاوة الايمان : استلذاذ الطاعات وتحمل المشاق وايثار ذلك على أغراض الدنيا) (٥)

---

(١) البخاري : الادب المفرد ص ٩٧ ، واللؤلؤ : ٣/٢٠٦

(٢) السفاريني : شرح ثلاثيات أحمد ١/٢٨٠

(٣) ابن تيمية : العبودية ص ١٠٤

(٤) البخاري : الجامع الصحيح ٧/٨٣

(٥) عبدالرحمن آل الشيخ : فتح المجيد ص ٢٩٥ ، ٢٩٦

وقال يحيى بن معاذ : حقيقة الحب في الله ألا ينقص بالجفاء ولايزيد بالبر)[١] .

ومن ثمرات هذا الحب : أن الله عز وجل يحب صاحبه ، فتحبه الملائكة وعباد الله الصالحين . عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : ((اذا أحب الله عبدا نادى جبريل : ان الله يحب فلانا فأحبه . فيحبه جبريل . فينادي جبريل في أهل السماء : ان الله يحب فلانا فأحبوه . فيحبه أهل السماء . ثم يوضع له القبول في أهل الأرض))[٢] .

وحب لله أيضا : يؤدي الى استكمال الايمان . يقول (صلى الله عليه وسلم) : من أحب الله وأبغض له وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الايمان[٣] .

وصدق القائل :

تعصي الاله وأنت تزعم حبه ... هذا لعمري في القياس شنيع

لو كان حبك صادقا لأطعته ... ان المحب لمن يحب مطيع !

* * *

وفيما يأتي أمثلة ناصعة على حب الرعيل الأول لله عز وجل ، وتقديمهم رضوان الله على الأنفس والأموال والأهل والمتاع ، نذكرها لنزداد ايمانا بأثر عقيدة التوحيد في تربية النفس الانسانية !

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٩٥ و ٢٩٦ .

(٢) البخاري : الجامع الصحيح ٨٣/٧ .

(٣) الألباني : الأحاديث الصحيحة ١١١٢/٤ .

ألح أبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الظهور ! وكان الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ تسعة وثلاثين رجلا فقال رسول الله ـ (صلى الله عليه وسلم) : يا أبا بكر ! انا قليل ! فلم يزل أبو بكر يلح عليه حتى استجاب له .

وتفرق المسلمون فى نواحى المسجد .. كل رجل فى عشيرته .. وقام أبو بكر فى الناس خطيبا ، ورسول الله (صلى الله عليه وسلم) جالس ، فكان أول خطيب دعا الى الله تعالى والى رسوله (صلى الله عليه وسلم) وثار المشركون على أبى بكر وعلى المسلمين .. !

ضربوهم فى نواحى المسجد ضربا شديدا .. ووطئ أبو بكر وضرب ضربا شديدا .. ودنا منه الفاسق عتبة بن ربيعة ، فجعل يضربه بنعلين مخصوفين ويحرفهما لوجهه .. ونزا على بطن أبى بكر حتى مايعرف وجهه من أنفه !

وجاءت بنو تيم تتعادى .. فأجلوا المشركين عن أبى بكر . وحملوه فى ثوب حتى أدخلوه منزله ـ وهم لايشكون فى موته ـ ثم رجعت بنو تيم فدخلوا المسجد وقالوا : والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة بن ربيعة !

فرجعوا الى أبى بكر .. فجعل أبو قحافة ـ والد الصديق ـ وبنو تيم يكلمونه حتى أجاب ..

فتكلم آخر النهار فقال :

(مافعل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؟) (١)

---

(١) الطبرى : الرياض النضرة ١ / ٨٥ .
وابن كثير : البداية والنهاية ٣ / ٣٠ ، والسيرة النبوية ١ / ٤٣٩ .
والكاندهلوى : حياة الصحابة ١ / ٢٧٣
والاطرابلسى : من حديث خيثمة ص ١٢٦ .

ان الأمة التي ينتسب لها الصديق – رضي الله عنه – لهي حقا خير أمة ..

فجزى الله نبي الاسلام صلى الله عليه وسلم خير الجزاء الذي ربى لنا هذه النوعية من البشر ! وجزى الله أبا بكر خيرا الذي تربى على الاسلام !

ان أبا بكر كان أمة ..

فلا عجب اذا رجح ايمانه على ايمان الأمة .. !

ها هو ذا أبو بكر – الحليم اللين الوقور – يطلب من قائده المصطفى – صلوات الله وسلامه عليه – ويلح عليه ويتوسل اليه ويرجوه :

فما الذي يريده من ذلك ؟

هل فكر بنفسه أو بأهله أو بماله أو بمنفعة – صغيرة أو كبيرة – وهو يزيد في الحاحه ويكاد أن يضايق صاحبه – صلى الله عليه وسلم – الذي يحبه أكثر من نفسه التي بين جنبيه ؟ ؟ لا ! لا !

ان الذي ملك عليه قلبه وأحاسيسه شئ واحد هو :

حب الله ورسوله .. والدعوة الى الاسلام !

ولم يكن لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – بد من الاستجابة لخليله الصديق، أقرب الناس الى قلبه وأحبهم الى نفسه !

وخرج رسول الله – صلى الله عليه وسلم – مع صحابته الى المسجد .. في مهرجان لم تر قريش مثله !

كان أول ندوة عامة تقام للدعوة الى الله منذ أن رفت أجنحة جبريل (عليه السلام) على غار حراء – حيث جاء الأمين بالكلام المبين من رب العالمين ليكون خاتم النبيين من المنذرين – وكان أول المتكلمين – وآخرهم – الصديق الداعية، لأن أعداء الله – وهذه طبيعتهم في كل زمان ومكان – لايسمحون للحق أن يقول كلمته ، لئلا يتزلزل كيانهم فتنتهي زعامتهم المنتفخة الفارغة الى غير رجعة ..

ولئلا تهتز عروشهم فيسقطوا عن كراسى الحكم .. ولئلا تحطم تيجانهم التى تكبروا على عباد الله بها !

قام أبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ خطيبا يدعو الى الله بالحكمة والموعظة الحسنة فى أكبر تجمع لقريش !

ولم ينتظر أن يأتوا هم ليستمعوا منه ـ لأنهم لن يأتوا فى الغالب ـ بل ذهب اليهم وأسمعهم مايريد فى عقر دارهم .. أسمعهم صوت الاسلام العظيم : صوت الحق والقوة والحرية . انه لابد للدعوة اذا أرادت النجاح فى الدارين من مجموعة رائدة باعت نفسها لله تعالى .. لتكون نماذج مضيئة على درب السائرين الى الله يقتدى بها الناس فيما بعد . وبعد أن تجمع المشركون وعرفوا حقيقة الموقف جن جنونهم ! فخافوا ـ وهذه طبيعتهم دائما ـ أن ينتشر الخبر ويسمع القوم صوت المنطق فتستجيب فطرتهم ويزول ماعليها من ران ! وبسرعة خاطفة .. وبدون وعى .. قام المشركون يضربون بكل ماأوتوا من قوة .. هذه المجموعة التى باعت نفسها لله والتى تريد اسعادهم فى الدارين !

ولم يفر الصحابة ـ الذين حضروا وتفرقوا فى أنحاء المسجد ـ حينما دقت ساعة الخطر .. لينجوا بأنفسهم ويتركوا قادتهم للتعذيب ! بل آثروا أن يواجهوا الخطر مجتمعين ، فهم كالجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر .

وأكثر من أصيب فى هذه الحادثة هو من كان يلح بشدة فى الخروج للدعوة الى الله ، انه الصديق الداعية رضى الله عنه !

والآن ! هيا لنفتح أعيننا وآذاننا جيدا لنتأمل بقية ماحدث ، قبل أن ينتهى هذا المشهد المجيب الرائع ..

" فتكلم آخر النهار فقال : مافعل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ... ؟ "

هنيئا لأبى بكر — رضى الله عنه — هذا الحب فى الله الذى ملك عليه جميع أحاسيسه ، فجعله لايهتم بجراحاته التى تتصبب دما .. ولايلقى بالا لمن حوله من قومه — الذين أثارتهم العصبية القبلية فاستفاد منها فى دفاعهم عنه — وقد هرعوا للاطمئنان عليه ، ولسان حاله يقول — حين أجاب بخلاف مايسألون — : ياقوم ! أنا فى واد وأنتم فى واد .. والحمد لله الذى عافانى مما ابتلاكم به !!

ان الرعية التى لاتحب راعيها — فى السر والعلن — والراعى الذى لايحب رعيته — فى الظاهر والباطن — لن يعطوا النصر الذى يطلبون .. ولو كانوا أكثر أموالا وسلاحا ونفيرا !

لقد غرس محمد بن عبد الله (عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة وأتم السلام) فى نفوس أتباعه ممن تربوا على عقيدة التوحيد ، أروع معانى الحب فى الله ولله . وأصبحت سيرتهم — رضوان الله عليهم — أحاديث ممتعة يتناقلها الركبان فى كل مكان وأوان ، واقتدى بهذه السيرة العطرة — على مر العصور وكر الدهور — أناس آمنوا بالله وحده ربا وبالاسلام دينا وبمحمد (صلى الله عليه وسلم) قدوة ونبيا ورسولا .

ولله در القائل :

أسرت قريش مسلما فى غزوة	فمضى بلا وجل الى السياف
سألوه : هل يرضيك أنك سالم	ولك النبى فدى من الاتلاف ؟
فأجاب : كلا ! لاسلمت من الردى	ويصاب أنف محمد برعاف !

وهكذا يفعل الايمان بالله وهكذا يفعل الحب فى الله ولله فى تربية النفس البشرية !

أسماء بنت أبى بكر الصديق (رضى الله عنهما) :

سماها النبى (صلى الله عليه وسلم) ذات النطاقين : لأنها هيأت له حينما أراد الهجرة الى المدينة سفرة . فاحتاجت الى ماتشدها به ، فشقت خمارها نصفين .. فشدت بنصفه السفرة ، واتخذت النصف الآخر منطقا .. فبشرها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بنطاقين فى الجنة [1] !

ان التربية الاسلامية تعتنى بكل أفراد المجتمع .. فلا تقتصر على الرجال فتهمل النساء ، أو الأطفال فتهمل الشيوخ ، أو الأغنياء فتهمل الفقراء ، أو الرعية فتهمل الراعى ، أو الأحرار فتهمل العبيد ...

وأسماء – رضى الله عنها – أنموذج حى ينبغى أن تقتدى به نساؤنا وفتاتنا اليوم . هذه الفتاة – التى لم تبلغ الحلم – تضرب أروع الأمثلة فى حب الله ورسوله – صلى الله عليه وسلم – .. وفى الحنكة والتدبير اذا أحلولك الليل واشتدت الأمور وضاقت الأرض على النفوس بما رحبت !

كان بامكانها – رضى الله عنها – أن تبقى جالسة فى خدرها ، نظرا لضعفها وصغرها وأنوثتها ((أو من ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين)) (الزخرف : ١٨) فلا حرج عليها لو لم تقدم شيئا فى سبيل الدعوة الاسلامية .

ولكنها – بدافع من ايمانها – مشت مسافات بعيدة .. الى غار ثور – الذى لايتسلقه الا أولو القوة من الرجال – ، وهجرت مضجعها ثلاث ليال – مع شدة النعاس والتثاقل الى الفراش – وقامت نهارا بدور الاستطلاع .. فحملت الأخبار والزاد الى من كان الله سبحانه وتعالى ثالثهما ، وشقت نطاقها نصفين .. وبشرت فى الجنة بنطاقين !

---

(١) انظر الزهرى : المغازى النبوية ص ٩٩ ،
وابن سيد الناس : عيون الأثر ١ / ١٨٤ ،
وابن الأثير : الكامل ٢ / ٧٣ ،
وابن حجر : الاصابة ٤ / ٢٢٩ ، وابن عبد البر : الاستيعاب ٤ / ٢٣٣ .

ان الجاهلية المعاصرة تقدم لنا — عبر وسائل الاعلام — مجموعة من نساء التمثيل والغناء والرقص على أنها كواكب وزهرات و ...

أما الاسلام فانه يقدم للعالمين نماذج مضيئة كثيرة من بينها أسماء — رضى الله عنها — ، وشتان بين الخفافيش — التي أعماها النهار بضوئه — فى الأرض . وبين الثريا فى السماء !!

كان عثمان بن مظعون (رضى الله عنه) قد دخل فى جوار الوليد بن المغيرة ، ثم أبت عليه غيرته ذلك فرد عليه جواره ، وقال : أحببت ألا أستجير بغير الله !

ودار بينه وبين أحد المشركين حديث أغضب المشرك ، فقام اليه ولطم عينه فخضرها — جعلها مائلة للسواد — ، والوليد بن المغيرة قريب يرى ذلك . فقال : أما والله يا ابن أخى ان كانت عينك عما أصابها لغنية ، لقد كنت فى ذمة منيعة .

فقال عثمان : بل والله ان عينى الصحيحة لفقيرة الى مثل ما أصاب أختها فى الله ! وانى لفى جوار من هو أعز منك وأقدر .

وأنشد :

فان تك عينى فى رضا الرب نالها يدا ملحد فى الدين ليس بمهتد

فقد عوض الرحمن منها ثوابه ومن يرضه الرحمن ياقوم يسعد

فانى وان قلتم : غوى مضلل سفيه ، على دين الرسول محمد

أريد بذاك الله والحق ديننا على رغم من يبغى علينا ويعتدى[(١)]

* * *

عن سعد بن أبى وقاص (رضى الله عنه) قال :

قمت أنا وعبد الله بن جحش (رضى الله عنه) صبيحة يوم أحد نتمنى . فقلت : اللهم لقنى من المشركين رجلا عظيما كفره ، شديدا حرده — أى غيظه وغضبه — فيقاتلنى فأقتله ، فآخذ سلبه .

---

(١) ابن العماد : شذرات الذهب ١٠/١ ، والأصبهانى : حلية الأولياء ١٠٤/١ ، وابن الجوزى : صفة الصفوة ٤٥٢/١ ، وابن حجر : الاصابة ٤٦٤/٢ ، والندوى : السيرة النبوية ص ٩١ .

فقال عبد الله بن جحش : اللهم لقنى من المشركين رجلا عظيما كفره ، شديدا حرده ، فأقتله فيقتلنى ويسلبنى ، ثم يجدع أنفى وأذنى ! فاذا لقيتك فقلت : ياعبد الله بن جحش فيم جدعت ؟ فأقول : فيك يارب ! قال سعد : فوالله لقد رأيته آخر ذلك النهار وقد قتل ، وان أنفه وأذنه لفى خيط واحد بيد رجل من المشركين (١) !

* * *

أصيب من المسلمين سبعمائة عين فى يوم التصوير !*

فكان الرجل يلتقى بالرجل بعد ذلك فيقول له : ماالذى أصابك فى عينك ؟ فيقول الآخر : لم تقول مصيبة ؟ بل قل : منحة من الله عز وجل !! (٢)

---

(١) الذهبى : التاريخ ١/٢٠١
وابن الزبير : المغازى النبوية ص ١٠٩
وابن الأثير : الكامل ٢/٥٣
وابن المبارك : الجهاد ص ٧٣
وابن اسحق : السيرة ص ١٥٨
وابن حزم : جوامع السيرة ص ١٦٧
وابن الجوزى : صفة الصفوة ١/٣٨٦
والأصبهانى : حلية الأولياء ١/١٠٩

(٢) ابن أعثم : الفتوح ١/٢٦٥

* أحد أيام معركة اليرموك .

بلغ مصعب بن عمير (رضى الله عنه) أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يدعو الى الاسلام فى دار أرقم بن أبى الأرقم . فدخل عليه فأسلم .

وكتم اسلامه خوفا من أمه وقومه ، فكان يختلف الى النبى (صلى الله عليه وسلم) سرا . وبصر به عثمان بن أبى طلحة يصلى ، فأخبر أمه وقومه .

فأخذوه وحبسوه ، فلم يزل محبوسا حتى خرج الى أرض الحبشة — فى الهجرة الأولى — .

وكان مصعب — قبل اسلامه — فتى مكة شبابا وجمالا وتيها ، وكان أبواه يحبانه ، ويكسوانه أحسن مايكون من الثياب . وكان أعطر أهل مكة . ويلبس الحضرمى من النعال . فحمله حب الله تعالى على مفارقة ذلك . فكان يلبس بالمدينة المنورة أهاب كبش !

ورأى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مابمصعب فبكى ! للذى كان فيه من النعمة ولما صار اليه ! وقال : (مارأيت بمكة أحسن لمة ولاأرق حلة ولا أنعم نعمة من مصعب بن عمير) .

وفى معركة أحد : استشهد مصعب ، ولم يكن له الا نمرة ، اذا غطوا بها رأسه خرجت رجلاه ، واذا غطوا رجليه خرج رأسه ! فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): غطوا بها رأسه واجعلوا على رجليه من الاذخر ، ثم دعا له وتلا هذه الآية:

" من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه ... تبديلا " (الأحزاب : ٢٣)

ثم قال (صلى الله عليه وسلم) : ((أشهد أن هؤلاء شهداء عند الله يوم القيامة ..)) .(١)

---

(١) انظر تفسير القرطبى ١٤/١٥٩و ١٦٠ ،
وابن الجارود : المنتقى من السنن ص١٨٥ ،
وابن المبارك : الجهاد ص ٨٣ ،
وابن حجر : الاصابة ٣/٤٢١ ،
وابن عبد البر : الاستيعاب ٣/٤٧٠ ،
واليافعى : مرآة الجنان ١/٨ ،
والأصبهانى : حلية الأولياء ١/١٠٨ ،
وابن الجوزى : صفة الصفوة ١/٣٩٢ .

التقـــوى :

تقـوى الله تعالى : هى أن يضع المسلم بينه وبين غضب الله وعقابه حاجـــزا وذلك باتباع أوامره واجتناب مانهى عنـه ٠

والتقوى : هى وصية الله عز وجل لجميع عباده ـــ فى كل زمان ومكان وجيـــال ـــ قال تعالى : " ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم واياكم أن اتقوا اللـــه " (النســـاء : ١٣١) ٠

والتقـــوى أيضا : سفينة النجاة الى شاطئ الأمان والسلامة ، وهى مطلوبة مـــن الفرد والمجتمع والدولة ، لتكون الأمة مسلمة بحق ٠

وقد أمر الله عباده بها بقوله : " ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاتـــــه ولاتموتن الا وأنتم مسلمون " (آل عمران : ١٠٢)

وتقـوى الله : تؤدى الى دخول الجنة ٠٠ والى سلام الملائكة على أصحابهـــا قال تعالى : " وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا ، حتى اذا جاءوها وفتحـت أبوابها وقال لهم خزنتها : سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين " (الزمر : ٧٣)

وتقـــوى الله : تجعل من ضمير المسلم حارسا أمينا ، فاذا هم بالمعصية تذكـــر أن من يعلم السر وأخفى مطلع عليه ، فيحجم عن ارتكابها ٠

واذا أغواه الشيطان واقترف المعصية ، فان التقوى تجعله يشعر بأنه يحمل حمـــلا كالجبال ، ولايهنأ له بال الا اذا استغفر الله ، وندم بشدة على ماجنت يداه ، وعقد العزم على ألا يعود الى الذنب مرة ثانية ، وأرجع الحقوق الى أصحابها ٠

فالتقـــوى أثر من آثار الايمان بالله تعالى ، تكون قوية أو ضعيفة حسب قـــوة ايمان صاحبها أوضعف ايمانه ٠

وها هى بعض الأمثلة من حياة الأمة المسلمة فى عصورها الأولى تبين لنا كيف أثر الايمان بالله فى تربية النفس والمجتمع — بمجموع أفراده — والدولة — بوجا لاتهما — على مخافة الله ومراقبته وتقواه :

انطلق نفر من أصحاب النبى (صلى الله عليه وسلم) فى سفرة سافروها ، حتى نزلوا على حى من أحياء العرب فاستضافوهم فأبوا أن يضيفوهم ! فلدغ سيد ذلك الحى ، فسعوا له بكل شىء ، لاينفعه شىء !

فقال بعضهم : لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا لعله أن يكون عند بعضهم شىء . فأتوهم فقالوا : ياأيها الرهط ان سيدنا لدغ وسعينا له بكل شىء ، لاينفعه . فهل عند أحدكم من شىء ؟

فقال بعضهم : نعم ! والله انى لأرقى . ولكن والله لقد استضفناكم فلم تضيفونا فما أنا براق لكم حتى تجعلوا لنا جعلا .

فصالحوهم على قطيع من الغنم . فانطلق يتفل عليه ويقرأ ((الحمد لله رب العالمين)) فكأنما نشط من عقال ، فانطلق يمشى وما به قلبة !

فأوفوهم جعلهم الذى صالحوهم عليه . فقال بعضهم : اقسموا . فقال الذى رقى : لاتفعلوا حتى نأتى النبى (صلى الله عليه وسلم) فنذكر له الذى كان فننظر مايأمرنا !

فقدموا على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فذكروا له . فقال : ومايدريك أنها رقية ؟ ثم قال : قد أصبتم ، اقسموا واضربوا لى معكم سهما . فضحك رسول الله — (صلى الله عليه وسلم) [١] . (متفق عليه) .

---

(١) عبد الباقى : اللؤلؤ والمرجان ص ٥٧٠ .

كان على بن الحسين (رضى الله عنه) اذا توضأ اصفر لونه ! فيقولون له : ما هذا الذى يعتادك عند الوضوء ؟ فيقول : أتدرون بين يدى من أريد أن أقوم ؟ ! [1]

• لما نزلت : " ولاتقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده " (الاسراء : ٣٤) . و " ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما انما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا " (النساء : ١٠) .

انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه ! فجعل يفضل له الشئ من طعامه فيحبس له حتى يأكله أو يفسد ! فاشتد ذلك عليهم .. فذكروا ذلك لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) فنزلت : " ويسألونك عن اليتامى قل اصلاح لهم خير وان تخالطوهم فاخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ولو شاء الله لأعنتكم ان الله عزيز حكيم " (البقرة : ٢٢٠) [2].

• أتى رجل الى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى المسجد فقال : احترقت ! قال : مم ذاك ؟ قال : وقعت بامرأتى فى رمضان ! فقال له : تصدق . قال : ماعندى شئ !

فجلس . وأتاه انسان يسوق حمارا ومعه طعام الى النبى (صلى الله عليه وسلم) فقال : أين المحترق ؟ فقال : هاأنا ذا . قال : على أحوج منى ؟ ! مالأهلى طعام ! قال : فكلوه [3].

• قال فتى من أسلم : يارسول الله ! انى أريد الجهاد وليس لى مال أتجهز به !

---

(١) الغزالى : احياء علوم الدين ١٨٤/٤ .

(٢) الحاكم : المستدرك ١٠٣/٢ .
وأبو داود : السنن ١٥٥/٣ .

(٣) اللؤلؤ والمرجان ص ٢٤٨ .

قال : اذهب الى فلان الأنصارى فانه كان قد تجهز فمرض ، فقل له : ان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقرئك السلام وقل له : ادفع الى ماتجهزت به . فأتاه فقال له ذلك .

فقال الأنصارى لامرأته : يافلانة ! ادفعى اليه ماجهزتنى به ولاتحبسى منه شيئا فوالله لاتحبسى منه شيئا فيبارك الله فيه ! (١)

عن سليمان بن بريدة عن أبيه ، قال : جاء ماعز بن مالك الى النبى — (صلى الله عليه وسلم) فقال : يارسول الله ! طهرنى . فقال : ويحك ! ارجع فاستغفر الله وتب اليه . قال : فرجع غير بعيد . ثم جاء فقال : يارسول الله ! طهرنى . فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : ويحك ! ارجع فاستغفر الله وتب اليه . قال : فرجع غير بعيد . ثم جاء فقال : يارسول الله ! طهرنى . فقال النبى (صلى الله عليه وسلم) مثل ذلك . حتى اذا كانت الرابعة قال له رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : فيم أطهرك ؟ فقال : من الزنى : فسأل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : أبه جنون ؟ فأخبر أنه ليس بمجنون . فقال : أشرب خمرا ؟ فقام رجل فاستنكهه — النكهة : رائحة الفم — فلم يجد منه ريح خمر . قال : فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : أزنيت ؟ فقال : نعم . فأمر به فرجم .

فكان الناس فيه فرقتين بين قائل يقول : لقد هلك . لقد أحاطت به خطيئته . وقائل يقول : ماتوبة أفضل من توبة ماعز ، انه جاء الى النبى (صلى الله عليه وسلم) فوضع يده ، فى يده ، ثم قال اقتلنى بالحجارة .

قال : فلبثوا بذلك يومين أو ثلاثة . ثم جاء رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهم جلوس فسلم ثم جلس . فقال : استغفروا لماعز بن مالك . قال : فقالوا : غفر الله لماعز بن مالك . قال : فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم !

---

(١) البيهقى : السنن الكبرى ٩/٢٨ ،
وابن الفاسى : جمع الفوائد ٢/٢٥ .

قال : ثم جاءته امرأة من غامد من الأزد فقالت: يارسول الله ! طهرني . فقال: ويحك ! ارجعي فاستغفري الله وتوبي اليه . فقالت : أراك تريد أن تردني كما رددت ماعز بن مالك . قال : وماذاك ؟ قالت : انها حبلى من الزنى .

فقال : آنت ؟ قالت : نعم .

فقال لها : حتى تضعي مافي بطنك . قال فكفلها رجل من الأنصار حتى وضعت.

قال : فأتى النبي (صلى الله عليه وسلم) فقال: قد وضعت الغامدية .

فقال : اذا لانرجمها وندع ولدها صغيرا ليس له من يرضعه .

فقام رجل من الأنصار فقال : الي رضاعه يانبي الله . قال: فرجمها .

وفي رواية أخرى: (فيقبل خالد بن الوليد بحجر فيرمي رأسها فتنضح الدم على وجه خالد . فسبها . فسمع نبي الله سبه اياها . فقال: مهلا ياخالد ! فوالذي نفسي بيده ! لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له .

ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت)(١) .

* * *

لما هبط المسلمون المدائن وجمعوا الأقباض . أقبل رجل بحق معه فدفعه الى صاحب الأقباض . فقال ـ والذين معه ـ : مارأينا مثل هذا قط ! مايعدله ماعندنا ولايقاربه !

---

(١) وفي رواية : (لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم . وهل وجدت توبة أفضل من أن جادت بنفسها لله تعالى) ؟

انظر صحيح مسلم ١٣٢٢/٣ و ١٣٢٤ ، وسنن الدارمي ١٨٠/٢ ، وابن الجارود : المنتقى ص ٢٧٦ .

فقالوا : هل أخذت منه شيئا ؟ فقال : أما والله ! لولا الله ما أتيتكم بـه .
فعرفوا أن للرجل شأنا . فقالوا : من أنت ؟ فقال : لا والله ! لا أخبركم فتحمدني ، ولاغيركم ليقرظوني . ولكني أحمد الله وأرضى بثوابه .

فأتبعوه رجلا حتى انتهى الى أصحابه ، فسأل عنه فاذا هو عامر بن عبد قيس(١)!

* * *

قال زيد بن ثابت حينما كلف بكتابة القرآن وجمعه :
والله لو كلفاني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي من الذي كلفاني !(٢)

وهكذا رأينا أن الايمان بالله تعالى (مدرسة خلقية وتربية نفسية ، تملي على صاحبها الفضائل الخلقية ، من صراحة ارادة وقوة نفس ومحاسبتها والانصاف منها . وهذا الايمان هو أقوى وازع عرفه تاريخ الأخلاق وعلم النفس عن الزلات الخلقية والسقطات البشرية .

حتى اذا جمحت السورة البهيمية في بعض الأحيان ، وسقط الانسان سقطة ـ وكان ذلك حيث لاتراقبه عين ولاتتناوله يد الحاكم ، تحول هذا الايمان نفسا لوامة عنيفة ، ووخزا لاذعا للضمير ، وخيالا مروعا ، لايرتاح معه صاحبه حتى يعترف بذنبه أمام الحاكم ، ويعرض نفسه للعقوبة الشديدة ، ويتحملها مطمئنا مرتاحا ، تفاديا من سخط الله وعقوبة الآخرة(٣))

والاسلام دين واقعي ، لايفترض في الانسان أن يكون ملكا معصوما عن الخطأ ، ولايرضى ـ في المقابل ـ أن يسف حتى يصل الى الدرك الأسفل من الانحطاط والهمجية . فهو دين يوازن بين المادة والروح ويمتاز عن غيره من الأديان بالاعتدال والوسطية ، كما قال تعالى : " وكذلك جعلناكم أمة وسطا " (البقرة : ١٤٣) .

---

(١) الطبري : تاريخ الأمم ٤/١٧٦ .
(٢) لو كلفاني : يقصد بذلك الصديق والفاروق (رضي الله عنهما) حيث أمراه بذلك انظر : مسند أبي بكر الصديق ص٩٨ .
(٣) الندوي : ماذا خسر العالم ص ١٠٢ بتصرف يسير جدا .

فالايمان بالله : يجعل من ضمير المسلم ما يفوق كثيرا عمل المباحث والعيون !

* * *

قال الخلقانى للامام أحمد : يا أبا عبد الله ! هذه القصائد الرقاق التى فى ذكر الجنة والنار ، أى شيئ تقول فيها ؟ فقال : مثل أى شيئ ؟ قلت : يقولون

اذا ما قال لى ربى   أما استحييت تعصينى ؟

وتخفى الذنب عن خلقى   وبالعصيان تأتينى !

فقال : أعد عليّ ، فأعدت عليه ، فقام ودخل بيته وردّ الباب ، فسمعت نحيبه من داخل البيت وهو يردّد : اذا ما قال لى ربى أما استحييت تعصينى ؟ (١)

الصبر :

الصبر : هو حبس النفس عن الجزع والتسخط ، وحبس اللسان عن الشكوى ، وحبس الجوارح عن التشويش. (٢)

وهو قوة خلقية من قوى الارادة تمكن الانسان من ضبط نفسه لتحمل المتاعب وضبطها عن الاندفاع بعوامل الضجر والسأم والعجلة والرعونة والغضب والشهوات .. (٣)

والصبر ثلاثة أقسام : صبر عن المعصية ، فلا يرتكبها ، وصبر على الطاعة ، حتى يؤديها ، وصبر على البلية ، فلا يشكو ربه فيها . (٤)

والاسلام يحث على الصبر ويرغب فيه ، قال تعالى : " يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة ان الله مع الصابرين . ولاتقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل

---

(١) ابن الجوزى : تلبيس ابليس ص ٢١٨

(٢) ابن القيم : مدارج السالكين ٢/١٥٥

(٣) الميدانى : الاخلاق الاسلامية ٢/٢٩٣

(٤) ابن القيم : طريق الهجرتين ص ٤٧٦

وانظر وجوه الصبر فى قاموس القرآن للدامغانى ص ٢٧٣ .

أحياء ولكن لاتشعرون • ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين • الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون • أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون" (البقرة : ١٥٣ ـ ١٥٧) •

وقال تعالى : " يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون" (آل عمران : ٢٠٠)

وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " ومن يصبر يصبره الله ، وما أعطى أحد من عطاء خير وأوسع من الصبر" (١) وقال أيضا : " والصبر ضياء" (٢)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (عجبا لأمر المؤمن ان أمره كله خير وليس ذلك لأحد الا للمؤمن : ان أصابته سراء شكر فكان خيرا له • وان أصابته ضراء صبر فكان خيرا له) (٣)

وقال صلى الله عليه وسلم " الصبر عند الصدمة الاولى" (٤)

وقال أيضا : (ما يصيب المؤمن من وصب ولانصب ولا سقم ولا حزن حتى الهم يهمه الا كفّر به من سيئاته) (٥)

فالصبر هو أحد ثمرات الايمان بالله ، ومن ثمرات الصبر :

الشجاعة ، والثبات على الحق ، والرضا بالقضاء والقدر ، وطلب الحلال ، والطمأنينة ، والتوكل على الله و •••

---

(١) مسلم ٢ / ٧٢٩ والبخاري ٢ / ١٨٣

والمعنى : أن من يعالج نفسه على ترك السؤال ويصبر الى أن يحصل له الرزق فان الله يقويه ويمكنه من نفسه حتى تنقاد له ، وعند ذلك يكون الله معه فيظفر بمطلوبه •

(٢) مسلم ١ / ٢٠٣ والمقصود :أن الصابر لايزال مستضيئا مهتديا مستمرا على الصواب

(٣) مسلم ٤ / ٢٢٩٥ (٤) البخاري ٢ / ٨٤

(٥) مسلم ٤ / ١٩٩٣ وصب : الوجع اللازم ، والنصب : التعب ، يهمه : يغمه •

ويعتقد المؤمن اعتقادا راسخا أن الحياة والموت بيد الخالق تبارك وتعالى وحده ، وأن الرزق من عند الله عز وجل وحده ، وأن الله تعالى وحده هو النافع الضار المعز المذل ... ومادام الأمر كذلك فان المؤمن يصبر فى جميع أحواله ، ويكون شجاعا مقداما يتحدى الصعاب والأهوال ولايخشى الردى ، ويحرص على الشهادة فى سبيل الله أشد من حرص الكفار على حياة .

وهو حين يضرب في مناكب الارض .. فانه يتحرى الحلال فى طعامه وشرابه ولباسه ومسكنه وفى شؤون حياته كلها ... ويرضى بما قسم الله تعالى له ، ولا يتلطخ بالحرام أو الشبهات ، لأنه يعلم أن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها .

ومهما ضاق على المؤمن رزقه فلن يكفر ـ ولن يعمل كذلك ـ بالمحرمات .. وسيصبر على ما قسم الله تعالى له ، وسيبقى متعلقا بمن بيده مقاليد السماوات والارض ، ولن يطأطىء رأسه لغير المالك الحق جل وعلا ، ولن يتطلع لغير السماء !

ومن ثمرات الصبر : الطمأنينة والهدوء والسكينة والشعور بالسعادة الغامرة لقضاء الله وقدره ، فما أصاب المؤمن لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وان مع العسر يسرا ، ولن يغلب عسر يسرين .

والمؤمن يحمد الله تعالى فى الرخاء والشدة ، فى الرخاء : يشكر المولى جل وعلا على نعمه العظيمة وآلائه الجسيمة ـ وأهمها نعمة الايمان ـ ليزداد انعام الله سبحانه وتعالى عليه : " لئن شكرتم لأزيدنكم " (ابراهيم : ٧) وفى الشدة : يحمد الله ـ الذى لايحمد على مكروه سواه ـ ويسترجع ويصبر ، فالمصيبة لم تكن فى دينه ، وله ـ بصبره ـ عند الله جل ذكره الحسنى وزيادة .

والصبر يؤدى للتوكل على من بيده الخلق والأمر ـ جل جلاله ـ (بعد الأخذ بالاسباب) ، لأنه تعالى وحده النافع الضار اذا أراد شيئا قال له (كن) (فيكون) . فلم الخوف والجزع ؟

والصبر يؤدى كذلك للثبات على الحق والاستقامة على الجادة . وحتى لو كان المؤمن وحيدا أو ضعيفا أو فقيرا أو مضطهدا ... فانه يبقى مستمسكا بالعروة الوثقى ــ لاانفصام لها ــ لا تزعزعه النوائب ولا تزلزله الأعاصير ، لأنه محتم بالله تعالى ملتجىء اليه ، وحسبه الله ونعم الوكيل .

ولا يعنى الصبر ــ بأى حال من الأحوال ــ الصبر على الذل والهوان ! فالذل ليس من الاسلام فى شيء ، ولله در القائل :

ولا يقيم على ذل أريد به ... الا الأذلان : عير الحيّ والوتد

هذا على الخسف مربوط برمته ... وذا يشج فلا يرثى له أحد !

كان سادات بلال ــ رضى الله عنه ــ من بنى جمح يأخذونه ويبطحونه على الرمضاء .. ويلقون على بطنه الصخرة العظيمة .. ثم يأخذونه فى ذلك الحر الشديد ويلبسونه درعا من حديد ! ويضعون فى عنقه حبلا .. ويسلمونه الى الصبيان يطوفون به !

أما أمية بن خلف ــ لعنه الله ــ فكان يخرجه اذا حميت الظهيرة فيطرحه على ظهره ــ فى بطحاء مكة ــ ثم يأمر بالصخرة العظيمة على صدره ! ثم يقول : لا يزال على ذلك .. أو يكفر بمحمد ! فيقول بلال ــ رضى الله عنه ــ : أحد أحد !

وأخذه أبو جهل ــ لعنه الله ــ مرة فبطحه على وجهه .. وسلقه فى الشمس .. وعمد الى رحى فوضعها عليه !! فجعل بلال يقول : أحد أحد !! (١)

---

(١) السهيلى : الروض الأنف ٣/١٩٩
وابن قتيبة : المعارف ص ١١٢
وابن حزم : جوامع السيرة ص ٥٤
وابن الجوزى : صفة الصفوة ١/٤٣٧
والعنسى : شرح بهجة المحافل ١/٩٣
وابن القيم : زاد المعاد ٢/١١٦
وعبد السلام هارون : تهذيب السيرة ص ٧٠

تعليق .. على صبر بلال (رضى الله عنه) !

كنت أقرأ قصة تعذيب بلال ، وأمر عليها مرور الكرام ، ولا استشعر مقدار ما أوذى في الله ، حتى عشت في مكة المكرمة وعرفت حرارتها التي تصل في بعض الأوقات الى ٥٠ م . فمن منا – اليوم – يستطيع أن يقف في حرارة الشمس سويعات قليلة .. بدون أن يعذب .. وبدون أن توضع على صدره صخرة كبيرة .. وبدون أن يشد وثاقه ويطوف به الصبيان .. ؟ فما بالنا ببلال (رضى الله عنه) ؟ !

كان بامكانه أن يخفف عن كاهله مايلاقى من عذاب لايتحمله بشر ! بأن يتظاهر بكفره بمحمد – صلى الله عليه وسلم – ولا شيء عليه في ذلك " الا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان " (النحل ٤ ١٠٦) .

ولكن ايمانه المتغلغل في أعماقه والذى ملك عليه حياته ، جعله يضحي بنفسه في سبيل عقيدته (والجود بالنفس أقصى غاية الجود) . لله در بلال ! لقد ربح الدنيا والآخرة بايمانه وصبره . ربح الدنيا وانتصر على عدوه ، وقتل سيده في الجاهلية ببدر . وربح الآخرة أيضا ببشرى النبي (صلى الله عليه وسلم) له بالجنة . (١)

نعم ! انهم ملكوا جسده فعذبوه – ولا تملك قوى الجاهلية أكثر من ذلك – ولكنهم لم يملكوا روحه الصافية وهي تسبح مع الملأ الأعلى قائلة (أحد .. أحد ..) . وهذا ماكان يغيظ معذبيه فيشتدون في ايلامه ، ويزداد هو بالتالي عزما وثباتا على دعوة الحق .

---

(١) أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فدعا بلالا فقال : بم سبقتني الى الجنة ؟ انى دخلت البارحة الجنة فسمعت خشخشتك أمامي !
انظر ابن خزيمة : صحيح ابن خزيمة ٢/٢١٣
والطبراني : المعجم الصغير ١/٢٠٨
وابن حجر : الترغيب والترهيب ص ١٤

ألم يأتك نبأ الذين حصروا في شعب أبي طالب جياعا .. كيف كانوا يبيتون الليالي ويقضون الأيام .. وهم يقتاتون بأوراق الشجر ! بعد أن فنى زادهم وأعوزهم القوت ؟ !

يقول سعد بن أبي وقاص (رضى الله عنه) :

لقد رأيتني مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بمكة ، خرجت من الليل أبول ، واذا أنا أسمع بقعقعة شيء تحت بولي ! فاذا قطعة جلد بعير ، فأخذتها وغسلتها ثم حرقتها ، فوضعتها بين حجرين ثم استففتها ، وشربت عليها من الماء ..(١)

* * *

نعم ! لقد صدق القائل :

ولله في عرض السماوات جنة ولكنها محفوفة بالمكاره !

وسلعة الله غالية ـ لأن سلعة الله الجنة ـ والثمن هو الايمان والصبر . والابتلاء سنة ربانية ، فلو لم يكن هناك ابتلاء لما عرف المؤمن من الكافر ، والصابر من المنافق .

فهنيئا لهؤلاء الذين ارتفعوا على متاع الأرض ، وضحوا بالغالي والنفيس في سبيل عقيدتهم ، وصبروا على لأواء الحياة ، فنالوا رضاء الله في الدارين .

وهكذا يفعل الايمان بالله في تربية النفس على الصبر والمصابرة .

يقول خباب بن الأرتّ (رضى الله عنه) : (٢)

لقد رأيتني يوما ، أخذوني فأوقدوا لي نارا .. ثم سلقوني فيها .. ثم وضع رجل رجله على صدري ، فما اتقيت الأرض الا بظهري !

---

(١) سليمان الندوي : الرسالة المحمدية ص ١٥٨
والأصبهاني : حلية الأولياء ١ / ٩٣
وابن اسحاق : السيرة ص ١٧٤
والكاندهلوي: حياة الصحابة ١ / ٣١١

(٢) ابن عبد البر : الاستيعاب ١ / ٤٢٤
وابن الاثير : الكامل ٢ / ٤٦

ثم كشف عن ظهره .. فاذا هو قد برص! ! !

وسأله أحدهم عما لقى من المشركين فقال : انظر الى ظهرى .. فقال : ما رأيت كاليوم ! قال : لقد أوقدت لى نار وسحبت عليها .. فما أطفأها الا ودك ظهرى ! (١)

* * *

لكأن الشاعر حين قال :

والله لو قطعتمو لحمى أذى	وسحقتمو قبل الممات عظامى !
ما زغت عن هدى النبى وصحبه	كلا ! ولا نافقت للحكام
آمنت بالاسلام جامع شملنا	وكفرت بالزعماء والأصنام ! (٢)

كان يتخيل ماحدث لخباب وأمثاله من الصحابة الكرام – رضى الله عنهم – من اضطهاد وتعذيب – لايحتمله الا أولو العزم والقوة من الرجال – ومن صبر على الأذى ومصابرة على الابتلاء ، فى سبيل عقيدة التوحيد (لااله الا الله) .

وعلى المسلمين اليوم أن يهتفوا بقلوبهم – قبل ألسنتهم – (والموت فى سبيل الله أسمى أمانينا) ، ويتخذوا من سيرة خباب (رضى الله عنه) أسوة حسنة ، ونبراسا يضيء لهم الطريق ، ويبدد من حولهم ظلمات الجاهلية !

بعث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الصحابى الجليل حبيب بن زيد (رضى الله عنه) الى مسيلمة الكذاب .

---

(١) الدسم من كل ذى دهن كالودك من كل ذى شحم (أى حتى أنطفأ الجمر بالصديد الذى سال من شحم ظهره (رضى الله عنه) !
انظر الثعالبى : فقه اللغة ص ١٤

(٢) المقصود بهؤلاء طبعا : الذين يحكمون بغير ما انزل الله .

فقال له مسيلمة : أتشهد أن محمدا رسول الله ؟

قال : نعم .

قال : أتشهد أني رسـول اللـه ؟

قال : لا أسمع !

فلم يزل يردد عليه ذلك ، ويقطع منه عضوا عضوا ... حتى مات ! ![١]

* * *

يالله ! ماأعظم صبر هذا الصحابي وما أقوى ايمانـه !

فليس عجيبا أن يبدى شخص ضروبا من أنواع البطولة والشجاعة ويتقدم في معمعة المعارك ويحمل على العدو وحده ، حتى ينال الشهادة أو النصر ، لأن الموت — حينئذ — لايستغرق وقتا طويلا ، ومن ثم يستريح صاحبه من سكرات الموت !

وحدث من ذلك كثير في التاريخ الاسلامي .

أما أن يقطع جسمه عضوا عضوا ، كما تقطع لحوم الحيوانات المأكولة — بل ان الحيوانات تقطع لحومها بعد الموت لاقبله — ويبقى صابرا ثابتا راسخ الايمان لايتزعزع ولاتلين قناته ، فهذا يشبه الأساطير ! ولايكاد العقل يصدق بوقوعه !

ولكن هذا ليس مستغربا من رجل تربى في مدرسة التوحيد ، بقيادة معلم الناس الخير محمد بن عبد الله (صلوات الله وسلامه عليه) !

وهكذا يفعل الايمان بالله في تربية النفس على الصبر .

---

(١) ابن قدامة المقدسي : الاستبصار ص ٨١ .

الفصل الثاني

أثر الإيمان بالملائكة الكرام

في تربية النفس

تمهيـــــد :

ان الايمان بالله تعالى يستلزم الايمان بملائكته الكرام ، فليس بمؤمن من آمن ببعض موجبات الايمان وكفر ببعض . قال تعالى : " ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا " (النساء : ١٣٦) .

والدليل على وجود الملائكـــة :

قوله تعالى : " الحمد لله فاطر السماوات والأرض جاعل الملائكة رسلا أولــى أجنحة مثنى وثلاث ورباع ، يزيد فى الخلق مايشاء ، ان الله على كل شــئ قدير " (فاطر : ١) . الى غير ذلك من الآيات .

وقوله (صلى الله عليه وسلم) : " خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان مــن مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم " (١)

* *

وعدم رؤية الشــئ لاينفى وجوده بالطبع ، لأن البصر ـ وبقية الحــواس ـ ليست حكما على طبائع الأشياء ووجودها ، وانما تعرف الأشياء بآثارها كما تعقـــل الأمور بقرائنها .

ونحن نعتقد ـ فى حياتنا اليومية ـ بوجود كثير من الأشياء التى لم نرهـــا كالجاذبية والروح والعقل والكهرباء ...

وهناك أشياء كثيرة من الماديات كانت لاترى بالعين المجردة ، وأصبحت مشاهدة بواسطة الأجهزة الحديثـــة .

فالأشعة تحت الحمراء وفوق البنفسجية ، من الطيف غير المرئى ، تستخدمـان لأغراض الحرب والسلم ، مع عدم رؤيتهما بالأبصار .

وهكذا فنحن نؤمن بوجود الملائكة لأن ذلك من مستلزمات الايمان ، بالاضافـــة الى ذلك فان العقل لاينفى وجودهم ، فليس كل مالايرى غير موجود ـ كما ذكرنا آنفا ـ .

---

(١) مسلم ٤/٢٢٩٤ .

تعريف الملائكة :

الملائكة الأطهار أجسام نورانية لطيفة خلقها الله سبحانه وتعالى مبرأة من الكدورات النفسية والشهوات الحيوانية ، لاتوصف بذكورة ولابأنوثة ، مقتدرة على تشكلات مختلفة ، ولها أجنحة ـ لاتعلم كيفيتها ـ ، وهى لاتأكل ولاتشرب ولا تنام ولاتتناسل ، ومعصومة عن المخالفة .

والملائكة على أهبة الاستعداد لتنفيذ مشيئة الله عز وجل وطاعته ، وفى وضع مستمر من أوضاع العبادة له ، وهو وضع الخشوع والحمد بذكره واعلان تنزيهه عن كل افتراء . (١)

معنى الايمان بالملائكة :

هو التصديق الجازم بأن لله تبارك وتعالى ملائكة كراما مخلوقين من نور ، وأنهم عباد مكرمون ، يسبحون الليل والنهار لايفترون ، وأنهم قائمون بوظائفهم التى أمرهم الله بها خير قيام (٢) .

والملائكة أصناف كثيرة بحسب مانيط بهم من أعمال (٣) .

---

(١) انظر : ابن قتيبة : تفسير غريب القرآن ص٢٣ .
والنيسابورى : غرائب القرآن ١/٢٦٢ .
والرازى : التفسير الكبير ٢/١٥٩ فما بعدها .
وعبد الله سراج الدين : الايمان بالملائكة ص ١٣ و ١٩ .
والبيضاوى : أنوار التنزيل ١/١٣٤ .
ومحمد المبارك : نظام الاسلام ـ العقيدة ـ ص١٠٢ .
ووهبى الألبانى : أركان الايمان ص١٢٠ .
والبوطى : كبرى اليقينيات ص ٢٧٥ .
ومحمد البهى : تفسير سورة الصافات ص٤٣ .
(٢) السلمان : مختصر الأسئلة والأجوبة الأصولية ص ١٧ .
(٣) ناجى محمد داود : الملائكة والايمان بهم ص ٩٢ .

ويجب الايمان بالملائكة الكرام اجمالا ، وبهولاء على التفصيل : جبريل ، ميكال ، اسرافيل ، ملك الموت* ، مالك ، خزنة الجنة ، خزنة النار ، حملة العرش ، ملك الالهام ، ملكان يزكيان أعمال الانسان ، أربعة ملائكة يختلفون على الانسان بين الليل والنهار ، ومنكر ونكير (١) .

وقد اختلف العلماء فى المفاضلة بين الملائكة وبين البشر (٢) . واختلفوا كذلك فى ارسال النبى (صلى الله عليه وسلم) اليهم (٣) .

وللملائكة الكرام أعمال كثيرة . منها مايتعلق بالله عز وجل ، ومنها مايتعلق بالأنبياء والمرسلين ، ومنها مايتعلق بالدنيا والآخرة ، ومنها مايتعلق بالانسان ، ومنها مايتعلق بالكون (٤) .

---

(١) ابن جميع : مقدمة التوحيد ص١٤١ و ١٤٥ ،
وناجى داود : الملائكة والايمان بهم ص ٩٣ .

(٢) الرازى : الأربعين فى أصول الدين ص ٣٦٨ ،
والأشعرى : مقالات الاسلاميين ١٢٦/٢ ،
والحنفى : شرح الطحاوية ص ٢٥٠ ،
والقارى : شرح الفقه الأكبر ص ١١٨ .

(٣) السيوطى : الحاوى للفتاوى ٢٥٢/٢ .

(٤) ابن تيمية : الرد على المنطقيين ص٤٩٠ ،
وابن القيم : اغاثة اللهفان ١٢٦/٢
وابن رجب الحنبلى : جامع العلوم والحكم ص ٤٤ ،
والغرناطى : التسهيل فى علوم التنزيل ٢٤١/٢ ،
وابن عبد الوهاب : أصول الايمان (ضمن مجموعة الحديث) ص٢١٣ ،
ومحمد البهى : تفسير سورة الصافات ص ٨ و ٤٣ ،
والطنطاوى : تعريف عام بدين الاسلام ص١٧٥ .

* لايجب اعتقاد اسم ملك الموت أنه عزرائيل لأن ذلك لم يرد فى الكتاب أو السنة . انظر السائح : عقيدة المسلم ومايتصل بها ص٢٩٢ .

ومن أعمـــال الملائكة الكـــرام :

التسبيح لله تعالى والسجود لـــه .

الاحتفاظ بالصحف المكرمـــــة .

تبليـــغ الوحـــى .

الصلاة على النبى (صلى الله عليه وسلم) .

القتال مع المؤمنين وتثبيتهـم .

قبض الأرواح .

المجيء بالبشـــرى وبنزول العذاب .

الاستغفار للمؤمنين والدعاء لهـــم .

النزول ليلـــةالقـــدر .

كتابة أعمال الانسان ومراقبة أعمالـــه .

النفخ فى الروح (وكتابة الرزق والأجل والعمل والشقاوة والسعادة) .

حضور الصلوات والجماعات .

حضور مجالس العلم ومجالس الذكـــر .

وضع أجنحتها لطلبة العلـــم .

الاجتماع عند قراءة القرآن الكريـــم .

رفع أعمال المؤمنين الصالحـــة .

ســوق الأرزاق والأمطـــار .

ســـــؤال القـــبر .

حمـــل العـــرش .

تبشـــير المؤمنين عند المـــوت .

القيام بشـــئون النار وأهلها ، وتوبيخ الكافرين .

القيام بشـئون الجنة وأهلها ، وتحية المؤمنـين .

الطرد لقوى الشـر ممن يحاول الاقتراب من الملأ الأعلى .

الشفاعة للمؤمنين فى الآخرة باذنه تعالى .

ملحوظــة مهمــة :

وقبل أن ننتقل الى الحديث عن أثر الايمان بالملائكة فى تربية النفس نشير الى أن محمد عبده ـ زعيم المدرسة العقلية الحديثة ـ أوّل حقيقة الملائكة الى معنى يكاد يخرج صاحبه من حظيرة الايمان ـ والعياذ بالله ـ حيث يقول كما جاء فى تفسير المنار ، عند الحديث عن الملائكة " واذ قلنا للملائكة أسجدوا لآدم .." (البقرة : ٣٤) :

(فلا يستبعد أن تكون الاشارة فى الآية الى أن الله تعالى لما خلق الارض ودبرها بما شاء من القوى الروحانية التى بها قوامها ونظامها ، وجعل كل صنف من القوى الروحانية التى بها قوامها ونظامها ، وجعل كل صنف من القوى مخصوصا بنوع من انواع المخلوقات لايتعداه ، ولا يتعدى ما حدّد له من الأثر الذى خص به . خلق بعد ذلك الانسان وأعطاه قوة يكون بها مستعدا للتصرف بجميع هذه القوى وتسخيرها فى عمارة الأرض ، وعبّر عن تسخير هذه القوى له بالسجود ، الذى يفيد معنى الخضوع والتسخير ، وجعله بهذا الاستعداد الذى لاحدّ له ، والتصرف الذى لم يعط لغيره . خليفة الله فى أرضه . لأنه أكمل الموجودات في هذه الارض ، واستثنى من هذه القوى قوة واحدة عبّر عنها بابليس . وهى القوة التى تعارض في اتباع الحق ، وتصّد عن عمل الخير ، وتنازع الانسان فى صرف قواه الى المنافع والمصالح التى تتم بها خلافته ، فيصل الى مراتب الكمال الوجودى ، التى خلق مستعدا للوصول اليها .

ولو أن نفسا مالت الى قبول هذا التأويل ، لم تجد فى الدين ما يمنعها . من ذلك ، والعمدة على اطمئنان القلب وركون النفس الى ما أبصرت من الحق .) اهـ .

وماكان من رشيد رضا ـ مع الأسف ـ الا أن اعتذر عن هذا التأويل الفاسد بأقبح من ذنب استاذه حيث قال :

(وأقول : أن غرض الأستاذ من هذا التأويل الذى عبّر عنه بالايماء والاشارة

اقناع منكرى الملائكة بوجودهم ، بتعبير مألوف عندهم تقبله عقولهم ، وقد اهتدى به كثيرون وضل به آخرون ، فأنكروه عليه ، وزعموا أنه جعل الملائكة قوى لاتعقل .

فردّ عليهم كتابة بما نصه بحروفه :

(ولست أحيط علما بما فعلت العادة والتقاليد فى أنفس بعض من يظنون أنهم من المتشددين فى الدين ، اذ ينفرون من هذه المعانى ، كما ينفر المرضى أو المخدوجون من جيد الأطعمة التى لاتضرهم ، وقد يتوقف عليها قوام بنيتهم ، ويتشبثون بأوهام مألوفة لهم ، تشبث أولئك المرضى والمخدوجين بأضر طعام يفسد الأجسام ويزيد السقام ، لا أعرف ما الذى فهموه من لفظ روح أو ملك ؟ وما الذى يتخيلونه من مفهوم لفظ قوة ؟ أليس الروح فى الآدمى مثلا ، هذا الذى يظهر لنا فى أفراد هذا النوع ، بالعقل والحس والوجدان والارادة والعمل ، واذا سلبوه سلبوا ما يسمى بالحياة ؟ أو ليست القوة هى ما تصدر عنه الآثار فيمن وهبت له ؟ فاذا سمى الروح لظهور أثره قوة ، أو سميت القوة لخفاء حقيقتها روحا ، فهل يضر ذلك بالدين ، أو ينقص معتقده شيئا من اليقين) (١) اهـ .

الطاعة :

اذا ذكرت الطاعة ... فحيهلا بطاعة الملائكة الأطهار :

" الذين هم عباد مكرمون . لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون " (الانبياء : ٢٦و٢٧)

لقد أخبر الله عز وجل ملائكته الكرام بأنه " جاعل فى الارض خليفة " (البقرة : ٣٠) وأنه " خالق بشرا من طين " (ص : ٧١) ولايوجد فى هذا الاخبار أمر أو نهى ، فلا حرج أن قالت الملائكة ــ وهى الحريصة على الطاعة المطلقة لله رب العالمين وعلى أن تكون الخلائق كلها مسبحة طائعة مقدسة ــ :

" أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء " (البقرة : ٣٠)

---

(١) محمد رشيد رضا : تفسير المنار ١/٢٦٩ ، ٢٧٠

ولعل الملائكة – عليها السلام – توقعت من هذا الانسان الذى سيكون خليفة في الارض القصور في الطاعة أو الافساد أو سفك الدماء – لانه سيخلق من مادة وروح – ولعل الجن – أو غيرهم – أفسدوا فى الأرض فتوقع الملائكة أن يكون البشر مثلهم فقالوا ماقالوا ...

وبعد خلق الله عز وجل لآدم – عليه الصلاة والسلام – طلب من ملائكته السجود له – سجود تحية لا سجود عبادة – فاستجابت الملائكة لأمره جل وعلا ونفذته على وجه السرعة دون تسوان أو استفسار أو نقاش :

" فسجد الملائكة كلهم أجمعون " (ص : ٧٣) . والفاء – فى كلمة فسجد – تفيد ذلك اذ تأتى للتعقيب السريع .

وما حدث من هذه المخلوقات العظيمة يدعو المؤمن لأن يتشبه بها فى الطاعة المطلقة لله وسرعة الاستجابة لأمره جل شأنه .

فتشبهوا ان لم تكونوا مثلهم
ان التشبه بالكرام فلاح

والايمان بالملائكة يعمق معنى الطاعة في نفس المؤمن ، فهو ليس وحيدا فى عبادة الله عز وجل ، فالكون من حوله – بمن فيه وما فيه – مطيع لله (١) مسبح بحمده (٢) منفذ لأمره ، هذا القلة القليلة التى لاوزن لها ولاقيمة من بين مخلوقات الله الكثيرة . والايمان بالملائكة أيضا : يجعل المسلم ينشط للطاعة والعبادة ، ويجعله يتشبه بهم – فى اتباع أوامر الله واجتناب منهياته – حينما يعلم أن الملائكة – وهم

---

(١) قال تعالى : " وله أسلم من في السماوات والأرض طوعا وكرها " (آل عمران : ٨٣) وقال تعالى : " فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين " (فصلت : ١١)

(٢) قال تعالى : " وإن من شيء الا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم " (الاسراء : ٤٤)

أولى أجنحة عظيمة ، وقوة كبيرة ، وعدد هائل ـ يسبحون الليل والنهار لايفترون.

وحين يعلم المؤمن أن الملائكة المبرئين من النقائص والمنزهين عن المخالفات والذين هم فى المنزلة السابقة من العبادة ، هم مع ذلك وجلون خائفون لايأمنون مكر الله ! فان ذلك يدعوه لطاعة الله والخوف منه أيضا . فما دام الملائكة " لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون " (التحريم : ٦) ومع ذلك يخافون الله تعالى ، فما بالك بالانسان المقصر فى الطاعة المعرض للخطأ ؟

أسأت ولم أحسن وجئتك تائبا
وانى لعبد عن مواليه يهرب

يؤمل غفرانا ، فان خاب ظنه
فما أحد منه على الارض أخيب !

وهكذا يفعل الايمان بالملائكة ـ والذى هو فرع عن الايمان بالله ـ فى تربية النفس البشرية على الطاعة والعبادة !

العمل الصالح المتواصل والتحرز عن المعاصى :

ومن آثار الايمان بالملائكة : العمل الصالح : من استقامة ، ووفاء بالعهد ، ومحافظة على الميثاق ، ووصل ما أمر الله به أن يوصل ، وخشية الله ـ فى السر والعلانية ـ وصبر ، وصلاة ، وصدقة ، وعفو ، وذكر ، وتلاوة للقرآن الكريم و...

فاذا قام المؤمن بهذه الاعمال الحسنة واستقام على منهج الله فى الحياة : فان الملائكة تتنزل عليه ، وتبعد عنه الخوف والحزن وتبشره بالجنة الموعودة ... وتسلم عليه فى جنات النعيم ، جزاء ايمانه وعمله ، فطوبى له وحسن مآب !

قال تعالى في محكم التنزيل :" ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولاتحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون . نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون . نزلا من غفور رحيم " (فصلت : ٣٠ ـ ٣٢)

وقال ايضا : " الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق . والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ، ويخشون ربهم ، ويخافون سوء الحساب . والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم ، وأقاموا الصلاة ، وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ، ويدرءون بالحسنة السيئة ، أولئك لهم عقبى الدار . جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب : سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار" (الرعد : ٢٠ ـ ٢٤)

وقال أيضا : " وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا ، حتى اذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها : سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين" (الزمر : ٧٣) .

فالايمان بالملائكة يدفع المؤمن الى المزيد من الاستقامة والعمل الصالح . ليفوز بسعادة الدنيا والآخرة .

ومن آثار الايمان بالملائكة :

الابتعاد عن المعاصي حياء من الملائكة ـ وخوفا من الله عز وجل وحياء منه قبل كل شيء ـ الذين كلفهم المولى جل وعلا بحفظ الانسان ومراقبته وتسجيل حسناته وسيئاته : " مايلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد " (ق : ١٨)

" وان عليكم لحافظين . كراما كاتبين . يعلمون ماتفعلون" (الانفطار ١٠ ـ ١٢)

وهذا مما يدعو المؤمن لمراقبة مولاه والابتعاد عن السيئات ، لئلا تسجل عليه الملائكة مايسوءه يوم العرض الاكبر ، ولئلا توبخه اذا انحرف عن سواء الصراط :

" وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب . قالوا أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين الا في ضلال" .

(غافر : ٤٩ و ٥٠)

يامدمن الذنب أما تستحي ... والله في الخلوة ثانيكا ؟

غرك منه طول امهاله ... وستره طول مساويكا !

فاذا هم المؤمن بارتكاب احدى المحرمات ، أو بترك أحدى الواجبات ، أو بالوقوع في الشبهات .. فانه يتذكر أن الله تعالى جعل عليه من يراقبه طيلة حياته حتى الممات ، وعند ذلك يستحيي من ربه ومن ملائكته الثقات ، فيقوم بعمل الخيرات والطاعات ، ويرتدع عن الشبهات والسيئات ، في جميع الاحوال والأوقات .

وهكذا يفعل الايمان بالملائكة ـ وهو فرع عن الايمان بالله العظيم ـ في تربية النفس على الخير والابتعاد عن الشر ومايؤدي اليه من قول أو فعل .

وهذه طائفة من الاحاديث توضح أن الملائكة تحث على العمل الصالح :

عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " ان لله ملائكة يطوفون في الطرق ، يلتمسون أهل الذكر . فاذا وجدوا قوما يذكرون الله ، تنادوا : هلموا الى حاجتكم . قال : فيحفونهم بأجنحتهم الى السماء الدنيا . قال : فيسألهم ربهم عز وجل ـ وهو أعلم منهم ـ مايقول عبادي ؟ قالوا : يقولون ، يسبحونك ، ويكبرونك ، ويحمدونك ، ويمجدونك . قال : فيقول هل رأوني ؟ قال : فيقولون لا والله ! ما رأوك . قال : فيقول كيف لو رأوني ؟ قال : يقولون لو رأوك كانوا أشد لك عبادة ، وأشد لك تمجيدا ، وأكثر لك تسبيحا .

قال : يقول فما يسألوني ؟ قال : يسألونك الجنة . قال : يقول وهل رأوها ؟ قال : يقولون لا والله ! يارب ! ما رأوها . قال : يقول فكيف لوأنهم رأوها ؟ قال : يقولون لو أنهم رأوها ، كانوا أشد عليها حرصا ، وأشد لها طلبا ، واعظم فيها رغبة .

قال : فمم يتعوذون ؟ قال : يقولون من النار . قال : يقول وهل رأوها ؟ قال : يقولون لا والله ! ما رأوها . قال : يقول فكيف لو رأوها ؟ قال : يقولون لو رأوها كانوا أشد منها فرارا ، وأشد لها مخافة .

قال : فيقول فأشهدكم أني قد غفرت لهم . قال : يقول ملك من الملائكة : فيهم

فلان ، ليس منهم ، انما جاء لحاجة ، قال : هم الجلساء ، لايشقى بهم جليسهم" (١)

وعن أبى هريرة (رضى الله عنه) فى قوله تعالى : " ان قرآن الفجر كان مشهودا" (الاسراء : ٧٨) ، أن النبى (صلى الله عليه وسلم) قال :

" تشهده ، ملائكة الليل وملائكة النهار" (٢)

وعن أبى سعيد الخدرى (رضى الله عنه) أن النبى (صلى الله عليه وسلم)قال : " ما منكم من رجل يخرج من بيته متطهرا ، فيصلى مع المسلمين الصلاة ، ثم يجلس فى المجلس ينتظر الصلاة الأخرى ، الا قالت الملائكة : اللهم اغفر له ، اللهم ارحمه" (٣)

وعن أبى هريرة (رضى الله عنه) أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون فى صلاة الفجر وصلاة العصر ، ثم يعرج الذين باتوا فيكم ، فيسألهم ربهم – وهو أعلم بهم – : كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون : تركناهم وهم يصلون ، وأتيناهم وهم يصلون" (٤)

وكون الملائكة أجابوا بأكثر مما سئلوا : فلأنهم علموا أنه سؤال موجب للرحمة والافضال ، فزادوا فى موجب ذلك بأن قالوا : جئناهم وهم يصلون ، ويترتب على ذلك: أن الملائكة تفرح بعمل العبد الصالح ، وأنهم يحبون له رحمة الله على ذلك وحسن جزائه ، ولولا ذلك لما زادوا من عند أنفسهم مالم يسألوا عنه ،

---

(١) روى هذا الحديث البخارى ومسلم والترمذى وابن حبان ، انظر اللؤلؤ ص١ ٧٣ والمباركفورى: تحفة الأحوذى ١٠ / ٥٨ ، والفارسى : تقريب صحيح ابن حبان ٢ / ١٥٣

ومعنى : هلموا : تعالوا ، فيحفونهم : يطوفون ويدورون حولهم ، أعلم منهم : أى أعلم من الملائكة بحال الذاكرين ،

يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك: يقولون (سبحان الله والحمد لله والله اكبر)

يمجدونك : أى يشرفونك ويعظمونك ،

(٢) ابن الأثير : جامع الاصول ٢ / ٢١٥

(٣) البنا الساعاتى : الفتح الربانى ٢ / ٢١١

(٤) اللؤلؤ ١ / ١٢٣ ، والفارسى : تقريب صحيح ابن حبان ٣ / ١٧٧

ويترتب على ذلك أيضا : الفرح والسرور بهذه الأوقات لقدوم رسل الملك الى المسلم وسؤاله عنه . وهذا يدل أيضا على حب الملائكة للمؤمن ، فيدعو الى حبهم والانس بهم ، وهذا مما يقرب الى الله عز وجل [١] .

الشجاعة والثبات في المعارك :

ومن آثار الايمان بالملائكة : البطولة والثبات أثناء القتال في سبيل الله . فالمؤمن في المعركة يحرص على أن ينال احدى الحسنيين ــ النصر أو الشهادة ــ ويشعر وهو يقاتل أعداء الله بأنه ليس وحده في الميدان . بل يقف في صفه رب العالمين ثم أخوانه المجاهدون وجنود الله الكثيرون ــ ومنها الملائكة الكرام ــ .

وهناك آيات كثيرة تدل على اشتراك الملائكة مع المؤمنين في المعارك بين حزب الله وجنود الشيطان . من هذه الآيات :

" ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون . اذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين . بلى ان تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين " آل عمران : ١٢٣ ــ ١٢٥) .

" اذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين ... اذ يوحي ربك الى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان " (الانفال : ٩ و ١٢)

" لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الارض بما رحبت ثم وليتم مدبرين . ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين " (التوبة : ٢٥ و ٢٦) .

---

(١) الأسدي : بهجة النفوس ١/١٩١ .

" يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا" (الاحزاب : ٩) الى غير ذلك من الآيات الكريمة .

* * *

وهذه نقول من بعض كتب التفاسير والسيرة تبين اشتراك الملائكة مع المؤمنين في قتال المشركين :

جاء في الكشاف : (١)

(مسومين) : بفتح الواو وكسرها بمعنى معلمين ومعلمين أنفسهم أو خيلهم .
قال الكلبي : معلمين بعمائم صفر مرخاة على أكتافهم .
وقال قتادة : كانوا على خيل بلق .
وعن عروة بن الزبير (رضى الله عنهما) : كانت عمامة الزبير يوم بدر صفراء ، فنزلت الملائكة كذلك .

وجاء في التسهيل : (٢)

وكانت سيما الملائكة ـ يوم بدر ـ عمائم بيضاء الا جبريل فكانت عمامته صفراء ، وكانت خيلهم مجزوزة الأذناب .

وجاء في فتح البيان : (٣)

عن أنس قال : كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة ممن قتلوهم بضرب على الاعناق وعلى البنان ، مثل سمة النار قد احترق به . واختلفوا هل قاتلت يوم حنين أم لا ؟

وعن جبير بن مطعم : قال رأيت قبل هزيمة القوم والناس يقتتلون مثل البجاد الاسود أقبل من السماء ، حتى سقط بين القوم ، فنظرت فاذا نمل أسود مبثوث قد

---

(١) الزمخشري : الكشاف ١ / ٤٦٢
(٢) الغرناطي : التسهيل ١ / ١٠٢
(٣) صديق خان : فتح البيان ٤ / ١٠١ والبجاد : كساء مخطط من أكسية الأعراب

ملأ الوادى ، لم أشك أنها الملائكة ولم تكن الا هزيمة للقوم .

وجاء فى روح المعانى : (١)

قال ابن عباس : بينما رجل من المسلمين يشتد فى أثر رجل من المشركين أمامه اذ سمع ضربة بالسوط فوقه ، وقائلا يقول : أقدم حيزوم ، فخر المشرك مستلقيا . فنظر اليه فاذا هو قد حطم وشق وجهه . فجاء فحدث بذلك النبى (صلى الله عليه وسلم) فقال : صدقت ! ذلك من مدد السماء الثالثة .

وجاء فى تاريخ الخميس فى أحوال أنفس نفيس :

(قال ابن عباس : حدثنى رجل من غفار قال : أقبلت أنا وابن عم لى حتى أصعدنا فى جبل يشرف بنا على بدر ـ ونحن مشركان ـ ننتظر لمن تكون الدائرة فننتهب مع من ينتهب . فبينا نحن فى الجبل اذ دنت منا سحابة ، فسمعنا منها حمحمة الخيل ، فسمعت قائلا يقول : أقدم حيزوم فأما ابن عمى فانكشف قناع قلبه فمات مكانه ! وأما أنا فكدت أهلك . وقال أبو داود المازنى : انى لأتبع رجلا من المشركين يوم بدر لأضربه اذ وقع رأسه قبل أن يصل اليه سيفى ! فعرفت أنه قد قتله غيرى . وقال عكرمة : كان يومئذ يندر رأس الرجل لا يدرى من ضربه ، ويندر يد الرجل لا يدرى من ضربه !) (٢)

وجاء فى السيرة الحلبية :

(وحين رأى المسلمون القتال قد نشب عجوا بالدعاء الى الله ، فأنزل الله عند ذلك " اذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين " (الانفال : ٩) . أى متتابعين . وقيل : ردفا لكم ومددا لكم . وقيل : وراء كل ملك ملك آخر . ويوافق ذلك ما جاء عن ابن عباس : أمد الله نبيه يوم بدر بألف من الملائكة ، فكان

---

(١) الالوسى : روح المعانى ١٧٨/٩

(٢) الديار بكرى : تاريخ الخميس ٣٨٢/١ و ٣٨٣

جبريل فى خمسمائة وميكائيل في خمسمائة) (١)

ولنستمع الآن لصاحب الظلال ـ رحمه الله ـ وهو يفسر لنا الآية الكريمة :

" اذ يوحى ربك الى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان" (الأنفال : ١٢)

انه الأمر الهائل ٠٠ انها معية الله ـ سبحانه ـ للملائكة فى المعركة ، واشتراك الملائكة فيها مع العصبة المسلمة ٠٠ هذا هو الأمر الذى لايجوز أن يشغلنا عنه أن نبحث : كيف اشتركت الملائكة ؟ ولا كم قتيلا قتلت ؟ ولا كيف قتلت ؟ ان الحقيقة الكبيرة الهائلة فى الموقف هى تلك الحقيقة ٠٠ ان حركة العصبة المسلمة فى الارض بهذا الدين أمر هائل عظيم ٠٠ أمر يستحق معية الله لملائكته في المعركة واشتراك الملائكة فيها مع العصبة المسلمة !

أننا نؤمن بوجود خلق من خلق الله اسمهم الملائكة ، ولكنا لاندرك من طبيعتهم الا ما أخبرنا به خالقهم عنهم ، فلا نملك من ادراك الكيفية التى اشتركوا بها فى نصر المسلمين ـ يوم بدر ـ الا بمقدار ما يقرره النص القرآنى ٠٠ وقد أوحى اليهم ربهم : أنى معكم ٠ وأمرهم أن يثبتوا الذين آمنوا ففعلوا ـ لانهم يفعلون مايؤمرون ـ ولكننا لاندرى كيف فعلوا ٠ وأمرهم أن يضربوا فوق أعناق المشركين ، وأن يضربوا منهم كل بنان ، ففعلوا كذلك بكيفية لانعلمها ٠

فهذا فرع عن طبيعة ادراكنا نحن لطبيعة الملائكة ، ونحن لانعلم عنها الا ما علمنا الله ٠٠ ولقد وعد الله ـ سبحانه ـ أن يلقى الرعب في قلوب الذين كفروا فكان ذلك ووعده الحق ، ولكنا كذلك لانعلم كيف كان ، فالله هو الذى خلق وهو أعلم بمن خلق وهو الذى يحول بين المرء وقلبه ، وهو أقرب اليه من حبل الوريد ٠

---

(١) على الحلبى : انسان العيون (السيرة الحلبية) ٢/١٧٣

ان البحث التفصيلي في كيفيات هذه الأعمال كلها ليس من الجد الذى هو طابع هذه العقيدة وطابع الحركة الواقعية بهذه العقيدة ، ولكن هذه المباحث صارت من مباحث الفرق الاسلامية ومباحث علم الكلام فى العصور المتأخرة ، عندما فرغ الناس من الاهتمامات الايجابية فى هذا الدين ، وتسلط الترف العقلي على النفوس والعقول ..

وان وقفة أمام الدلالة الهائلة لمعية الله ـ سبحانه ـ للملائكة فى المعركة واشتراك الملائكة فيها مع العصبة المسلمة لهى أنفع وأجدى .

ولا نميل الى المنهج الذى تتخذه مدرسة الشيخ محمد عبده (فى التفسير) من محاولة تأويل كل أمر غيبى من هذا القبيل تأويلا معينا ينفى الحركة الحسية عن هذه العوالم .

وقد جزم الشيخ رشيد رضا ـ فى موضع آخر ـ بأن الملائكة لم تقاتل يوم بدر ! على الرغم من قول الله تعالى " فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان " ومثله تفسير الطير الأبابيل بأنها ميكروبات الجدرى ! فى تفسير الشيخ محمد عبده لجزء عم .. هذا كله مبالغة في تأويل هذه النصوص المتعلقة بأمور غيبية حيث لا ضرورة لهذا التأويل ، لأنه ليس هناك مايمنع من الدلالة الصريحة للألفاظ فيها .

وكل ما ينبغى هو الوقوف وراء النصوص بلا تفصيلات لا تدل عليها دلالة صريحة .. وهو المنهج الذى اتخذناه فعلا .

وان كنا لاندرى كيف تضرب الملائكة فوق الأعناق وكل بنان ، ولكن جهلنا بالكيفية لا يدعونا الى تأويل هذا النص عن مدلوله الظاهر ، وهو أن هناك أمرا من الله ـ سبحانه ـ للملائكة بالضرب ، وأن الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون .

وليس كالذى قاله المرحوم السيد رشيد رضا من أنه ثبت أن الملائكة لم تشترك فى المعركة يوم بدر الا بمخالطة أرواح المؤمنين وتثبيتهم ، فهذا مخالف لظاهر النص والنص أولى بالاتباع .(١)

---

(١) سيد قطب : الظلال ١٤٨٦/٣ و ١٥٣١ و ١٥٣٢ و ١٥٣٤

طلب العلم :*

قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (من سلك طريقا يطلب فيه علما سلك الله به طريقا من طرق الجنة . والملائكة تضع أجنحتها رضا لطالب العلم . وان العالم يستغفر له من في السماوات ومن في الأرض والحيتان في الماء) (١) .

وقال أيضا : (مامن خارج يخرج من بيته يطلب العلم الا وضعت له الملائكة أجنحتها رضا بما يصنع) (٢) .

ومعنى وضع الملائكة أجنحتها لطالب العلم :

اما بسط الأجنحة .

واما بمعنى التواضع تعظيما لطالب العلم .

واما أن المراد به النزول عند مجالس العلم وترك الطيران (٣) .

واعلم أنه لارتبة فوق رتبة من تشتغل الملائكة ـ وغيرهم ـ بالاستغفار والدعاء له . وانه لينافس في دعاء الرجل الصالح ـ أو من يظن صلاحه ـ فكيف بدعاء الملائكة المطهرين ؟ (٤)

---

* عن ذر بن حبيش قال أتيت صفوان بن عسال المرادى فقال : ماجاء بك؟ قلت : طلب العلم فقال : ان الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضا لما يطلب / انظر كتاب العلم لأبى خيثمة النسائى ص١١٠ .

(١) الفارسى : تقريب صحيح ابن حبان ١/١٦٥ .
والهيثمى : موارد الظمآن ص ٤٩ .

(٢) الفارسى : تقريب صحيح ابن حبان ١/١٦٣ .
والهيثمى : موارد الظمآن ص ٤٨ .

(٣) ابن قدامة : مختصر منهاج القاصرين ص ١٣ .
وابن الأثير : جامع الأصول ٨/٦ .

(٤) ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم ص٨ .

ان الاسلام يقف موقفا وسطا بين من يمجد العلم ويرفعه فوق مستواه ويجعل كل شيء خاضعا له — ولو لم يدخل فى عالم الشهادة — وبين من يمجد الروح ويهمل العلم — ولو كان هذا العلم منسجما ومتلائما مع المنطق — !

وقد حث الاسلام على طلب العلم النافع ، وحرر العقل من الخرافات والأضلال ، وأمر بالتفكير فى ملكوت السماوات والأرض . " ان فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب . الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السماوات والأرض ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك . فقنا عذاب النار " (آل عمران : ١٩٠ و ١٩١) .

وقد وضع الاسلام للعقل حدودا لايتجاوزها — لأنها ليست من عالمه — لئلا يتيه فى مسالك وعرة لايصل فى نهايتها الى قرار .

وحينما يعرف المسلم أن الملائكة الأطهار تضع أجنحتها لطالب العلم ، فانه يزيد من اجتهاده ، ويكحل عينيه بأثمد السهر لينال سعادة الدنيا وحسن ثواب الآخرة ، فيرتفع قدره عند الله عز وجل ثم عند مخلوقاته :

" يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات " (المجادلة : ١١) .

والملائكة الكرام تضع أجنحتها لطالب العلم ، سواء كان علمه فى آيات الله المنظورة — الكونية — أو فى آيات الله المسطورة — الشرعية — ، ان خلصت نيته لمن يعلم السر وأخفى ، وان عمل بما علم .

((وان فقيها واحدا متعبدا لأشد على الشيطان من ألف عابد)) . وهكذا فان الايمان بالملائكة المتفرع من الايمان بالله يدفع النفس لطلب العلم النافع — دينى كان أو دنيوى — والصبر على تحصيله ، والعمل به ، والهجرة من أجله .

ونختم هذا الفصل بكلام مفيد لفضيلة الاستاذ محمد قطب يقول فيه :

(والايمان بالملائكة يؤدى مهمة مزدوجة أو جملة مهام فى وقت واحد . فجبريل — عليه السلام — هو الذى نزل بالوحى على سيدنا محمد — صلى الله عليه وسلم — ومن ثم فالايمان بجبريل — وهو أحد الملائكة — والشعور بالحب والمودة له جزء من الاعتقاد اللازم للمؤمن ، كالايمان بصدق القرآن سواء ، حتى لايداخله شك فى الطريق الذى وصل به الينا القرآن .

ثم ان الملائكة عامة ذات صداقة ومودة للمؤمنين فى الحياة الدنيا وفى الآخرة : " ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولاتحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون " (فصلت : ٣٠) .

ثم ان منهم الحفظة الذين يسجلون على الانسان أعماله : " وان عليكم لحافظين" (الانفطار : ١٠) ومعرفة ذلك كله : تؤنس القلب بتلك المودة النورانية التى تحسها الملائكة نحوه .

كما أنه يحاول أن يلتزم بالسلوك الذى يفرضه عليه الايمان ، حتى لايسجل عليه الحفظة الا كل طيب من الأفكار والمشاعر والسلوك . ومن هنا فان الايمان بالملائكة يؤدى (مهمة ايمانية) فى حياة المؤمن تتصل بالايمان بالله ، فى الاعتقاد والسلوك سواء ، بالاضافة الى تلك السعة النفسية التى يكتسبها الانسان حين ينفسح أمامه عالم الكائنات ، فلا يقتصر منها على ماتدركه حواسه فحسب ... وان تلك السعة ذاتها لمن ارادة الله للمؤمن الذى يحمل الأمانة ليحسن حملها ، ويكون أقدر على تصور أبعادها ..

وبالاضافة كذلك الى الاحساس بعظمة الخالق ، الذى خلق هذه الكائنات العلوية الشفيفة " الحمد لله فاطر السماوات والأرض جاعل الملائكة أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع " (فاطر : ١) [1] .

---

(١) محمد قطب : دراسات قرآنية ص ٩١ — ٩٢ .

الفصل الرابع

أثر الإيمان بالكتب السماوية

في تربية النفس

تمهيـــــد :

ان الايمان بالله تعالى يستلزم التصديق بالكتب السماوية التي نزلت على رسل الله ـ عليهم أفضل الصلاة والسلام ـ .

قال تعالى : " قولوا آمنا بالله وماأنزل الينا وماأنزل الى ابراهيم واسماعيـــل واسحاق ويعقوب والأسباط وماأوتى موسى وعيسى وماأوتى النبيون من ربهم لانفــرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون " (البقرة : ١٣٦)

ومعنى الايمان بالكتب السماويـــة :

هو التصديق الجازم بأن المولى جل وعلا أنزل على بعض أنبيائه ورســـله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ كتبا لهداية الخلق .

وأن هذه الكتب حـق ونور وشفاء لما فى الصـــدور .

ولايعلم عدد هذه الكتب الا لله تبارك وتعالى .

ويجب الايمان بالكتب التى أنزلـــت :

اجمالا : " وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب " (الشورى : ١٥) .

" ياأيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتـــاب الذى أنزل من قبل " (النساء : ١٣٦) .

وتفصـــيلا : وهى التى ذكرها الله تعالى بأسمائها فى القرآن الكريم تحديـــدا وهـــى :

صحف ابراهيم وموسى : " ان هذا لفى الصحف الأولى صحف ابراهيم وموســـى " (الأعلى : ١٨ و ١٩) .

والتوراة : " انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور " (المائدة : ٤٤) .

والزبور : " وآتينا داود زبورا " (النساء : ١٦٣) .

والانجيل : " وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين " (المائدة : ٤٦) .

والقرآن الكريم : " وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا " (الاسراء : ١٠٦) . " انه لقرآن كريم . فى كتاب مكنون لايمسه الا المطهرون . تنزيل من رب العالمين " (الواقعة : ٧٧ ــ ٨٠) . " نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربى مبين " (الشعراء : ١٩٣ ــ ١٩٥) .

ملحوظة :

مانسب للكتب السماوية ــ التى نزلت قبل القرآن الكريم ــ مما يخالف توحيد الله عز وجل ، أو مما يطعن فى عصمة الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) ، أو مما يناقض بعضه بعضا ، أو مما لايصدقه عاقل ... فانه من تحريف أصحابها ، كما قال تعالى : " يحرفون الكلم عن مواضعه " (النساء : ٤٦) .

وأما أصل هذه الكتب السماوية فانه حق وصدق وهدى ونور .. ولكن التحريف والتبديل طرأ عليها بعد ذلك .

وعلى المسلم أن يتوقف فيما جاء فيها مما لايتعارض مع دين الاسلام ، فلا يصدقه ولايكذبه ، وأن يلتزم بقوله (صلى الله عليه وسلم) :

(اذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولاتكذبوهم ، وقولوا آمنا بالله وكتبه ورسله ، فان كان حقا لم تكذبوهم ، وان كان باطلا لم تصدقوهم) [1] .

---

(١) الفتح الربانى ١/١٧٦ .

والقرآن الكريم هو الوحيد — من بين الكتب السماوية — الذى حفظ من التغيير والتبديل والتحريف والزيادة والنقص : " انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون" (الحجر : ٩) .

وهو الوحيد الصالح لكل زمان ومكان ومجال ، وهو يكفينا معشر المسلمين فى معرفة ماينفعنا فى الدارين .

ونتحدث فيما يأتى بايجاز شديد عن هذه الكتب السماوية:

صحف ابراهيم وموسى :

لم يرد فى كتاب الله المجيد ذكر لصحف ابراهيم وموسى الا فى سورة النجم حيث قال تعالى : " أم لم ينبأ بما فى صحف موسى . وابراهيم الذى وفى " (٣٦ و ٣٧) . وفى سورة الأعلى حيث قال جل شأنه: " ان هذا لفى الصحف الأولى . صحف ابراهيم وموسى " (١٨ و ١٩) .

وهل ماورد فى التوراة يتضمن ماجاء فى صحف موسى ؟ (١)

لانستطيع اثبات ذلك أو نفيه ، والله تعالى أعلم بذلك .

---

(١) السيوطى : الدر المنثور ٣٤١/٦ .
والهيثمى : موارد الظمآن ص ٥٢ — ٥٤ .

التـــــوراة :

وهى مجموعة الأسفار الخمسة التى نزلت على موسى (عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة واتم التسليم) .

وتطلق التوراة أحيانا على جميع أسفار العهد القديم وذلك من باب التغليب ، لأهميتها ونسبتها الى موسى (عليه الصلاة والسلام) والتوراة : كلمة عبرية معناها التعليم أو الشريعة أو الناموس . وجرت العادة أن يطلق على أسفار العهد القديم وأسفار العهد الجديد اسم الكتاب المقدس.

وقد اعتمد اليهود تسعة وثلاثين سفرا ، أطلق عليها اسم (العهد القديم) للتفريق بينها وبين ما اعتمده النصارى من أناجيلهم التى أطلقوا عليها اسم (العهد الجديد) .

ويقسم العهد القديم الى أربعة أقسام هى :

التوراة : وهى خمسة أسفار :

سفر يذكر فيه بدء الخليقة والتاريخ من آدم الى يوسف (عليهما وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام)

وسفر يذكر فيه استخدام المصريين بنى اسرائيل ، وظهور موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، وهلاك فرعون ، وأحوال التيه ، واقامة هارون ـ عليه الصلاة والسلام ، ونزول الكلمات العشر وسماع القوم كلام الله .

وسفر يذكر فيه تعليم القوانين بالاجمال .

وسفر يذكر فيه عدد القوم ، وقسمة الارض عليهم ، وأحوال الرسل التى بعثها موسى (عليه الصلاة والسلام) الى الشام ، وأخبار المن والسلوى والغمام .

وسفر يذكر فيه اعادة أحكام التوراة ، وتفصيل المجمل ، وذكر وفاة هارون وموسى (عليهما الصلاة والسلام) ![(١)]

وتسمى هذه الأسفار بسفر التكوين وسفر الخروج وسفر التثنية وسفر العدد وسفر اللاويين .

ثم الأسفار التاريخية .

ثم أسفار أناشيد .

ثم أسفار الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام[(٢)] .

وكما ذكرنا آنفا فان هذا الكتاب ـ وغيره من الكتب السماوية السابقة للقرآن الكريم ـ منسوخ ومحرف ووكل حفظه للبشر ، كما قال تعالى : " انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء " (المائدة / ٤٤) .

ومما ورد في التوراة ـ كما أخبرنا بذلك المولى عز وجل في القرآن الكريم ـ " وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون " (المائدة : ٤٥) .

" محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة " (الفتح : ٢٩) .

---

(١) مما يدل على تحريف التوراة : ذكرها وفاة هارون وموسى (عليهما الصلاة والسلام) وهي التي نزلت على موسى !!!

(٢) انظر ابن الأزرق : بدائع السلك ١/١٢١ .
وعبد العزيز عبيد : محاضرات في الأديان (ألقاها علينا في السنة المنهجية ١٣٩٢هـ)
والميداني : العقيدة الاسلامية ص ٥٤٦ ،
ورمزي نعناعه : الاسرائيليات ص ٣١ .

الزبـــــور : (١)

الزبور : الكتاب ، ومزبور : أى مكتوب ، وكل كتاب يسمى زبورا وصما ورد فـــى الزبور كما أخبرنا بذلك القرآن : " ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون " (الأنبياء : ١٠٥) .

قال أبو هريرة (رضى الله عنه) : الزبور : ماأنزل على داود (عليه الصلاةوالسلام) ومن بعد الذكر : أى من بعد التوراة .

وقال تعالى : " وكل شئ فعلوه فى الزبـــر " (القمر : ٥٢) أى مسجل فى كتب الملائكة وصحفهم .

وقد غلب الزبور على كتاب داود (عليه الصلاة والسلام) ، قال تعالـــــى : " وآتينا داود زبورا " (النساء : ١٦٣) .

وسمى بالزبور : لأنه نزل من السماء مسطورا .

والزبور : مائةوخمسون سورة ــ مزمارا ــ ليس فيها حكم أو حلال أو حـــــرام ، وانما هى حكم ومواعظ وأدعية وتحميد وتمجيد وثناء على الله تعالى .

قال (صلى الله عليه وسلم) لأبى موسى الأشعرى (رضى الله عنه) : (لو رأيتنى وأنا أستمع لقراءتك البارحة ! لقد أوتيت مزمارا من مزامير آل داود) (٢) .

وذكر ابن حيان (صاحب البحر المحيط) : أنه قرأ جملة من الزبور فى الأندلس. (٣)

---

(١) القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ١٦/٦ .
وأبو السعود : ارشاد العقل السليم ٢٥٥/٢ ،
والشوكانى : فتح القدير ٥٣٨/١ ،
وابن قتيبة : تفسير غريب القرآن ص ٣٧ ،
وابن الأزرق : بدائع السلك ١٢٣/١ ،
والزبيدى : تاج العروس ٣٩٩ .

(٢) مســـلم ٥٤٦/١ .

(٣) ابن حيان : البحر المحيط ٣٩٧/٣ .

الانجيــــــل : (١)

هو الكتاب الذى أنزله الله تعالى على المسيح (عليه الصلاة والسلام) • وليـــس هو مابأيدى النصارى اليوم ! والانجيل : كلمة عبرية معناها : البشارة • والكتـاب المقدس لدى النصارى ، يشمل التوراة والأناجيل ورسائل الرسل •

التـــــوراة : ويسمونها كتب العهد القديم • وبعض الأســـفار المعتبرة عنـــد اليهود مرفوضة عند النصارى ، لعدم اعتقادهم بصحتها •

الأناجيـــل : وهى انجيل متى وانجيل مرقص وانجيل يوحنا وانجيل لوقا • وقـــد اعترفت بها الكنيسة فى القرن الثالث الميلادى ، ولم تعترف بانجيـــل برنابا (مع أنه أقربها للصـــواب) !

الرســـائل : وهى الرسائل التعليميــــة •

ويعترف النصارى بأن الأناجيل الأربعة المتداولة بينهم ، تم اختيارها من بـــين عشرات الأناجيل التى كانت منتشرة آنذاك ! ومن المعلوم بالضرورة أن عيســـى (عليه الصلاة والسلام) أتى بانجيل واحد من عند الله تعالى • ولا يستطيع هـــؤلاء أن يثبتوا أن أحد الأناجيل الأربعة مطابق بنصـــه ومعناه للانجيل الذى جاء بـــه المسيح (عليه الصلاة والسلام) •

ولا يزعم النصارى أن هذه الكتب كتبها عيسى (عليه الصلاة والسلام) نفســـــه • بل يزعمون أن الذين كتبوها رسل من بعده مبعوثون بها •

واذا بحثنا فى مراجعهم فلا نجد مرجعا صحيحا قرر أن هؤلاء الرسل قد ادعـوا مثل هذه الرسالة ودعوا الناس الى الايمان بها ومعهم البرهان عليها •

---

(١) انظر المراجع فى الصفحة التاليـــة ....

وقد تعددت نسخ هذه الكتب فيما بعد فيما نقلته من أقوال وآراء ، ونسخ الانجيل ـ بأجمعها ـ يخالف بعضها بعضا ويناقضه •

بالاضافة الى ذلك : فان اسناد هذه الأناجيل غير صحيح ، ومجهول ومنقطع •

وأما عقيدة المسيح (عليه الصلاة والسلام) فهى التوحيد الخالص :

" واذ قال الله ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهـين من دون الله قال سبحانك مايكون لى أن أقول ماليس لى بحق ان كنت قلته فقد علمته تعلـم مافى نفسى ولاأعلم مافى نفسك انك أنت علام الغيوب • ماقلت لهم الا ماأمرتنى بـه أن اعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيدا مادمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنـت الرقيب عليهم وأنت على كل شـئ شـهيد " • (المائدة : ١١٦ و ١١٧) •

ومما ورد فى الانجيل الصحيح الذى نزل على عيسى (عليه الصلاة والسلام) : " ومثلهم فى الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيـظ بهم الكفار " (الفتح : ٢٩) •

= (١) انظر ابن تيمية : الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ١ / ٣٨ ،
وأبو زهـرة : محاضرات فى النصرانية ص ١٤ و ٤٧ و ٩٣ •
ومتولى شلبى : أضواء على المسيحية ص ٣٧ ،
والجهمان : حقائق عن النصرانية ص ٤١ ،
ونمناعة : الاسرائيليات ص ٥٥ ،
والصابونى : النبوة والأنبياء ص ٢٠٥ ،
والميدانى : العقيدة الاسلامية ص ٥٢٢

تنبيـــــه : الأصل أن يقال (النصرانية) لاالمسيحية ـ كما هو شائـع ـ
لأن لفظ المسيحية لم يرد فى الكتاب أو السنة ! والأديان لاتنسب لأنبيائـها ، فلا يقال مثلا الديانة الموسوية أو الديانة المحمدية !
كذلك فان المسيح (عليه الصلاة والسلام) برئ من هؤلاء النصارى !!

القـــرآن الكريـــــم :

((هو كلام الله المعجز ، المنزل على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بوساطـة جبريل ـ عليه السلام ـ المكتوب فى المصاحف ، المنقول بالتواتر ، المتعبد بتلاوته ، المبدوء بسورة الفاتحة ، المختوم بسورة الناس)) [١] .

قال تعالى : " انا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون " (يوسف : ٢) وقـال تعالى : " تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا " (الفرقان : ١) وسمى القرآن قرآنا : لأن آياته قرنت بعضها ببعض ، وقيل : لأنه قرن بالحكمـــة [٢] ، وقيل : لأنه جمع القصص والأمر والنهى والوعد والوعيد والآيات والسور بعضها الـى بعض (لأنه مشتق من القرء وهو الجمع) .

ويرى الشافعى (رحمه الله) . أن القرآن لغة : اسم علم غير مشتق خاص بكـلام اللـه . ويرى الفـراء والزجاج واللحيانى وغيرهم : أنه مشتق ، غير أنهم اختلفـوا فى مادة اشـتقاقه [٣] .

وأشهر أسمائه : القرآن والفرقان والكتاب والذكر والتنزيل [٤] .

---

(١) أخذنا تعريف القرآن الكريم مـن :
ابن النجار : شرح الكوكب المنير ٢/٧ ،
والآمدى : الاحكام ١/١٥٩ ،
والامام الغزالى : المستصفى ١/١٠١ ،
وابن اللحام : المختصر فى أصول الفقه ص ٧٠ ،
والزرقانى : مناهل العرفان ١/١٩ ،
والصابونى : التبيان فى علوم القرآن ص ٦ .

(٢) سليمان الجمل : حاشية الجمل على الجلالين ١/٢٤١ .

(٣) عدنان زرزور : دراسات قرآنية ص ٤٣ ،
وابن قتيبة : تفسير القرآن ص ٣٣ .

(٤) الزرقانـــى : مناهل العرفان ١/١٥ .

والقرآن الكريم — كما ذكرنا — خاتم الكتب السماوية وناسخها والمهيمن عليها والمصدق لها ، تكفل الله عز وجل بحفظه — بخلاف غيره من الكتب السماوية — .
ولا يقبل الله من أحد لا يؤمن بمحكمه أو متشابهه أو لا يحل حلاله أو لا يحرم حرامه صرفا ولا عدلا .

وصدق الله العظيم : " وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق " (المائدة : ٤٨) .

وهو بايجاز :

((حبل الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تتشعب معه الآراء ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يمله الأتقياء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه . وهو الذى لم تنته الجن اذ سمعته أن قالوا " انا سمعنا قرآنا عجبا " (الجن : ١) .
من علم علمه سبق ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن عمل به أجر ، ومن دعا اليه هدى الى صراط مستقيم)) .

* *

عن أبى موسى الأشعرى — رضى الله عنه — عن النبى (صلى الله عليه وسلم) قال : (مثل الذى يقرأ القرآن : كالأترجة طعمها طيب وريحها طيب . والذى لا يقرأ القرآن : كالتمرة طعمها طيب ولا ريح لها . ومثل الفاجر الذى يقرأ القرآن : كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر . ومثل الفاجر الذى لا يقرأ القرآن : كمثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها) [١] .

---

(١) البخارى ٦/١٠٧ و ٩٧ .

وعن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ قال : قال النبى (صلى الله عليه وسلم) : (مامن الأنبياء نبى الا أعطى مامثله آمن عليه البشر وانما كان الذى أوتيت وحيا أوحاه الله الى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة) [١] .

ومن أهم خصائص القرآن الكريم [٢] :

أنه خاتم الكتب الربانية المنزلة على الأنبياء والمرسلين (عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى التسليم) .

وأنه الكتاب المعجز فى مبناه البيانى ، والمعجز فى مضمونه ومعناه .

(واعجاز القرآن الدائم هو الدليل الخالد على أنه كلام الله تعالى حقا) .

وانه الكتاب المحفوظ والمصون من التحريف والتبديل والزيادة والنقصان .

وأنه المصدر الأول للمفاهيم الاسلامية كلها وللتشريع الاسلامى الذى يشمل كل أنواع السلوك البشرى .

ولله در القائل :

الله أكبر ان دين محمد :

وكتابه أقوى وأقوم قيلا

لاتذكر الكتب السوالف قبله

طلع الصباح فأطفىء القنديلا

---

(١) البخارى ١٠٧/٦ و ٩٧ .

(٢) الميدانى : معلومات عامة حول القرآن ص ٩ .

وانظر ماكتبه العلامة الموردى حول مميزات كتاب الله الكريم والفرق بينه وبين الكتب السابقة فى مبادئ الاسلام من ص ١٠٤ ــ ١٠٩ .

اذا كان الحق تبارك وتعالى قد " أعطى كل شئ خلقه ثم هدى " (طـه : ٥٠) فهدى المخلوقات ـ الناطقة والصامتة ـ لمنافعها ومصالحها ، كالهامه تعالى النحل لتتخذ من الجبال ومن الشجر ومن الأوكار التى يبنيها الناس لها بيوتا ، وأرشدها بقدرته للأكل من جميع الأزهار ، وهداها وسهل لها الطرق فى ذهابها وايابها ، كما قال تعالى : " وأوحى ربك الى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون • ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون" (النحل : ٦٨و٦٩)
اذا كان الأمر كذلك كما قيل فهل من المعقول أن يترك الله عز وجل الانسان وقد خلقه فى أحسن تقويم وفضله على كثير ممن خلق وشرفه بأن خلقه بيديه وجعله خليفة فى الأرض .. هل من المعقول أن يدعه يتيه فى الأرض بغير هدى ولارسول ولا كتاب مبين ؟ !

لقد خلق الله الانس ـ والجن أيضا ـ لعبادته :

" وماخلقت الجن والانس الا ليعبدون " (الذاريات : ٥٦)

فلذا بعث أنبياءه ورسله ـ وأنزل معهم الكتب ـ مبشرين ومنذرين :

" انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وآتينا داود زبورا • ورسلا قد قصصناهم عليك ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما • رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما" (النساء : ١٦٣ ـ ١٦٥) .

لقد جاء رسل الله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ حتى يقودوا سفينة الحياة الى الله العزيز الحميد ، وليأخذوا بيد البشرية الى شاطئ الأمان ، وليخلصوها من براثن الشرك والكفر والجهل والضلال والظلام !

ان دين الله ـ الذى جاءت به الرسل ونزلت به الكتب ـ هو دين واحد ، هــو الاسلام والتوحيد :

" ان الدين عند اللــه الاســلام " (آل عمران : ١٩) .

" ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين " (آل عمران ٨٥)

ومن هنا يخطئ من يقول بأن هناك أديانا سماوية ، أو من يكتب فى مقارنة الأديـان !

لأن الأنبياء والمرسلين جميعا ـ عليهم الصلاة والسلام ـ جاؤوا بدين الاسلام فحسب :

" ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وانه فــى الآخرة لمن الصالحين ، اذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين . ووصــى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يابنى ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وأنـــتم مسلمون . أم كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت اذ قال لبنيه ماتعبدون من بــعدى قالوا نعبد الهــك واله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحق الــها واحدا ونحـــن لــه مســلمون " (البقــرة : ١٣٠ ـ ١٣٣) .

" فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو وأوتينا العلم من قبلها وكنـــا مسلمين .. قيل لها ادخلى الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قـــال انه صرح ممرد من قوارير قالت رب انى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين " (النمل : ٤٢ و ٤٤) .

" يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا " (المائدة : ٤٤) .

" ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على مارزقهم من بهيمة الأنعام فالهكم اله واحد فله أسلموا وبشر المخبتين " (الحج : ٣٤) .

" قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون " (آل عمران : ٥٢)

" وماتنقم منا الا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين " (الأعراف : ١٢٦) .

" واتـل عليهم نبأ نـوح ... وأمرت أن أكون من المسلمين" (يونس ٧١ و ٧٢)

" وقال موسى ياقوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين" (يونس: ٨٤)

" قال انى أمرت أن أكون أول من أسـلم " (الأنعام : ١٤) .

" وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فاولئك تحروا رشـدا" الجن : ١٤)

وان مهمـة الأنبياء والمرسلين ـ عليهم الصلاة والسلام ـ هى البلاغ المبين" فهـل على الرسـل الا البلاغ المبين " (النحل : ٣٥) .

والبلاغ يتضمن الدعوة الى الايمان بالله تعالى :

" قولوا آمنا بالله وماأنزل الينا وماأنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وماأوتى موسى وعيسى وماأوتى النبيون من ربهم لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون " (البقرة : ١٣٦) .

ويتضمن أيضا : التبشير والانذار ، حتى لايقول الناس :

" ربنا لولا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخـزى" (طه ١٣٤) .

" ربنا لولا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين " (القصص: ٤٧) .

وقد شاءت ارادة المولى جل وعلا ألا يهلك أحدا فى الدنيا وألا يعذبه فى الآخـرة الا بعد الكفر والتكذيب والعصيان :

" وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلو عليهم آياتـنا وماكنـا مهلكى القرى الا وأهلها ظالمون " (القصص : ٥٩) .

ولذا فقد جاءت الكتب السماوية لهداية البشـر :

" واذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون " (البقرة : ٥٣)

" نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والانجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان " (آل عمران : ٣ و ٤) .

وجاءت لتحكيم شريعة الله فى الأرض :

" انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولاتشتروا بآياتى ثمنا قليلا ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون . وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون . وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين . وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون . وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولاتتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ... " (المائدة ٤٤ ـ ٤٨)

ان الكتب السماوية تجعل المرء يشعر بقيمته عند الله تبارك وتعالى :

فقد خص الله تعالى هذا الانسان — من بين مخلوقاته — بالخلافة في الأرض، ولم يتركه سدى ، يتيه في الأرض بغير هدى ولا كتاب يبين له معالم الطريق ، بل بعث اليه رسلا مبشرين ومنذرين وأنزل معهم " الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط" (الحديد : ٢٥) .

وقد بينت هذه الكتب ماينفع الناس في الدارين وما يؤدي بهم الى جنة عرضها السماوات والأرض . ومايضرهم في الدنيا ومايؤدي بهم الى شقاوة لاسعادة بعدها أبدا . ونبهت هذه الكتب كذلك على أن النافع الضار المعز المذل المحيي المميت الخالق الرازق هو الله عالم الغيب والشهادة . وبذا يزداد الذين آمنوا بالله وبما أنزل على رسله من كتب ، ايمانا وطمأنينة وثقة وصبرا وحمدا وشكرا وتوكلا على من بيده الخلق والأمر .

وهذه الكتب السماوية تجعل المسلم يشعر بالعزة وباستعلاء الايمان، حيث تبين له هذه الكتب بأنه واحد من قافلة المؤمنين — على مدار التاريخ — وهذه الرابطة الايمانية القوية هي التي يفتخر بها دون غيرها من الروابط الأرضية المادية : " ان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون " (الأنبياء : ٩٢) .

فقد نادى الأنبياء والرسل — عليهم الصلاة والسلام — بكلمة واحدة " اعبدوا الله مالكم من اله غيره " (الأعراف : ٦٥) . — كما سنفصل ذلك عند الحديث عن أثر الايمان بالرسل في تربية النفس - ان شاء الله — .

وسلكوا طريقا واحدا .. وجاؤوا بدين واحد .. وجاهدوا في الله حق جهاده .. وتعرض معظمهم للأذى والاضطهاد في سبيل الله .. ولكنهم صبروا وصابروا ورابطوا .. وكانت العاقبة لهم في الدنيا والآخرة !

ويعتقد المؤمن بأن ما نزل على الأنبياء والمرسلين ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ من كتب هي حق ونور وشفاء لما في الصدور .

" انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور " (المائدة : ٤٤) .

" وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور " (المائدة : ٤٦) .

" ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شئ وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين " (النحل : ٨٩) .

وعند ذلك يستشعر رحمة الله تعالى بخلقه أجمعين ، حيث خلقهم ورزقهم وأرسل اليهم الرسل ومعهم الكتب لهداية العالمين ، وهذا يدفع المرء للحرص على طاعة مالك يوم الدين ، وتقديم طاعته على كل شئ في الوجود للفوز بسعادة الدارين .

ان مهمة الأنبياء والمرسلين ـ عليهم الصلاة والسلام ـ الذين آتاهم الله الكتاب والحكم والنبوة هي الدعوة الى الله واخلاص العبادة له وعدم الاشراك به شيئا ، لانبيا مرسلا ولاملكا مقربا .

ومهمتهم كذلك حث اتباعهم المؤمنين على تعلم الفقه والحكمة ومدارسة الكتاب وتدريسه :

" وماكان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون . ولايأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيأمركم بالكفر بعد اذ أنتم مسلمون " (آل عمران : ٧٩ و ٨٠) .

والايمان بالكتب السماوية يجعلنا معشر المؤمنين ـ أتباع النبى الأمى ـ (صلى الله عليه وسلم) ـ في غاية السعادة الحبور ، لأن الله تبارك وتعالى مدح أمتنا الاسلامية قبل خلقها ! وعدد مناقبها في التوراة والانجيل ، وبين أن أهم صفاتها :

اتباع محمد (صلى الله عليه وسلم) قولا وعملا فى جميع شئون الحياة ، وأن هذه الأمة معه قلبا وقالبا .

والجهاد فى سبيل الله ـ بجميع أنواعه ـ وخاصة جهاد الكفار والغلظة عليهم ، والذلة على المؤمنين ورحمتهم مقابل ذلك . والقيام بالشعائر التعبدية على أحسن وجه ، فهم رهبان الليل فرسان النهار .

والسعى فى طلب الحلال والابتغاء من فضل الله ، فلا تنافر فى حسهم بين الدنيا والآخرة .

كل هذه المعانى تضمنتها الآية الكريمة :

" محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ... " (الفتح : ٢٩) .

والكتب السماوية تعلم المؤمنين ـ فى كل زمان ومكان ـ العدالة الربانية ، وأن سنة الله لاتحابى أحدا ، فالكل عبيده ومن مخلوقاته : وكل بشر سيحاسب عن أعماله وسيجازى عليها ، ان خيرا فخير وان شرا فشر ، ولايحمل شخص حمل غيره ولو كان ذا قربى .

جاء ذلك فى صحف ابراهيم وموسى وفى الفرقان :

" أم لم ينبأ بما فى صحف موسى . وابراهيم الذى وفى . ألا تزر وازرة وزر أخرى " (النجم : ٣٦ ـ ٣٨) .

وهذه الكتب السماوية تبين فضل خاتم الأنبياء والمرسلين محمد (صلى الله عليه وسلم) وفضل أتباعه المؤمنين ، فتجعلنا نشعر ـ معشر المسلمين ـ بالغبطة والسرور حينما نعلم بأن الله عز وجل قد أخذ العهد المؤكد على جميع النبيين ـ عليهم الصلاة والسلام ـ لئن بعث محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه ،

وأن يأخذوا العهد على أتباعهم بذلك .. ومن نكث عهده ـ من أتباع رسول الله ـ فقد حبط عمله وهو فى الآخرة من الخاسرين .

وقد وردت صفته ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصفة أتباعه فى أهم كتابين سماويين ـ بعد القرآن الكريم ـ هما التوراة والانجيل :

" الذين يتبعون النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والأغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون " (الأعراف : ١٥٧) .

عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضى الله عنهما ـ قلت : أخبرنى عن صفة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى التوراة . قال: أجل والله انه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن : " ياأيها النبى انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزا للأميين أنت عبدى ورسولى سميتك المتوكل ليس بفظ ولاغليظ ولاسخاب ـ صخاب ـ فى الأسواق ولايدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لااله الا الله ويفتح بها أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا) (١) .

---

(١) رواه البخارى ٢١/٣

حرزا : أى حصنا .

للأميين : أى للعرب ، وسموا بذلك: لأن أغلبهم لايقرأ ولايكتب .

المتوكل : أى على الله ، لقناعته ـ صلى الله عليه وسلم ـ باليسير من الرزق، واعتماده على الله فى النصر ، والصبر على انتظار الفرج ، واليقين بتمام وعد الله .

ليس بفظ : أى ليس بجاف ولابسىء الخلق .

سخاب (صخاب) : أى لايرفع صوته على الناس لسوء خلقه ولايكثر الصياح عليهم ، بل يلين جانبه لهم ويرفق بهم .

ولكن يعفو ويغفر : مالم تنتهك حرمات الله . =

وتعلم هذه الكتب السماوية ـ أتباعها المؤمنين ـ أن الصفقة قد تمت بين الله تبارك وتعالى ـ الذى خلق النفوس وخلق الجنان ـ وبين عباده الصالحين ! فالمؤمنون باعوا أرواحهم وبذلوها ـ وكل مايملكون ـ رخيصة فى سبيل الله .. والله جل وعلا اشترى هذه النفوس .. والثمن هو الجنة !

وماتم بين المولى سبحانه وتعالى وبين عباده المخلصين المجاهدين ورد ذكره فى أهم الكتب السماوية ـ التوراة والانجيل والقرآن الكريم ـ كما جاء فى كتاب الله المجيد .

" ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن" (التوبة ١١١) .

فطوبى لمن آمن بهذه الكتب ـ التى نزلت من عند الله ـ وعمل بما جاء به المرسلون وجاهد فى سبيل الله ونال احدى الحسنيين !

وتعلم هذه الكتب ـ قوما تعلم ـ أن الله عز وجل وعد عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات ـ بلا انفصام بينهما ـ التمكين فى الأرض ووراثتها وتبديل الخوف أمنا وكان وعد الله مفعولا : جاء ذلك فى الزبور والقرآن الكريم :

= حتى يقيم به الملة العوجاء : فان ملة ابراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد اعوجت فى أيام الفترة فزيدت ونقصت وغيرت عن استقامتها وأميلت بعد قوامها ، حتى بعث ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأقامها بالتوحيد .

ويفتح بها أعينا عميا : ولاتنافى بين هذا وبين قوله تعالى : " وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم" * لأن معنى الآية أنك لاتستقل بهدايتهم بل انك لتهدى الى صراط مستقيم باذنه تعالى .

قلوبا غلفا : هى ظلمة الشرك والمعاصى .

انظر فتح المبدى للشرقاوى ١٨٣/٢ . * (النمل : ٨١)

" ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون "
(الأنبياء : ١٠٥) .

" وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لايشركون بى شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون " .
(النور : ٥٥) .

فالله عز وجل لايحابى أحدا من خلقه ، فمن تمسك بدين الله فهو السعيد .. والا فجزاؤه فى الآخرة عذاب شديد !

الفصل الثالث

أثر الإيمان بالرسل عليهم الصلاة والسلام

في تربية النفس

تمهيـــــــد :

حينما هبط آدم — عليه الصلاة والسلام — من الجنة الى الأرض ، بين الله تعالى له ولذريته من بعده ، الصراط المستقيم ، المؤدى الى رضوان الله وجنته . ولم يـــترك المولى عز وجل عباده ، هملا يتيهون فى الأرض بغير هدى ولا كتاب منير ، بل بعـــث اليهم أنبياء ومرسلين مبشريـــن ومنذرين " لئلا يكون للناس على الله حجة بعـــد الرســـل " (النساء : ١٦٥) .

ولم تخل أمة من نبى — أو رسول — أرشدها الى سواء الصراط " وان من أمـــة الا خلا فيها نذيـــر " (فاطر : ٢٤) .

ومن مميزات هؤلاء الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) (١) :

أ — أن العلم الذى ينشرونه بين الناس والعقيدة التى يدعون اليها والدعوة التى يقومون بها ، لاتنبع من ذكائهم . انما مصدره الوحى والرسالة التى يصطفون بها * .

ب — اخلاص الدين لله تعالى ، وافراد العبادة له وحده ، وأنه النافع الضـــار المستحق للعبادة والدعاء والالتجاء والنسك .

جـ — لايخضعون لعوامل نفسية داخلية أو حوادث وقتية خارجية ، ولا يستطيعـــون أن يحدثوا تبديلا أو تحويرا أو تعديلا فى رسالتهم .

د — الحكمة والتيسير والتدرج : وهذا فى التعليم والتربية ومما ليس من العقائـــد ومبادئ الدين فى شئ ، أما ماكان فى العقائد والعبادئ والفرائض ومايفـــرق بين الايمان والكفر ، فالأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) لايعرفون تنازلا أو هوادة أو مساومة .

---

(١) الندوى : النبوة والأنبياء من ص ٤٣ — ٤٩ باختصار .

* تنبيـــــه : هناك ألفاظ خاطئة يطلقها بعضهم على النبى (صلى الله عليه وسلم) بحسن نية — أو بسوء نية — كقولهم عنه : انه عبقرى ، أو فيلسوف أو بطـــل الأبطال !

تعريـــف النبى والرســـــول :

النـــبى : رجل حر أوحـــى الله اليه بشـرع ولم يؤمـــر بتبليغه ٠ أوامـــر أن يبلغ شريعة سابقة من غير نسخ لبعض أحكامها ٠

والشـــطر الأول من هذا التعريف : يصدق على النبى (صلى الله عليه وســـلم) قبل نزول سورة المدثر عليه ، ولهذا قيل : (نبئ باقرأ وأرسل بالمد ثـــر)

والشطر الثانى من التعريف : يصدق على الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ الذين أمروا أن يحكموا بالتوراة المنزلة على موسى (عليه الصلاة والسلام) وذلـــك فى قوله تعالى : " انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذيـــن أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار " (المائدة : ٤٤) ٠

والرســـــول : رجل حر أوحى الله اليه بشـرع ابتداء وأمر بتبليغه ٠ مثـــل : موسى (عليه الصلاة والسلام) وغيره من المرسلين ٠

فالنبى والرسول : يشتركان فى تلقى الوحى ٠ ويفترقان فى التبليغ فكل رســـول نبى وليس كل نـــبى رســـولا ٠

والدليل على التفريق بينهما : قوله تعالى : " وما أرسلنا من قبلك من رســـــول ولا نبى الا اذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله مايلقى الشيطان ثم يحكم الله آياتـــه " (الحج : ٥٢) ٠ فعطف نبى على رسول يدل على المغايـــرة بينهما (١) ٠

---

(١) انظر الفرق بين النبى والرسول فـى :
الماوردى : أعلام النبوة ص ٣٧ ٠
وابن تيمية : النبوات ص ١٧٧ ٠
والبغدادى : أصول الدين ص ١٥٤ ٠
وعلى الغرابى : المنحة الالهية ص ٩ ٠
وحسن عـــتر : نبوة محمد (صلى الله عليه وسلم) فى القرآن ص ٤٧ ٠
وطبارة : مع الأنبياء فى القرآن ص ١١ ٠
والتويجرى : فتح المعبود ص ١٢٠ فما بعدها ٠
ورشيد رضا : الوحى المحمدى ص ٣٧ ٠

معنى الايمان بهم * :

هو التصديق بأن الله تبارك وتعالى بعث الى عباده أنبياء ومرسلين مبشرين ومنذرين ، بلغوا ما أرسلوا به على أكمل وجه . وأنهم مؤيدون بالمعجزات الدالة على صدقهم .

ويجب الايمان بهم اجمالا ، الا من سمى الله لنا منهم فيجب الايمان بهم على التفصيل . وأنه لا يحصى عددهم الا الله تعالى .

والمذكورون منهم فى القرآن الكريم هم :

آدم ، ادريس ، نوح ، هود ، صالح ، ابراهيم ، لوط ، اسماعيل ، اسحاق ، يعقوب ، يوسف ، يونس ، أيوب ، شعيب ، موسى ، هارون ، داود ، سليمان ، الياس ، اليسع ، ذو الكفل ، زكريا ، يحيى ، عيسى ، محمد (عليهم جميعا أفضل الصلاة وأتم التسليم) .

وقد ذكر ثمانية عشر منهم فى قوله تعالى : " وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء ان ربك حكيم عليم . ووهبنا له اسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزى المحسنين . وزكريا ويحيى وعيسى والياس كل من الصالحين . واسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين " (الأنعام ٨٣ ـ ٨٦) .

* * *

قال الشاعر :

حتم على كل ذى التكليف معرفة	بأنبياء على التفصيل قد علموا
فى (تلك حجتنا) منهم ثمانية	من بعد عشر ويبقى سبعة وهم
ادريس هود شعيب صالح وكذا	ذو الكفل آدم بالمختار قد ختموا (١)

---

* انظر كتاب الايمان لشيخنا الفاضل محمد نعيم ياسين ص ٤٨ .

(١) البيجورى : تحفة المريد ص ٢٤ .

صفاتهم :

يتصفون (عليهم الصلاة والسلام) : بالصدق والأمانة والتبليغ والفطانة والعصمة والسلامة من العيوب المنفرة .

عصمتهم (١) :

العصمة : هي حفظ الله عز وجل لأنبيائه (عليهم الصلاة والسلام) عن ارتكاب المعاصي . وأجمع الجمهور على عصمتهم . وتأولوا ماروى عنهم من زلات : بأنها كانت قبل النبوة ، أو أنها محمولة على الخطأ في الاجتهاد ، أو أنها خلاف الأولى ، أو أنها من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين .

معجزاتهم (٢) :

وقد أيدهم الله تعالى بالآيات البينات ، وبخوارق العادات ، وبالمعجزات المادية والمعنوية .

---

(١) انظر : ابن تيمية : منهاج السنة ١/٢٢٦ ،
والوزير : الروض الباسم ص ١١٠ ،
والبغدادي : الفرق بين الفرق ص ٣٤٣ ،
والآمدي : الاحكام ١/١٦٩ و ١٧٠ ،
والذهبي : المنتقى من منهاج الاعتدال ص ٥٠ ،
والفراهي : عيون العقائد ص ١٤٣ ،
والرازي : الأربعين في أصول الدين ص٣٢٩ ،
والألمعي : مع المفسرين والمستشرقين ص١١٢ .

(٢) انظر : الباقلاني : التمهيد ص ١٣٢ ،
والشرفي : نير البرهان ١/٤٦ .
وابن تيمية : شرح العقيدة الأصفهانية ص٨٨ ،
والماوردي : أعلام النبوة ص ٢٧ .
والفراهي : عيون العقائد ص ١٦١ فما بعدها .

حكـــم منكرهـــــم (١) :

يكفر كل من أنكـــر واحد ا منهـــم :

قال تعالى : " ان الذين يكفرون بالله ورسله ويريد ون أن يفرقوا بين اللـــــه ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريد ون أن يتخذ وا بين ذ لك ســـبيلا . أولئك هم الكافرون حقا " (النسا ء : ١٥٠ و ١٥١) .

كلمـــــة التوحيـــــــد :

جاء الأنبياء والمرسلون (عليهم الصلاة والسلام) بكلمة التوحيد (لااله الا الله) ليخرجوا الناس من الظلمات الى النور ومن الضلال الى الهد ى ومن الكفر الى الاسلام . وهذ ه الكلمة ــ وان كانت قصيرة العبارة ــ عليها مد ار الحياة الاسلامية ، لأنهـــا تقتضى أن الله هو رب العالمين وخالقهم ومالكهم والمتصرف بهم ومد بـــر شؤونهـــم ، وأنه وحد ه ــ جل وعلا ــ المستحق لجميع أنواع الحمـــد والعباد ة ، وأنه المتصـــف بصفات الجلال والكمال والمنزه عن النقائـــص . وهذ ه الكلمة أيضا : هى قضيـــة الحياة الكبرى التى بعث الله من أجلها الرسل لعباد ته ، وجاء كل رسول لتعريـــف قومه بها أولا والعمل بها ثانيا . قال تعالى : " وماخلقت الجن والانس الا ليعبد ون" (الذ اريات : ٥٦) .

ولااله الاالله : معناها لاحاكمية ولاطاعة ولاعباد ة الا الله عز وجل . ولاخالـــق ولارازق ولامحيى ولامميت ولانافـــع ولاضار الا من بيـــد ه الخلـــق والأمـــر .

---

(١) انظر كلام الشهرستانى فى منكرى النبوة (كتاب نهاية الاقد ام فى علم الكلام ــ ص ٤٢٨) .

وكل الأنبياء والمرسلين (عليهم الصلاة والسلام) بعثوا لتقرير هذه العقيدة :

" ولقد أرسلنا نوحا الى قومه انى لكم نذير مبين : ألا تعبدوا الا الله ...

" والى عاد أخاهم هودا قال ياقوم : اعبدوا الله مالكم من اله غيره ...

" والى ثمود أخاهم صالحا قال ياقوم : اعبدوا الله مالكم من اله غيره ...

" والى مدين أخاهم شعيبا قال ياقوم : اعبدوا الله مالكم من اله غيره ...

(هود : الآيات ٢٥ و ٢٦ و ٥٠ و ٦١ و ٨٤) .

" قال فمن ربكما ياموسى : قال ربنا الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى (طه : ٤٩ و ٥٠)

" واذ قال الله ياعيسى ابن مريم .. ماقلت لهم الا ماأمرتنى به : أن اعبدوا الله ربى وربكم .. " (المائدة : ١١٦ و ١١٧) .

" وماأرسلنا من قبلك من رسول الا نوحى اليه : أنه لااله الا أنا فاعبدون " (الأنبياء : ٢٥) .

موقف الجاهليات من دعوة المرسلين :

لقد وقف أهل الجاهلية ـ على مدار التاريخ ـ وقفة شرسة عاتية فى وجه دعوة الحق ، لأن المعركة بالنسبة لهم معركة حياة أو موت ، فلا عجب ان كان موقفهم الأعراض والرفض للدعوة والتكذيب والاضطهاد والاستهزاء للداعين ! ومن الغريب حقا أن الكلمة التى قالها المرسلون (عليهم الصلاة والسلام) واحدة ـ كما رأينا ـ وأن الموقف الذى واجهه الدعاة من قبل الجاهليات واحد كذلك* ، كما سنرى الآن :

" لقد أرسلنا نوحا الى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم . قال الملأ من قومه انا لنراك فى ضلال مبين " (الأعراف : ٥٩ و ٦٠)

" والى عاد أخاهم هودا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره أفلا تتقون . قال الملأ الذين كفروا من قومه انا لنراك فى سفاهة وانا لنظنك من الكاذبين " (الأعراف : ٦٥ و ٦٦) .

---

* انظر كتاب التصوير الفنى فى القرآن الكريم لسيد قطب ص ١١٩ فما بعدها .

" والى ثمود أخاهم صالحا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولاتمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم .... قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه قالوا انا بما أرسل به مؤمنون . قال الذين استكبروا انا بالذى آمنتم به كافرون " (الأعراف ٧٣ و ٧٥ و ٧٦) .

" ولوطا اذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ماسبقكم بها من أحد من العالمين .... وماكان جواب قومه الا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم انهم أناس يتطهرون " (الأعراف : ٨٠ و ٨٢) . " والى مدين أخاهم شعيبا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولاتبخسوا الناس أشياءهم ولاتفسدوا فى الأرض بعد اصلاحها ذلك خير لكم ان كنتم مؤمنين ... قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا قال أولو كنا كارهين .. وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبا انكم اذا لخاسرون " (الأعراف : ٨٥ و ٨٨ و ٩٠) .

" وقال موسى يافرعون انى رسول من رب العالمين . حقيق على أن لاأقول على الله الا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى اسرائيل ... قال الملأ من قوم فرعون ان هذا لساحر عليم ... قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم ان هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون . لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين ... وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك قال سنقتل أبناءهم ونستحيى نساءهم وانا فوقهم قاهرون" (الأعراف : ١٠٤ و ١٠٥ و ١٠٩ و ١٢٣ و ١٢٤ و ١٢٧) .

وصدق الله العظيم :

" تلك القرى نقص عليك من أنبائها ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين . وماوجدنا لأكثرهم من عهد وان وجدنا أكثرهم لفاسقين " (الأعراف : ١٠١ و ١٠٢) .

سبب اعراض الجاهليات عن دعوة المرسلين :

لو استعرضنا تاريخ الأنبياء والمرسلين (عليهم الصلاة والسلام) مع أقوامهم ، لوجدنا أن الملأ الذين استكبروا استخفوا أقوامهم فأطاعوهم وجعلوا ولاء الناس لهم من دون الله ، وأحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال !

وكلما جاء رسول بدعوة التوحيد — التي تزلزل عروش الطغيان وتهز كيان الباطل وتبدده شذر مذر ، وتبين للعالمين ألا فضل لأحد على أحد الا بالتقوى — تصدى له الملأ بادئ ذي بدء ، لأن هذه الدعوة تجعل الولاء لرب الناس ، وبذلك ينقطع ولاء الخلق للأرباب الزائفة ، ويصبح الجميع متساوين أمام العدالة ، وتزول عبادة العباد للأرباب ، ويتجه الحكام والمحكومون للذي فطر السماوات والأرض .
وهذا مالا يريده الطغاة — في كل زمان ومكان — ولا يسمحون بتحقيقه ولو أريقت الدماء .. وانتهكت الأعراض .. وعم الفساد العباد ! لأن الأمر والنهي يفلتان من أيديهم اذا كان المشرع والمعبود هو اللـه .

* *

وأما سبب اعراض بطانة الحاكم — التي استبدلت دنياها بدينها وأصلحت دنيا رعاتها بافساد دينها ! — عن دعوة المرسلين : فهو أنها تخشى على مصالحها الدنيوية من الزوال ، لأنها لم تقدم صالحا لمعادها ، فتخاف ان نجحت الدعوة أن تخسر الدنيا والآخرة معا " ذلك هو الخسران المبين " (الحج : ١١) .

فلا عجب اذن اذا زينت هذه الزمرة الضالة لحكامها المفسدين ، الحق بأنه باطل ، أو حرضتهم على محاربة المرسلين وأتباعهم ، واصفة اياهم بأنهم من المفسدين " وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض " (الأعراف: ١٢٧) ،

وأن المصلحة تقتضى سحق الدعوة والدعاة لئــلا تتقلب الأمور على رؤوســــــهم !

وبهذا نعرف ــ من خلال دراستنا موقف الجاهليات من دعوة المرسلين ــ الســــــبب الرئيسى لضلال الملأ والحاشــية وهو : لمن الحكم ٠٠ ؟ لمن الأمــر والنهى ٠٠؟ لمن السلطة والتنفيذ ٠٠ ؟ من الاله المطاع والرب المعبود ٠٠ ؟

هل هو الله ــ من بيده مقاليد السماوات والأرض وهو يجير ولايجار عليـــــه ــ؟ أم العبيد الضعفاء المخالــق ؟ !

أساليب الجاهلية فى مواجهة أصحاب الدعوات :

يسلك الطغاة وأعوانهم فى مواجهة المصلحين أساليب شتى ، تدل على أنهم يمكرون الليل والنهار فى سبيل محو نور الحق من الوجود .

ومن هذه الأساليب : اتهام أصحاب الدعوات بأنهم يتسترون وراء دعوة الاصلاح لمآرب أخرى — أهمها الوصول الى الحكم — . واثارة الشبهات حول ماجاء به الدعاة الى الله . ووصفهم بالسفه والجنون والكذب والضلال والافساد .. ! ومن ثم السخرية منهم ، والتضييق عليهم ، والعدوان عليهم .. مع أن الطغاة وأعوانهم يعرفون — فى قرارة نفوسهم — أنهم هم على باطل ! لكنهم يخشون من زوال زعامتهم الفارغة المنتفشة التى تكبروا على عباد الله بها !

والطغاة لايريدون لغيرهم — من عباد الله — أن يتفكروا فيما جاء به المرسلون ، فلو عرف الناس الحقيقة وتركوا وشأنهم ، لانفضوا من حول السادة ولتفرقوا عنهم شذر مذر .

ومن الأساليب التى يستخدمونها فى حربهم للدعوة والدعاة : التلويح بالمال أو الجاه أو السلطان أو المتاع .. وذلك لاستدراج الدعاة ، ومن ثم الانقضاض عليهم واجتثاث الدعوة من جذورها ، أو باماتتهم — عن طريق اغراقهم فى متاع الدنيا ! — .

وكم من الدعاة من صبر على الابتلاء فى أقبية السجون ! ولكنه تهاوى أمام المال أو المنصب أو المتاع !!

والأمثلة على ذلك كثيرة : منها : أن يهوذا الاسخريوطى — أحد الحواريين — خان نبى الله عيسى (عليه الصلاة والسلام) مقابل دريهمات معدودة !

وها هو ذا عبيد الله بن جحش — الزوج السابق لأم المؤمنين أم حبيبة (رضى الله عنها) آمن وصبر على الأذى والاضطهاد .. وهاجر الى الحبشة فرارا بدينه .. ولكنه تنصر هناك أمام المغريات !

فالامتحان فى الترغيب ـ كما يقول أستاذنا محمد أديب الصالح ـ أشد وأقسى منه فى الترهيب ! لأن النفس البشرية تختار المصالح القريبة على المنافع الآجلة .

وهذه الآيات الكريمة تبين لنا أساليب الجاهليات ـ على مدار التاريخ ـ فى مواجهة المؤمنين :

" ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأمن قومه سخروا منه " (هود : ٣٨)

" قالوا ياهود ... ان نقول الا اعتراك بعض آلهتنا بسوء " (هود : ٥٣و ٥٤)

" قالوا ياصالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا أتنهانا أن نعبد مايعبد آباؤنا واننا لفى شك مما تدعونا اليه مريب " (هود : ٦٢) .

" قالوا ياشعيب أصلاتك تأمرك أن نترك مايعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا مانشاء انك لأنت الحليم الرشيد " (هود : ٨٧) .

" وقالوا ياأيها الذى نزل عليه الذكر انك لمجنون . لو ماتأتينا بالملائكة ان كنت من الصادقين " (الحجر : ٦ و ٧) .

" وقال الذين كفروا ان هذا الا افك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاؤوا ظلما وزورا . وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا " (البقرة: ٤ و ٥) .

" وقال الكافرون هذا ساحر كذاب .. ماسمعنا بهذا فى الملة الآخرة ان هذا الا اختلاق " (ص : ٤ و ٧) .

" ودوا لو تدهن فيدهنون " (القلم : ٩)

" ان الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون . واذا مروا بهم يتغامزون . واذا انقلبوا الى أهلهم انقلبوا فكهين . واذا رأوهم قالوا ان هؤلاء لضالون" (المطففين : ٢٩ ـ ٣٢) .

وقد عرض المشركون على النبى (صلى الله عليه وسلم) أن يعبدوا الهه يوما ويعبد آلهتهم يوما ! فأنزل الله سورة الكافرون رفضا للعرض ، ولتعميق الحد الفاصل بين الكفر والايمان !!

وهذا مثال يوضح بعض أساليب الجاهلية في مواجهة الحق :

قال عتبة بن ربيعة ــ وكان سيدا في قومه ــ يوما ، وهو جالس في نادي قريش ، ورسول الله (صلى الله عليه وسلم) جالس في المسجد وحده : يامعشر قريش ! الا أقوم الى محمد فأكلمه وأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا ؟ . فقالوا : بلى ياأبا الوليد ! قم اليه فكلمه . فقام عتبة حتى جلس الى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال : ياابن أخي ! انك منا حيث قد علمت من السطة ــ الشرف والمنزلة ــ في العشيرة ، والمكان في النسب ، وقد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به من مضى من آبائهم ، فاسمع مني أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها . فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : قل ياأبا الوليد أسمع . قال : ياابن أخي : ((ان كنت انما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا ، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا . وان كنت تريد به شرفا سودناك علينا حتى لانقطع أمرا دونك . وان كنت تريد به ملكا ملكناك علينا . وان كان هذا الذي يأتيك رئيا تراه لاتستطيع رده عن نفسك : طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه)) (١)

وها هو ذا أبو طالب يقول للنبي (صلى الله عليه وسلم) : ياابن أخي ! ان قومك جاءوني وقالوا كذا وكذا ، فابق علي وعلى نفسك ، ولاتحملني مالا أطيق أنا ولا أنت . فاكفف عن قومك مايكرهون من قولك . فقال (صلى الله عليه وسلم) (والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري ! ماتركت هذا الأمر حتى يظهره الله ، أو أهلك في طلبه) (٢) !

---

(١) محمد الحسني : العقد الثمين ١/٢٢٧ .
وتهذيب السيرة ص ٦٤ .

(٢) ابن عبد الوهاب : مختصر السيرة ص٦٢ ،
وعبد الله بن محمد : مختصر السيرة ص ٩٢ .

موقف الرسول من أقوامهم :

لقد بلغ الأنبياء الرسالة وأدوا الأمانة ونصحوا الأمة ، وصبروا على ماكذبوا وأوذوا ، وجاهدوا فى الله حق جهاده ، وماتوا على التوحيد ونفوسهم مستريحة ، وصعدت أرواحهم الطاهرة الى ربها لتدخل فى عباد الله وجنته — التى أعدت للمتقين — راضية مرضية .

ان موقف الرسل (عليهم صلوات الله وسلامه) يعلمنا معشر أتباعهم : أن علينا أن نبلغ دين الله كما أنزل ، دون زيادة أو نقص أو تمويه أو استحياء ! وأن نبين أن شريعة الله دنيا وآخرة أصلها فى الأرض وامتدادها فى السماء ، دون مواربة أو هوادة أو تدسس أو شك مريب .

وحينما يستعرض المرء تاريخ الأنبياء والمرسلين — عليهم الصلاة والسلام — وجهاد أتباعهم المؤمنين ، ومواقفهم المشرفة تجاه الطواغيت ، يعزم فى قرارة نفسه — ان كان جادا — على مجابهة الجاهلية ومواجهتها فى عقر دارها ، مهما ادلهمت الخطوب وعظم الابتلاء وكثرت التضحيات .

لقد نادى الرسل — عليهم السلام — بالتوحيد وتحكيم شرع الله ، ولم ينتظروا أن يأتى الناس اليهم ، بل ذهبوا اليهم يبلغوهم كلام الله وهديه .

ولم يتحقق للطغاة — فى كل عصر — مايحلمون به من القضاء على صوت الحق والقوة والحرية — صوت الاسلام المدوى : الله أكبر و لله الحمد — ، بل آمن بالرسل نفر قليل .. ضحوا فى سبيل عقيدتهم بالغالى والرخيص . وعندها .. حصل الابتلاء — وهذه سنة الله فى خلقه — لالهوان المؤمنين عند الله ولمنزلة الكافرين وعلو شأنهم — بل كما قال سبحانه : " وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لايحب الظالمين . وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين . أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين " (آل عمران : ١٤٠—١٤٢) .

" أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون • ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين " (العنكبوت: ٢ و ٣) •

ومن سنة الله تعالى فى خلقه : أن يزداد الذين كفروا فى طغيانهم •• ليزداد عذابهم ، فهو تعالى يمهل ولايهمل ، ومن سنته كذلك أن يزداد الذين آمنوا ايمانا ــ بصبرهم وجهادهم ــ ليستحقوا رضوان الله عز وجل فى الحياة الدنيا وفى الآخرة •

فعلى الدعاة الى الله أن يستخلصوا العبر من موقف الأنبياء والمرسلين ــ عليهم صلوات الله أجمعين ــ تجاه أقوامهم ، وأن يصبروا كما صبروا وأن يجاهدوا كما جاهدوا وأن يقدموا كل ما يملكون ــ فى سبيل الله ــ كما قدموا •• ليفوزوا برضوان الله ومغفرته وجنته كما فازوا •

والاقتداء بهم ــ وبأتباعهم ــ ليس عسيرا على من فقه الدعوة وهدى الى صراط مستقيم ، لأنهم بشر ونحن بشر !

" فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل " (الأحقاف : ٣٥) •

" لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا " (الأحزاب : ٢١) •

يجب علينا أن نعمل •• والنتائج موكولة لرب العزة وحده ، فكل شىء عنده بقدر ، لنكون ــ باذن الله ــ مع " المتقين فى جنات ونهر • وفى مقعد صدق عند مليك مقتدر " (القمر : ٥٤ و ٥٥) • وماذلك على الله بعزيز •

والعاقبـــة للمتقــين !

للباطـــل جولــــة .. وللحـــق جـولات ..

و ســينتصر الحق وأهله ــ ولو بعد حين ــ فالذين يموتون ــ من المصلحـــين ــ ينالون الشهادة من رب العالمين ، ونفوسهم مطمئنة لقيامها بواجب الدعوة ... والذين يعيشون حتى حين ، يذوقون حلاوة النصر ، ويستمرون فى الدعوة الــى الله ، والعاقبة الحميدة لهم فى الدارين :

" فأخرجناهم من جنات وعيون ، وكنوز ومقام كريم ، كذلك وأورثناهم بنى اسرائيل .. وانجينا موسى ومن معه أجمعين ، ثم أغرقنا الآخرين ، ان فى ذلك لآية وما كـــان أكثرهم مؤمنين " (الأعراف : ٥٧ و ٥٨ و ٦٥ و ٦٦ و ٦٧) .

" قال رب ان قومى كذبون ، فافتح بينى وبينهم فتحا ونجنى ومن معى مـــن المؤمنين ، فأنجيناه ومن معه فى الفلك المشحون ، ثم أغرقنا بعد الباقين ، ان فى ذلك لآية وماكان أكثرهم مؤمنين " (الشعراء : ١١٧ ــ ١٢١) .

"كذبت عاد المرسلين ... فكذبوه فأهلكناهم ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهـــم مؤمنين " (الشعراء : ١٢٣ و ١٣٩) .

" كذبت ثمود المرسلين .. فعقروها فأصبحوا نادمين ، فأخذهم العـــذاب ان فى ذلك لآية وماكان أكثرهم مؤمنين " (الشعراء : ١٤١ و ١٥٧ و ١٥٨)

" كذبت قوم لوط المرسلين ... فنجيناه وأهله أجمعين ، الا عجوزا فى الغابرين ، ثم دمرنا الآخرين ، وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين ، ان فى ذلك لآيـــة وماكان أكثرهم مؤمنين " (الشعراء : ١٦٠ و ١٧٠ ــ ١٧٤) .

" كذب أصحاب الأيكة المرسلين ... فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة انه كـان عذاب يوم عظيم ، ان فى ذلك لآية وماكان أكثرهم مؤمنين " (الشعراء : ١٧٦ و ١٨٩ و ١٩٠) .

ولله در شهيد الدعوة حيث يقول [١] :

قد اختارنا الله في دعوته | وانا سنمضي على سنته
فمنا الذين قضوا نحبهم | ومنا الحفيظ على ذمته .
سأثار لكن لرب ودين | وأمضي على سنتي في يقين
فاما الى النصر فوق الأنام | واما الى الله في الخالدين !

والعاقبة للمتقين ... ولا عدوان الا على الظالمين !

(١) لحن الكفاح ص ٨ و ١٠ .

الفصل الخامس

أثر الإيمان باليوم الآخر

في تربية النفس

تمهيـــــد :

اليوم الآخـــر : هو نهاية الحياة الدنيا وما فيها .. وبداية الحياة الأخرى وما يتعلـــق بهـــا .

ومعـــنى الايمان باليـــوم الآخـــر :

هو الاعتقاد الجازم بما يكون بعد الموت ـ مما ورد في الكتاب والســـنة ـ من الحياة البرزخية ، والحشـــر ، والنشـــر ، والصحف ، والميزان ، والحســـاب ، والجزاء ، والصراط ، والحوض ، والشفاعة ، والجنة ـ جعلنا الله من أهلهـــا ـ ، والنار ـ أعاذنا الله منهـــا ـ .

وفي الآيات الآتية مراحل يوم القيامة حتى دخول الجنة أو النار* :

" وماقدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويـــات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون . ونفخ في الصور فصعق من السماوات ومن فـــي الأرض الا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون . وأشرقت الأرض بنـــور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لايظلمـــون . ووفيت كل نفس ماعملت وهو أعلم بما يفعلون . وسيق الذين كفروا الى جهنم زمـــــرا حتى اذا جاؤوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكـــم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافريـــن . قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين . وسيق الذين اتقـــوا ربهم الى الجنة زمرا حتى اذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكـــم طبتم فادخلوها خالدين . وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبـــوأ مـــن الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين . وترى الملائكة حافين من حـــــول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمـــين "

(الزمـــر : ٦٧ ـ ٧٥) .

---

* انظر مراحل وأهوال اليوم الأخر في كتاب عبد الملك الكليب : أهوال القيامة .

وسنورد فيما يأتى ـ باذنه تعالى ـ مشاهد من اليوم الآخر ـ مأخوذة من الكتاب والسنة ٠

بعد مفارقة الروح الجسد :

" وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ماكنت منه تحيد " (ق : ١٩) ٠

" كلا اذا بلغت التراقى ٠ وقيل من راق ٠ وظن أنه الفراق ٠ والتفت الساق بالساق ٠ الى ربك يومئذ المساق " (القيامة : ٢٦ ـ ٣٠)

بعد ذلك تبدأ الحياة البرزخية :

" ومن ورائهم برزخ الى يوم يبعثون " (المؤمنون : ١٠٠) ٠

وقد وردت صفة هذه الحياة فى بعض آيات قرآنية منها : " النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب " (غافر : ٤٦) ٠ " يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت[١] فى الحياة الدنيا وفى الآخرة " (ابراهيم : ٢٧) ٠ عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال : قال نبى الله ـ (صلى الله عليه وسلم) ـ : " ان العبد اذا وضع فى قبره وتولى عنه أصحابه انه ليسمع قرع نعالهم قال يأتيه ملكان فيقعدانه فيقولان له : ماكنت تقول فى هذا الرجل ؟ قال فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله ٠ قال فيقال له : انظر الى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعدا من الجنة ٠ قال نبى الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : فيراهما جميعا " ٠ (٢)

والأرواح متفاوتة فى مستقرها فى البرزخ أعظم تفاوت ـ كما يقول الامام ابن القيم ـ : فمنها أرواح فى أعلى اعليين فى الملأ الأعلى وهى أرواح الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ وهم متفاوتون فى منازلهم ٠

---

(١) عن البراء بن عازب : " يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة " قال : نزلت فى عذاب القبر ـ انظر مسلم ٤ / ٢٢٠٢ ٠

(٢) مسلم ٤ / ٢٢٠٠ ، ويعنى بالرجل : النبى (صلى الله عليه وسلم) ٠

ومنها أرواح فى حواصل طير خضر تسرح فى الجنة حيث شاءت وهى أرواح بعض الشهداء — لاجميعهم — لأن من الشهداء من تحبس روحه عن دخول الجنة لدين عليه ! ومنهم من يكون محبوسا على باب الجنة .. ومنها من يكون مقره باب الجنة ... ومنها من يكون محبوسا فى الأرض لم تصل روحه الى الملأ الأعلى ، لأنها كانت روحا سفلية أرضية !(١)

النفخة الأولى :

وحينما يشاء الله قيام الساعة* : يأمر اسرافيل — عليه السلام — بالنفخ فى الصور فيموت من فى الكون — الا من شاء الله — :

" ونفخ فى الصور فصعق من فى السماوات ومن فى الأرض الا من شاء الله "

(الزمر : ٦٨) .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كما روى ذلك عبد الله بن عمرو — رضى الله عنهما —: " يخرج الدجال فى أمتى فيمكث أربعين — لاأدرى أربعين يوما أو أربعين شهرا أو أربعين عاما — فيبعث الله عيسى ابن مريم كأنه عروة بن مسعود فيطلبه فيهلكه . ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة . ثم يرسل الله ريحا باردة من قبل الشام فلا يبقى على وجه الأرض أحد فى قلبه مثقال ذرة من خير أو ايمان الا قبضته حتى لو أن أحدكم دخل فى كبد جبل لدخلته عليه حتى تقبضه — قال سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم — قال : فيبقى شرار الناس فى خفة الطير وأحلام السباع لايعرفون معروفا ولاينكرون منكرا ، فيتمثل لهم الشيطان فيقول ألا تستجيبون ؟ فيقولون فما تأمرنا فيأمرهم بعبادة الأوثان وهم فى ذلك دار رزقهم حسن عيشهم . ثم ينفخ فى الصور فلا يسمعه أحد الا أصغى ليتا ورفع ليتا !

---

* انظر ماكتبه الامام الغزالى عما يكون بعد الموت .. حتى دخول الجنة أو النار فى كتابه الأربعين ص ١٤ فما بعدها .

(١) ابن القيم : الروح ص ٥٥ و ٥٦ .

قال : وأول من يسمعه رجل يلوط حوض ابله قال فيصعق وتصعق الناس ." (١)

النفخـــة الثانيـــة :

وفيها يبعث الله من فى القبور ، وتذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كـــل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وماهم بسكارى !

وتحمل الأرض والجبال فتدك دكة واحدة وتنشق السماء فهى يومئذ واهيـــة ، وتتناثر الكواكب ، وتفجر الأنهار والبحار ، ويذهب بضـوء النجوم ، وتبدل الأرض غير الأرض والسماوات غير السماوات ، وتسير الجبال ...

قال تعالى : " ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون . وأشرقت الأرض بنـور ربها ووضع الكتاب وجىء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لايظلمون " (الزمر : ٦٨ و ٦٩) .

" ونفخ فى الصور فاذا هم من الأجداث الى ربهم ينسلون . قالوا ياويلنا مـن بعثنا من مرقدنا ، هذا ماوعد الرحمن وصدق المرسلون . ان كانت الا صيحة واحدة فاذا هم لدينا محضـرون " (يـس : ٥١ ــ ٥٣) .

ومابين النفختين أربعون :

عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم ــ : (مابين النفختين أربعون) قالوا : ياأبا هريرة أربعون يوما ؟ قال : أبيت ــ أى أبيت أن أجزم بأن المراد بذلك أربعين يوما أو شهرا أو سنة ــ قالوا أربعون شهرا ؟ قـال أبيت قالوا : أربعون سنة قال: أبيـت .

ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقـل .

---

(١) مسلم ٤/٢٢٥٩ كبد جهل : وسطه وداخله . فى خفة الطير وأحلام السباع : أى فى سرعتهم الى الشر وقضاء الشهوات والفساد والعدوان . الليت : صفحـة العنق ــ جانبه ــ .
يلوط حوض ابله : يطينه ويصلحه .

قال وليس من الانسان شئ الا يبلى الا عظما واحدا وهو عجب الذنب ومنه يركب الخلق يوم القيامة)) [١]

ويقبض الله عز وجل الأرض ويطوى السماوات بيمينه ويقول أنا الملك :

" يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا انا كنا فاعلين " (الأنبياء : ١٠٤) .

" وماقدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون " (الزمر : ٦٧) .

عن عبد الله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((يطوى الله عز وجل السماوات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول : أنا الملك أين الجبارون ؟ اين المتكبرون ؟ ثم يطوى الأرضين بشماله ثم يقول أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون)) [٢]

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ((يقبض الله تبارك وتعالى الأرض يوم القيامة ويطوى السماء بيمينه ثم يقول : أنا الملك أين ملوك الأرض ؟)) [٣] .

الحشر :

ويحشر الناس جميعا فى صعيد واحد ، حفاة عراة غرلا ـ غير مختونين ـ ويحشر الكفار على وجوههم عميا وبكما وصما !

---

(١) عجب الذنب : هو العظم اللطيف الذى فى أسفل الصلب وهو رأس العصعص . وهو أول مايخلق من الآدمى . وهو الذى يبقى منه ليعاد تركيب الخلق عليه . انظر مسلم ٤ / ٢٢٧٠ .

(٢ و ٣) مسلم ٤ / ٢١٤٨ .

" ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا . وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم ألن نجعل لكم موعدا . ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه .. " (الكهف : ٤٧ ـ ٤٩)

" ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا " (الاسراء : ٩٧) .

عن عائشة رضى الله عنها ـ قالت سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : (يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلا . قلت يارسول الله النساء والرجال جميعا ينظر بعضهم الى بعض ؟ قال صلى الله عليه وسلم : (ياعائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم الى بعض) [١] .

وعن سهل بن سعد ـ رضى الله عنه ـ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقى ليس فيها علم لأحد)) [٢]

ثم تدنو الشمس من الخلائق :

عن المقداد بن الأسود ـ رضى الله عنه ـ قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (تدنو الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل) قال سليم بن عامر ـ راوى الحديث : فوالله ماأدرى مايعنى بالميل ؟ أمسافة الأرض أم الميل الذى تكتحل به العين .

قال فيكون الناس على قدر أعمالهم فى العرق . فمنهم من يكون الى كعبيه ومنهم من يكون الى ركبتيه ومنهم من يكون الى حقويه ومنهم من يلجمه العرق الجاما)) [٣]

---

(١) مسلم ٤/٢١٩٤ .

(٢) مسلم ٤/٢١٥٠ ومعنى عفراء : بيضاء الى حمرة ، والنقى : الدقيق الحوارى وهو الأرض الجيدة ، كأن النار غيرت بياض وجه هذه الأرض الى الحمرة .
ليس فيها علم لأحد : أى ليس بها علامة سكنى أو بناء ولا أثر .

(٣) مسلم ٤/٢١٩٦ قال وأشار رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بيده الى فيه .

وفى هذا الموقف الرهيب يظل الله هؤلاء بظله يوم لاظل الا ظله : عـــن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لاظل الا ظله : الامام العادل ، وشاب نشأ بعبادة اللـــه ، ورجل قلبه معلق فى المساجد ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرق عليـــه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : انى أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لاتعلم يمينه ماتنفق شماله ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه)) (١) .

وعنه ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : ((ان اللـه يقول يوم القيامة أين المتحابون بجلالى اليوم أظلهم فى ظلى يوم لاظل الا ظلى)) (٢)

ثم يؤتـى يومئذ بجهنم (أعاذنا الله منها) :

" وجـئ يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الانسان وأنى له الذكرى يقول ياليتــنى قدمت لحياتى " (الفجر : ٢٣ و ٢٤) .

قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : (يؤتى بجهنم يومئذ لها ســبعون ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها) (٣) .

ويطلب الجبار تبارك وتعالى من أبى البشــر آدم ــ عليه الصــلاة والســـلام ــ أن يخرج بعــث النــار !

عن أبى سعيد الخدرى ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول اللــــــــه ــ صلى الله عليه وسلم ــ : (يقول الله عز وجل : ياآدم فيقول : لبيك وسعديك والخـير فى يديك . قال يقول : أخرج بعث النار قال : ومابعث النار قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين ! قال : فذاك حين يشيب الصغير وتضع كل ذات حمـــل حملها وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ولكن عذاب الله شديد)) (٤) .

---

(١) مسلم ٢/٧١٥ وفى البخارى والموطأ (حتى لاتعلم شماله ماتنفق يمينه) .

(٢) مسلم ٤/١٩٨٨ بجلالى : بعظمتى وطاعتى لا للدنيا .

(٣) مسلم ٤/٢١٨٤ .

(٤) مسلم ١/٢٠١ بعث النار : أى ميز أهل النار من غيرهم . ويأجوج ومأجـوج : أصله من أجيج النار وهو صوتها وشررها شبهوا به لكثرتهم وشدتهم واضطرابهم بعضهم فى بعـض .

ثم يأتـــي المؤمنـــون الحـــوض :

والحوض ـ كما قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ـ :((حوضـــي مسيرة شهر وزواياه سواء وماؤه أبيض من الورق ، وريحه أطيب من المسك وكيزانـــه كنجوم السماء ، فمن شرب منه فلا يظمأ بعده أبدا)) (١)

وعن أسماء بنت أبي بكر ـ رضي الله عنهما ـ قالت : قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

((اني على الحوض حتى أنظر من يرد على منكم ، وسيؤخذ أناس دوني فأقـــول : يارب مني ومن أمتي ؟ فيقال : أما شعرت ماعملوا بعدك ؟ والله مابرحوا بعدك يرجعون على أعقابهم)) (٢) .

وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال :

(بينا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذات يوم بين أظهرنا اذ أغفى اغفـــاءة ثم رفع رأسه متبسما فقلنا : ما أضحكك يارسول الله ؟ قال : أنزلت علي آنفا ســـورة . فقرأ " بسم الله الرحمن الرحيم . انا أعطيناك الكوثر . فصل لربك وانحر . ان شانئك هو الأبـــتر " (الكوثر : ١ ـ ٣) ثم قال : أتدرون ما الكوثر ؟ فقلنا الله ورسولـه أعلم . قال : فانه نهر وعدنيـــه ربي عز وجل عليه خير كثير . هو حوض ترد عليـــه أمتي يوم القيامة آنيته عدد النجوم فيختلج العبد منهم فأقول : رب انه من أمـــتي فيقول : ماتدري ما أحدثت بعدك) . (٣)

---

(١) مسلم ٤/١٧٩٣ ومعنى وزواياه سواء . أي طوله كعرضه (سقانا الله منـــه) . والورق : الفـــضة .

(٢) مسلم ٤/١٧٩٤

(٣) مسلم ١/٣٠٠ بين أظهرنا : أي بيننا ، أغفى اغفاءة : أي نام نومـــة . آنفا : قريبا ، شانئك : مبغضك ، الأبتر : المنقطع العقب . يختلج : يتنزع ويقتطـــع .

والأحاديث الواردة في ذكر الحوض كثيرة رواها من الصحابة بضع وثلاثون صحابيا . انظر : الغزالي : احياء علوم الدين ٤/٥٢٩ ، والهراس : شرح الواسطية ١٢٥ .

الحســــــــــاب :

ومن فضل الله تعالى على الـــــنبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ وعلـــــى أمتـــه أن يجعلهم أول من يحاســــب :

قال تعالى عن الحساب : " فلنسألن الذين أرسل اليهم ولنسألن المرســلين • فلنقصن عليهم بعلم وماكنا غائبين " (الأعراف : ٦ ، ٧)

" اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضـــون " (الأنبيــاء : ١)

" ان الينا ايابهم • ثم ان علينا حسابهم " (الغاشية : ٢٥ و ٢٦)

وعن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ((نحن الآخرون ونحن السابقون يوم القيامة ، بيد أن كل أمة أوتيت الكتاب مـــن قبلنا وأوتيناه من بعدهم)) (١)

وفـــى رواية أخــرى : ((نحن الآخرون من أهل الدنيا والأولون يـــوم القيامة المقضــى لهم قبل الخلائـــق)) (٢)

ويحاسب الله عبـــاده :

" فأمامن أوتى كتابه بيمينه • فسوف يحاسب حسابا يسيرا • وينقلب الى أهلـه مسرورا • وأمامن أوتى كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبورا • ويصلى ســــــعيرا " (الانشقاق : ٧ ــ ١٢) •

وتشهد أعضاء الانسان على صاحبها بما عمل :

" اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكســبون " (يــس : ٦٥) " حتى اذا جاؤوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهـــم بما كانوا يعملون • وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطـــق كل شـــئ " (فصلت : ٢٠ و ٢١) •

---

(١) مسلم ٢/٥٨٥ بيد : تكون بمعنى غير وبمعنى على وبمعنى من أجل ((وكله صحيح هنا)) •

(٢) مسلم ٢/٥٨٦ وفى رواية (المقضى بينهم) •

" وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا . اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا " (الاسراء : ١٣ و ١٤) .

ـ ولا ترجمان يومئذ بين الله وعباده :

عن عدى بن حاتم ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : ((مامنكم من أحد الا سيكلمه الله ليس بينه وبينه ترجمان ، فينظر أيمن منه فلا يرى الا ماقدم ، وينظر أشأم منه فلا يرى الا ماقدم ، وينظر بين يديه فلا يرى الا النار تلقاء وجهه ، فاتقوا النار ولو بشق تمرة)) (١) .

ـ وأول مايحاسب به الناس يوم القيامة الصلاة :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ : ((ان أول مايحاسب به العبد يوم القيامة من عمله الصلاة (٢)))

ـ وأول مايقضى به بين الناس الدماء :

عن عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((أول مايقضى بين الناس يوم القيامة فى الدماء)) (٣)

ـ والمراؤون أول من يقضى عليهم ويهلكون :

عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : ((ان أول الناس يقضى عليه يوم القيامة رجل استشهد . فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت . ولكنك قاتلت لأن يقال جرئ فقد قيل . ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار . ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن . فأتى به فعرفه نعمه فعرفها . قال فما عملت فيها ؟ قال تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن . قال : كذبت . ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم . وقرأت القرآن ليقال هو قارئ . فقد قيل .

---

(١) مسلم ٢/٧٠٣ .

(٢) رواه الترمذى والنسائى وابن ماجة انظر الفتح الكبير ١/٣٧٨ .

(٣) مسلم ٣/١٣٠٤ .

ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار • ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله • فأتى به فعرفه نعمه فعرفها • قال فما عملت فيها ؟ قال : ماتركت من سبيل تحب أن ينفق فيها الا أنفقت فيها لك • قال كذبت• ولكنك فعلت ليقال هو جواد .فقد قيل • ثم أمر به فسحب على وجهه • ثم ألقى فى النار)) [١] •

الميزان :

وفيه توزن أعمال الانسان — وله كفتان ولسان ولايعلم حقيقته الا خالقه عز وجل •

ولاعجب فى وزن الأعمال بالميزان ، فقد أوجد العلم الحديث موازين لقياس الحرارة والبرودة والهواء والضغط والذبذبات ••• إلخ قال تعالى : " ونضع الموازين القسط ليوم القيامة وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين " (الأنبياء : ٤٧) •

وقال تعالى : " فمن ثقلت موازينه فاولئك هم المفلحون • ومن خفت موازينه فاولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون " (المؤمنون: ١٠٢ و ١٠٣) • قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم : ((كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان فى الميزان حبيبتان الى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم))[٢] • وقال أيضا : ((انه ليأتى الرجل العظيم السمين يوم القيامة لايزن عند الله جناح بعوضه • اقرؤا : " فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا " (الكهف: ١٠٥)))[٣]

---

(١) مسلم ١٥١٤/٣ •
(٢) مسلم ٢٠٧٢/٤ •
(٣) مسلم ٢١٤٧/٤ •

وعن معاوية بن قرة عن أبيه : أن عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ كان يجنى لهم نخلة فهبت الريح فكشفت عن ساقيه ، فضحكوا ـ من دقة ساقيه ـ فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (أتضحكون من دقة ساقيه ؟ والذى نفسى بيده لهما أثقل فى الميزان من جبل أحد) (١) .

الصراط :

وهو جسر منصوب على ظهر جهنم تمر عليه الخلائق ، وهو أحد من السيف وأرق من الشعر .

ويكون اجتياز الصراط بحسب أعمال الخلائق فى الدنيا ، فمنهم من يمر كالبرق الخاطف ، ومنهم من يمر كالريح ، ومنهم من يمر كالجواد ، ومنهم من يمشى هرولة ، ومنهم من يحبو حبوا ، ومنهم من يزحف زحفا ، ومنهم من يتساقط فى النار بواسطة الكلاليب التى على جانبيه ، قال تعالى : " وان منكم الا واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا " (مريم : ٧١ و ٧٢) . (قال ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ : قسما واجبا ، وقال مجاهد ـ رضى الله عنه ـ : قضاء . فاذا مر الخلائق كلهم على النار وسقط فيها من سقط من الكفار والعصاة نجى الله المتقين منهم بحسب أعمالهم (٢)) .

يقول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم : ((ويضرب الصراط بين ظهرى جهنم فأكون أنا وأمتى أول من يجيز ولايتكلم يومئذ الا الرسل . ودعوى الرسل يومئذ : اللهم سلم سلم . وفى جهنم كلاليب مثل شوك السعدان هل رأيتم السعدان ؟ قالوا : نعم يارسول الله . قال : فانها مثل شوك السعدان غير أنه لايعلم ماقدر عظمها الا الله . تخطف الناس بأعمالهم فمنهم المؤمن بقى بعمله ، ومنهم المجازى حتى ينجى . حتى اذا فرغ الله من القضاء بين العباد وأراد أن يخرج

---

(١) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ١٤٨/١ .

(٢) محمد الرفاعى : تيسير العلى القدير ٦٢٣/٢ .

برحمتـــه من أراد من أهل النار أمر الملائكة أن يخرجوا من النار من كـــان لايشرك بالله شيئا ...)) (١)

الشـــــفاعـــة :

الشـــفاعة : هى سـؤال الخير للغير ، وهى تكون من الأنبياء والعلمـــاء والشهداء والصالحين ، فحين يحشر الناس الى ربهم عز وجل ويبلغ العناء منهــم مبلغا عظيما ، من شدة الهول وصعوبة الموقف .. يرغبون فى أن يحكم الله تعالـى بينهم ، فيريحهم من شدة الموقف وأتعابه .

ويكون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أول من يفتح باب الشفاعة حين يشـفع فى فصل القضاء . وهى الشفاعة العظمى المختصة به ، والتى يغبطه عليها الأولون والآخرون ، وهى المقام المحمود المذكور فى قوله تعالى : " عسى أن يبعثك ربـك مقاما محمــودا " (الاســراء : ٧٩) .

والشـــفاعة خمســـة أنـــواع :

أ) الشفاعة فى فصل القضاء لاراحة الخلق جميعا من طول الموقف وأهواله ، وهـــى مختصة بالنبى (صلى الله عليه وسلم) ، وتسمى الشفاعة العظمى .

ب) الشفاعة فى ادخال فريق الجنة بغير حساب ، وهى مختصة كذلك بالنـــبى ـ (صلى الله عليه وسلم) .

جـ) الشفاعـــة فى زيادة الدرجـــات .

د) الشفاعة فى مرتكب الكبيرة المستحق دخول النار قبل أن يدخلها .

هـ) الشفاعة فى اخراج مرتكب الكبيرة من النـــار .

وتنقسم الشفاعة يوم القيامة الى قسمين : شفاعة منفية ، وشفاعة ثابتة ...

فالشفاعة المنفيـة قسمان : شفاعـة الألهـة التى عبدت من دون الله تعالى أو معه .

---

(١) مسلم (١٦٤/١) ومعنى يضرب الصراط : أى يمد . ويجيز : أى يمضى عليه ويقطعـــه . والكلاليب : جمع كلوب وهى حديدية معطوفة الرأس يعلق فيها اللحـــم =

والشفاعة بدون اذن الله للشافع ، أو عدم رضاه عن المشفوع له .

والشفاعة المثبتة قسمان : شفاعات النبي (صلى الله عليه وسلم) التي ذكرناها ...
وشفاعات غيره من الأنبياء والأولياء والصالحين والشهداء ... (١)

النـــار ـ أعاذنا الله جميعا منها ـ :

وقد أعدها الله للذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم من العصاة والكافريـــن .
ويكفي للحديث عن أهوالها قول الله تعالى فيها : " يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد " (ق : ٣٠) وقوله تعالى : " اذا ألقوا فيهـــا سمعوا لها شهيقا وهي تفور . تكاد تميز من الغيظ " (تبارك : ٧ و ٨) .
وعذابها مستمر لايفنى ، والكافرون ـ لا العصاة ـ خالدون فيها أبـــدا .
" ان الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هـم شـر البرية " (البينـة : ٦) .
وللنار سبعة أبـــواب : (أعلاها جهنم وتحتها لظى ثم الحطمة ثم السعـير ثم سـقر ، ثم الجحيم ثم الهاوية .) (٢)

= والسعدان : نبت له شوكة عظيمة مثل الحسك من كل الجوانب .

(١) انظر : ابن تيمية : التوسل والوسيلة ص ٧ ـ ٢ و ص ١٢ و ١٢٨ و ١٣٧ .
وحسن أيوب : مع رسل الله وكتبه واليوم الآخر ص ٢٠٢ ـ ٢٠٤ .
والجزائري : عقيدة المؤمن ص ١٥٣ ـ ١٦٣ و ٣٤٣ .
والحكمي : معارك القبول ٢ / ٢٠٥ ـ ٢١٢ .
والوادعي : الشفاعة ص ١٧ فما بعدها .
انظر أحاديث الشفاعة في صحيح مسلم ١ / ١٧٨ ـ ١٩١ .

(٢) الغزالي : الاحياء ٤ / ٥٣١ .

وهى موجودة الآن ، خلافا للمعتزلة القائلين بوجودها يوم القيامة .(١)

والواجب على المؤمن أن يعلم بأن هناك نارا حامية أعدها الله تعالى للعذاب — هى جهنم — وأنها تسعر وتوقد وتشتمل على الشكل الذى يريده الله تعالى ، وأن ألم من قضى عليه بالدخول فيها من أشد الآلام .(٢)

يقول عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — : (أكثروا ذكر النار فان حرها شديد وان قعرها بعيد وان مقامعها حديد .)(٣)

يقول الامام الغزالى — رحمه الله —:

((ياأيها الغافل عن نفسه ، المغرور بما هو فيه من شواغل هذه الدنيا المشرفة على الانقضاء والزوال ، دع التفكير فيما أنت مرتحل عنه ، واصرف الفكر الى موردك ، فانك أخبرت بأن النار مورد للجميع اذ قيل : " وان منكم الا واردها كان على ربك حتما مقضيا . ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا" (مريم : ٧١ و ٧٢) .

فأنت من الورود على يقين ، ومن النجاة فى شك ، فاستشعر فى قلبك هول ذلك المورد ، فعساك تستعد للنجاة منه . وتأمل فى حال الخلائق وقد قاسوا من دواهى القيامة ماقاسوا فبينما هم فى كربها وأهوالها ، وقوفا ينتظرون حقيقة أنبائها وتشفيع شفعائها ، اذ أحاطت بالمجرمين ظلمات ذات شعب ، وأظلت عليهم نار ذات لهب . فانظر يامسكين فى هذه الأهوال ، وأعلم أن الله تعالى خلق النار بأهوالها ، وخلق لها أهلا لايزيدون ولاينقصون ، وهذا أمر قضى وفرغ منه .

---

(١) اللقانى : تحفة المريد ص ٢٣٨ .

(٢) الصواف : القيامة رأى العين ص ٧٣ .

(٣) ابن حجر الهيثمى : الزواجر ٢/٢٥٢ .

فان قلت : ليت شعرى ، ماذا موردى والى ماذا مآلى ومرجعى ؟
وما الذى سبق به القضاء فى حقى ؟

فلك علامة تستأنس بها ، وتصدق رجاءك بسببها وهى : أن تنظر الى أحوالك وأعمالك ، فان كلا ميسر لما خلق له ، فان كان قد يسر لك سبيل الخير فأبشر فانك مبعد عن النار ..)) (١)

وأهون أهل النار عذابا : رجل منتعل بنعلين يغلى منهما دماغه !

عن النعمان بن بشير قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (ان أهون أهل النار عذابا من له نعلان وشراكان من نار يغلى منهما دماغه كما يغلى المرجل مايرى أن أحدا أشد منه عذابا وانه لأهونهم عذابا) (٢) .

ويقاسى أهل جهنم الأهوال والشدائد .. ويدعون بالويل والثبور .. ولا أحد يهتم ببكائهم وصراخهم وعويلهم : " لهم فيها زفير وهم فيها لايسمعون " (الأنبياء : ١٠٠) .

---

(١) القاسمى : موعظة المؤمنين ص٤٠٥ .

تنبيه : لايستلزم الخوف من عذاب الله ترك عمارة الأرض واهمال شؤون الحياة ، فذلك ينافى الحكمة من ايجاد الخلق . ولاتعارض فى حس المسلم بين العمل للدنيا والعمل للآخرة ، فكل أوقاته عبادة ان صح عمله وخلصت نيته : ((فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولايشرك بعبادة ربه أحدا)) (الكهف: ١١٠)

(٢) وفى رواية (أهون أهل النار عذابا أبو طالب . وهو منتعل بنعلين يغلى منهما دماغه) .
انظر مسلم ١/١٩٦ .
شراكان : الشراك أى سيور النعل ، وهو الذى يكون على وجهها وعلى ظهر القدم . يغلى : الغليان هو شدة اضطراب الماء ونحوه على النار لشدة اتقادها .
المرجل : قدر معروف ، سواء كان من حديد أو نحاس أو حجارة ...

" وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا • اذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لهـا تغيظا وزفيرا • واذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا " (الفرقان : ١١ ــ ١٣) • " والذين كفروا لهم نار جهنم لايقضى عليهم فيموتوا ولا يخفـف عنهم من عذابها كذلك نجزى كل كفور • وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمـل صالحا غير الذى كنا نعمل أولم نعمركم مايتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقـوا فما للظالمين من نصـير " (فاطر : ٣٦ و ٣٧) •

" تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون • ألم تكن آياتى تتلى عليكم فكنـتم بها تكذبون • قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين • ربنا أخرجنا منهـا فان عدنا فانا ظالمون • قال اخسؤوا فيها ولاتكلمون " (المؤمنون : ١٠٤ ــ ١٠٨) •

وطـعام أهـل النـار :

الضريـع • والغسـلين • والزقـوم •

قال تعالى : " ليس لهم طعام الا من ضريع • لايسمن ولايغنى من جـوع " (الغاشية : ٦ و ٧) •

وقال تعالى : " فليس له اليوم هاهنا حميم • ولاطعام الا من غسلين • لايأكلـه الا الخاطئون " (الحاقة : ٣٥ ــ ٣٧) •

وقال تعالى : " ان شجرة الزقوم • طعام الأثيم • كالمهل يغلى فى البطـون • كغلى الحميم " (الدخان : ٤٣ ــ ٤٦) •

وقال أيضا : " أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم • انا جعلناها فتنة للظالمين • انها شجرة تخرج فى أصل الجحيم • طلعها كأنه رؤوس الشياطين • فانهم لآكلـون منها فمالؤون منها البطون • ثم ان لهم عليها لشوبا من حميم " (الصافات : ٦٢ ــ ٦٧)

((.. انها تطعم من شوك ترعاه الابل اذا كان رطبا وتعافه اذا جف إلا يسمن ولايغنى من جوع . فيجتمع على تلك الوجوه عذاب الروح بالذل والخزى .. الى عذاب البدن بالنصب والنار الى عذاب الظمأ والطوى ..)) (١)

وشــــرابهـــم :

المهل ، والحميم ، والصديــد :

والمهل شديد الحرارة شاو للوجوه حارق للجســـد :

" وان يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا " (الكهف : ٢٩) .

والحميم يصهر الرؤوس والجلود والبطون :

((يصب من فوق رؤوسهم الحميم . يصهر به مافى بطونهم والجلود)) (الحج : ١٩ و ٢٠) . " وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم " (محمد : ١٥) .

((قال الضحاك : الحميم يغلى منذ خلق الله السماوات والأرض الى يـــوم يسقونه ويصب على رؤوسهم .))

وقيل : هو مايجتمع من دموع أعينهم فى حياض النار فيسقونه (٢) .

والصديد : يغص به شاربه ــ الذى كان جبارا عنيدا فى الدنيا ــ ولايكـــاد يسيغه من شدة الألـــم :

" وخاب كل جبار عنيد . من ورائه جهنم . ويسقى من ماء صديد يتجرعه ولايكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت " (ابراهيم : ١٥ ــ ١٧) .

ويعذب أهل النار كذلك : بالسلاسل والأنكال والقيود ....

---

(١) سيد قطب : مشاهد القيامة فى القرآن ص ١٥٨ .

(٢) ابن حجر الهيثمى : الزواجــر ٢/٢٥٣ .

" فسوف يعلمون . اذا الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون . فى الحميم ثم فى النار يسجرون " (غافر : ٧٠ ــ ٧٢) .

" خذوه فغلوه . ثم الجحيم صلوه . ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه " (الحاقة : ٣٠ ــ ٣٢) .

" أن أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا " (الانسان : ٤) .

" انا لدينا أنكالا وجحيما " (المزمل : ١٢) .

ومع أن النار كافية لصهر كل مافيها واماتته ، الا أن أهلها لايموتون فيها ، ولا يخفف عنهم من عذابها ، وتزداد باستمرار تأججا واستعارا على من فيها :

" ان الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب " (النساء : ٥٦)

" والذين كفروا لهم نار جهنم لايقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها " (فاطر : ٣٦) .

" مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا " (الاسراء : ٩٧) .

ويعذبون كذلك بالتأنيب والتوبيخ والتقريع :

" اصلوها فاصبروا أولا تصبروا سواء عليكم انما تجزون ماكنتم تعملون " (الطور : ١٦) .

---

(١) ابن حجر الهيثمى : الزواجر ٢/٢٥٣ .

الجنــــــــة :

لقد أعد الله تعالى لعباده المتقين جنة عرضها السماوات والأرض جزاء بماكانوا يعملون • وفيها من النعيم الدائم مالا عين رأت ولاأذن سمعت ولاخطر على قلب بشر •
والطريق الموصل الى الجنــة هــو :

الايمان بالله ــ ومايتعلق به ــ• والعمل الصالح • كالانفاق فى السراء والضراء • وكظم الغيظ • والعفو عن الناس • والاحسان ــ بجميع أنواعه ــ وذكر الله •والاستغفار• والتوبة • والجهاد فى سبيل الله ــ بجميع أنواعه ــ والصبر :

قال تعالى : " الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب " (الرعد : ٢٩)

وقال تعالى : " وان للمتقين لحسن مآب • جنات عدن مفتحة لهم الأبواب • متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب • وعندهم قاصرات الطرف أتراب • هذا ماتوعدون ليوم الحســاب " (ص ، ٤٩ ــ ٥٢) •

وقال تعالى : " الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافــين عن الناس والله يحب المحسنين • والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفســـهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب الا الله ولم يصروا على مافعلــوا وهم يعلمون • أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهـــار خالدين فيها ونعم أجر العاملين " (آل عمران : ١٣٤ ــ ١٣٦) •

وقال تعالى : " ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنــة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون " (التوبــة : ١١١) •

وقال تعالى : " وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا • متكئين فيها على الأرائك لايرون فيها شمسا ولازمهريرا • ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا " (الانســان : ١٢ ــ ١٤) •

((ودار النعيم ـ جعلنا الله جميعا من أهلها ـ عدة جنات متجاورة . منها الفردوس ـ وهي أفضلها وأعلاها ـ ومنها جنة الخلد ، ومنها جنة النعيم ، ومنها جنة عدن ، ومنها دار السلام)) (١)

وفي الجنة : أنهار وعيون .. وثمرات متنوعة .. وحور عين .. وولدان مخلدون .. ولحم طير مما يشتهون .. وفواكه مما يتخيرون .. وأباريق وكأس من معين .. وفرش بطائنها من أستبرق .. وظل ممدود .. وماء مسكوب ..

" ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا . ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا . قوارير من فضة قدروها تقديرا . ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا . عينا فيها تسمى سلسبيلا . ويطوف عليهم ولدان مخلدون اذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا . واذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا . عاليهم* ثياب سندس خضر واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا " (الانسان: ١٤ـ٢١)

" مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم " (محمد : ١٥) .

وأهل الجنة في نعيم عظيم ... يسقون من رحيق مختوم .. تعرف في وجوههم نضرة النعيم .. ينظرون الى الملك الكريم .. لايحزنون ولايخافون .. ولايجوعون ولايعطشون .. ولايتمخطون ولايتغوطون ولايبولون .. وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون .. تسلم عليهم الملائكة المطهرون ...

---

(١) اللقاني : تحفة المريد ص ٢٣٨ .

* هناك أشياء كثيرة حرمت على المؤمن في الدنيا ـ كالحرير والذهب ـ وأبيحت في الآخرة .. الا العري والتكشف فانه محرم في الدارين ..
قال تعالى : " عاليهم ثياب سندس خضر واستبرق " (الانسان : ٢١)

وتحييهم قائلة : " هذا يومكم الذى كنتم توعدون " (الأنبياء: ١٠٣) .

وهذه مشاهد من صفة الجنة ومن نعيم أهلها :

فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لايقطعها :

عن سهل بن سعد عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: ((ان فى الجنة لشجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لايقطعها)) (١)

ويحل الله الرضوان على أهلها فلايسخط عليهم أبدا :

عن أبى سعيد الخدرى أن النبى – صلى الله عليه وسلم – قال: ((ان الله يقول لأهل الجنة : ياأهل الجنة فيقولون: لبيك ربنا وسعديك والخير فى يديك فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : ومالنا لانرضى يارب وقد أعطيتنا مالم تعط أحدا من خلقك . فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : يارب وأى شئ أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبدا)) (٢) .

وفى الجنة يتراءى أهل الغرف فيها كما يرى الكوكب فى السماء :

عن سهل بن سعد أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: ((ان أهل الجنة ليتراءون الغرفة فى الجنة كما تراءون الكوكب فى السماء)) (٣) .

وفى سوق الجنة ينال أهلها الحسن والجمال :

عن أنس بن مالك أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : ((ان فى الجنة لسوقا يأتونها كل جمعة فتهب ريح الشمال فتحثو فى وجوههم وثيابهم فيزدادون حسنا وجمالا . فيرجعون الى أهليهم وقد ازدادوا حسنا وجمالا ، فيقول لهم أهلوهم والله لقد ازددتم بعدنا حسنا وجمالا . فيقولون : وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حسنا وجمالا)) (٤)

---

(١) مسلم ٤/٢١٧٦ .

(٢) مسلم ٤/٢١٧٦ .

(٣) مسلم ٤/٢١٧٧ .

(٤) مسلم ٤/٢١٧٨ .

وأول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر :

عن أبي هريرة قال قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ((ان أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر . والتي تليها على أضوء كوكب درى في السماء . لكل امرئ منهم زوجتان اثنتان . يرى مخ سوقهما من وراء اللحم . وما في الجنة أعزب)) (١) .

ومن صفات أهل الجنة أنهم :

((يأكلون فيها ويشربون ولايتفلون ولايبولون ولايتغوطون ولايتمخطون)) قالوا فما بال الطعام ؟ قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : جشاء ورشح كرشح المسك . يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس)) (٢) .

وأهل الجنة في نعيم دائم :

عن أبي هريرة عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : قال : ((ينادى مناد : ان لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا . وان لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا . وان لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا . وان لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدا)) فذلك قوله عز وجل : " ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون " (٣) (الأعراف : ٤٣) .

وللمؤمن في الجنة خيام :

قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ((ان للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها ستون ميلا للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضا)) (٤)

---

(١) مسلم ٤/٢١٧٨ والزمرة هي الجماعة . ورواه آخرون بلفظ عزب .
(٢) مسلم ٤/٢١٨٠ ، يتفلون : يبصقون ، جشاء : تنفس المعدة من الامتلاء .
(٣) مسلم ٤/٢١٨٢ .
(٤) مسلم ٤/٢١٨٢ .

يقول الامام ابن القيم ــ رحمه الله ــ في وصف الجنة :(١)

فحي على جنات عدن فانها	منازلك الأولى وفيها المخيم
ولكننا سبي العدو فهل ترى	نعود الى أوطاننا ونسلم
وحي على روضاتها وخيامها	وحي على عيش بها ليس يسأم
وحي على يوم المزيد وموعد	المحبين طوبى للذي هو منهم
وحي على واد بها هو أفيح	وتربته من أذفر المسك أعظم
ومن حولها كثبان مسك مقاعد	لمن دونهم هذا الفخار المعظم
يرون به الرحمن جل جلاله	كرؤية بدر التم لايتوهم
وبيناهم في عيشهم وسرورهم	وأرزاقهم تجري عليهم وتقسم
اذا هم بنور ساطع قد بدا لهم	فقيل ارفعوا أبصاركم فاذا هم
بربهم من فوقهم وهو قائل :	سلام عليكم طبتم وسلمتم
فياعجبا مامذر من هو مؤمن	بهذا ولايسعى له ويقدم ؟

ويقول أيضا :

ويرونه سبحانه من فوقهم	رؤيا العيان كما يرى القمران
هذا تواتر عن رسول الله لم	ينكره الا فاسد الايمان
وأتى به القرآن تصريحا وتعـ	ريضا هما بسياقه نوعان
وهي الزيادة قد أتت في يونس(٣)	تفسيره قد جاء بالقرآن
ورواه عنه مسلم بصحيحه(٤)	يروي صهيب ذا بلا كتمان
وهو المزيد كذاك فسره أبو	بكر هو الصديق ذو الايقان
وعليه أصحاب الرسول وتابعو	هم بعدهم تبعية الاحسان

---

(١) ابن القيم : طريق الهجرتين ص ٩٠ .
(٢) أحمد بن ابراهيم : شرح قصيدة ابن القيم ٢/٥٦٧ .
(٣) قال تعالى : " للذين أحسنوا الحسنى وزيادة " (يونس : ٢٦) .
(٤) قال صلى الله عليه وسلم : (اذا دخل أهل الجنة الجنة قال يقول الله تبارك وتعالى : تريدون شيئا أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ألم تدخلنا الجنة وتنجينا من النار ؟ قال فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئا أحب اليهم من النظر الى ربهم عزوجل) مسلم ١/١٦٣ .

اليوم الآخر في حس المسلمين الأوائل :

ان من آثار الايمان بالله واليوم الآخر : تحرير النفس من سيطرة الآخرين ومن العبودية لغير الواحد القهار أو الخضوع لغير الله . وحتى يكون التحرر من الخضوع لغير الله تعالى كاملا ، فان القرآن الكريم ينفي شبهة القداسة عن أى فرد ولو كان نبيا رسولا ، قال تعالى : "ليس لك من الامر شيء" (آل عمران : ١٢٨) .

وهذا الايمان في الحقيقة : ثورة على جبابرة الارض وطواغيت الجاهلية ، وثورة كذلك على كل عبودية ، وثورة على النفس للسيطرة على أهوائها ، وثورة على المستبدين ، ونداء عالمي لتحرير الانسان من عبودية غير الله تعالى . (١)

" وقد عنى القرآن الكريم بمشاهد القيامة - البعث والحساب والنعيم والعذاب - فلم يعد ذلك العالم الآخر الذى وعده الناس بعد هذا العالم الحاضر موصوفا فحسب ، بل عاد مصورا محسوسا وحيا متحركا وبارزا شاخصا .

وعاش المسلمون في هذا العالم عيشة كاملة : رأوا مشاهده وتأثروا بها ، وخفقت قلوبهم تارة واقشعرت جلودهم تارة ولفحهم من النار شواظ ورفّ اليهم من الجنة نسيم . ومن ثم باتوا يعرفون هذا العالم تمام المعرفة قبل اليوم الموعود". (٢)

ولقد بعث الايمان بالآخرة في قلوب المسلمين شجاعة خارقة للعادة وحنينا غريبا الى الجنة واستهانة نادرة بالحياة .

---

(١) عبد الكريم عثمان : الثقافة الاسلامية ص ٣٨ ، والقرضاوى : الايمان والحياة ص ٢٦ .
ومحمد المبارك : نحو انسانية سعيدة ص ٥٤ .

(٢) سيد قطب : مشاهد القيامة في القرآن ص ٣٧ .

تمثلوا الآخرة وتجلت لهم الجنة بنعمائها كأنهم يرونها رأى العين ، فطاروا اليها طيران الحمام الزاجل لا يلوى على شيء .

وقد رفع هذا الايمان رأسهم عاليا وأقام صفحة عنقهم فلم تنحن لغير الله أبدا ، لا لملك جبار ولا لحبر من الأحبار ولا لرئيس دنيوى ولا دينى .

وملأهذا الايمان قلوبهم وعيونهم بكبرياء الله تعالى وعظمته ، فهانت وجوه الخلق وزخارف الدنيا ومظاهر العظمة . فاذا نظروا الى الملوك وحشمتهم وما هم فيه من ترف ونعيم ، فكأنهم ينظرون الى صور ودمى كسيت ملابس الانسان . (١)

وهذه أمثلة من حياة الرعيل الاول ممن رضى الله عنهم ورضوا عنه تبين كيف عاشوا اليوم الآخر ، وكيف كان حبهم لله تعالى وخوفهم من ناره وشوقهم لجنته ، وكيف انهم كانوا يدبون على الأرض وأرواحهم معلقة فى السماء ، وكيف تخلت نفوسهم من حظ نفوسهم ، وكيف باعوا كل ما يملكون وقدموا الغالى والرخيص رغبا ورهبا ، طمعا برحمة الله وخوفا من عقوبته . لقد خافوا المولى عز وجل خوف من يرى أنه لو أتى الله تعالى بكل حسنات أهل الارض لم يتقبلها منه . . ورجوا الله رجاء من يرى أنه لو أتى الله بسيئات أهل الارض غفرها له .

(ويجب ألا يطغى الخوف من عذاب جهنم على الأمل بالفوز بنعيم الجنة ، لأن رحمة الله التى وسعت كل شيء فتحت باب التوبة حتى الموت) . (٢)

أرسل عمر ـ رضى الله عنه ـ الى عبد الرحمن بن عوف يستسلفه أربعمائة درهم . فقال عبد الرحمن ـ رضى الله عنه ـ : أتستسلفنى وعندك بيت المال ؟ ألا تأخذ منه ثم ترده ؟ فقال عمر : انى اتخوف أن يصيبنى قدرى ، فتقول أنت وأصحابك : اتركوا هذا لأمير المؤمنين ، حتى يؤخذ من ميزانى يوم القيامة . ولكنى اتسلفها

---

(١) الندوى : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ١٠٣ و ١٠٤

(٢) النورسى : عصا موسى ص ٥٩

منك لما أعلم من شحك ، فاذا مت جئت فاستوفيتها من ميراثي . (١)

وشرب عمر - رضى الله عنه لبنا فأعجبه . فسأل الذى سقاه . من اين لك هذا اللبن ؟ فأخبره أنه ورد على ماء - قد سماه - فاذا نعم من نعم الصدقة وهم يسقون ، فحلبوا لى من ألبانها فجعلته فى سقائى فهو هذا . فأدخل عمر يده فاستقاءه . (٢)

وكان لعمر - رضى الله عنه - خازن يقال له (معيقيب) على بيت المال . فكنس البيت يوما فوجد فيه درهما ، فدفعه الى ابن لعمر فقال له عمر : ويحك يامعيقيب . أردت أن تخاصمنى أمة محمد فى هذا الدرهم يوم القيامة ؟ (٣)

وسئل عمر بن عبد العزيز - رضى الله عنه - : ماكان سبب توبتك ؟ قال : كنت أضرب يوما غلاما . فقال لى : اذكر الليلة التى تكون صبيحتها يوم القيامة . فعمل ذلك الكلام فى قلبى . (٤)

انطلق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه حتى سبقوا المشركين الى بدر ، وجاء المشركون فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : (لا يقدمن أحد منكم الى شيء حتى أكون انا دونه) فدنا المشركون فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : (قوموا الى جنة عرضها السماوات والارض) فقال عمير بن الحمام الانصاري : يارسول الله جنة عرضها السماوات والارض ؟ قال: نعم ، قال : بخ بخ . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما يحملك على قولك بخ بخ ؟ قال : لا والله يارسول الله . الا رجاءة أن أكون من أهلها . قال : فانك من أهلها . فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن . ثم قال : لئن أنا حييت حتى

---

(١) أبو عبيد : الاموال ص ٢٤١ و الطبرى : الرياض النضرة ٢/ ١٣٦

(٢) الامام مالك : الموطأ ص ١٨٢

(٣) ابن الجوزى : الشفاء ص ٨٣

(٤) الغزالى : التبر المسبوك ص ٢٦ ، وابن الجوزى : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١١٧

آكل تمراتي هذه انها لحياة طويلة ! فرمى بماكان معه من التمر ، ثم قاتلهم حتى قتل . (١)

لما نزل قوله تعالى : " وان جهنم لموعدهم أجمعين . لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم " (الحجر : ٤٣ و ٤٤) أتى رجل من الأنصار النبى - صلى الله عليه وسلم - فقال : ان لى سبعة مماليك وانى قد عتقت لكل باب منهم مملوكا . فنزلت الآية : " فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه" (الزمر : ١٧ و ١٨). (٢)

لما ودّعوا عبد الله بن رواحة - رضى الله عنه - أثناء ذهابه مع الجيش المتوجه الى موءتة بكى . فقالوا : ما يبكيك ؟ فقال : أما والله ما بى حب الدنيا ولا صبابة اليها ولكنى سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقرأ : " وان منكم الا واردها كان على ربك حتما مقضيا" (مريم : ٧١)

فلست أدرى كيف لى بالصدر بعد الورود ؟ (٣)

لما طعن حرام بن ملحان - رضى الله عنه - وقيل : عامر بن فهيرة - رضى الله عنه - يوم بئر معونة . . قال بالدم هكذا فنضحه على وجهه ورأسه . . ثم قال :

---

(١) انظر : مالك : الموطأ ص ٢٨٩
وابن أبى شيبة : المصنف ٥/٢٩٩
والبستى : الثقات ١/١٦٨
والاسفرايينى : مسند أبى عوانة ٥/٣٦
والسفارينى : شرح ثلاثيات الامام أحمد ١/٢٧٨
حتى أكون دونه : أى قدامه متقدما فى ذلك الشيء لئلا يفوت شيء من المصالح التى لايعلمونها .
بخ بخ : كلمة تطلق لتفخيم الأمر وتعظيمه فى الخير .
الارجاءة : أى الا رجاء .
قرنه : أى جعبة النشاب .
(٢) السيوطى : لباب النقول ص ١٨٤ .
(٣) عبد القادر بدران : تهذيب تاريخ دمشق الكبير ١/ ٩٣

فزت ورب الكعبة .(١)

قال أبو موسى الأشعرى ـ رضى الله عنه ـ وهو بحضرة العدو قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (ان أبواب الجنة تحت ظلال السيوف) (٢) فقام رجل رث الهيئة فقال : يا أبا موسى أنت سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقوله ؟ قال : نعم . قال فجاء الى أصحابه فقال : أقرأ عليكم السلام . . ثم كسر جفن سيفه فألقاه ثم مضى بسيفه قدما يضرب به حتى قتل .(٣)

أتى أعرابى عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ فقال :

ياعمر الخير جزيت الجنّة	أكس بنياتى وأمهنّه
وكن لنا من الزمان جنّة	أقسم بالله لتفعلنّه

فقال عمر : ان لم أفعل يكون ماذا ؟

فقال : اذن أبا حفص لأذهبنه .

فقال عمر : واذا ذهبت يكون ماذا ؟ فقال :

يكون عن حالى لتسألنّه	يوم تكون الأعطيات هنّه
وموقف المسؤول بينهنّه	اما الى نار واما الى جنّة

فبكى عمر حتى خضبت لحيته وقال : ياغلام أعطه قميصى هذا لذلك اليوم لالشعره ،

---

(١) الطبرانى : المعجم الصغير ١ / ١٩٥
والزهرى : المغازى النبوية ص ٩٥
وابن حجر : الترغيب والترهيب ص ١٢١
والاسفرايينى : مسند أبى عوانة ٥ / ٤٢

(٢) مسلم ٣ / ١٥١١

(٣) انظر الحاكم : المستدرك ٢ / ٧٠
والبيهقى : السنن الكبرى ٩ / ٤٤
وابن أبى شيبة : المصنف ٥ / ٢٩٢
وابن الفاسى : جمع الفوائد ٢ / ٦

فانى والله لا أملك غيره . (١)

عن محمد بن كعب القرظى قال :

لما استخلف عمر بن عبد العزيز ـ رضى الله عنه ـ بعث الىّ وأنا بالمدينة ، فقدمت عليه . . فلما دخلت جعلت أنظر اليه نظرا لا أصرف بصرى عنه تعجبا .

فقال لى : ياابن كعب . انك لتنظر الىّ نظرا ما كنت تنظره الى من قبل .

قلت تعجبا . قال : وما أعجبك ؟ قلت : ما حال من لونك ونحل من جسمك وتساقط من شعرك .

فقال : كيف لو قد رأيتنى بعد ثلاث قد دلّيت فى حفرتى وسالت حدقتاى على وجنتى وسال منخراى صديدا أو دما . . كنت أشد لى نكرة . . (٢)

ان المسلم يعيش حياته لغاية سامية نبيلة ولأهداف عالية كريمة عى عبادة الله تعالى والقيام بالخلافة فى الأرض على ضوء منهج الله وشريعته ؛ وهذا ما يميزه عن غيره من بنى جنسه :

" والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار شوى لهم " (محمد : ١٢)

ويوقن المسلم أنه لم يخلق ـ هو أو غيره ـ عبثا أو سدى : " أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم الينا لاترجعون " (المؤمنون : ١٥) .

والايمان باليوم الآخر يجعل المسلم يعيش هذه الأهداف ويسعى لتحقيق هذه الغاية الكبرى ولو أدى ذلك لفقد الرخيص والنفيس ، فما عند الله خير للابرار .

وقد ورد الايمان بالله تعالى فى كثير من الآيات الكريمة مقترنا باليوم الآخر ، ولاتكاد سورة قرآنية تخلو من الحديث عن اليوم الآخر وما فيه من نعيم وعذاب ، فلا فائدة من ايمان لايتبعه عمل لليوم الآخر ، ولا فائدة من عمل لم ينبع من ايمان بالله .

---

(١) الماوردى : الاحكام السلطانية ص ١٢٨ ؛

(٢) أبو يوسف : الخراج ص ٥٣ ، وابن الجوزى : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٩ ؛ .

ولعل هذا هو السر في الجمع بين الايمان بالله والايمان باليوم الآخر :

" ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون" (البقرة : ٦٢) .

" ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك هم الذين صدقوا واولئك هم المتقون" (البقرة : ١٧٧) .

وقد شاءت ارادة المولى جل وعلا أن يعيش الناس متفاوتين فى أرزاقهم وأعمالهم وأحوالهم : فمنهم الشقى والسعيد .. ومنهم الغنى والفقير .. ومنهم القوى والضعيف .. ومنهم الحاكم والمحكوم .. ومنهم الظالم والمظلوم ... فلوكانت هذه الحياة هى نهاية المطاف - ولا حساب أو جزاء - لكان ذلك منافيا للعدالة الربانية والحكمة الالهية ، ولكان الغالب على أمر الناس الافساد فى الارض.

والمرء اذا لم يخش عاقبة أمره ولم يهتم بيوم معاده ، يتوهم أن مصلحته فى أن يكون أنانيا ظالما ، لأن دنياه هى فرصته الوحيدة للتمتع بزينة الحياة وزخرفها .

وقد نعى الحق - تبارك وتعالى - على من يظن أن عاقبة المؤمن والكافر سواء بقوله : " أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض ، أم نجعل المتقين كالفجار" (ص : ٢٨)

فاليوم الآخر - بما فيه من مكافأة المحسن على احسانه ومجازاة المسيء على اساءته - هو مقتضى عدل الله ، وتحقيق الحق الذى خلقت من أجله السماوات والارض:

" أفحسبتم انما خلقناكم عبثا وأنكم الينا لاترجعون " (المؤمنون : ١١٥) .

ولا يتحقق الحق ولاتأخذ العدالة مجراها ، الا ببعث الناس وسؤالهم وحسابهم ومجازاتهم على أعمالهم وأقوالهم ونياتهم ، ان خيرا فخير .. وان شرا

قشر . " فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره" (الزلزلة : ٧ و ٨) .

ولا طمأنينة الى عدل الله عز وجل ، الا بالايمان بيوم الحساب والمجازاة . وما أقل ادراك الشيوعيين - وغيرهم من الكفرة والمشركين - حين لا يؤمنون بالله وباليوم الآخر ، ولا يعملون لله واليوم الآخر .

فاذا كانت الحياة تنتهي بالموت - ولا بعث ولا نعيم ولا عذاب بعد ذلك - فما الذى يردع المرء عن القتل والسرقة والغش والسرقة والكذب . . مادام كل شيء ينتهي بالموت ومادامت الدنيا هي نهاية المطاف؟

يقول فضيلة الشيخ سيد سابق - حفظه الله :

" ان الله سبحانه متصف بصفات الكمال ، ومن صفاته الكمالية العدل والحكمة ، فهو سبحانه عادل لا يظلم أحدا من خلقه ، وحكيم لا يضع الشيء في غير موضعه .

ومن عدله وحكمته ألا يسوى بين البر والفاجر ولا بين المؤمن والكافر ولا بين المحسن والمسيء ، فان التسوية بينهما منتهى الظلم والسفه .

والله تعالى أرسل رسله - عليهم الصلاة والسلام - بالبينات وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، فاهتدى فريق الى الله وانحرف فريق عن هدايته ، فلم تكن له العقيدة الحقة ولا العبادة الصحيحة ولا العمل الصالح .

والذين اهتدوا كلفتهم الهداية جهادا شاقا وتضحيات مريرة ومغالبة للهوى ومحاربة للباطل ومكافحة للشرور والآثام ، وطال جهادهم حتى اللحظات الأخيرة من حياتهم . فهل يستوى هؤلاء الأبرار مع التافهين والفارغين الفسقة الذين استحبوا العمى على الهدى وآثروا الغى على الرشاد ؟ .

لقد قضى كل من الفريقين حياته ، هذا يجاهد في سبيل الله ليعلى كلمته وليرفع راية الحق وليطهر الارض من الفساد ، وذاك يجاهد من أجل شهواته وغرائزه سائرا في ركب الشيطان مؤتمرا بأمر نفسه الأمارة بالسوء .

فهل من العدل والحكمة أن يكون مصير هؤلاء جميعا واحدا ؟ ان ذلك لايجوز في العقل السليم بله الله أعدل العادلين وأحكم الحاكمين"(١)

ان الايمان باليوم الآخر يهذب النفس ويحثها على الالتزام بالأخلاق الفاضلة والقيم المثلى والمثل العالية .

وهذا الايمان يهذب سلوك الفرد ، ويجعل هذا السلوك نظيفا في السر والعلانية وفي الضراء والسراء . وكيف لايسير المؤمن على الجادة المستقيمة دون اغترار بمتاع الدنيا - وهو يعلم أن ماعند الله خير وأبقى ؟

فالايمان باليوم الآخر يجعل المرء مستقيما مطيعا لله تعالى في كل أموره ، يرجو رحمته ويخشى عذابه . ويجعله كذلك مستقيما في علاقته مع الناس ، فيعاملهم بالرفق والادب والحسنى ، لا يؤذى غيره ولا يظلمه ولايعتدى عليه ، لأنه ان لم يمش على الصراط المستقيم في الدنيا فلن يجوز الصراط في الآخرة . وتبا لمن يبيع آخرته بعرض من الدنيا قليل .

والايمان باليوم الآخر : يجعل المسلم مراقبا لله تعالى في أقواله وأفعاله وتفكيره ، لأنه يعلم أن الحاكم العادل تبارك وتعالى يعلم السر وأخفى ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات والأرض : " يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور" (غافر : ١٩) . " وان كان مثقال حبة من خردل أتينابها وكفى بنا حاسبين" (الانبياء : ٤٧)

والايمان باليوم الآخر - الذى هو من مستلزمات الايمان بالله - يفرض على المؤمن التخلق بأخلاقيات الاسلام بينه وبين نفسه ، وبينه وبين أهله وبينه وبين أقاربه وأصهاره وجيرانه ، وبينه وبين أفراد مجتمعه - أصدقائه وأعدائه مؤمنين وكافرين - ، وبينه وبين الدولة التى يعيش في ظلها .

---

(١) سيد سابق : العقائد الاسلامية ص ٢٧٩ بتصرف يسير .

(ويتحول المرء في ظل الايمان باليوم الآخر الى مقدّم لكل شيء : من مال ونفس ووقت وجهد ـ دون أن يطلب في الدنيا شيئا . أنه يلتزم بكل ما عليه من واجبات ـ بل يزيد عليها ـ دون أن يطلب أي حق دنيوي لأن الله تعالى سيعطيه يوم الدين جزاء لا يقدّر بكل جزاءات الدنيا (١)

وحول هذا المعنى يقول صاحب الظلال (رحمه الله) :

" ان الله ـ سبحانه ـ في موضع التربية ، وفي مجال اقرار القيم الأساسية في التصور الاسلامي ، لايعد المؤمنين بالنصر أو بقهر الأعداء أو بالتمكين في الأرض . . ولايعدهم شيئا من الأشياء في هذه الحياة . . مما يعدهم به في مواضع أخرى ، ومما يكتبه على نفسه لأوليائه في صراعهم مع أعدائه . أنه يعدهم هنا شيئا واحدا هو (ماعند الله) . فهذا هو الأصل في هذه الدعوة . وهذه هي نقطة الانطلاق في هذه العقيدة :

التجرد المطلق من كل هدف وغاية ومن كل مطمع . حتى رغبة المؤمن في غلبة عقيدته وانتصار كلمة الله وقهر أعداء الله . . حتى هذه الرغبة يريد الله تعالى أن يتجرد منها المؤمنون ويكلوا أمرها اليه ، وتتخلص قلوبهم من أن تكون هذه شهوة لها ، ولو كانت لاتخصها .

هذه العقيدة : عطاء ووفاء وأداء . . فقط . وبلا مقابل من أعراض هذه الأرض ، وبلا مقابل كذلك من نصر وغلبة وتمكين واستعلاء . . ثم انتظار كل شيء هناك .

ثم يقع النصر ويقع التمكين ويقع الاستعلاء . . ولكن هذا ليس داخلا في البيعة . . ليس جزءا من الصفقة ، ليس في الصفقة مقابل في هذه الدنيا وليس فيها الا الأداء والوفاء والعطاء . . والابتلاء . . "(٢)

---

(١) عبد الودود يوسف : بناء الاسلام ص ٧٨ .

(٢) سيد قطب : الظلال ١/ ٥٥٠ و ٣/ ١٥٧١ و ١٥٧٢ بتصرف يسير

والايمان باليوم الآخر يجعل المسلم ربانيا متجردا لله تعالى فى ظاهره وباطنه ، لايهم الا بالخير ، وان فكر بالشر كف عنه ، خوفا من حساب يوم القيامة .

ويجعل المسلم كذلك قائما بما وكل اليه من مهام دنيوية أحسن قيام ، فلا يغش فى عمله فى الرخاء أو الشدة : سواء كان فى متجره أو مزرعته أو مدرسته أو مختبره أو مصنعه أو عيادته أو دائرته أو وظيفته . ويجعله قرآنيا فى البيت وفى الشارع وفى المنتدى وفى المقهى وفى المسجد وفى أى زمان ومكان . لأن المسلم يعلم أن عليه أن يكون قرآنا يدب على الأرض يحل حلاله ويحرم حرامه ، ليكون من الفائزين يوم الدين .

والايمان باليوم الآخر يحث المؤمن على ازدراء الكفر ومقت الكافرين ـ ولو كانوا أكثر أموالا وأولادا وسلاحا ونفيرا ـ لأن عاقبة هؤلاء جهنم وبئس المصير :

" لايغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد . متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد " (آل عمران : ١٩٦ ، ١٩٧) .

" ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون . ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون . وزخرفا وان كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين" (الزخرف : ٣٣ - ٣٥)

ويحث المسلم كذلك على الانفاق والبعد عن الشح والبخل ، فاذا مات الانسان لن يأخذ معه شيئا من متاع الحياة الدنيا فلماذا لاينفق مما آتاه الله ؟

" ولايحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة " (آل عمران : ١٨٠)

" والذين يكنزون الذهب والفضة ولاينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم . يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ماكنزتم لأنفسكم فذوقوا ماكنتم تكنزون" (التوبة : ٣٤ و ٣٥)

والمؤمن بالله واليوم الآخر يسعى بجد للوصول الى الروحانية والمادية ، دون

انفصال بينهما ولاتنافر ، فكلاهما يؤدى الى طريق واحد هو رضوان الله والجنة :

" قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين . لاشريك له وبذلك أمرت " (الانعام : ١٦٢ و ١٦٣) .

ان الايمان باليوم الآخر مرغب للقيام بأوامر الله - دون مراوغة أو مماحكة - والابتعاد عن منهياته - دون ثمنت أو لجاج - للفوز بسعادة الدارين والابتعاد عن عذاب الكافرين :

" ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم . ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين " (النساء : ١٣ و ١٤)

" فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين " (آل عمران : ١٤٨) .

والايمان باليوم الآخر يدعو المسلم الى الصبر والانابة ، فالعاقبة للمهتدين :

" الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون " (البقرة : ١٥٦ و ١٥٧) .

والايمان باليوم الآخر يكبح جماح النفس ، ويجعل المؤمن يضع مخافة الله بين عينيه فى جميع أحواله ، لأنه يعلم أن : " من طغى . وآثر الحياة الدنيا . فان الجحيم هى المأوى . وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . فان الجنة هى المأوى " (النازعات : ٣٧ - ٤١)

ولأنه يعلم أن الله سبحانه وتعالى يمهل ولايهمل ، ولأنه يعلم أنه عز وجل يعطى الدنيا من يحب ومن لايحب ولا يعطى الآخرة الا من أحب .

وباختصار :

ما الذى يجعلنى - كمسلم - أمتنع عن تناول الماء البارد فى نهار رمضان

القانط - دون أن يرائي أحد - اذا لم أكن موقنا بعذاب يوم القيامة ؟

وما الذي يحفزني لاخراج زكاة مالي عن طيب نفس - دون أن يطلب مني بها أحد في زمن غربة الاسلام - اذا لم أومن بنعيم وعذاب الآخرة ؟ . وما الذي يدعوني للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على ذلك - دون أجر من الناس أو خوف منهم - اذا لم أطمئن بأن ما أفقده في الدنيا - من أهل ومال وجاه ونفس - لن يضيع عند الله يوم التناد ؟ .

والايمان بالعوض - كما يقول فضيلة المشرف - يقنع الانسان بأن يكتفي بالحلال ولا يتجاوزه الى الحرام لكي لا يكون من الخاسرين " يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم " (الشعراء : ٨٨ و ٨٩) .

وما الذي يدفعني للقيام بعطلي - الذي انيط بي أداؤه - خير قيام ، اذا لم يكن في حسي الجنة . . أو النار؟ .

ولو لم يكن هنالك يوم آخر : لكان القول بأن (الغاية تبرر الوسيلة) هو عين الحكمة والصواب ؟ . ولكانت الفضيلة هي تحقيق مصالح الفرد الشخصية فحسب . وهذا مالا يقوله عاقل ، ولو كان من أصحاب الديانات المنحرفة الضالة .

ولله در القائل :

فلو أنا اذا متنا تركنا	لكان الموت راحة كل حيّ
ولكنا اذا متنا بعثنا	ونسأل بعده عن كل شيء

ولذا فان الايمان باليوم الآخر يطمئن النفوس الى عدل الله وقضائه .

جاء في كتاب دراسات قرآنية :

((يولي القرآن الكريم أهمية بالغة للايمان باليوم الآخر حتى ليلحقه في كثير من المواضع بالايمان بالله مباشرة اثباتا ونفيا . . فيوصف المؤمنون بأنهم هم الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ويوصف الكافرون بأنهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر .

وهكذا يجيء الايمان باليوم الآخر مرتبطا ارتباطا وثيقا بالايمان بالله وتمما له . ولاعجب في ذلك حين تنظر الى الثمرة النهائية للايمان بالله وهى الطاعة الكاملة لله . . . ولقد علم الله ـ وهو العليم بمن خلق ـ أن هذه الطاعة لايتم تمامها ـ عند كثير من الناس ـ بمجرد الايمان بالله ، انما بالايمان الراسخ بأن هناك بعثا وحسابا وثوابا وعقابا . . . فيتجه المؤمن الى الأعمال التى تقربه من الله اتقاء لعذابه وطمعا في ثوابه . .

ولقد نحسب ـ لأول وهلة ـ أن الحديث المستفيض عن اليوم الآخر في السور المكية كان سببه أنكار العرب للبعث ـ وحقا لقد كان هذا الانكار الجازم في حاجة الى حديث مستفيض حتى يزول عنه اصراره العنيد ـ ولكن استمرار الحديث عن اليوم الآخر في السور المدنية ، بعد أن قام المجتمع المسلم والدولة المسلمة ووجد جيل من الناس يؤمن بالله واليوم الآخر ويجاهد في سبيل الله فيقتل ويقتل نتيجة ايمانه بالله واليوم الآخر ، استمرار الحديث بعد هذا دليل على أن الحديث المستفيض عن اليوم الآخر في السور المكية لم يكن كله بسبب انكار المنكرين للبعث ولاكان كله موجها الى أولئك المنكرين . انما كان جزء منه ـ على الاقل ـ موجها للذين آمنوا بالفعل بالله واليوم الآخر . . ثم هو دليل كذلك على أن الذين آمنوا بالفعل ليسوا في غنى عن التذكير باليوم الآخر انما هم في حاجة دائمة الى ذلك التذكير . . ولو علم سبحانه ـ وهو العليم بخلقه ـ أن مجرد حدوث الايمان باليوم الآخر يكفي لما عاد القرآن لتذكيرهم المرة بعد المرة . . انما علم الله تعالى أنه لابدّ من التذكير . . واعادة التذكير ولابد اذن من سبب دائم يدعو الى التذكير .

انه لاشيء يمكن أن يقنع الانسان بالتنازل عن المتاع الزائد عن الحدّ المدفوع اليه بفطرته والالتزام بالحدود التى رسمها الله لهذه الدوافع وأمر الناس ألا يعتدوها . . الا الايمان الجازم بأن مايتركه هنا في الدنيا ـ من أجل طاعة الله ـ يلقاه في الآخرة مضاعفا لا في الدرجة فحسب . . بل في النوع كذلك ، حيث

النعيم الخالد الذى لايزول . وأن ما يعصى الله فيه فى الدنيا ـ اندفاعا وراء شهواته ـ يعذّب عليه عذابا لاتطيقه النفوس والأبدان . وتصبح الموازنة حينئذ بين متاع هنا فى الدنيا زائف زائل ـ ليس أقل عيوبه ما يشوبه من القلق الدائم على انتهائه وزواله ـ ومتاع هناك خالد لايزول ، ومن نوع أجمل وأعمق وأمتع وأصفى .. وموازنة كذلك بين ألم من عدم تحقيق القدر الزائد من المتاع وهو محتمل فى جميع أحواله ، وألم فى الآخرة يفوق طاقة الاحتمال ..

وحين توضع الموازنة فى هذه الصورة ، يكون من الحماقة الشديدة ـ ولاشك ـ اضاعة النعيم الخالد بالنعيم الزائل . لذا كان التركيز الشديد على عقيدة اليوم الآخر .. لانها هى الثقل الذى يعادل جاذبية الشهوات ..

ثم أن العجينة البشرية عجينة عصية لاتستقر بسهولة فى داخل القالب الذى تتحقق به سلامتها فى الدنيا والآخرة . وانما هى دائمة التلوى والتحرك منه فصة خارج حدود القالب تريد أن تنفلت مع الشهوات .. ومن ثم فهى لاتنضبط مرة واحدة وينتهى الأمر ويستقر بها المقام . انما هى فى حاجة الى عملية ضبط دائمة لاتكل ولا تفتر ، لأنها هى لاتفتر عن الاندفاع والاندلاع ـ الا أن تستقيم بعد طول المجاهدة وتطمئن الى طريق الله ..

ولا بدّ أيضا من جهاد لاقرار منهج الله .. جهاد يحرم الانسان حتى من المتاع المباح .. ويعرضه لأن يفقد ماله أو راحته أو أمنه أو أهله .. بل قد يعرضه للتعذيب والتشريد .. وقد يعرضه للموت بوسيلة من وسائل القتل ـ وذلك غير القتال فى سبيل الله وما يصاحبه من المشقة والحرمان الذى يصل الى الموت فى ساحة القتال ـ فماذا يعوض المؤمن عن ذلك كله ، ويغريه بتحمل العذاب فى الدنيا بشتى صنوفه ، الا ذلك الايمان الجازم بأن كل حرمان يتعرض له فى الارض ـ فى سبيل الله ـ جزاؤه النعيم الخالد الذى لاينفد ؟ وماذا يمنعه من التقاعس خوفا من عذاب الأرض ـ الا الايمان الجازم بأن عذاب الله تعالى عن هذا التقاعس

هو العذاب الأشد ؟ .

لذلك كان التذكير الدائم ـ للمؤمنين ـ باليوم الآخر لكي يتقووا على الجهاد ، ولا تقعد بهم مشقاقة وعذاباته وحرمانه عن المضي فيه ابتغاء مرضاة الله .. ولهم على ذلك الجنة .

والتصوير المبدع لمشاهد القيامة في القرآن الكريم هو الذي جعل الجيل الأول ـ من المسلمين ـ يعيش بوجدانه في الآخرة وهو يخطو بجسده على الارض . وأوجد في نفوسهم تلك الحساسية الهائلة في كل تصرف يتصرفونه خشية أن يحرمهم من النعيم ويؤدي بهم الى النار ..

وهكذا يفعل الايمان باليوم الآخر حين يستقر في النفس ويرسخ ... فيعيش الانسان بوجدانه في الآخرة ، بينما هو بكل طاقاته يعمل في الأرض. (١)

---

(١) محمد قطب : دراسات قرآنية من ص ٦٣ - ٨٢ باختصار

الفصل السادس

أثرُ الإيمانِ بالقضاءِ والقدرِ

في تربية النفس

تمهيـــد :

الايمان بالقضاء والقدر - خيره وشره - هو الركن السادس والاخير من أركان الايمان . وهو أكثر ركن دار حوله النقاش منذ الجاهلية الاولى - عند بعثته (صلى الله عليه وسلم) - حتى الجاهلية المعاصرة . وقد احتج به المشركون على كفرهم ، فقالوا كما أخبرنا بذلك القرآن الكريم :

" سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيئ ، كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا ، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ، ان تتبعون الا الظن وان أنتم الا تخرصون " (الانعام : ٤٨) .

وقد ظهرت فرق اسلامية بسبب عدم الفهم الصحيح للقضاء والقدر ، ومن أشد الفرق انحرافا وضلالا عن مفهوم القضاء والقدر :

(أ) القدرية : الذين نفوا القدر .

(ب) الجبرية : وهم على النقيض من القدرية .

والسعيد من تمسك بمذهب السلف - أهل السنة والجماعة - الذين ذهبوا الى أن ماشاء الله تعالى كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وأنه تعالى خلق الخلق وخلق أعمالهم وجعلهم مختارين ، وأنه أمر العباد ونهاهم ، وأنه تبارك وتعالى " لا يسأل عما يفعل وهم يسألون " (الانبياء : ٢٣) . وأن كل امرئ ميسر لما خلق له " فأما من أعطى واتقى . وصدق بالحسنى . فسنيسره لليسرى . وأما من بخل واستغنى . وكذب بالحسنى . فسنيسره للعسرى " (الليل : ٥ - ١٠) .

ومن الافضل للمسلم أن يمسك عن الخوض فى القضاء والقدر ، وعليه أن يسعى ويجتهد ثم يتوكل على الله ، وصدق القائل :

" فعلى أن أسعى وليس على ادراك النجاح "

ويقول (صلى الله عليه وسلم) : " اعملوا فكل ميسر من كان من أهل السعادة يسر لعملها . ومن كان من أهل الشقاوة يسر لعملها " (١)

---

(١) عمرو الشيبانى : السنة ١ / ٧٥

تعريف القضاء والقدر :

اختلف العلماء في تعريفهما ، واختلفوا هل هما مترادفان أو

متغايران ؟

فقيل : هما النظام المحكم الذى وضعه الله تعالى لهذا الكون ، والقوانين العامة

والسنن التي ربط الله بها الاسباب بمسبباتها .

وقيل : هما حكم الله تعالى في شيء بحمده أو ذمه وبكونه وترتيبه على صفة كذا

والى وقت كذا .

وقيل : القضاء : هو حكم الله تعالى أزلا بوجود الشيء أو عدمه .

ويطلق في القرآن الكريم ويراد به :

ايجاد المقدر : كقوله تعالى : " فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته

الا دابة الارض تأكل منسأته " (سبأ : ١٤) .

والاخبار بما سيقع مما قدر : كقوله تعالى : " وقضينا الى بني اسرائيل في

الكتاب لتفسدن في الارض مرتين " (الاسراء : ٤)

والامر والوصية : كقوله تعالى : " وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه وبالوالدين

احسانا " (اسراء : ٢٣) .

والحكم : كقوله تعالى : "وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون " (الزمر: ٦٩)

---

(١) انظر تعريف القضاء والقدر في :
الغزالي : الاربعين في أصول الدين ص ١٠
وابن حزم : الفصل ٣ / ٥٢
ودراز : المختار من كنوز السنة ص ٢١٨
وعبد الرحمن آل الشيخ : خمس رسائل ص ٣٤١
وحمود التويجري : فتح المعبود ص ٢١
والبوطي : كبرى اليقينيات ص ١٦٧
ووهبي الالباني : أركان الايمان ص ٣٠٣
وسيد سابق : العقائد الاسلامية ص ٩٥
وكمال محمد عيسى : العقيدة الاسلامية ص ٤٢١

والقـــدر : هو ايجاد الله تعالى للأشياء على كيفية خاصة في زمن معين .

قال تعالى : "انا كل شيئ خلقناه بقدر" (القمر : ٤٩) .

وقيل : القدر : قدرة الرحمن - وهذا ماذهب اليه الامام أحمد - .

وقيل : القدر : هو ما قدره الله تعالى وقضاه وسبق بعلمه وارادته وفرغ من كتابته قبل خلق السماوات والارض بخمسين ألف سنة . (١)

معنى الايمان بالقضاء والقـــدر :

هو التصديق الجازم بأن كل خير وشر بقضاء الله وقدره ، وأنه عز وجل الفعـــال لما يريد ، لا يكون شيئ الا بارادته ولا يخرج شيئ عن مشيئته ، ولا محيد لاحد عن القدر المقدور ولا يتجاوز ما خط في اللوح المسطور . وأنه تعالى علم مقادير الاشياء وأحوالها وأزمانها قبل ايجادها ثم أوجد منها ماسبق في علمه أنه يوجـــده على نحو ماسبق في علمه ، وأنه تعالى يهدي من يشاء برحمته ويضل من يشاء بحكمته . وأنه تعالى خلق العباد وخلق أفعالهم وجعلهم مختارين ، (٢)

---

(١) والمراد : تحديد وقت الكتابة في اللوح المحفوظ لا أصل التقدير فان ذلـك أزلـــي .

(٢) انظر معنى الايمان بهما فـــي :

محمد بن عبد اللطيف : رسالة نشر الوهابية للدين ص ٩٠

ومحمد بن عبد الوهاب : الرد على الرافضة ص ٤٣

وحافظ حكمي : معارج القبول ٢/ ٣٤٨

وسليمان بن عبد الله : تيسير العزيز الحميد ص ٦٨٥

والسلمان : مختصر الاسئلة والاجوبة الاصولية ص ٢٢

مراتب القدر (التى من لم يؤمن بها لم يؤمن بالقـدر) :

علم الله عز وجل السابق بما الخلق به عاملون قبل ايجادهم .

وكتابة ذلك عنده قبل خلق السماوات والارض .

ومشيئة الله تعالى المتناولة لكل موجود .

وخلقه للخلق وايجادهم وتكوينهم .(١)

أو بمعنى آخر ـ كما يقول ابن تيمية رحمه الله ـ : الايمان بالقدر على درجتين :

الاولى : الايمان بأن الله تعالى علم بما الخلق عاملون به بعلمه القديم ، وعلم جميع احوالهم من الطاعات والمعاصى والارزاق والاجال ثم كتب فى اللوح المحفوظ مقادير الخلـق .

الثانية : مشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة . وقد أمر العباد بطاعته ونهاهم عن معصيته . والعباد فاعلون حقيقة ، والله تعالى خالقهم وخالق أفعالهم.(٢)

الاحتجاج بالقـدر :

المؤمن مأمور أن يرجع الى القدر عند المصائب لا عند الذنوب والمعاصى فعليـه أن يصبر على المصائب ويستغفر من الذنوب .

ولهذا قال غير واحد من السلف : لا يبلغ الرجل حقيقة الايمان حتى يعلم أن مـا أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه .

وأما الذنوب : فليس لاحد أن يحتج فيها بالقدر ، بل عليه الا يفعلها ، واذا فعلها فعليه أن يتوب منها ، كما حدث من آدم (عليه الصلاة والسلام) (٣)

---

(١) ابن القيم : شفاء العليل ص ٦٦ ، وطريق الهجرتين ص ١٥٧ بايجاز .

(٢) ابن تيمية : العقيدة الواسطية ص ٦١ و ٦٢ باختصار .

(٣) ابن تيمية : منهاج السنة النبوية ١/ ٣٦٣ بتصرف يسير .

ولو كان الاحتجاج بالقدر مقبولا : لم يكن للناس أن يعيشوا . اذ كان لكل من اعتدى عليهم أن يحتج بالقدر فيقبلوا عذره ولا يعاقبوه . ولا يمكن لاثنين من أهل هـــذا القول أن يعيشا ، اذ لكل واحد منهما أن يقتل الآخر محتجا عليه بالقدر . (١)

فشر الخلق : من يحتج بالقدر لنفسه ولا يراه حجة لغيره ، يستند اليه فى الذنوب ولا يطمئن اليه فى المصيبة . كما قيل : هو عند الطاعة قدرى وعند المعصية جبرى .

وخير الخلق : الذين يصبرون على المصائب ويستغفرون من المعايب ، قال تعالى : " فاصبر ان وعد الله حق واستغفر لذنبك " (غافر : ٥٥) .

فالقدر : يؤمن به ولا يحتج به ؛

فمن لم يؤمن به : ضارع المجوس . ومن احتج به : ضارع المشركين . ومن طعـــن فى عدل الله : صار كابليس (والعياذ بالله) (٢)

ولله در القائـــــل :

وماشئت كان ، وان لم أشــــأ	وماشئت ان لم يشأ لم يكـــــن
خلقت العباد على ماعلمـــــت	ففى العلم يجرى الفتى والمسن
على ذا مننت ، وهذا خذلـــت	وهذا أعنت ، وذا لم تعـــــن
فمنهم شقى ، ومنهم سعيـــــد	ومنهم قبيح ، ومنهم حســــــن .

ولله در الامام ابن القيم حيث يقول :

(والله تعالى أمر أن تدفع السيئة - وهى من قدره - بالحسنة - وهى من قدره - . وكذلك الجوع من قدره ، أمر بدفعه بالاكل الذى هو من قدره ، ولو استسلـــــم

---

(١) ابن تيمية : اقتضاء الصراط المستقيم ص ٤١٣

(٢) ابن تيمية : أقوم ماقيل فى المشيئة والحكمة والقضاء والقدر والتعليل وبطلان الجبر والتعطيل ص ١٣٣

وابن تيمية : منهاج السنة النبوية ١ / ٣٦٢

العبد لقدر الجوع قدرته على دفعه بقدر الاكل حتى مات ، مات عاصيا . وكذلك البرد والحر والعطش . كلها من أقداره ، وأمر بدفعها بأقدار تضادها . والدافع والمدفوع والدفع من قدره .

واذا طرق العدو من الكفار بلد الاسلام طرقوه بقدر الله تعالى . أفيحل للمسلمين الاستسلام للقدر وترك دفعه بقدر مثله ، وهو الجهاد الذى يدفعون به قدر الله بقدره ؟ وكذلك المعصية اذا قدرت عليك وفعلتها بالقدر ، فادفع موجبها بالتوبة النصوح وهى من القدر .

ودفع القدر بالقدر نوعان :

أحدهما : دفع القدر الذى قد انعقدت أسبابه - ولم يقع - بأسباب أخرى من القدر تقابله ، فيمتنع وقوعه ، كدفع العدو بقتاله ، ودفع الحر والبرد ونحوه ..

الثانى : دفع القدر الذى قد وقع واستقر بقدر آخر يرفعه ويزيله ، كدفع قدر المرض بقدر التداوى ودفع قدر الذنب بقدر التوبة ودفع قدر الاساءة بقدر الاحسان .

فهذا شأن العارفين وشأن الاقدار ، لا الاستسلام لها وترك الحركة والحيلة فانه عجز والله يلوم على العجز فاذا غلب العبد وضاقت به الحيل ولم يبق له مجال فهنالك الاستسلام للقدر والانطراح كالميت بين يدى الغاسل يقلبه كيف يشاء . وهنا ينفع الفناء فى القدر علما وحالا وشهودا .

وأما فى حال القدرة وحصول الاسباب فالفناء النافع : أن يفنى عن الخلق بحكم الله وعن هواه بأمر الله ، وعن ارادته ومحبته بارادة الله ومحبته ، وعن حوله وقوته بحول الله وقوته واعانته . فهذا الذى قام بحقيقة "اياك نعبد واياك نستعين" علما وحالا)[1]

---

(١) ابن القيم : مدارج السالكين ١/١٩٩ - ٢٠١

معنى (يضل من يشاء ويهدى من يشاء) :

يقول فضيلة الشيخ محمد الغزالى فى قوله تعالى " فان الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء " (فاطر : ٨) . الخطب فى ذلك سهل ، ولن نذهب فى بيانه الى أبعد من كتاب الله لمن شاء أن يفهم " ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مذكر " (القمر : ١٧) . ونحن نجد أن اطلاق المشيئة فى آية ، تقيده آية أخرى يذكر فيها الاختيار الانسانى صريحا .

أى أن اضلال الله تعالى لشخص ، معناه : أن هذا الشخص آثر الغى على الرشاد ، فأقره الله على مراده ، وتمم له ما يبغى لنفسه ...

" فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدى القوم الفاسقين " (الصف : ٥) .

وانظر الى قيمة التنويه بالاتجاه البشرى المعتاد : " ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا " (النساء : ١١٥) .

فهل بقى غموض فى اطلاق المشيئة ؟ لا .

ان معنى قوله تعالى "يضل من يشاء" لا يعدو قوله تعالى " وما يضل به الا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه " (البقرة : ٢٥ و ٢٦) .

وكذلك الحال فى (يهدى من يشاء) .

انظر الى قيمة الارادة الانسانية فى قول الحق وهو يتكلم عن ارادته :

" قل ان الله يضل من يشاء ويهدى اليه من أناب . الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب " (الرعد : ٢٧ و ٢٨) .

فهو يهدى اليه من أناب " ان الله لا يهدى القوم الفاسقين " (المنافقون : ٦) .

احمل أيها القارئ هذا المصباح بين يديك ، وسر فى نوره بين شتى السور ، فلن تجد فى دين الله قلقا أو اضطرابا . وانما القلق والاضطراب فى عقول الحمقى وقلوب الغافلين .

وهنا قد يسأل بعض الناس عن حدود الارادة الدنيا والعليا فى الاعمال ؟

ومع أن هذا السؤال لا مبرر له ، فنحن نتبرع بالاجابة عنه حتى يظهر السر فى نسبة الهداية والاضلال ، تارة لله تعالى وتارة للانسان ؛

هل تعرف ما يفعله الفلاح فى حقله ؟

انه يلقى البذر ويتعهده بالسقى ، وعلى الله الانبات والاثمار .

تستطيع أن تسمى الفلاح زارعا - وانت صادق - لقيامه بالسبب ، وتستطيع أن تسمى الحق - تبارك وتعالى - زارعا (١) لقيامة بالعمل .

" أفرأيتم ما تحرثون ؛ أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ؛ لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون . انا لمغرمون . بل نحن محرومون " . (الواقعة : ٦٣ - ٦٧)

فازرع عمرك - ان شئت - خيرا ، فان يد القدرة سوف تنمية لك وردا يانعا . أو ازرعه - ان شئت - شرا ، فان يد القدرة تنميه شوكا .

"وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، وستردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعلمون " (التوبة : ١٠٥) . (٢)

قلت :

اذا علم أستاذ أن أحد طلابه مجتهد فى دروسه ، متصف بالذكاء والنجابة ، فانـه يعرف أن تلميذ سينجح فى نهاية العام - وذلك قبل تقديم الاختبارات - ولكنه لا يضع

---

(١) تنبيه : مع احترامنا الكبير لفضيلة شيخنا (الغزالى) واعتقادنا بحسن نيته ، الا أنه جانب الصواب بتسمية المولى جل وعلا (زارعا) . لان الله تعالى لا يسمى الا بما سمى به نفسه أو سماه به رسوله (صلى الله عليه وسلم) ، وأسماؤه عز وجل توقيفة ولا يجوز اطلاق اسم عليه من طريق القياس ، كتسميته تعالى : زارعا أو حارثا أو مهندسا أو مدبرا أو مديرا للكون الى غير ذلك من الالفاظ التى لم ترد فى الكتاب أو السنة . انظر الفرق بين الفرق ص ٣٣٧ ، والنصيحة فى صفات الرب

(٢) الغزالى : عقيدة المؤمن ص ١٠١

له العلامة ـ نتيجة الاختبار ـ الا بعد تقديم الامتحان والاجابة عن الاسئلة .

والله عز وجل ـ وله المثل الاعلى ـ يعلم أن أى عبد سيدخل الجنة أو النار ، لانه سيعمل بعمل أهلها ـ كما كتب ذلك فى اللوح المحفوظ ـ ولكنه سبحانه وتعالى جعل على الانسان كراما كاتبين ، لا يسجلون الحسنة أو السيئة الا بعد عملها .

فعلمه جل شأنه لا يقتضى ارتكاب المعصية ، لان أحدا من الخلق لم يطلع على الغيب " وما كان الله ليطلعكم على الغيب " (آل عمران : ١٧٩) .

ومن نفى القدر أو احتج به على الكفر فقد خسر الدنيا والاخرة وذلك هو الخسران المبين .

عن ابن بريدة قال :

(وردنا المدينة فأتينا عبد الله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ فقلنا : يا أبا عبد الرحمن انا نمعن فى الارض فنلقى قوما يزعمون أن لا قدر . فقال : من المسلمين ؟ ممن يصلى للقبلة ؟ فقال : نعم . ممن يصلى للقبلة . قال : فغضب ، حتى وددت أنى لم أكن سألته . ثم قال : اذا لقيت أولئك فأخبرهم أن عبد الله بن عمر منهم بريئ وأنهم منه براء) (١)

وهذه أمثلة على أثر الايمان بالقدر فى نفوس المؤمنين :

مافتئت الخنساء ـ رضى الله عنها ـ تبكى أخاها صخرا فى الجاهلية .. حتى عميت . وقالت :

ولولا كثرة الباكين حوالى على اخوانهم لقتلت نفسى

وحين أكرمها الله بالاسلام وحضرت معركة القادسية ومعها بنوها أربعة رجال ، وعظتهم وحرضتهم على القتال وعدم الفرار . فلما أصبحوا باشروا القتال واحدا بعد واحد .. حتى قتلوا جميعا . فبلغها الخبر فقالت : (الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم ، وأرجو من ربى أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته) (٢)

---

(١) ابن أبى شيبة : كتاب الايمان ص ٤٠

(٢) ابن أعثم : الفتوح ١/٢٠٦ و ٢٠٧ =

يقول خالد بن الوليد ـ رضى الله عنه ـ : (١)

ما ليلة يهدى الى بيتي فيها عروس أنا لها محب ، أو أبشر فيها بغلام ، أحب الى من ليلة شديدة الجليد فى سرية من المجاهدين أصبح بها العدو . لقد طلبت القتل فى مظانه ـ مواطنه التي يرجى فيها ـ فلم يقدر لى . ولقيت كذا وكذا زحفا ، فما فى جسدى موضع الا وفيه ضربة بسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم . وها أنا ذا أموت على فراشي حتف أنفي كما يموت العير . فلا نامت أعين الجبناء .

فى السنن من حديث أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال :

ذكرت الحمى عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فسبها رجل . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ (لا تسبها فانها تنفى الذنوب كما تنفى النار خبث الحديد) (٢)

يقول الامام ابن القيم ـ رحمه الله ـ :

ذكرت مرة وأنا محموم قول بعض الشعراء يسبها :

زارت مكفرة الذنوب وودعت   تبا لها من زائر ومودع

قالت : وقد عزمت على ترحالها   ماذا تريد ؟ فقلت : ألا ترجعي

فقلت : تبا له . اذ سب ما نهى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن سبه .

ولو قال :

زارت مكفرة الذنوب لصبها   أهلا بها من زائر ومودع

قالت : وقد عزمت على ترحالها   ماذا تريد ؟ فقلت : ألا تقلعي

لكان أولى به ولا قلعت عنه .   فأقلعت عنى سريعا (٣)

= وابن عبد البر : الاستيعاب ٤ / ٢٩٥ - ٢٩٧
وابن حجر : الاصابة ٤ / ٢٨٠ - ٢٨٧
والهاشمي : جواهر الادب ٢ / ٣٩٥ - ٣٩٧

(١) ابن أبى شيبة : المصنف ٥ / ٣٩٧
وابن المبارك : الجهاد ص٥٦ و ٩١
وابن قتيبة : المعارف ص١١٦
وابن حجر : المطالب العالية ٤ / ٨٩

(٢) مسلم ٤ / ١٩٩٣

(٣) ابن القيم : الطب النبوى ص ٢٣

لما جاء معاذة ـ رضى الله عنها ـ نعى زوجها وابنها . جاء النساء . .
فقالت : ان كنتن جئتن لتهنئننا بما أكرمنا الله به فذلك . والا فارجعن . . (١)

اقتضت حكمة الله تعالى ورحمته بعباده أن يحجب عنهم مالا حاجة بهم الى معرفته سلفا ، ومايضرهم علمه ولا ينفعهم ، كمعرفة أعمارهم وأرزاقهم ومايصيبهم من خير وشر .

(ولو أمكن انسانا من الناس أن يعرف الحوادث التى فى الارض والسماء جميعا وطبائعها ، لفهم كيفية مايحدث فى المستقبل) (٢) ولو حدث ذلك ـ وهذا مستحيل شرعا وعقلا ـ لكانت حياته كلها خوفا وقلقا واضطرابا .

فالايمان بالقدر : يدعو المسلم الى العمل الجاد فى كسب الرزق ـ له ولمن يعول ـ " وسخر لكم مافى السماوات ومافى الارض " (الجاثية : ١٣) .
" فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور " (الملك : ١٥) . وهذا الايمان يدفعه أيضا : الى الشجاعة فى مقارعة الاعداء ، بالحجة والبيان وبالسيف والسنان ـ كل مقام بما يناسبه ـ وبالامر بالمعروف وبالنهى عن المنكر ، وبقول كلمة الحق فى الرضا والغضب : لان الحياة والموت بيد الله وحده ، والشجاعة لاتنقص من عمر الانسان لحظة واحدة ، والجبن لايزيد فى العمر ثانية كذلك .

فالموت آت للخلائق كلها فلم المخافة من جراح سنان ؟

والايمان بالقدر : يعمق الايمان فى قلب المسلم ويجعله يوقن بأن الله وحده هو النافع الضار المانع المعطى المعز المذل ، وهذا يدعوه بالتالى للتوكل عليه والاعتماد عليه والخوف منه ، وعبادته حق العبادة ، وتقديم طاعته وأوامره على كل شئ ـ ولو سخط عليه الناس جميعا ـ .

---

(١) ابن المبارك : الجهاد ص ١٢٧
(٢) ابن سينا : النجاة ص ٣٠٢

والايمان بالقدر : يجعل نفس المؤمن راضية مرضية ، مطمئنة لما كان وما هو كائن وما سيكون . وما دام كل شيئ يسير بارادة الله ومشيئته النافذة فلم الوقوع في الشوك الاصغر أو الاكبر ؟ .

ويدعوه كذلك : لعدم اليأس والجزع والقنوط ، وعدم البطر والتكبر وغمط حقوق الاخرين . فقضاء الله للمؤمن - في السراء والضراء - كله خير ، كما جاء في الحديث : " عجبت من قضاء الله للمؤمن . ان أمر المؤمن كله خير وليس ذلك الا للمؤمن : ان أصابته سراء فشكر كان خيرا له ، وان أصابته ضراء فصبر كان خيرا له " (١) .

والايمان بالقدر : يحرر النفس من خوف غير الله عز وجل . فكيف لا تتحرر نفسه من الخوف وهو يقرأ قول الله تعالى : " وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو " (يونس : ١٠٦) وكيف يخاف على انقضاء حياته وهو يقرأ قول الله تعالى : " وما كان لنفس أن تموت الا باذن الله كتابا مؤجلا " (آل عمران : ١٤٥) .

وكيف يخاف على انقضاء رزقه وهو يقرأ قول الله سبحانه : " وفي السماء رزقكم وما توعدون . فورب السماء والارض انه لحق مثلما أنكم تنطقون " (الذاريات : ٢٢ و ٢٣)

وفي غمرة الحياة الدنيا قد يذوق الانسان الفقر ، فيلذع الجوع أعصابه . . وقد يشعر بمرارة الالم والمصائب . . وقد تمر عليه الشدائد والاهوال فيتمنى الموت قائلا - بلسان حاله :

الا موت يباع فأشتريه ... فهذا العيش لا خير فيه

وقد يصاب بفقد عزيز لديه - أحب اليه من نفسه التي بين جنبيه - ، وقد يخسر في تجارته التي يعول من ورائها نفسه وأهله ، وقد يرى عدوه مزهوا منتفشا يتحكم فيه ، وقد يكون غنيا افتقر أو عالما ضاع بين جهال أو عزيزا ذل . . عند ذلك ستضيق عليه الارض بما رحبت ولن يجد ملجأ من الله الا اليه . وفي هذه الحالات وما يماثلها يسكب

---

(١) البنا : الفتح الرباني ١ / ١٢٨

الايمان بقضاء الله وقدره والاستسلام التام لمشيئة الله عز وجل . الطمأنينة والسكينة والهدوء في نفس المؤمن ، فلا ينظر للحياة بمنظار قاتم ، لانه يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وان مع العسر يسرا (ولن يغلب عسر يسرين) .

يقول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في الحديث الصحيح :

قال الله تعالى : اذا ابتليت عبدي المؤمن ولم يشكني الى عواده ، أطلقته من اسارى ثم أبدلته لحما خيرا من لحمه ودما خيرا من دمه ، ثم يستأنف العمل) (١)

(وان القلب اذا ذاق طعم عبادة الله تعالى ، لم يكن عنده شيئ قط أحلى من ذلك ولا ألذ ولا أمتع ولا أطيب) . (٢)

والايمان بالقدر - خيره وشره - يدعو للجرأة في قول الحق وفي مقارعة الاهوال والخطوب، والصمود في وجه الباطل والطغيان .

لان الخلق كلهم لن يدفعوا عنه الموت أو يحولوه عنه اذا حان الاجل : " فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون " (الاعراف : ٣٤) ولا بأس بالموت اذا حان الاجل . وهذا الايمان يزيد من اعتقاد المسلم بألا أحد من دون الله تبارك وتعالى يملك له نفعا ولا ضرا ولا ملكا ولا جاها ولا حياة ولا نشورا . . وهذا يدعو للتوكل على من بيده مقاليد السماوات والارض - وهو يجير ولا يجار عليه - والالتجاء اليه تعالى وحده ، وقصر العبادة عليه . ويدعو كذلك للانفة والعزة وألا يطأطئ رأسه لغير مالك الملك وملك الملوك ، فلا يتطلع لغير السماء ، ولا يشكو مابه الا لمن يملك الاجابة - جل جلاله - :

لا تسألن بني آدم حاجة   وسل الذي أبوابه لا تحجب

فالله يغضب ان تركت سؤاله   وبني آدم حين يسال يغضب .

---

(١) الالباني : الاحاديث الصحيحة ٣/١٤٣

(٢) ابن تيمية : العبودية ص ٩٩

فالايمان بالقدر يدعو المؤمن للصبر ان ضاق عليه رزقه - فقد يكون ذلك ابتلاء له - والسعي لطلب الحلال وعدم تعديه الى الحرام ، وألا يركع - في سبيل الحصول على الرزق - أمام أصحاب الجاه والاموال :

" ما أصاب من مصيبة في الارض ولا في انفسكم الا في كتاب من قبل أن نبرأها أن ذلك على الله يسير . لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم " (الحديد : ٢٢ و٢٣) . وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :

" كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والارض بخمسين ألف سنة . وكان عرشه على الماء) . (١)

والايمان بالقدر يدعو المؤمن لحب الله تعالى وتعظيمه والتسبيح بحمده واجلاله ، لانه عز وجل هداه الى صراط مستقيم ، ويسره لعبادة العليم الحكيم ، فكل ميسر لما خلق له :

عن علي - رضي الله عنه - قال : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ذات يوم جالسا وفي يده عود ينكت به - فرفع رأسه فقال : (ما منكم من نفس الا وقد علم منزلها من الجنة أو النار) . قالوا : يارسول الله . فلم نعمل ؟ أفلا نتكل ؟ قال (لا . اعملوا فكل ميسر لما خلق له) . ثم قرأ : "فأما من أعطى واتقى . وصدق بالحسنى" . الى قوله : " فسنيسره للعسرى " (الليل : ٥ - ١٠) (٢)

والايمان بالقدر أيضا يدعو المؤمن للخوف من الله والدوام على طاعته . . وعدم مخالفة أمره - ومراقبته تعالى ، ودعائه بحسن الخاتمة ، لان القلوب بيد الله يقلبها كيف يشاء ، ولا يدخل انسان الجنة بعمله ، وهذا يدعو المؤمن لعدم الاغترار بعمله ، ويحثه على أن يكون دائما بين الخوف والرجاء :

---

(١) مسلم ٤ / ٢٠٤٤ ، وكان عرشه على الماء : أي قبل خلق السماوات والارض .
(٢) مسلم ٤ / ٢٠٤٠

قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

" ان أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى مايكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها . وأن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى مايكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها" (١)

وقال أيضــا :

(ان قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء) ثم قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك) . (٢)

وقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) :

(لن ينجي أحدا منكم عمله) قال رجل : ولا اياك يارسول الله ؟ قال : (ولا اياي . الا أن يتغمدني الله منه برحمة . ولكن سددوا) (٣)

---

(١) مسلم ٤ / ٢٠٣٦

(٢) مسلم ٤ / ٢٠٤٥ وهذا من أحاديث الصفات يجب الايمان بها من غير تعرض لتأويل ولا لمعرفة المعنى ، بل نؤمن أنها حق وأن ظاهرها غير مراد ، (وكل ما خطر ببالك فالله خلاف ذلك) .

(٣) مسلم ٤ / ٢١٦٩

ومذهب أهل السنة والجماعة : أنه لايثبت بالعقل ثواب ولا عقاب ولا ايجاب ولا تحريم ولاغيرها . . الا بالشرع . والله تعالى لايجب عليه شيء ، بل العالم ملكه والدنيا والآخرة في سلطانه يفعل فيهما مايشاء ، فلو عذب المطيعين أجمعين وأدخلهم النار كان عدلا منه . واذا أكرمهم وأدخلهم الجنة فهو فضل منه ، ولو نعم الكافرين وأدخلهم الجنة كان له ذلك . ولكنه تعالى أخبر ـ وخبره صدق ـ أنه لايفعل هذا بل يغفر للمؤمنين ويدخلهم الجنة برحمته ، ويعذب الكافرين ويخلدهم في النار عدلا منه . وظاهر هذه الاحاديث دلالة لاهل الحق أنه لايستحق أحد الثواب والجنة بطاعته .

وأما قوله تعالى : " ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون " (النحل : ٣٢) =

ومن أثر الايمان بالقضاء والقدر في تربية النفس الانسانية يحدثنا الاستاذ محمد قطب ـ حفظه الله ـ قائلا :

(والايمان بالقدر يؤدي في حياة المؤمن عدة مهام :

فهو من ناحية : يتصل بالايمان بالله تعالى وأنه هو المدبر لكل أمر المتصرف فيه بلا شريك ـ أي أنه متصل بالجانب الاعتقادي من الايمان ـ .

ومن ناحية أخرى : يتصل بسلوك المؤمن في واقع الارض ازاء الاحداث . . وهذا أمر ذو أهمية بالغة ، ويستحق منا وقفة لبيان حقيقته ، بعد أن شوهها واقع المسلمين المنحرف من جهة ، وكلام أعداء الاسلام من جهة ثانية ، وكلام الجهال من المسلمين ـ سواء كانوا من الجهال حقيقة أم من الذين ينقلون كلام أعداء الاسلام ثم يصفون أنفسهم بأنهم مثقفون ـ من جهة ثالثة . ان السلوك الايماني الصحيح هو التسليم لقدر الله . فما معنى التسليم ؟ هل هو ـ كما يقول أولئك الجهال ـ القعود عن العمل وعن تغيير الواقع السيء لانه (قدر من عند الله) لاتنبغي مقاومته ؟ .

ومن أين جاء أولئك الجهال بهذا المعنى الغريب على الاسلام ؟ وهل هذا المعنى كان غائبا عن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يتلقى الوحي من الله ويتعلم الاسلام الصحيح من عند الله ؟ وفيم اذن كان جهاده المتواصل لتغيير الواقع السيء الذي كانت عليه الجزيرة العربية والارض كلها آنذاك ؟ . ألم يكن ذلك الواقع

= وغيرها من الايات فلا يعارض هذه الاحاديث ، بل معنى الايات : أن دخول الجنة بسبب الاعمال ثم التوفيق للاعمال ، والهداية والاخلاص فيها وقبولها برحمة الله وفضله . فيصح أنه لم يدخل بمجرد العمل ـ وهو مراد الاحاديث ـ ويصح أنه دخل بالاعمال أي بسببها وهي من الرحمة .

ومعنى يتغمدني : أي يلبسنيها ويغمدني بها .

ومعنى سددوا : أي اطلبوا الصواب واعملوا به فلا تغلوا ولا تقصروا .

السيئ قدرا من عند الله ؟ فكيف تجوز مقاومته اذن اذا كان معنى التسليم لقدر الله هو هذا المعنى المنتكس الذى لم تعرفه الامة الاسلامية الا فى عصر انحدارها وتدهورها ؟ سيقول قائل منهم : انه (صلى الله عليه وسلم) قاومه وسعى الى تغييره بأمر من الله . ونقول : نعم . وهذا الامر من الله قائم من ذلك الحين ومستمر الى أن تقوم الساعة .. لم يطرأ عليه تعديل ولا تبديل . ولم يقل الله ان هناك أمرا معينا يطالب الناس فيه بالتغيير ثم يبطل بعد ذلك الامر ويجيئ بدلا منه التسليم للواقع السيئ والقعود من تغييره .

وانما قال سبحانه وتعالى :

"وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون" (التوبة : ١٠٥) .

انما التسليم لقدر الله معنى آخر مختلف تماما .. فهمه الرسول (صلى الله عليه وسلم) وفهمه منه الصحابة (رضوان الله عليهم) فكانت منهم تلك الامة الفريدة التى وصفها خالقها بقوله "كنتم خير أمة أخرجت للناس" (آل عمران : ١١٠) ، والتى صنعت بايمانها بالله وقدر الله ذلك التاريخ الفذ فى تاريخ البشرية كله .

فهم منه الرسول (صلى الله عليه وسلم) أنه يجاهد ويجاهد ويجاهد .. ثم حين لا يؤمن كفار قريش بعد هذا الجهاد كله ، فذلك قدر من الله لا حيلة له فيه ولا مسئولية عليه . "انك لا تهدى من أحببت" (القصص : ٥٦) . ولقد كان صعبا على نفس الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يدعوهم فيعرضوا وهو الذى يحب لهم الخير . وكان الاسى يملا قلبه الكريم عليهم ، حتى ليواسيه الله تعالى "لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين" (الشعراء : ٣) .

ولكنه فى النهاية يعلم أنه قدر من الله فيستسلم لهذا القدر .. ؟ بمعنى ماذا ؟ بمعنى أن يكف عن الجهاد والدعوة ؟ .

ان هذا لم يحدث قط .. والتاريخ معروف ، وسيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) معروفة .. انما بمعنى أن يخف الالم الذى يسببه له اعراض المعرضين

فلا يعود ذلك الالم القاتل " لعلك باخع نفسك" ثم يمضي في طريقه لا يكف لحظة عن الجهاد . .

كذلك فهم منه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه يجاهد ويجاهد ويجاهد . . ثم يتلقى الاذى من قريش وغيرهم من كفار العرب ، ويتلقى أتباعه المؤمنون به التشريد والتعذيب ـ الذى يفوق الطاقة ـ دون أن يستطيع تغيير الوضع ولا كف الاذى عن المؤمنين فيعلم أن هذا قدر من الله فيستسلم له . . بمعنى ماذا ؟ بمعنى أن يكف عن الجهاد والدعوة ، أو يكف أتباعه عن الايمان ؟ . كلا . انما بمعنى أن ترضى نفوسهم وهو يتلقون الاذى والتعذيب ، ويعلمون أن الله تعالى قادر على نصرهم اذا شاء ، ولكن قدره شاء الان أن يبتليهم . . فليصبروا . . ولا تتحطم أرواحهم تحت الضغط . . ولا يتخلوا عن عقيدتهم ولا عن التصميم عليها حتى يغير الله مابهم بقدر جديد ، فينصرهم على الكافرين . . . وكيف نفذ القدر الجديد ؟ انه قدر من عند الله ، نعم هو الذى نصرهم ـ ببدر ـ وهم أذلة . . ولكن كيف كان تصرفهم بهذا القدر ؟ هل قعدوا فى بيوتهم وقالوا : اذا كان الله قدر لنا النصر فسينصرنا ولا حاجة بنا الى العمل والجهاد والمشقة ؟ . هل ذكر التاريخ شيئا من ذلك فى حياة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه ؟ أم ذكر التاريخ لهم الجهاد المتواصل لنصرة الحق ، وهم الذين وعدوا وعدا صريحا بالنصر ، فعلموا أن قدر الله لهم هو النصر ؟ وهكذا يكون الاستسلام لقدر الله ـ فى معناه الصحيح ـ حافزا لمزيد من الجهد ، لانه يصون الطاقة أن تتحطم ازاء الاحداث ، ويصون النفس أن تنكسر من الحزن والغم فتقعد عن المسير .

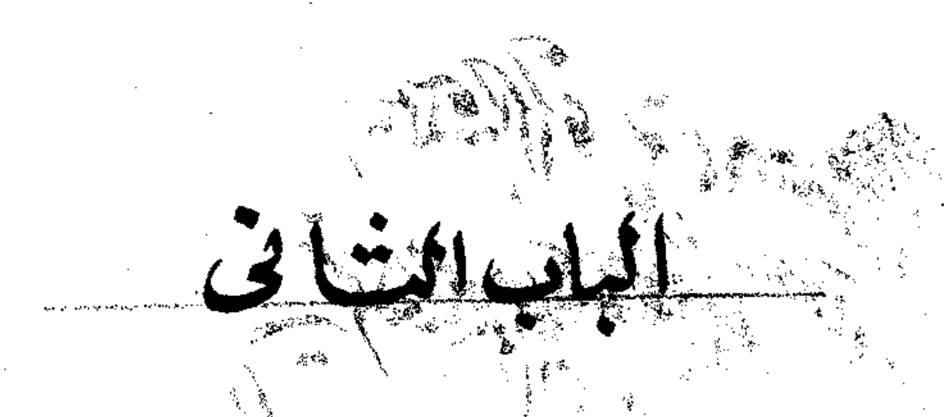
ولم يفهم المسلمون كذلك أن الاستسلام لقدر الله معناه اعفاء أنفسهم من التبعة اذا كان قدر الله قد أصابهم بسبب خطأ وقع منهم . انما يستسلمون لقدر الله ـ أى يرضون نفسيا بوقوعه مادام قد وقع بالفعل ـ ثم يدركون مسئوليتهم فى وقوعه فلا يعودون لهذا الخطأ مرة أخرى ، ثم يحاولون أن يمحوا آثاره بجهد يبذلونه

من عند أنفسهم ، ليستحقوا قدرا جديدا من عند الله تعالى بغير الشر الى خير..

هذا هو المعنى الصحيح للايمان بالقدر ، وذلك هو أثره في نفوس المؤمنين به : دفعة هائلة للحركة والجهاد في واقع الارض ، هي التي كتبت ذلك التاريخ الزاخر لامة الاسلام . . فأما حين بدأت الامة تنحرف عن التصور الصحيح للاسلام ، وتنحرف كذلك عن السلوك الصحيح ، فقد وقع ذلك الانحراف في عقيدة القضاء والقدر ، الذي يحسبه الجهال هو الاسلام . (١)

---

(١) محمد قطب : دراسات قرآنية من ص ٩٣ ـ ٩٨ باختصار .



الباب الثانى

ارتكاز التوجيهات السياسية والحربية والاقتصادية والأخلاقية التى تنظم حياة المجتمع على العقيدة الاسلامية

تمهيـــد :

شاءت ارادة المولى جل وعلا أن يكون الانسان من بين مخلوقاته ــ خليفة فـي هذه الأرض : " اني جاعل في الارض خليفة" (البقرة : ٣٠) .

والغاية من أيجاده هي العبادة : " وما خلقت الجن والانس الا ليعبـــدون" (الذاريات : ٥٦) .

واقتضت ارادة الله ــ سبحانه وتعالى ــ كذلك أن تكون الشريعة الاسلاميـــة خاتمة الشرائع السماوية ببعثة النبي الخاتم محمد بن عبد الله ــ صلوات الله وسلامـــه عليه ــ :

عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : أنـــا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحى بي الكفر وأنا الحاشر الذي يحشر النـــاس على عقبي وأنا العاقب . والعاقب الذي ليس بعده نبي .(١)

وفي رواية أخرى :

"وأنا العاقب الذي ليس بعده أحد" . وقد سماه الله رؤوفا رحيما .(٢) وهـــذه الرسالة التي جاء بها خاتم الأنبياء والمرسلين (صلى الله عليه وسلم) هي الوسيلـــة الوحيدة ــ منذ بعثته حتى يرث الله الأرض ومن عليها ــ للهداية والسعادة والفـــلاح في الحياة وبعد الممات .

ولأن هذه الشريعة جاءت للعالمين الى يوم الدين ، فانها صالحة لكل زمـــان ومكان ، ووافية بجميع متطلبات الحياة الدينية والدنيوية .

(١ ، ٢) مسلم ٤/١٨٢٨

والعاقب : أي جاء عقبهم ، والعاقب والعقوب : الذي يخلف في الخـــير من كان قبله ، ومنه عقب الرجل : لولده .

وقد سماه الله رؤوفا رحيما : قال تعالى " لقد جاءكم رسول من أنفسكـــم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم" (التوبة : ١٢٨)

وجاءت هذه الشريعة ـ التي رضيها الله تعالى للبشرية ولايرضى غيرها بعد البعثة المحمدية ـ بالأسس والقواعد والمبادئ والتوجيهات والأصول التي تلبي حاجات الانسان ـ الروحية والمادية معا ـ وتتناسب أيضا مع الفطرة الانسانية السوية ٠

وما جاء به محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من عند ربه هو عقيدة وشريعة ، شريعة منبثقة من عقيدة ، وعقيدة مترجمة الى شريعة ٠

أو بمعنى آخر : منهج حياة ٠ نزل من عند العليم الخبير ليوجه البشر في جميع شؤونهم وليحكم الحياة في شتى نواحيها ٠

وتتوقف سعادة البشرية أو شقاوءها وفوزها أو خسرانها ـ في الدنيا والآخرة ـ على موقفها من تعاليم هذا الدين وأخذها به كلية أو اعراضها عنه :

" فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ٠ ومن أعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى " (طه : ١٢٣ ، ١٢٤)

وأحكام هذا الدين العظيم وشرائعه مستوفاة ومقررة وغير قابلة للتغيير أو التبديل أو التحريف أو الزيادة أو النقص أو النسخ أو التعديل ٠

وهذا لايعني بالطبع جمود الحياة ـ والأحياء ـ على نمط معين أو قالب محدد ٠ فالحياة متطورة والظروف متغيرة ، ولكن أصول الشريعة ثابتة خالدة الى يوم الدين ٠

وقد فتح الاسلام الباب للاجتهاد والاستنباط فيما لم يرد فيه نص ـ من كتاب أو سنة ـ ، وهذا الاجتهاد من حق العلماء فقط ، ولم يحدد الاسلام تفاصيل النظام السياسي أو النظام الاقتصادي أو النظام الحربي أو النظام الثقافي ـ التعليمي ـ أو النظام التربوي ٠٠ فتذروه الرياح أو تجرفه الأعاصير بتغير الزمن وتبدل الأوضاع وتقلب الظروف ٠ ولكنه وضع أصولا عامة وقواعد ثابتة منطلقة من أهدافه الفاضلة وغاياته السامية ومن نظرته العامة للحياة والكون والانسان ٠

وترك الاسلام الجزئيات والتفاصيل وما تنتجه هذه الأصول من تطبيقات تركها

للعلماء يجتهدون فيها ـ من خلال فهمهم لروح الشريعة ومضمونها ـ حسب اختلاف الزمان والمكان والمجال .

والكتاب الكريم ـ والسنة مفسرة له ـ هو الذي يرجع اليه حين التنازع والخلاف .

ولا يحق لأحد ـ حاكم أو غني : أو فقيه أو كبير أو شريف أو ... أن يشرع للناس من عند نفسه ، فهذا كفر مخرج من الملة ! فما ورد في الكتاب والسنة يجب الأخذ به كما ورد .

ومالم يرد في الكتاب والسنة فهو متروك لاستنباط واجتهاد علماء المسلمين .

وقد جاء في الشريعة الاسلامية أشياء كثيرة يمكن للعالم أن يستخرج مقاصدها وأهدافها وعللها ـ مراعيا ظروف الزمان والمكان والأحوال ـ بشرط أن يكون ذلك نابعا من روح الشريعة وغاياتها .

وهذا الاجتهاد فيما سكتت عنه الشريعة متروك لأهل الشورى وللحاكم المسلم أن يطبقه على رعيته بعد أخذ رأى أهل الحل والعقد .

أما ما ورد فيه نص ـ في الكتاب الكريم أو السنة المطهرة ـ فلا يحق لأهل الشورى ـ ولا لأى كان ـ التدخل فيه بالتغيير أو التبديل أو الزيادة أو النقص .

والهدف من اباحة الاجتهاد فيما ليس فيه نص : هو التوسعة على المسلمين ، ومراعاة ظروفهم وأحوالهم في كل زمان ومكان ، لأن هذه الشريعة لم تنزل لأناس معينين أو لمكان محدد أو لقوم أو لجنس أو للون .. بل نزلت للثقلين في شتى العصور . فترك الاسلام المجال واسعا لصياغة ما يحتاجه الناس في كل عصر ومصر ضمن دائرة الشريعة ووفق أهدافها الربانية السامقة .

فما يتفرع عن ركائز الاسلام من جزئيات ـ تركت للاجتهاد ـ هي من الاسلام .

يقول الاستاذ سيد قطب ـ رحمه الله ـ :

" من الخاصية الأساسية للتصور الاسلامي ـ خاصية الربانية ـ تنبثق سائر الخصائص الأخرى. وبما أنه رباني صادر من الله ، فوظيفة الكينونة الانسانية فيه هى التلقـى والاستجابة والتكيف والتطبيق فى واقع الحياة . وبما أنه ليس نتاج فكر بشرى، ولا بيئة معينة ، ولا فترة من الزمن خاصة ، ولا عوامل أرضية على وجه العموم .. انما هـو ذلك الهدى الموهوب للانسان هبة لدنية خالصة من خالق الانسان ، رحمة بالانسان .. بما أنه كذلك . فمن هذه الخاصية فيه تنشأ خاصية :

" الحركة داخل اطار ثابت حول محور ثابت " .

" هناك ثبات في مقومات هذا التصور الأساسية وقيمه الذاتية . فهى لا تتغيـر ولا تتطور ، حينما تتغير ظواهر الحياة الواقعية ، وأشكال الاوضاع العملية .. فهذا التغيير فى ظواهر الحياة يظل محكوما بالمقومات والقيم الثابتة لهذا التصور ..

ولا يقتضى هذا تجميد حركة الفكر والحياة . ولكنه يقتضي السماح لها بالحركة ـ بل دفعها الى الحركة ـ ولكن داخل هذا الاطار الثابت ، وحول هذا المحـور الثابت ..

" وهذه السمة هي طابع الصنعة الالهية في الكون كله ـ فيما يبدو لنا ـ لا فى التصور الاسلامى وحده .

مادة هذا الكون ثابتة الماهية . ولكنها تتحرك ، فتتخذ أشكالا دائمة التغيـر والتحور والتطور .

" وانسانية هذا الانسان ، المستمدة من كونه مخلوقا فيه نفخة ـ من روح اللـه اكتسب بها انسانيته المتميزة عن سائر طبائع المخلوقات حوله .. انسانية ثابتة . ولكن هذا الانسان يمر بأطوار جنينية شتى من النطفة الى الشيخوخة ، ويمر بأطوار اجتماعية شتى ، يرتقى فيها وينحط حسب اقترابه وابتعاده من مصدر انسانيتـه .. ولكن هذه الأطوار كلها لا تخرجه من حقيقة انسانيته الثابتة ونوازعها وطاقاتهـا

واستمداداتها المنبثقة من حقيقة انسانيه •

" ونزوع هذا الانسان الى الحركة لتغيير الواقع الأرضي وتطويره •• حقيقة ثابتة كذلك •• منبثقة أولا من الطبيعة الكونية العامة ، الممثلة في حركة المادة الكونية الأولى وحركة سائر الأجرام في الكون • ومنبثقة ثانيا من فطرة هذا الانسان • وهي مقتضى وظيفته في خلافة الأرض • فهذه الخلافة تقتضى الحركة لتطوير الواقع الأرضي وترقيته •• أما أشكال هذه الحركة فتتنوع وتتغير وتتطوع• (١)

" وهكذا تبدو سمة : الحركة داخل اطار ثابت حول محور ثابت سمة عميقة في الصنعة الالهية كلها • ومن ثم فهي بارزة عميقة في طبيعة التصور الاسلامى •

" ان كل ما يتعلق بالحقيقة الالهية ـ وهى قاعدة التصور الاسلامي ـ ثابت الحقيقة ، وثابت المفهوم ايضا • وغير قابل للتغيير ولا للتطوير • لتتحرك ظواهر الحياة واشكال الأوضاع فى اطارها ، وتظل مشدودة اليها • ولتراعى مقتضياتها في كل تطور لأوضاع الحياة ، وفي كل ارتباط يقوم في المجتمع ، وفي كل تنظيم لأحوال الناس أفرادا وجماعات ، فى جميع الاحوال والأطوار •

" وقد تتسع المساحة التى تتجلى فيها مدلولات هذه المقومات والقيم ، كلما اتسعت جوانب الحياة الواقعية ، وكلما اتسع مجال العلم الانسانى ، وكلما تعددت المفاهيم التى تتجلى فيها هذه المقومات والقيم • ولكن أصلها يظل ثابتا • وتتحرك فى أطاره تلك المدلولات والمفاهيم •

" وهذا يقتضى الا يحال بين الانسان ومزاولة حقه في الخلافة وفق منهج الله المرسوم • وألا يعلوا شيء في هذه الارض على الانسان • والا تهدر قيمته الانسانية لينشيء قمرا صناعيا ، أو ليضاعف الانتاج المادي! فهو سيد الأقمار الصناعية ، وسيد الانتاج المادي!" (٢)

---

(١) انظر : محمد قطب كتاب معركة التقاليد ص ٨٤ ، ٨٥

(٢) سيد قطب : خصائص التصور الاسلامى من ص ١٢٠ ـ ١٢٢ باختصار •

وننقل فيما يأتى الكلام القيم للاستاذ المبارك ـ رحمه الله ـ الذى بين فيه هـــذه الحقائق المتعلقة ببحثنا هذا :

" التشريع مصدره القرآن والسنة فيما حدد فيهما ، وليس الحاكم اولا الشعـــب مطلق الحرية في التشريع كما يشاء ، بل كلاهما مقيد حسب اعتقادهما الاسلامـى بما شرعه الله تعالى ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من شريعة .

" والمحدد في الكتاب والسنة بعضه كليات ومبادئ عامة تفسح المجال لتشريـع اجتهادى زمنى تنفيذا لها . وهذا شأن أكثر مبادئ الحكم وأكثر العقوبات علـى الجرائم والمخالفات وكثير من القواعد الاقتصادية . وبعضه الآخر أحكام تفصيليـــة محددة لامجال لتغييرها وان كان ثمة مجال للنظر في كيفية تطبيقها أحيانـــا أو تقييدها بقيود قد توجبها المصلحة .

" والتشريع الاجتهادى مستمر غير منقطع ، ويشمل الأمور التى تركها الشرع ولـم ينص عليها والأمور التى وضع فيها قواعد عامة وترك تفصيلها وجميع التنظيمات الـــتى تدخل في صلاحية الحاكم ولي الأمر في تقييد بعض المباحات أو منعها أو ايجابهـــا حينما توجب المصلحة ذلك .

" ان هذه الأمور تدخل فى الاصطلاح الحديث تحت عنوان التشريع . والعلماء السابقون لم يكونوا يعتبرونها تشريعا باعتبار أنها تستند في الاصل الى تشريع منصوص في الكتاب والسنة . ولذلك ينبغي الانتباه الى اختلاف الاصطلاح .

" ان هذا النوع من التشريع يقوم به (الامام) نفسه رئيس الدولة اذا كان عالمـا مجتهدا بعد استشارة العلماء وأهل الخبرة في الموضوع المبحوث .

" ويمكن فى عصرنا الحاضر أن يعهد بذلك الى هيئة تشريعية تتألف مـــن العلماء بالشريعة والخبراء بالموضوعات التى يشرع لها من مختلف أهل المهن ." (١)

---

(١) المبارك : نظام الاسلام (الحكم والدولة) ص ٧٩ و ٨٠ .

ويقول الاستاذ عبد العظيم شرف الدين :

" أتى التشريع الاسلامي بقواعد كلية صالحة للتطبيق في كل حين ، ولم يأت القرآن بأحكام جزئية لحوادث فردية . وهذه المبادئ لاتناقض بينها لأنها من عند الله المنزه عن النقص ، وقد قال تعالى : " أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا " . (النساء : ٨٢)

" والفقه الاسلامي هو مافهمه المجتهدون من الأحكام الشرعية العملية ، سواء شرعت هذه الأحكام عن طريق النصوص الشرعية أو الاجماع أو استنباط المجتهدين من النصوص الشرعية .

والجانب الكبير من الفقه الاسلامي جاء وليدا لاجتهاد المجتهدين هذا الاجتهاد الذى لم يغفل الظروف والبيئات والمناسبات . فكانت الفتوى تختلف وتتغير الاستنباط حسب اختلاف البيئات ، فالفقهاء يختلفون في فهم النص الشرعي وان كان مراد الله من النص واحدا .

والخلاف فى الفقه الاسلامى هو خلاف في فهم النص الشرعي وفي تطبيق نصوصه ومبادئه على ماجد من الحوادث . وان الخلاف في الاجتهاد امر طبعى وله فائدة عظيمة ، وقد أذن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لاصحابه بالاجتهاد وأذن للمسلمين في اتباعهم .

واختلاف الاجتهاد في الفقه الاسلامى فيه سعة ، ولو كان القول واحدا لوقع الناس فى حرج وضيق .

وقد كان المجتهدون يختلفون لاختلافهم فيما بلغهم من أحاديث الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

والشريعة لاتعالج أحكام الحوادث الجزئية وانما تأتي فى صورة مبادئ عامة لأن الحوادث الجزئية لاتنحصر وكل يوم تأتي بجديد منها ، فلو جاءت بذلك لوقع

الناس في حرج اذا ماجدت لهم حوادث جديدة . (١)

وسنتحدث فيما يأتي - باذن الله تعالى - : عن مفهوم الخلافة في الاسلام

. وسنعرض من خلال ذلك تعريفات العلماء للخلافة . ثم نبين أسس الحكم الاسلامي :

مبتدئين الحديث عن الحاكمية - وسنعرج للحديث عن الحكم بغير ما أنزل الله -.

وسنتحدث عن انتخاب الامة للخليفة .

ثم نتحدث عن الطاعة . وعن الشورى . وعن العدل والمساواة . - وما يتعلق

بهذه الأسس الهامة .-

وسنورد نماذج من سيرة الفاروق عمر - رضى الله عنه - كنموذج للحاكم المسلم .

وأمثلة حية من واقع حياة المسلمين السياسية .

---

(١) عبد العظيم شرف الدين : تاريخ التشريع الاسلامي ص ٢٢١ ، ٢٢٢ بتصرف يسير .
وانظر محمد يوسف موسى : تاريخ الفقه الاسلامي ١ / ١٠ - ١٥
ومناع القطان : التشريع والفقه في الاسلام ص ١٥
وعبد الوهاب ابو سليمان : دراسات في الفقه الاسلامي ص ٥ و ٤٥ .

الفصل الأول

التوجهات السياسية

تمهيد :

لما كان الانسان ـ كما فطره الخالق العظيم ـ مدنيا بطبعه[1]، يألف ويؤلف، ولا يستطيع أن يعيش منعزلا عن غيره من بني جنسه ، وذلك لطبيعة تركيبه ، كان ضروريا بناء علاقات بينه وبين الناس للقيام بشئون الحياة الدينية والدنيوية ، وحتى تسير دفة الحياة بانتظام .

وهذه العلاقات لايمكن أن تسير في المسار الصحيح الا بوجود هيئة حاكمة تقوم بالدين والدنيا معا . (٢)

واذا لم تكن هذه الهيئة قائمة في حياة المسلمين :

فمن يقوم بنشر وحماية العقيدة الاسلامية بين الناس؟ومن يقوم باقامة الحدود والاخذ على يد الظالم والانتصار للمظلوم ؟ ومعروف أن الله يزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن ! ومن يقوم بازالة المنكرات والحث على الخيرات والامر بالطاعات واقامة الجمعة والجماعات .. اذا لم تقم هذه الدولة في الوجود والشهود .؟

ومن يقوم بالجهاد في سبيل الله ـ بجميع أنواعه ـ ؟

لقد أوجب الاسلام أن يكون هناك رب للاسرة ، يكون الرجل فيها هو المسؤول الكبير في هذه المملكة الصغيرة .. فما بالك بالاسرة الاسلامية التى تشمل كثيرا من الأجناس والأوطان ؟

---

(١) يقول العلامة ابن خلدون : (ان الاجتماع الانساني ضروري . ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم : الانسان مدني بالطبع ، أى لابد له من الاجتماع الذى هو المدنية في اصطلاحهم ، وهو معنى العمران ..)
انظر مقدمة ابن خلدون ص ٣٩ .

(٢) ملاحظة : ذهب الجمهور الى وجوب الامامة ، انظر :
الشوكاني : نيل الاوطار ٨/٢٨٨
والشنقيطي : أضواء البيان ١/٥٠

تعريف الخلافـــة :

الخلافة الاسلامية أو السياسة الشرعية أو نظام الحكم الاسلامـــي أو الامامة أو الولاية أو نظام الاسلام السياسى .. كل هذه الالفاظ تؤدى معنـــى واحدا في المفهوم الاسلامى .

وهذه تعريفات مختلفة للخلافة :

يقول العلامة ابن خلدون :

(الخلافة : هى حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخرويـــة والدنيوية الراجعة اليها . اذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع الى اعتبارهـــا بمصالح الآخرة . فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين وسياسة الدنيـا به)(١)

ويقول الشيخ الكتاني :

(الخلافة : هي الرياسة العظمى والولاية العامة الجامعة القائمة بحراســـة الدين والدنيا)(٢)

ويقول الشيخ الخضـرى :

(الخلافة : هى مقام نيابة عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ في حراســـة الدين وسياسة الدنيا)(٣)

ويقول الأستاذ محمد العربي :

(نظام الحكم الاسلامى : هو تلك الأصول والمبادئ الكلية التى فرضها القرآن والسنة فى تنظيم شؤون الحكم . تلك الأصول والمبادئ التى طبقت فى صدر الاسلام تطبيقا واقعيا مستقيما على ضوء ظروف البيئة ومقتضيات العصر)(٤)

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ١٠٨

(٢) الكتاني : نظام الحكومة النبوية ١ / ٢

(٣) محمد الخضرى : اتمام الوفاء ص ١٠٨

(٤) محمد العربي : نظام الحكم فى الاسلام ص ٢٣

وبايجاز : (الخلافة هي الحكم بما أنزل الله ، عقيدة وشريعة) .

وهذا التعريف المختصر : يشمل الدين والدنيا والآخرة . وكل ما فيه صلاح الأمة وما يؤدى لسعادتها في الدارين .

ويشمل القواعد والتوجيهات التى يجب أن تلتزم بها الهيئة الحاكمة وطريقة ممارستها للحكم ، ويربط الفرد والدولة والمجتمع بالاسلام وفق شريعة الله .

ويشمل اقامة الشريعة والدفاع عنها وحملها الى البشرية .

ويحدثنا الامام ابن تيمية عن مفهوم الولاية في الاسلام قائلا :

« اعلم أن جميع الولايات في الاسلام مقصودها : أن يكون الدين كله لله ، وأن تكون كلمة الله هي العليا .

والله تعالى انما خلق الخلق لذلك ، وبه أنزل الكتب ، وبه أرسل الرسل ، وعليه جاهد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمؤمنون :

" وماخلقت الجن والانس الا ليعبدون " (الذاريات : ٥٦) .

وقد أخبر عن جميع المرسلين أن كلا منهم قال لقومه :

" اعبدوا الله مالكم من اله غيره " (هود : ٥٠ ، ٦١ ، ٨٤)

وعبادته عز وجل تكون بطاعته وطاعة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وذلك هو الخير والبر والتقوى والحسنات والقربات والباقيات الصالحات والعمل الصالح .

وهذا هو الذي يقاتل عليه الخلق ، كما قال تعالى : " وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله " (البقرة : ١٩٣) .

وكل بني آدم لاتتم مصلحتهم ـ لا في الدنيا ولا في الاخرة ـ الا بالاجتماع والتعاون والتناصر :

فالتعاون : على جلب مصالحهم . والتناصر : لدفع مضارهم ، فاذا اجتمعوا فلا بد لهم من أمور يفعلونها يجتلبون بها المصلحة ، وأمور يجتنبونها لما فيها من المفسدة ، ويكونون مطيعين للآمر بتلك المقاصد والناهي عن تلك المفاسد .

واذا كان جماع الدين وجميع الولايات هو أمر ونهي ، فالامر الذي بعث الله به رسوله (صلى الله عليه وسلم) هو الامر بالمعروف . والنهي الذي بعثه به هو النهي عن المنكر ، وهذا واجب على كل مسلم قادر » . (١)

---

(١) ابن تيمية : الحسبة في الاسلام من ص ١٤ ـ ٢١ باختصار

ويقول العلامة ابن القيم :

(فالسياسة العادلة فرع من فروع الشريعة ، من أحاط علما بمقاصدها ووضعها موضعها وحسن فهمه فيها لم يحتج معها الى سياسة غيرها البتة) (١)

ويلزم الامام من أمور الامة عشرة أشياء هي :

(حفظ الدين على الاصول التي أجمع عليها سلف الامة ، فان زاغ ذو شبهة عنه بين له الحجة وأوضح له الصواب ، وأخذه بما يلزمه من الحقوق والحدود ، ليكون الدين محروسا من الخلل والامة ممنوعة من الزلل ثم تنفيذ الاحكام بين المتشاجرين وقطع الخصام بينهم .

ثم حماية البيضة والذب عن الحوزة ، ليتصرف الناس في المعايش وينتشروا في الاسفار آمنين .

ثم اقامة الحدود ، لتصان محارم الله تعالى عن الانتهاك وتحفظ حقوق عباده من اتلاف واستهلاك .

ثم تحصين الثغور بالعدة المانعة والقوة الدافعة ، حتى لا تظفر الاعداء بغرة ينتهكون بها محرما ويسفكون فيها دما لمسلم أو معاهد .

ثم جهاد من عاند الاسلام بعد الدعوة حتى يسلم أو يدخل في الذمة .

ثم جباية الفيء والصدقات على ما أوجبه الشرع نصا واجتهادا من غير عسف .

ثم تقدير العطاء وما يستحق في بيت المال من غير سرف ولا تقصير فيه ، ودفعه في وقته .

ثم استكفاء الامناء وتقليد النصحاء فيما يفرضه اليهم من الاعمال ويكله اليهم من الاموال ، لتكون الاعمال مضبوطة والاموال محفوظة .

وأن يباشر بنفسه مشارفة الامور وتصفح الاحوال ليهتم بسياسة الامة وحراسة الملة ، ولا يعول على التفويض تشاغلا بلذة أو عبادة ، فقد يخون الامين ويغش الناصح) (٢)

---

(١) ابن القيم : الطرق الحكمية في السياسة الشرعية ص ٤ .

(٢) الفراء : الاحكام السلطانية ص ٢٧ ، ٢٨ بتصرف يسير .

وانظر حقوق المحكومين على الدولة في كتاب المودودي : الخلافة والملك من ص ٢٧ ـ ٣٠ .

((أسس الحكم الاسلامي))

الحاكمية :

من المعروف بداهة أن الله تبارك وتعالى هو الخالق الرازق المعز المذل المحيي المميت النافع الضار بيده مقاليد السماوات والارض وهو على كل شيء قدير .

فبما أن الله تعالى وحده هو خالق كل شيء ومالكه ورازقه فيجب أن يكون وحده ـ عز وجل ـ المشرع والمتصرف والآمر والناهي والمعبود والمطاع :

" الا له الخلق والامر تبارك الله رب العالمين " (الاعراف : ٥٤) .

والبشر مستخلفون فى الارض وفق ما أراد الله تعالى :

" وهو الذى جعلكم خلائف الارض " (الانعام : ١٦٥) .

" هو أنشأكم من الارض واستعمركم فيها " (هود : ٦١) .

وقد اعترف الناس ـ على كر الدهور ـ بأن الله تعالى وحده هو الخالق الرازق :

" قل من يرزقكم من السماء والارض أم من يملك السمع والابصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الامر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون" (يونس: ٣١) .

" ولئن سألتهم من خلق السماوات والارض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون " (العنكبوت : ٦١)

ولكن كثيرا من الناس لم يعترف بأن لله وحده الامر !

فبعث الله ـ سبحانه ـ أنبياءه ورسله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ لتقرير هذه الحقيقة :

" ألم تر الى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا ، واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك

صدود ا .وما أرسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله ولو أنهم اذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما • فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما" (النساء : ٦٠، ٦١، ٦٤، ٦٥) •

" ان الحكم الا لله أمر ألا تعبدوا الا اياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون " (يوسف : ٤٠) •

" وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا " (الاحزاب : ٣٦)

ومن سلم بأن لله تعالى الخلق والامر فعليه ان يسلم بواجب العبودية على الخلق، من الطاعة المطلقة لرب العالمين فى كل الامور ،وقصر الحاكمية والتشريع عليه تعالى وحده ،والعبادة له مع المحبة ،والخضوع له مع التذلل ،والخوف منه مع الرجاء، والانابة اليه مع التوبة ،والاستسلام التام لارادته ومشيئته ، فهو جل وعلا :

" لايسأل عما يفعل وهم يسألون " (الانبياء : ٢٣) •

فالاعتراف بالالوهية يستلزم العبودية الخالصة لله عز وجل :

" واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا " (النساء : ٣٦)

والاعتراف ببشرية البشر وأنهم عباد لاله واحد يعنى بمساطة افراده تعالى بالعبادة ــ كما شرع ــ والتوكل والنذر والدعاء والاستغاثة والمحبة والخوف والرجاء •

(وان القلب ــ كما يقول شيخ الاسلام ابن تيمية ــ اذا ذاق طعم عبادة الله والاخلاص له لم يكن عنده شيء قط أحلى من ذلك ولا ألذ ولا أمتع ولا أطيب) (١)

---

(١) ابن تيمية : العبودية ص ٩٩ •

والعبودية ــ وهى طاعة الله تعالى باتباع أوامره واجتناب مناهيه والاستسلام لـــه مع المحبة ــ هى حق الله الحكيم المجيد على خلائقه العبيد ، وهى أشرف منـــازل السائرين الى مالك يوم الدين ، وهى شاملة لكل مايتعلق بالانسان فى الحياة وبعـــد الممات ، ولذلك كان من دعاء المسلمين :

" ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الاخرة حسنة وقنا عذاب النار " (البقرة: ٢٠١)

والعبودية الحقة لله ــ سبحانه ــ هى خير مايتنافس فيه المتنافسون ، وكلما ازداد المرء منها ازداد تقربـا من الله عز وجـل .

وقد وصف المولى ــ تبارك وتعالى ــ بها خيرة الخلق محمد (صلى الله عليه وسلم) فى أرفع المقامات فقـال :

" سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير " (الاسراء : ١) .

ووصف بها ملائكتـــه الاطهار بقولـــه :

" بل عباد مكرمون " (الانبياء : ٢٦) .

ووصف بها المؤمنين بقوله :

" وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالـوا سلامـا " (الفرقان : ٦٣) .

وهؤلاء العباد ــ الذين حققوا واجب العبودية ــ من دون العبيد ، ليـــس للشيطان وأعوانه من سلطان عليهم :

" قال رب بما أغويتنى لازينــن لهم فى الارض ولاغوينهم أجمعين . الا عبـــادك منهم المخلصـين . قال هذا صراط على مستقيم . ان عبادى ليس لك عليهم سلطـان الا من اتبعك من الغاوين " (الحجر : ٣٩ ــ ٤٢) .

ولله در القائـــل :

وما زادني شرفا وتيهـــــا   وكدت بأخمصي أطأ الثريـــا

دخولي تحت قولك ياعبـــادي   وأن صيرت أحمد لي نبيـــا

وان من الحقائق المسلمة • أن للناس ــ من آمن منهم ومن كفر ــ مناهج يسيرون عليها في حياتهم ،اما المنهج الالهي الذي رضيه الله عز وجل لعباده على مــر العصور ،وهو الاسلام :

" ان الدين عند الله الاسلام " (آل عمران : ١٩) •

" اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا " (المائدة : ٣) •

واما مناهج الجاهلية بمختلف أنواعها ، التي حمل لواءها ابليس اللعين وذريته من الشياطين وأولياؤه من العالمـــين •

وكلا المنهجين منهج حياة !

وفي الحالين تقع العبادة من الانسان ،ولكنها تختلف ،فاما عبادة لله تعالـــى وحده ، واما عبادة للطاغوت ،وشتان بين عبودية الخالق وعبودية المخاليق !

فالاولى : عبادة الاله الرب الرازق المحيي المميت المعز المذل النافع الضــار •

والثانية : عبادة الذين لايملكون لانفسهم ولا لغيرهم نفعا ولاضرا !

وليس المراد من هذه العبودية ــ لغير الله ــ تقديم الشعائر التعبدية للطغاة أو الشياطين أو الشهوات • • بل هي طاعتهم أو محبتهم أو الركون اليهم أو شـــرح الصدور لما جاؤوا بـــه •

وشتان بين نتيجة العبوديتـــين !

أما مصير عبادة الموحد في الدنيـــا :

فهي السعادة والطمأنينة والعزة والانفة والاستعلاء والنصر ــ أو الشهادة ــ •

وفـــى الاخـــرة :

النجاة من النار والفوز بالجنة ورضوان من الله أكبر :

قال تعالى :

" ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولاتحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون • نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الاخرة ولكم فيها ماتشتهى أنفسكم ولكم فيها ماتدعون • نزلا من غفور رحيم " (فصلت: ٣٠ـ ٣٢)

" وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم " (التوبة: ٧٢)

وأما مصير عبادة الطاغوت ـ بجميع أنواعه وأشكاله ـ :

فهو الذل والهوان والضنك والنكد والتعب والنصب والضيق والشقاء •• فى الحياة الدنيا • ثم العذاب والخزى فى دار الجزاء :

" ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى • قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى • وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الاخرة أشد وأبقى " (طه : ١٢٤ـ١٢٧) •

" وقال الشيطان لما قضى الامر ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وماكان لى عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ما أنـــا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى انى كفرت بما أشركتمون من قبل ان الظالمين لهم عـــذاب أليم " (ابراهيم : ٢٢) •

" ان الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا • خالدين فيها أبدا لايجدون وليـــا ولا نصيرا • يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا • وقالوا ربنا انا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا • ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا " (الاحزاب : ٦٤ـ٦٨)

وما أتعس الحياة فى الجاهلية ! وما أتعس أهلها حين يهربون ـ كالبعـــــير

الشارد — من عز الطاعة الى ذل المعصية ، ومن العبودية الكريمة لرب واحد الـــى عبودية الارباب الزائفة ، ومن الحياة فى نور الايمان الى الحياة فى ظلام الشرك ، ومن تنسم الحرية فى ظل الاسلام الى الكبت فى جور الاديان والاهواء والنحل ، ومن سعادة الدنيا ونعيم الاخرة الى نكد الحياة ونار الجحيم .

وما أروع أمثلة كتاب الله الكريم فى اقامة الحجة على الخلق :

" ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لايقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهـــو ينفـق منه سرا وجهرا هل يستوون الحمد لله بل أكثرهم لايعلمون . وضرب الله مثـلا رجلين أحدهما أبكم لايقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لايأت بخير هـل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم " (النحل : ٧٥ و ٧٦)

ان على عبيد العبيد كثيرا من التبعات والالتزامات قد تفوق — مع فارق المقارنة — ما تتطلبه عبودية الخلق للحق — عز وجل — .

وقد يخسر هؤلاء المناكيد متاع الدنيا — بالاضافة لخسران الاخرة — وذلك هـــو الخسران المبيـن !

ونتيجة لذلك : يحصل الفساد فى المجتمع وينتشر بين الناس :

" ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملـوا لعلهم يرجعون " (الروم : ٤١) .

وينقسم الناس كذلك الى طبقة الملأ — السادة — وطبقة الضعفاء — العبيد — .

ويقوم الذين استكبروا باستنفاد أكبر قدر من متاع الارض — فالدنيا فرصتهم الوحيدة للمتاع — .

ويقوم المستضعفون — الذين رضوا بهذا الواقع السيء ولم يحاولوا تغييره — بتقديم مايطلبه سادتهم من ولاء ومتـــاع !

ان شريعة الله هى الهدى والنور ، وهى الخير والرشاد ، وهى الحق والصواب ، وهى الأمن والسلام ، وهى سفينة النجاة في الحياة ، وهى المؤدية لرضوان الله وجنته بعد الممات ، مع الذين أنعم الله عليهم من المؤمنين وحسن أولئك رفيقا .

ان تحكيم شريعة الله كفيل بحل مشاكل البشرية في أسرع وقت وبأقل الجهود والتكاليف ، لأن هذه الشريعة ربانية المصدر ، والخالق العظيم يعرف ما يصلح الانسانية وما يضرها :

" ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير" (تبارك : ١٤)

لن تجد خيرا الا وله في شريعة الله نصيب اما أمرا به أو حثا عليه أو ندبا له ـ ولن تجد شرا الا وتجد شريعة الله قد حذرت منه أو نهت عنه أو حرمته أو كرهته أو جعلته في دائرة الشبهات ، التى يبتعد كل مسلم عنها بمقدار ايمانه وورعه وزهده وتقواه .

ان تحكيم شريعة الله صورة ومعنى هو مقتضى العبودية لله تعالى ، ولاتتحقق هذه العبودية الا بتحكيم الاسلام في كافة مناحى الحياة ـ قولا وعملا سرا وعلانية ـ والا : فالكفر والظلم والفسق والنفاق والضلال والتيه والتشرد والضياع والانحلال ! !

والا فانه الزعم الكاذب والدجل والتضليل : " ألم تر الى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك يريدون ان يتحاكموا الى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا . واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا . فكيف اذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله أن أردنا الا احسانا وتوفيقا . اولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولا بليغا . وما أرسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله ولو أنهم اذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما . فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما" (النساء : ٦٠ ـ ٦٥)

وحين تمسك المسلمون بكتاب الله الكريم وعضوا على السنة المطهرة بالنواجذ وحكموا الاسلام ــ عقيدة وشريعة ــ[1] في مختلف نواحي الحياة .. حينذاك آتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ، وانتصروا على أعدائهم ، وطفقوا يعمرون الأرض على ضوء المنهج الرباني وعرف كل من الراعي والراعية واجباته فأداها من تلقاء نفسه ، وحقوقه فأخذها من غير عنف ولا فتنة . وأصبحوا كالجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر !

وحين تخلى المسلمون عن مصدر سعادتهم ــ في الدارين ــ جرت عليهم السنن الربانية التى لاتتخلف : " ولن تجد لسنة الله تبديلا " (الاحزاب : ٦٢) . وزال عنهم الشرط الذى يمكنون به فى الأرض : " وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لايشركون بى شيئا ومن كفر بعد ذلك فاولئك هم الفاسقون" (النور : ٥٥)

ولله در عمر ــ رضى الله عنه ــ حيث يقول :

(انكم كنتم أذل الناس وأحقر الناس وأقل الناس .. فأعزكم الله بالاسلام . فمهما تطلبوا العزة بغيره يذلكم الله)[2]

ويقول الله تبارك وتعالى : " أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون " (المائدة : ٥٠)

---

(١) يقول الاستاذ سيد قطب (طيب الله ثراه) :
(الاسلام عقيدة تتمثل فى شريعة ، وشريعة هى تفسير وتحقيق لهذه العقيدة ووحدة شمولية تشريعية تتألف منها حياة واقعة ممثلة في العقيدة والسلوك وفى العبادات والمعاملات وفي السرائر والجوارح وفي الافراد والجماعات) .
انظر معركة الاسلام والرأسمالية ص ٥٧ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ٧/ ٦٠ .

" أجل ! فمن أحسن من الله حكما ؟ ومن ذا الذى يجرؤ على ادعاء أنه يشرع للناس ، ويحكم فيهم ، خيرا مما يشرع الله لهم ويحكم فيهم !

وأية حجة يملك أن يسوقها بين يدى هذا الادعاء العريض ؟ أيستطيع أن يقول : أنه أعلم بالناس من خالق الناس ؟ أيستطيع أن يقول أنه أرحم بالناس من رب الناس ؟ أيستطيع أن يقول انه أعرف بمصالح الناس من اله الناس ؟ أيستطيع أن يقول ان الله ـ سبحانه ـ وهو يشرع شريعته الأخيرة ، ويرسل رسوله الأخير ، ويجعل رسوله خاتم النبيين ، ويجعل رسالته خاتمة الرسالات ، ويجعل شريعته شريعة الأبد .. كان ـ سبحانه ـ يجهل أن احوالا ستطرأ ، وان حاجات ستستجد ، وأن ملابسات ستقع ، فلم يحسب حسابها في شريعته لأنها كانت خافية عليه ، حتى انكشفت للناس فى آخر الزمان ؟!

" ما الذى يستطيع أن يقوله من ينحى شريعة الله عن حكم الحياة ، ويستبدل بها شريعة الجاهلية ، وحكم الجاهلية ، ويجعل هواه هو أو هوى شعب من الشعوب أو هوى جيل من أجيال البشر ، فوق حكم الله ، وفق شريعة الله ؟ ما الذى يستطيع أن يقوله .. وبخاصة اذا كان يدعى أنه من المسلمين ؟ !

" الظروف ؟ الملابسات ؟ عدم رغبة الناس ؟ الخوف من الاعداء ؟ .. ألم يكن هذا كله في علم الله ، وهو يأمر المسلمين أن يقيموا بينهم شريعته ، وأن يسيروا على منهجه ، والا يفتنوا عن بعض ما أنزله ؟

" قصور شريعة الله عن استيعاب الحاجات الطارئة والاوضاع المستجدة ، والاحوال المتقلبة ؟ ألم يكن ذلك في علم الله ، وهو يشدد هذا التشديد ويحذر هذا التحذير ؟ " (١)

---

(١) سيد قطب : فى ظلال القرآن ٢/٩٠٥ .

ان تحكيم شريعة غير شريعة الله على مخاليق الله ، جريمة كبرى لا مثيل لها في تاريخ العالم ــ القديم منه والحديث ــ كيف لا وهي ادعاء بعدم صلاحية شريعة الله للحياة ؟

ياحسرة على العباد ! ياحسرة على من حكم بالجاهلية أو يحكم بها أو سيتحاكم اليها في حياته !

ان شريعة الجاهلية ــ بمختلف أشكالها وأنواعها ــ فيها الهوى والشهوات وفيها التخبط في الظلمات وفيها القصور عن حل المشكلات . فما أتعسها ! وما أتعس من يتحاكم اليها ــ ولو سميت بغير اسمها ــ كائنا من كان !

قد تحل شريعة الجاهلية مشاكل جزئية في بعض الأمكنة أو الأزمان أو الظروف أو المجالات ، ولكنها حلول جزئية ولزمان ومكان معينين . وليست هذه الحلول ثابتة دائمة راسخة كشريعة الله الخالدة .

وتحكيم شرائع الجاهلية وقوانين الجاهلية في أي مجتمع يؤدي الى ظهور مشاكل جديدة ترتبت على حلول جاهلية لها . وهكذا دواليك ..

ان من كان له عقل أو ألقى السمع وهو شهيد ، يوقن بأن كل ما يتعلق بالجاهلية يؤدي الى الخسران في الدنيا ، من قتل وظلم وسرقة ونهب وغش واغتصاب واعتداء وكذب وفجور وشك وانهيار عصبي ومرض عضال وآفات اجتماعية .

ويؤدي كذلك الى غضب الله ومقته وعذابه في الدنيا والآخرة .

يقول سيد قطب :

(والعاقل الواعي الذي لم يأخذه الدوار الذي يأخذ البشرية اليوم . حين ينظر الى هذه البشرية المنكودة يراها تتخبط في تصوراتها ، وأنظمتها ، وأوضاعها ، وتقاليدها ، وعاداتها ، وحركاتها كلها تخبطا منكرا شنيعا .. يراها تخلع ثيابها وتمزقها كالمهووس ! وتتشنج في حركاتها وتتخبط وتتلبط كالممسوس .. يراها تغير ازياءها في الملابس ، وفق أهواء بيوت الأزياء ! .. يراها تصرخ من الألم ، وتجري

كالمطارد ، وتضحك كالمجنون ، وتعربد كالسكير ، وتبحث عن لا شيء ! وتجرى وراء أخيلة ! وتقذف بأثمن ماتملك ، وتحتضن أقذر ماتمسك به يداها من أحجار وأوضار ! لعنة ! لعنة كالتى تتحدث عنها الأساطير ! انها تقتل الانسان وتحوله الى آلة . . لتضاعف الانتاج !

انها تقضى على مقوماته الانسانية وعلى احساسه بالجمال والخلق والمعانى السامية ، لتحقيق الربح لعدد قليل من المرابين وتجار الشهوات ، ومنتجى الافلام السينمائية وبيوت الازياء ! وتنظر الى وجوه الناس ، ونظراتهم ، وحركاتهم ، وأزيائهم ، وأفكارهم وآرائهم ودعواتهم فيخيل اليك أنهم هاربون مطاردون الا يلوون على شيء ، ولايتثبتون من شيء ! ولا يتريثون ليروا شيئا ما رؤية واضحة صحيحة . . وهم هاربون فعلا ! هاربون من نفوسهم التى بين جنوبهم ! هاربون من نفوسهم الجائعة القلقة الحائرة ، التى لاتستقر على شيء ثابت ، ولا تدور على محور ثابت ، ولا تتحرك فى اطار ثابت . . والنفس البشرية لاتستطيع أن تعيش وحدها شاذة عن نظام الكون كله . ولاتملك أن تسعد وهى هكذا شاردة تائهة ، لاتطمئن الى دليل هاد ، ولا تستقر على قرار مريح !

" وحول هذه البشرية المنكودة زمرة من المستنفعين بهذه الحيرة الطاغية ، وهذا الشرود القاتل . . زمرة من المرابين ، يهتفون لها بالمزيد من الصرع والتخبط والدوار ، كلما تعبت وكلت خطاها ، وحنت الى المدار المنضبط والمحور الثابت ، وحاولت أن تعود ! زمرة تهتف لها . . التطور . . الانطلاق . . التجديد . . بلا ضوابط ولاحدود . . وتدفعها بكلتا يديها الى المتاهة كلما قاربت من المثابة . . باسم التطور . . وباسم الانطلاق . . وباسم التجديد . .

" أنها الجريمة . الجريمة المنكرة فى حق البشرية كلها . وفى حق هذا الجيل المنكود !

" وفكرة التطور المطلق لكل الأوضاع ، ولكل القيم ، ولأصل التصور الذى ترجع اليه القيم . . فكرة تناقض الأصل الواضح فى بناء الكون ، وفى بناء الفطرة . ومن ثم

وماد منا بصدد الحديث عن الحاكمية ، فما حكم من حكم بغير ما أنزل الله ؟

لقد اطلعت على كثير من المراجع التي تناولت مسألة الحكم بغير ما أنزل الله ، فوجدت أن هذا الموضوع شائك قد تزل به الاقدام - لان قضية الايمان والكفر أخطر قضية فى الحياة - فتكفير المسلم أمر جد خطير ، وادخال الكافر فى الاسلام - الواضح كفره - أمر أخطر منه !

وأخطأت الخوارج قديما حينما كفرت مرتكب الكبيرة ! وأخطأت المرجئة كذلك حينما ذهبت الى أنه لا يضر مع الايمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة !

وسأقدم فيما يأتى - باذن الله - خلاصة قراءتى لهذه المسألة ، فأقول وبالله التوفيق :

اختلف العلماء - قديما وحديثا - فى تفسير الكفر الوارد فى قول الله تعالى :

" ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون " (المائدة : ٤٤)

وهذه أقوال كثير منهم : قال الامام الطبرى عند تفسير هذه الاية :

(يقول تعالى ذكره : ومن كتم حكم الله الذى أنزله فى كتابه وجعله حكما بين عباده فأخفاه وحكم بغيره - كحكم اليهود فى الزانيين المحصنين بالتجبية والتحميم وكتمانهم الرجم -* فقد سوى الله بين جميعهم فى الحكم عليهم فى التوراة " فاولئك هم الكافرون " يقول : هؤلاء الذين لم يحكموا بما أنزل الله فى كتابه ولكن بدلوا وغيروا حكمه وكتموا الحق الذى أنزله فى كتابهم الكافرون . يقول : هم الذين ستروا الحق الذى كان عليهم كشفه وتبيينه وغطوه عن الناس وأظهروا لهم غيره وقضوا به لسحت أخذوه منهم عليه .

وقد اختلف أهل التأويل فى تأويل الكفر فى هذا الموضع فقال بعضهم بنحو ما قلنا فى ذلك من أنه عنى به اليهود الذين حرفوا كتاب الله وبدلوا حكمه .

ومن قال بأن الآيات " ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الكافرون " " ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الظالمون " " ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الفاسقون " (المائدة : ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧) نزلت فى الكافرين كلها

---

* انظر صحيح مسلم ٣/١٣٢٦ فما بعدها

البراء بن عازب والضحاك و أبو مجلز وحذيفة وعكرمة وقتادة وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود .

وقال آخرون : بل عنى بذلك : كفر دون كفر وظلم دون ظلم وفسق دون فسق .

وقال بذلك :

عطاء وطاووس وابن عباس .

وقال آخرون : بل نزلت هذه الآيات في أهل الكتاب ، وهى مراد بها جميع الناس مسلموهم وكفارهم .

وقال بذلك :

ابراهيم والحسن وابن مسعود والسدى .

وقال آخرون : معنى ذلك : ومن لم يحكم بما أنزل الله جاحدا به . فأما الظلم والفسق فهو للمقرّبه .

وقال بذلك :

ابن عباس .

ويمضى الامام الطبرى قائلا :

وأولى هذه الاقوال عندى بالصواب : قول من قال :

نزلت هذه الايات فى كفار أهل الكتاب ، لأن ما قبلها وما بعدها من الآيات ففيهم نزلت وهم المعنيون بها ، وهذه الآيات سياق الخبر عنهم فكونها خبرا عنهم أولى .

فان قال قائل : فان الله تعالى ذكره قد عم بالخبر بذلك عن جميع من لم يحكم بما أنزل الله فكيف جعلته خاصا ؟

قيل ان الله تعالى عم بالخبر بذلك عن قوم كانوا بحكم الله الذى حكم به فى كتابه جاحدين فأخبر عنهم أنهم بتركهم الحكم على سبيل ما تركوه كافرون . وكذلك

القول في كل من لم يحكم بما أنزل الله جاحدا به هو بالله كافر - كما قال ابن عباس لأنه بجحوده حكم الله بعد علمه أنه أنزله في كتابه نظير جحوده نبوة نبيه بعد علمه أنه نبي . (١)

وقال الامام القرطبي :

(قوله تعالى : " ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الكافرون " و " الظالمون " و " الفاسقون " نزلت كلها في الكفار ،

وعلى هذا المعظم ، فأما المسلم فلا يكفر وان ارتكب كبيرة) ،

وساق رحمه الله أقوال من ذهبوا الى ذلك .

وروى كلام حذيفة وقد سئل عن هذه الآيات أهي في بني اسرائيل ؟

قال : نعم هي فيهم ، ولتسلكن سبيلهم حذو النعل بالنعل !

وروى عن الحسن قوله : أخذ الله عز وجل على الحكام ثلاثة أشياء : ألا يتبعوا الهوى ، وألا يخشوا الناس ويخشوه ، وألا يشتروا بآياته ثمنا قليلا .) (٢)

وقال الامام ابن كثير :

(قال البراء بن عازب وابن عباس والحسن البصري وغيرهم :

نزلت في أهل الكتاب . زاد الحسن البصري : وهي علينا واجبة .

وقال عبد الرزاق عن ابراهيم : نزلت هذه الآيات في بني اسرائيل ورضي الله لهذه الامة بهـا .

وقال السدي : من لم يحكم بما أنزل الله فتركه عمدا ، أو جار وهو يعلم ، فهو من الكافرين .

وقال الشعبي : ((ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الكافرون))

هذا في المسلمين . ((ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الظالمون))

---

(١) الطبري : جامع البيان ٦/ ٢٥١ - ٢٥٧ باختصار .

(٢) القرطبي : الجامع لاحكام القرآن ٦/ ١٩٠ و ١٩١ باختصار .

هذا في اليهود . ((ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الفاسقون)) هـــذا في النصـــارى .[1]

وقال العلامة الخفاجي :

(ومن لم يحكم بما أنزل الله مستهينا به منكرا له (فأولئك هم الكافرون) لتمردهم بأن حكموا بغيره . ولذلك وصفهم بقوله : الكافرون - الظالمون - الفاسقـون .

فكفرهم : لانكاره ، وظلمهم : بالحكم على خلافه ، وفسقهم : بالخروج عنه .

أو أنهم وصفوا بها باعتبار أطوارهم وأحوالهم المنضمة الى الحكم : فتارة كانوا علـى حال تقتضي الكفر ، وتارة على أخرى تقتضي الظلم أو الفسـق .

ويكون قوله تعالى " فاولئك هم الكافرون " للمسلمين اما تغليظا أو اذا استحلوا ذلـــك)[2]

وقال الامام ابن جزى الكلبي الغرناطي :

(قال ابن عباس : نزلت الثلاثة في اليهود : الكافرون والظالمون والفاسقون .

وقال جماعة : هي عامة في كل من لم يحكم بما أنزل الله من اليهود والمسلمين وغيرهم الا أن الكفر في حق المسلمين كفر معصية لا يخرجهم عن الايمان .)[3]

وقال العلامة الشوكاني :

(من جحد الحكم بما أنزل الله فقد كفر . ومن أقر به ولم يحكم به فهو ظالـم فاســق)[4]

وقال العلامة الالوسي :

(ولعل وصفهم بالاوصاف الثلاثة باعتبارات مختلفة :

---

(١) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ٢ / ٦١ باختصار .

(٢) الخفاجي : حاشية الشهاب ٣ / ٢٤٦ باختصار .

(٣) الغرناطي : التسهيل لعلوم التنزيل ١ / ٣١٩ باختصار .

(٤) الشوكاني : فتح القدير ٢ / ٤٥ .

فلا نكارهم ذلك وصفوا بالكافرين ، ولوضعهم الحكم في غير موضعه وصفوا بالظالمين ، ولخروجهم عن الحق وصفوا بالفاسقين .

أو أنهم وصفوا بها باعتبار أطوارهم وأحوالهم المنضمة الى الامتناع عن الحكم ، فتارة كانوا على حال تقتضي الكفر ، وتارة على أخرى تقتضي الظلم أو الفسق) (١)

وقال العلامة الشنقيطي :

(الظاهر المتبادر من سياق الآيات أن آية " فاولئك هم الكافرون " نازلة في المسلمين . لانه تعالى قال قبلها مخاطبا لمسلمي هذه الامة " فلاتخشوا الناس واخشون ، ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا " ثم قال " ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الكافرون " فالخطاب للمسلمين كما هو ظاهر متبادر من سياق الآية .

وعليه فالكفر اما كفر دون كفر ، واما أن يكون فعل ذلك مستحلا له ، أو قاصدا به جحد أحكام الله وردها مع العلم بها . أما من حكم بغير حكم الله وهو عالم أنه مرتكب ذنبا فاعل قبيحا وانما حمله على ذلك الهوى فهو من سائر عصاة المسلمين .

وسياق القرآن ظاهر أيضا في أن آية " فاولئك هم الظالمون " في اليهود لأنه قال قبلها : " وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس . . . " فالخطاب لهم لوضوح دلالة السياق عليه كما أنه ظاهر .

وأيضا في أن آية " فاولئك هم الفاسقون " في النصارى ، لانه قال قبلها : " وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه " .

ويمضي العلامة الشنقيطي قائلا :

واعلم أن تحرير المقام في هذا البحث : أن الكفر والظلم والفسق كل واحد منهما ربما أطلق في الشرع مرادا به المعصية تارة والكفر المخرج من الملة أخرى .

" ومن لم يحكم بما أنزل الله " معارضة للرسل وابطالا لاحكام الله فظلمه وفسقه وكفره كلها كفر مخرج عن الملة .

وقد عرفت أن ظاهر القرآن يدل على أن الاولى في المسلمين والثانية في اليهود

---

(١) الالوسي : روح المعاني ٦/١٤٦

والثالثة فى النصارى . والعبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الاسباب)[1]

ويقول الاستاذ سيد قطب :

(قال تعالى : " ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الكافرون " بهذا الحسم الصارم الجازم وبهذا التعميم الذى تحمله (من) الشرطية وجملة الجواب بحيث يخرج من حدود الملابسة والزمان والمكان وينطلق حكما عاما على كل من لم يحكم بما أنزل الله فى أى جيل ومن أى قبيل .

والعلة هى أن الذى لا يحكم بما أنزل الله انما يرفض ألوهية الله ، فالالوهية من خصائصها ومن مقتضاها الحاكمية التشريعية . ومن يحكم بغير ما أنزل الله يرفض ألوهية الله وخصائصها فى جانب ، ويدعى لنفسه هو حق الالوهية وخصائصها فى جانب آخر .

وماذا يكون الكفر ان لم يكن هو هذا وذاك ؟

وما قيمة دعوى الايمان والاسلام باللسان ، والعمل - وهو أقوى تعبيرا من الكلام - ينطق بالكفر أفصح من اللسان ؟!

ان المماحكة فى هذا الحكم الصارم الجازم العام الشامل ، لا تعنى الا محاولة التهرب من مواجهة الحقيقة . والتأويل فى مثل هذا الحكم لا يعنى الا محاولة تحريف الكلم عن مواضعه . وليس لهذه المماحكة من قيمة ولا أثر فى صرف حكم الله عمن ينطبق عليهم بالنص الصريح الاكيد . وفى قوله تعالى " فاولئك هم الظالمون " التعبير هنا عام وليس هناك ما يخصصه ، ولكن الوصف الجديد هنا هو الظالمون . وهذا الوصف الجديد لا يعنى أنها حالة أخرى غير التى سبق الوصف فيها بالكفر وانما يعنى اضافة صفة أخرى لمن لم يحكم بما أنزل الله ، فهو كافر باعتباره رافضا لالوهية الله واختصاصه بالتشريع والعبادة ، وهو ظالم بحمل الناس على شريعة غير شريعة ربهم الصالحة المصلحة لاحوالهم ، فوق ظلمه لنفسه بايرادها موارد التهلكة وتعرضها

---

(١) الشنقيطى : أضواء البيان ٢/ ٩٢ و ٩٣

لمقـاب الكفـر .

وقوله تعالى : " فأولئك هم الفاسقون " النص هنا كذلك على عمومه واطلاقه ، وصفة الفسق تضاف الى صفتي الكفر والظلم من قبل وليست تعني قوما جددا ولا حالـــة جديدة منفصلة عن الحالة الاولى ، وانما هي صفة زائدة على الصفتين قبلها لاصقة بمن لم يحكم بما أنزل الله من أى جيل ومن أى قبيل .

الكفـر : برفض الوهية الله ممثلا هذا في رفض شريعتـه .

والظلـم : بحمل الناس على غير شريعة الله واشاعة الفساد في حياتهم .

والفسق : بالخروج عن منهج الله تعالى واتباع غير طريقته .

فهي صفات يتضمنها الفعل الاول وتنطبق جميعها على الفاعل ، ويبوء بهـــا جميعا دون تفريـق) . (١)

ونظرا لطول الموضوع - ولئلا نخرج عن بحثنا - نحيل القارئ الكريم الى الكتب التي تناولت هذه المسألة ومايتعلق بها . . . (٢)

---

(١) سيد قطب : في ظلال القرآن ٦/١٧١ - ١٧٨ باختصار .

(٢) الغزالي : الاقتصاد في الاعتقاد ص ٢٢٤

وابن تيمية : الفتاوى الكبرى ٤/٢٣١ و ١٢٨ و ٢٨٨ و ٢٩٣

ومحمد بن عبد الوهاب : نواقض الاسلام .

والكشميري : اكفار الملحدين في ضروريات الدين ص ٦٩

وحمد بن عتيق : بيان النجاة والفكاك ص ٥٨

وأبو بطين : الكفر الذى يعذر صاحبه بالجهل ص ٥ فما بعدها

والبيانوني : الكفر والمكفرات ص ١٢٢

وأحمد شاكر : عمدة التفسير ٤/١٧٣

وعبد القادر عودة : التشريع الجنائي ١/٢٢٥ - ٢٣٣

والاسلام وأوضاعنا القانونية ص ٧٢

وعبد الله بن باز : نواقض الاسلام ص ٣

=

ونقدم بعض النتائج والملاحظات التي توصلت اليها من خلال اطلاعي على هذه الكتب :

المكفرات : هي كل اعتقاد أو قول أو عمل يصدر عن مسلم بالغ عاقل فيه اعتراف بعقيدة مكفرة ، أو فيه جحود لعقيدة من عقائد الاسلام أو أحكامه ، مما علم كونه من الدين بالضرورة ، أو ما يعتبر اعتناقه علامة ظاهرة على عقيدة مكفرة .

ولا فرق في ذلك بين المستهزئ والجاد والمعاند .

وان وصف الذي يحكم بغير ما أنزل الله (بالكفر أو بالظلم أو بالفسق) ليس خاصا بالوالي أو القاضي - فحسب - بل هو شامل لكل من لم يحكم بما أنزل الله .

= وعبد الله بن حميد : كمال الشريعة الاسلامية (المقدمة)
وعبد الله قادري : الردة وخطرها ص ٣٢١
وعبد المتعال محمد : الفرقان ص ٥٢
ونعمان السامرائي : أحكام المرتد ص ٣٣٧
وصادق أمين : الدعوة الاسلامية ص ١٢٧
وابراهيم الوقفي : تلك حدود الله ص ٢٧٤
وحسن الهضيبي : دعاة لا قضاة ص ١٥٥
وأحمد جمال : على مائدة القرآن ص ١٨٤
وعبد الرحمن الميداني : صراع مع الملاحدة ص ٣٧٥ فما بعدها
ويوسف القرضاوي : ظاهرة الغلو في التكفير ص ١٩ فما بعدها
وعبد الرحمن عبد الخالق : الحد الفاصل بين الايمان والكفر ص ١٥ فما بعدها
والبوطي : بحث لا بد منه في الردة ص ٣٠
والفلاني : ايقاظ همم أولي الابصار ص ٤
ونافع شامي : كلمات في التوحيد والشرك ص ٥٧
ومحمد كاظم حبيب : الردة

ومن حكم بين اثنين فمال الى أحدهما ، ولم ينفذ حكم الله تعالى لقرابة أو رشوة أو تشهيا : فهذا يحكم عليه بالفسق ـ كفر دون كفر ـ .

وأما من أصدر تشريعا عاما ـ مناقضا شريعة الله ـ وألزم الناس به فانه يخرج من الملة كافرا ، وان صلى وصام وزعم أنه مسلم .

وقد يوجد من يحتال على النصوص فيحكم بجانب معين من الشريعة حتى لا يوصم بسمة الكفر ، ولكنه يلج الكفر من أبواب أخرى ، كموالاته أعداء الله ، وطاعتهم فى معصية الله ، وكحربه للدعاة الى الله الساعين لتحكيم شريعة الله !

ويكفر كل من ارتكب شيئا مما يأتى :

من جحد أو احتقر أو استهان بحكم شرعى .

أو من اعتقد أن حكم غير الله أفضل من حكم الله عز وجل

أو من ادعى أن له الحق فى تشريع مالم يأذن به الله تعالى

أو من ادعى أن الحكم بما أنزل الله لا يصلح تطبيقه فى هذا العصر .

أو من أعطى صفة شرعية للحكم المنافى للاسلام

أو من استحل الحرام وحرم الحلال .

أو من والى أعداء الله وحارب الدعاة الى الله ، لقولهم ربنا الله ولسعيهم لتحكيم شريعة الله .

أو من اعتقد أو قال أو عمل بالكلمة المشؤومة (لا سياسة فى الدين ولا دين فى السياسة) !

وان وصف الله تبارك وتعالى من لم يحكم بما أنزل الله بالكفر والظلم كان تعقيبا على عدم تحكيم التوراة :

" انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والاحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم

الكافرون . وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والانف بالانف والاذن بالاذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الظالمون " (المائدة : ٤٤ و ٤٥) .

ووصفه تعالى من لم يحكم بما أنزل الله بالفسق كان تعقيبا على عدم تحكيم الانجيل :

" وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الفاسقون" (المائدة : ٤٦ و ٤٧)

فهل من لم يحكم بالانجيل - المنزل من عند الله - يكون فاسقا فحسب ؟ !

وكيف يكون هذا النص منزوعا من السياق غير مرتبط بما قبله في الاية نفسها ؟

وفي هذا رد على من زعم أن من لم يحكم بما أنزل الله من المسلمين فاسق غير كافر .

وسواء كان كفر الحاكم بغير ما أنزل الله كفر اعتقاد أو كفر عمل ، فيجب ازالة هذا المنكر باليد والا فباللسان والا فبالقلب - كل مقام بما يناسبه - حتى يفيء الحاكم الى أمر الله ويحكم قولا وعملا بما أنزل الله .

وعلى الحاكم أن يوقن - ان كان في قلبه ايمان - أنه ليس حرا في عمل مايشاء ، لان الذي لا يسأل عما يفعل هو الله سبحانه تعالى وحده ، فينبغي لهذا الحاكم أن يتقيد في كل تصرفاته بالطاعة المطلقة لمن له حق الامر والنهي تعالى ذكره . وعليه أن يحكم العباد بما شرع رب العباد ، والا يتعرض لاي من أحكام رب العالمين لئلا يكون من الهالكين .

والله تعالى قادر على اذلاله ونزع ما بيده من ملك وسلطان :

" قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شيء قدير (آل عمران : ٢٦)

الانتخـــاب للامـــة :

ان الخليفة المسلم يتولى قيادة الامة بانتخاب المسلمـين له ، وقد ذهبت الامة فى طريقة اختيار الخليفة الى مذهبـين :

الاول : ان الخلافة ثبتت بالنص لا بالاختيار .

والثانى : ان الخلافة تركت لاختيار الامـــة .

((وقد قرر الاسلام أن الامة هى صاحبة الحق فى اختيار الخليفة بالطريـــق التى يتحقق من خلالها مبدأ الشورى .

وذهب الى هذا الرأى جمهور أهل السنة والمعتزلة والخوارج وبعض الشيعـــة . وهؤلاء يستندون الى أن الخلافة لا تعد وأن تثبت من احدى طريقين : طريق النص أو طريق الاختيار .

وقد ثبت أنه لم يقم نص صحيح ـ لخبر الاحاد أو التواتر ـ على تعيين انسان بعينه . فبقيت الطريقة الثانية (وهى الاختيار) وقد انعقد الاجماع على الاختيار .

والامة هى صاحبة الحق فى اختيار خليفتها .

ولكن ماهى الطرق التى يمكن أن تتبعها فى ذلك ؟

لم يعتمد الاسلام طريقة معينة لاختيار رئيس الدولة ، يلزم الامة بها حـــتى لا يحرم عليها أن تمارس غيرها . وكل الذى جاء هنا أن الامة تختار رئيـــس الدولة اذا توافرت فيه شروط معينة . ولا يهم بعد ذلك الاسلوب وطريقة الاختيار .

وطريقة الاختيار ليست ثابتة ، فقد تصلح طريقة لزمن معين ولفترة معينة . . ويظهر غيرها أكثر ملاءمـــة منها فى زمن آخر وفترة أخرى)) (١)

---

(١) محمد أبو فارس : النظام السياسى فى الاسلام ص ٢٢٨ بتصرف يسير . وقد رد على من قال بثبوتها بطريق النص من ص ٢١٢ - ٢٢٧

((والدارس لكتب الاقدمين - فى هذا المجال - يجد أن اختيار رئيس الدولـــة كان يتم على مرحلتـــين :

الاولى : مرحلة الترشيح ، وقد أطلق عليها البيعة الخاصة ، اذ يقوم فيهـــا أهل الحل والعقد - أو بعضهم - باختيار الخليفة وترشيحه للامة لترى رأيها فيه .

والثانية : البيعة العامة ، وهى أقرب ما تكون الى الاستفتاء ، اذ يعرض الامام المرشح برنامجه غالبا فى خطبة على الناس فى المسجد . وهذه المرحلة هى الحاسمة وهى التى تقرر صلاحية الخليفة المرشح أو عدم صلاحيته . فاذا بايعه الناس فقد أصبح اماما ، والا طلب من أهل الحل والعقد ترشيح غيره وعرضه على الامة .

وخلافة الصديق - رضى الله عنه - انعقدت بموافقة غالبية الامة عليه وما بيعتهم له بعد أن بويع فى سقيفة بنى ساعدة .

وخلافة عمر وعثمان وعلى (رضى الله عنهم) انعقدت ببيعة الامة لهم .

ولترشيح رئيس الدولة عند علمائنا الاقدمين - رحمهم الله تعالى - صور عديـــدة :

منهـا : أن يقوم الخليفة الحاكم بترشيح الخليفة الذى يأتى من بعده - قبل أن يموت - وهذا مايسمى بالاستخلاف .

وقد استخلف أبو بكر عمر - رضى الله عنهما وكان ترشيحه هذا بعد أن استشار الناس فى ذلك فوافقه معظم أهل الحل والعقد . ولكن العهد من الخليفة السابق هو مجرد ترشيح له ، والامة هى صاحبة الحق فى النهاية فى اختياره أو رفضـه ، تزاول ذلك بملء حريتها وارادتها .

ومنها : أن يقوم بترشيح الخليفة رجل من أهل الحل والعقد ، ولابد من أن يحضر على ذلك جماعة من الناس لاشهاره حتى لا يدعى آخر أنه بويع له ســـــرا ، مما يؤدى الى الفوضى والفساد .

" أو أن يقوم بترشيحه رجلان من أهل الحل والعقد ، وقيل : ثلاثة رجال وقيل : أربعة رجال وقيل : خمسة رجال وقيل : أربعون رجلا .

" ومنها : أن يقوم بترشيح الخليفة أهل الحل والعقد في البلد الذي يقيم فيها الامام عادة - عاصمة الدولة - الاسلامية - وليس لذلك عدد معين .

ومنها : أن يقوم بالترشيح جمهور أهل الحل والعقد في كل بلد من الدولة الاسلامية ، ليكون الرضى به عاما والتسليم لامامته اجماعا .

" والراجح - والله أعلم - أن يشترك في اختيار المرشح أهل الحل والعقد في كل بلد بحيث يكون هؤلاء مجلسا عاما لاهل الحل والعقد ، يبادرون فور موت الخليفة أو عزله أو فقدانه أهليته الى الاجتماع ، وترشيح أصلح أهل الامامة في نظر الاغلبية لهذا المنصب ، ثم استفتاء الامة على ذلك .

" وهكذا فان الامة هي صاحبة الحق في اختيار الخليفة ، وان صور هذا الاختيار والترشيح تختلف وتتعدد ، فقد تباشر الامة بكاملها حقها هذا فتختار الخليفة مباشرة ، أو تختار عنها نوابا تفوضهم باختيار الامام ومبايعته نيابة عنها - وهؤلاء يكونون من فضلاء الامة ورجال الفكر والخبرة والامارة فيها - . أو عن طريق ترشيح الامام السابق للاحق وبناء على شورى سابقة منه لاهل الحل والعقد ، أو ترشيحه من أهل الاختيار ثم تستفتى الامة في ذلك . أو بأي صورة - قد تحدث في المستقبل - شريطة أن تقوم على الشورى واشراك الامة في الامور " .

وتنعقد الامامة للخليفة بأحد أمور (٢) :

" منها : ما لو نص رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على أن فلانا هو الامام ،

---

(١) محمد أبو فارس : النظام السياسي من ص ٢٢٨ - ٢٢٩ باختصار

(٢) الشنقيطي : أضواء البيان ١/٥١ باختصار

فانها تنعقد له بذلك . وقال بعض العلماء : ان امامة الصديق - رضى الله عنه - من هذا القبيل ، لان تقديم النبى - صلى الله عليه وسلم - له فى أمامة الصلاة - وهى عمود الدين - فيه الاشارة الى التقديم للامامة الكبرى .

" ومنها : اتفاق أهل الحل والعقد على بيعته . وقال بعض العلماء : ان امامة الصديق - رضى الله عنه - من هذا القبيل أيضا ، وذلك لاجماع أهل الحل من المهاجرين والانصار على بيعته - بعد الخلاف عليها - ولا عبرة بعدم رضا بعضهم .

" ومنها : أن يعهد اليه الخليفة الذى قبله ، كما وقع من أبى بكر لعمر - رضى الله عنهما - ، ومن هذا القبيل : جعل عمر الخلافة شورى بين ستة من الصحابة مات رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو عنهم راض .

" ومنها : أن يتغلب على الناس بسيفه وينزع الخلافة بالقوة حتى يستتب له الامر وتدين له الناس . لما فى الخروج عليه حينئذ من شق عصا المسلمين واراقة دمائهم .*

" ومقتضى كلام ابن تيمية - رحمة الله - : أنها تنعقد بمبايعة من تقوى به شوكته ويقدر به على تنفيذ أحكام الامامة . لان من لا قدرة له على ذلك - كآحاد الناس - ليس بامام " . (١)

---

(١) الشنقيطى : أضواء البيان ١/٥١ باختصار

* قلت لا يمكن اطلاق هذا الكلام على عواهنه الا بشروط هى :
أ - أن يتوفر فى هذا الخليفة صلاح الدين والدنيا معا .
ب - ألا يخرج على الامام الاعظم القائم بوظيفته خير قيام .
جـ - أن يكون عمله هذا من باب ارتكاب أخف الضررين ، وألا يؤدى ذلك الى فتنة أعظم .

وانظر ما قاله الاستاذ محمد المبارك - رحمه الله - فى كتابه الحكم والدولة ص ٧٦ ، ٧٧ .

والامارة ـ في الاسلام ـ تكليف لا تشريف فلا يصلح أن يترشح لها الا من كان كفؤا لها قادرا على القيام بأعبائها ، متصفا بالحفظ والعلم والقوة والامانة :

قال يوسف (عليه الصلاة والسلام) لملك مصر : ((اجعلني على خزائن الارض اني حفيظ عليم)) (يوسف : ٥٥) .

وقالت ابنة شعيب (١) (عليه الصلاة والسلام) لابيها : " يأبت استأجره ان خير من استأجرت القوى الامين " (القصص : ٢٦) .

وقال نبي من بني اسرائيل عن طالوت : " وقال لهم نبيهم ان الله قد بعث لكم طالوت ملكا قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال ان الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم " (البقرة : ٢٤٧) .

وقد يكون الرجل صالحا يوزن حلمه بالجبال ، ولكنه لا يستطيع أن يقوم بأعباء المنصب . فهذا لا يولى ولكنه يستشار في المهمات ـ لان الولاية سياسة للدين والدنيا . .

ولا يولى كذلك السياسي المحنك اذا كان غير صالح ! وكل من هذين اما أن يضيع الدنيا ، واما أن يضيع الدين فهما أمران أحلاهما مر !

ومع أن أبا ذر الغفاري ـ رضي الله عنه ـ من كبار الصحابة ومن أقدمهم اسلاما ، ومن أكثرهم زهدا وورعا وقولا للحق وأمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر ، ومن أكثرهم انفاقا وعبادة . . .

---

(١) قيل : كان أبوها شعيب (عليه الصلاة والسلام)، وقيل : كان ابن أخي شعيب، وقيل : كان رجلا ممن آمن بشعيب ـ والله أعلم ـ .
انظر : الطبري : جامع البيان ٢٠/٦٢، والقرطبي : الجامع لاحكام القرآن ١٣/٢٧٠ ، وصديق حسن خان : حسن الاسوة بما ثبت من الله ورسوله في النسوة ص ١٥٥ ، وابن كثير : البداية والنهاية ١/٢٤٤

ومع صدق لهجته - رضي الله عنه - كما وصفه بذلك رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بقولـــه :

" ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء من ذى لهجة أصدق من أبى ذر " (١)

الا أنه لا يصلح للامارة - فكل ميسر لما خلق له - وليس هذا عيبا أو نقصـــا أو طعنا فيه - ورحم الله امرءًا عرف قدر نفســـه - .

قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لأبى ذر الغفارى - رضى الله عنـــه - وقد سأله أن يوليـــه :

" يا أبا ذر إ انك ضعيف وانها أمانة وانها يوم القيامة خزى وندامة الا مـــن أخذها بحقها وأدى الذى عليه فيها " . (٢)

والمسلم - فى المجتمع الاسلامى الذى يطبق شريعة الله - لا يرشح نفسه ولا يزكيهـا ولا يحرص على الامارة ، ولو ظهر منه شيئ من ذلك فانه لا يولى ولا تحقق أمنيته :

(ياعبد الرحمن لا تسأل الامارة فانك ان أعطيتها عن مسألة أكلت اليهـــا - وفى رواية : وكلت اليها - وان أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها) (٣)

وعن أبى موسى - رضى الله عنه - قال :

دخلت على النبى - صلى الله عليه وسلم - أنا ورجلان من بنى عمى . فقال أحد الرجلين : يارسول الله أمرنا على بعض ما ولاك الله عز وجل . وقال الاخر مثل ذلك .

فقال : " انا والله لا تولى هذا العمل أحدا سأله ولا أحدا حرص عليه". (٤)

---

(١) ابن حجر : المطالب العالية ٤ / ١١٧

(٢) مسلم ٣ / ١٥٤ وفى رواية أبى داود : " يا أبا ذر انى أراك ضعيفا وانـــى أحب لك ما أحب لنفسى لا تأمرن على اثنين ولا تولين مال يتيم " انظر سنن أبى داود ٣ / ٥١٤

(٣) مسلم ٣ / ١٤٥٦

(٤) مسلم ٣ / ١٤٥٦

والمرشح للحكم لا يقوم ـ كما هو الحال في الجاهليات القديمة والحديثة ـ بوسائل غير نظيفة في سبيل الفوز بالمنصب ، ولا تظهر في أي من تصرفاته أدنى اساءة للاخلاق الاسلامية . ولا يتنازع عليها مع غيره [1] ، لان الهدف منها في نظره هو تطبيق الشريعة الاسلامية لا غير ، واذا قام غيره بهذا الواجب حصل الخير واطمأنت نفسه .

---

(١) لا تلتفت الى ماقاله تقي الدين النبهاني (رحمه الله) : (من أن طلب الخلافة والتنازع عليها جائز لجميع المسلمين وليس هو من المكروهات !)
انظر الشخصية الاسلامية ٢ / ٢٩ .
فهذا يتعارض مع ما ورد في الاحاديث ، ومع روح الشريعة التي يقول كتابها :
" ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم " (الانفال : ٤٦)

الطاعـــــــة :

ترتكز الطاعة في الاسلام على الاسس الاتية :

الطاعة المطلقة لله عز وجـــل :

بما أن الله تعالى هو الخالق وحده فيجب أن تكون الطاعة المطلقة له وحده :

" الا له الخلق والامر " (الاعراف : ٥٤)

وطاعة الله جل وعلا تكون باتباع أوامره واجتناب مناهيه وتحكيم شريعته في كافة الظروف والمجالات ، ثم الرضى التام بهذه الاحكام والتسليم الكامل لمقتضياتهـا : والا فانه الكفر والظلم والفسق ، والتيه والضلال والضياع !

والطاعة كذلك للرسول (صلى الله عليه وسلم) :

وطاعته - صلى الله عليه وسلم - واجبة لانه تبارك وتعالى أمرنا بطاعته واعتبـــر طاعة الرسول طاعه لله :

" وما أرسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله " (النساء : ٦٤)

" ومن يطع الرسول فقد أطاع الله " (النساء : ٨٠)

وحب الله ورسوله لا يغني عن المرء شيئا اذا لم يتبع حبه هذا طاعتهما فـي العسر واليسر والمنشط والمكره . فالطريق الموصلة لحب الله ورسوله هي اتباع ما ورد في الكتاب والسنة :

" قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفـــور رحـــيم " (آل عمران : ٣١) .

وطاعة الرسول - صلى الله عليه وسلم - تكون بالتمسك بهديه والابتعاد عما نهى عنـــه :

" وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا " (الحشر : ٧) .

والمؤمنون الصادقون يسارعون الى السمع والطاعة :

" انما كان قول المؤمنين اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولـــوا

سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون . ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون " (النور : ٥١ و ٥٢)

أما المنافقون : فانهم يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون اذا دعوا لتحكيم الكتاب والسنة يتولون لانهم ظالمون :

" ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين . واذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم اذا فريق منهم معرضون وان يكن لهم الحق يأتوا اليه مذعنين . أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون " (النور : ٤٧ - ٥٠) .

والطاعة كذلك لاولي الامر :

وطاعة هؤلاء مستمدة من طاعة الله ورسوله . ويجب أن يكون ولي الامر مسلما بمعنى الكلمة منفذا لاحكام الله . قال تعالى : "

" يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم " (النساء : ٥٩) .

فالخطاب في هذه الاية للمؤمنين " يا أيها الذين آمنوا " وأولو الامر يجب أن يكونوا من المؤمنين - صورة ومعنى - وهذا ما يدل عليه قوله تعالى :

" وأولي الامر منكم " .

فاذا لم يكن ولي الامر منا - معشر المسلمين - فتحرم طاعته حينئذ . وقد نهى المولى تبارك وتعالى عن طاعة هؤلاء :

أولياء الشيطان :

" وان الشياطين ليوحون الى أوليائهم ليجادلوكم وان أطعتموهم انكم لمشركون " (الانعام : ١٢١)

صاحب الهوى :

" ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا " (الكهف : ٢٨)

المسرفين :

" ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون في الارض ولا يصلحون " (الشعراء : ١٥١ و ١٥٢)

المنافقين والكافرين :

" ولا تطع الكافرين والمنافقين " (الاحزاب : ١) .

المكذبين :

" فلا تطع المكذبين " (القلم : ٨) .

الاثمين :

" ولا تطع منهم آثما أو كفورا " (الانسان : ٢٤) .

والحاكم المسلم مسؤول أمام الله عز وجل ومسؤول كذلك أمام الامة .

ويتمثل ذلك في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وهذه طائفة عطرة من الاحاديث النبوية الشريفة تتحدث عن هذه القضية المهمة :

قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - " من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان " (١)

وقال أيضا : " ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي الا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره . ثم انها تخلف من بعدهم خلوف يقولون

---

(١) مسلم ٦٩/١

قلت : ولعل الحكمة من استمرار انكار المنكر بالقلب هي : عدم استمرائه أو الركون اليه ، وتحين الفرصة المواتية لتغييره - باليد أو باللسان - بشرط عدم الوقوع في منكر أشد منه !

مالا يفعلون ويفعلون مالا يؤمرون . فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، وليس وراء ذلك من الايمان حبة خردل ". (١)

وعن تميم الدارى - رضى الله عنه - أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال :

" الدين النصيحة " قلنا : لمن ؟ قال : " لله ولكتابه ولرسوله ولائمة المسلمين وعامتهم ". (٢)

وطاعة ولى الأمر غنيا أو فقيرا شريفا أو وضيعا - واجبة ما دام ملتزما بشريعة الله .

يقول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : (اتقوا الله وعليكم بالسمع والطاعة وان عبدا حبشيا) . (٣)

وطاعته طاعة لله ولرسوله ومعصيته معصية لله ولرسوله :

عن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال :

(من أطاعنى فقد أطاع الله ومن يعصنى فقد عصى الله . ومن يطع الامير فقد أطاعنى ومن يعص الامير فقد عصانى) . (٤)

---

(١) مسلم ١ / ٧٠ تخلف : تحدث . والخلوف : جمع خلف وهو الخالف بشر وأما بالفتح فهو الخالف بخير .

(٢) مسلم ١ / ٧٤

والنصيحة لله : تكون بالايمان به تعالى ونفى الشريك عنه ، والله غنى عن نصح الناصح .

والنصيحه لكتابه : تكون بالايمان بأنه كلام الله والعمل بمحكمه والتسليم لمتشابهه .

والنصيحة لرسوله : تكون بتصديقه والايمان بجميع ما جاء به .

والنصيحة لائمة المسلمين : تكون بمعاونتهم على الحق وطاعتهم فيه وأمرهم به .

والنصيحة لعامة المسلمين : تكون بارشادهم لمصالحهم فى آخرتهم ودنياهم .

(٣) عمرو الشيبانى : كتاب السنة ١ / ٢٩

(٤) مسلم ٣ / ١٤٦٦ =

وطاعة ولي الامر تكون بتنفيذه أحكام الله تعالى والا ؛ فلا طاعة لمخلوق في معصية الله :

عن ابن عمر : عن النبي صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال : (على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره الا أن يؤمر بمعصية ، فان أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة . (١)

وقال (صلى الله عليه وسلم) : (لا طاعة في معصية الله انما الطاعة في المعروف) . (٢)

وأولو الامر (٣) : هم الولاة المسلمون ـ قلبا وقالبا ـ والعلماء العاملون وكل من ولي أمرا للمسلمين فيجب طاعته بالمعروف . ولا طاعة لمن لم يحكم بما أنزل الله :

" ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا " (النساء : ١٤١) .

وفي حال الاختلاف والتنازع في شيء يجب أن يرد الامر الى الله ورسوله للحكم فيه ، ويكفر من لم يلتزم بذلك ـ كما بينا ذلك من قبل ـ قال تعالى :

= وسبب اهتمام النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بشأن الامراء حتى قرن طاعتهم الى طاعته : أن قريشا ومن يليهم من العرب ، كانوا لا يعرفون الامارة ولا يدينون لغير رؤساء قبائلهم ، فلما كان الاسلام وولي عليهم الامراء أنكرت ذلك نفوسهم وامتنع بعضهم من الطاعة . فأعلمهم (صلى الله عليه وسلم) أن طاعتهم مربوطة بطاعته ومعصيتهم بمعصيته . حثا لهم على طاعة أمرائهم لئلا تتفرق الكلمة !

(١) مسلم ١٤٦٩/٣

(٢) مسلم ١٤٦٩/٣

(٣) عن مجاهد : في قوله تعالى : " أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم " (النساء : ٥٩) قال : أولي الفقه والعلم ، انظر : ابن تيمية الامر بالمعروف ص ٦٨ وأبو خيثمة النسائي : كتاب العلم ص ١٢٤ ، والتسهيل ١/ ٢٦٢ والصابوني : مختصر تفسير ابن كثير ١/ ٤٠٨ ، والفلاني : ايقاظ همم أولي الابصار ص ٢٦

" فان تنازعتم فى شيء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الاخر ذلك خير وأحسن تأويلا " (النساء : ٥٩) .

فالطاعة لله تعالى ولرسوله - صلى الله عليه وسلم - ولاولى الامر المؤمنين وحين الاختلاف يرد الامر لله ولرسوله فحسب .

فالسمع والطاعة حق الحاكم على المحكوم : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -:

" السمع والطاعة حق على المرء المسلم فيما أحب وكره مالم يؤمر بمعصية فاذا أمر بمعصية فلا سمع عليه ولا طاعة "(١) .

وقال أيضا :

" من رأى من أميره شيئا فكرهه فليصبر . فانه ليس أحد يفارق الجماعة شبرا فيموت الا مات ميتة جاهلية "(٢) .

وقال أيضا :

" من خلع يدا من طاعة لقى الله يوم القيامة ولا حجة له "(٣) .

ويقول أبو بكر الصديق (رضى الله عنه) بعد انتخابه خليفة للمسلمين :

" أطيعونى ما أطعت الله ورسوله فاذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم "(٤)

وبعث عمرو بن العاص - رضى الله عنه - الى المقوقس - حاكم مصر - عشرة من المسلمين لمفاوضته وكان على رأسهم عبادة بن الصامت - رضى الله عنه - .

---

(١) الطرسوسى : مسند ابن عمر ص ٣٣

(٢) البخارى : ٨/ ١٠٥

(٣) الطرسوسى : مسند بان عمر ص ٣٧

(٤) ابن سلام : الاموال ص ١٢

واليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ٢/ ١٢٧

والسيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٦٩

والمروزى : مسند أبى بكر ص ١٦٢

وكان عبادة أسود اللون ، فلما ركبوا السفن الى المقوقس دخلوا عليه ، تقدم عبادة فهابه المقوقس لسواده ، فقال : نحوا عني هذا الاسود ، وقدموا غيره يكلمني . فقالوا جميعا : ان هذا الاسود أفضلنا رأيا وعلما ، وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا ، وانا نرجع جميعا الى قوله ورأيه ، وقد أمره الامير دوننا بما أمره به ، وأمرنا بألا نخالف رأيه وقوله . قال : وكيف رضيتم أن يكون هذا الاسود أفضلكم ، وانما ينبغي أن يكون هو دونكم ؟

قالوا : كلا ! انه وان كان أسود كما ترى ، فانه أفضلنا موضعا وأفضلنا سابقة وعقلا ورأيا ، وليس ينكر السواد فينا . . (١)

ويقول سلمة بن الاكوع - رضى الله عنه - :

" غزوت مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) سبع غزوات ، ومع زيد بن حارثة* تسع غزوات . وكان يؤمره علينا " . (٢)

وحول مفهوم الطاعة يحدثنا (المرحوم : سيد قطب) قائلا :

(للجمع في الاية : " يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم " (النساء : ٥٩) بين الله والرسول وأولى الامر معناه ، في بيان طبيعة هذه الطاعة وحدودها ، فالطاعة لولي الامر مستمدة من طاعة الله والرسول - صلى الله عليه وسلم - ، لان ولي الامر في الاسلام لا يطاع لذاته ، وانما يطاع لا ذعانه هو لسلطان الله واعترافه له بالحاكمية ، ثم لقيامه على شريعة الله ورسوله . ومن اعترافه بحاكمية الله وحده ، ثم تنفيذه لهذه الشريعة يستمد حق الطاعة . فاذا انحرف عن هذه أو تلك سقطت طاعته ، ولم يجب لامره النفاذ .

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ص ٦٥

* ومعروف أن زيدا - رضى الله عنه - كان من الموالي ولم يكن من الاشراف والسادة !

(٢) البيهقي : السنن الكبرى ٩ / ٤١

ويجب أن نفرق بين قيام الحاكم بتنفيذ الشريعة الدينية ، وبين استمداده السلطان من صفة دينية لشخصه . فليست للحاكم سلطة دينية يتلقاها مباشرة من السماء ، انما هو يصبح حاكما باختيار المسلمين الكامل وحريتهم المطلقة لا يقيدهم عهد من حاكم قبله ، ولا وراثة كذلك في أسرة . ثم يستمد سلطته بعد ذلك من قيامه بتنفيذ شريعة الله دون أن يدعي لنفسه حق التشريع ابتداء بسلطان ذاتي له . فاذا لم يرضه المسلمون لم تقم له ولاية ، واذا رضوه ثم ترك شريعة الله لم تكن له طاعة .

وليس هناك مبرر لان يفهم أحد أن الحكم في الاسلام يحتاج الى أكثر من تنفيذ الشريعة الاسلامية ، بعد افراد الله تعالى بحق الحاكمية . وكل حكم يقوم على قاعدة أن الحاكمية لله تعالى وحده ، ثم تنفذ فيه الشريعة الاسلامية هو حكم اسلامي . وكل حكم لا يقوم على أساس افراد الله سبحانه بالحاكمية ، ولا تنفذ فيه هذه الشريعة لا يعترف به الاسلام ، ولو قامت عليه هيئة دينية ، أو حمل عنوانا اسلاميا !

والطاعة من المحكومين منوطة وموقوتة فقط باعتراف الحاكم بأن الحكم لله وحده . ثم تنفيذه لشريعة الله ، بلا شرط آخر غير العدل في الحكم وطاعة الله) . (١)

ويقول الاستاذ محمد أسد (٢) :

تكتسب الدولة الاسلامية صفتها (الشرعية) (٣) - أي بأن يكون لها على الناس حق الطاعة والولاء - على أساس هذا النص القرآني القاطع :

---

(١) سيد قطب : العدالة الاجتماعية في الاسلام من ص ١٠٢ - ١٠٤

(٢) محمد أسد : منهاج الاسلام في الحكم من ص ٧٤ - ٧٦ بتصرف .

(٣) مكتوب في الاصل (القانونية) ولا نحبذ استخدام كلمة القانون لانها كلمة تستعمل في التشريعات الوضعية الارضية ، والافضل أن تستبدل بها كلمة الشرع !

" أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم " (النساء : ٥٩)

وفى هذا الاسلوب المختصر يضع القرآن الكريم مبادئ عامة وهامة تتصل بطبيعة الدولة الاسلامية .

أ - ان أهم واجبات الدولة انفاذ الاحكام الشرعية فى الاقطار والمناطق الخاضعة لها . ومثل هذا الالتزام شددت عليه الاية :

" ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون " (المائدة : ٤٤) .

وعلى هذا فالدولة لا تعتبر اسلامية الا اذا احتوى دستورها الاساسى مادة تنص صراحة على أن أحكام الشريعة يجب أن تشكل القاعدة التى لا يجوز أن تشذ عنها كافة الاجراءات التى تصدر من الدولة .

ب - لا شك فى أن ضرورة الحصول على رضى الشعب تفترض سلفا أن تأتى الحكومة الى الوجود على أساس الاختيار الحر من قبله وأن تمثله تمثيلا صحيحا . وهذه دلالة أخرى تشير اليها العبارة القرآنية بلفظ (منكم) ، انما تشير الى الامة ككل . فلكى تتحقق أهداف الشريعة لا بد أن تكون رئاسة الدولة عن طريق الانتخاب .

قالوا فى الشـــورى :

قال الامام على - رضى الله عنه - : (الاستشارة عين الهداية ، وقد خاطـر من استغنى برأيه ، والتدبير قبل العمل يؤمنك من الندم) .

وقال الحسن البصرى - رحمه الله - : (ان الله لم يأمر نبيه - صلى الله عليه وسلم - بمشاورة أصحابه حاجة منه الى رأيهم ، ولكن أراد الله أن يعرفهم ما فى المشـــورة من البركـــة) .

وقال قتادة - رحمه الله -: ما شاور قوم قط يبتغون وجه الله الا هدوا الى رشدهم . وما ندم من استخار الخالق وشاور المخلوقين وتثبت فى أمره) .

وقال ابن الجوزى - رحمه الله - فى قوله تعالى : "وشاورهم فى الامر" استخـــرج آراءهم واعلم ما عندهم " .

وقال بعض الحكماء : (ما استنبط الصواب بمثل المشاورة) .

وقال آخر : (لكن ذا الرأى الحازم لا يدع أن يشاور من هو دونه أو فوقه في المنزلة)

وقال الشاعـــر :

ان اللبيب اذا تفرق أمــــره   فتق الامور مناظر أو مشـــاورا

وأخو الجهالة يستبد برأيــــه   فتراه يعتسف الامور مخاطـــرا

ومن فوائد الشـــورى :

أن المشاور اذا لم ينجح أمره ، علم أن امتناع النجاح محض قدر ، فلم يلـــم نفســــه . وأنه قد يعزم على أمر يتبين له الصواب فى قول غيره ، فيعلم عجـــز نفسه عن الاحاطة بفنون المصالح .

وفى الشورى كذلك تخليص الحق من احتمالات الاراء ، واستطلاع أفكار الرجـــال ومعرفة مقاديرها . وفيها أيضا تمتحن القرائح وتستخرج الاحكام وتطيب القلـــوب ، ويلجأ الى الله تعالى فى الوقوع على الصواب ، وكفى بذلك التماسا للحق وتجافيـــا عن الزلـــل .

وتؤدى الشورى الى رفع مستوى الجماعة ، وحملهم على التفكير فى المسائل العامة ، والاهتمام بها ، والاشتراك فى الحكم بطريق غير مباشر . *

وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ اذا أراد أن يمضى عزما أو يبرم أمرا ـ لم ينزل فيه نص ـ استشار أصحابه ذوى العقول الراجحة والآراء السديدة ، مع أن المولى عز وجل تكفل بارشاده ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى الصواب والهدى . ومع أن نتيجة مشاورته ـ صلى الله عليه وسلم ـ للصحابة ـ رضى الله عنهم ـ فى غزوة أحد كانت هزيمة عسكرية للمسلمين ـ حيث نزل (صلى الله عليه وسلم) على رأى الأغلبية فى الخروج من المدينة لحرب قريش ـ الا أن الله تعالى أكد على الشورى ـ ولو كانت نتيجتها فى غير صالح المسلمين ـ تعليما للأجيال اللاحقة بأن الشورى خير من الانفراد بالرأى . نستفيد هذا من قوله تعالى : " فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فاذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين" (آل عمران : ١٥٩) . وقد جاءت هذه الاية الكريمة بعد الحديث المستفيض عن معركة أحد ـ نتائجها والعبر المستفادة منها ـ . وقد اختلف العلماء فى حكمة أمر الله تعالى لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالاستشارة مع أنه أيده ووفقه . فقيل : أمره بمشاورتهم استمالة لقلوبهم وتطييبا لنفوسهم وتألفا لهم لما فيهم من الفضل والاصلاح . وقيل : انه أمر بمشاورتهم فى الحرب ليستقر له الرأى الصحيح فيعمل به . وقيل : انه أمر بمشاورتهم لما فى المشاورة من النفع والمصلحة . وقيل : انه أمر بمشاورتهم ليقتدى به المسلمون .

ومما يدل على أهمية الشورى فى الاسلام أن الله عز وجل سمى احدى السور القرآنية الكريمة بهذا الاسم ، اعلانا للعالمين بأن الشورى جزء لا يتجزأ من السياسة الشرعية . *

---

* انظر المراجع السابقة

واذا كان الله تعالى قد أمر رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمشاورة أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ وأخذ رأيهم فيما يعرض لهم من قضايا وما يستجد من أحداث ليأخذوا بما اتفقوا عليه من أجل المصلحة العامة ، مع كونه ـ صلى الله عليه وسلم ـ مؤيدا بالوحي لا يجاري في بعد النظر وحسن التدبير وسعة الافق ورجاحة العقل ووضع الامور في نصابها . . فما بالك بمن لا يوحى اليه وغير معصوم ولا يصل الى فهمه وعلمه ؟

ولا مشاروة ـ طبعا ـ فيما نزل فيه الوحي من كتاب أو سنة ، انما الشورى في الامور الاجتهادية فحسب :

" وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا " (الاحزاب : ٣٦) .

ولا يجوز أن تؤدي الشورى بأي حال الى مخالفة حكم شرعي ، وهذا من المعلوم من الدين بالضرورة . ولا مكان في الاسلام للاستبداد بالرأي والتعسف في الاحكام ـ حتى بين أفراد الاسرة الواحدة ـ فكل انسان يؤخذ من قوله ويترك الا المعصوم (صلى الله عليه وسلم ورضي وأنعم) .

ومن مرونة الاسلام ومميزاته :

أنه لم يحدد طريقة معينة للشورى لا يجوز مخالفتها أو الخروج عنها . فلم يرد في الكتاب الكريم أو السنة المطهرة ما يبين كيفية الشورى أو طريقة الالتزام بها . وهذا ما يدل على صلاحية الشريعة لكل زمان ومكان ومجال ، ويدل كذلك على رفع الحرج عن هذه الامة :

" يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر " (البقرة : ٨٥) .

" هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم ابراهيم " (الحج : ٧٨)

يقول شيخنا أبو فارس حفظه الله :

((والشورى فى الاسلام ليست من الامور التنفلية ، التى تترك لرغبة الحاكم، فان شاء استشار وان شاء ترك ، بل الشورى واجبة على كل حاكم أو مسؤول أو أمير .

" ثم ان امتناع الحاكم أو الامير عن أن يستشير غيره من أهل الشورى ، والتشبث برأيه يعد استبدادا ، ** والاستبداد ممنوع فى الاسلام ، لم يرتضه الله سبحانه وتعالى فقال : " لست عليهم بمصيطر " (الغاشية : ٢٢) وهو فى الحقيقة - تجبر وعتو نفاه الله عن رسوله - صلى الله عليه وسلم - فقال " وما أنت عليهم بجبار " (ق : ٤٥) .

" وتأكيدا لهذا الحكم المقرر فى الاسلام كان هديه - صلى الله عليه وسلم - فى حياته كثرة الشورى ، بل كان أكثر الناس استشارة لاصحابه ، وأحيانا كان يستشير فى قضاياه الخاصة وشؤون أهل بيته .

" وقد جعل الاسلام ميدان الشورى فسيحا ، فالناس يتشاورون فى كل أمورهم وأحوالهم مالم يصطدم ذلك بنص من كتاب أو سنة أو مسألة مجمع عليها . *

" فالشورى اجتهاد - بما هو معلوم - ولا اجتهاد فى موضع النص ، وهكذا فهم الصحابة - رضى الله عنهم - مجالات الشورى ، فكانوا يعرضون آراءهم على النبى - صلى الله عليه وسلم - يسألونه هل الامر موحى به من عند الله أو هو اجتهاد منه - صلى الله عليه وسلم - ، فان كانت الثانية أبدوا رأيهم والا فلا .

" ان المهم فى نظر الاسلام أن تقوم حقيقة الشورى فى المجتمع المسلم ، وأن تتحقق فى واقع الحياة دون أن يحدد وسيلة ذلك)) .

---

(١) محمد أبو فارس : النظام السياسى فى الاسلام من ص ٨٩ - ١٠٩ باختصار .

* انظر محمد المبارك : الحكم والدولة ص ٣٤

** والاستبداد يؤدى الى الظلم والظلم ظلمات يوم القيامة ، حرمه الله على نفسه وجعله بين الناس محرما .

وحول مفهوم الشورى في الاسلام يحدثنا العالم الرباني سيد قطب قائلا :

(الشورى أصل من أصول الحياة في الاسلام ، وهي أوسع مدى من دائرة الحكم لانها قاعدة حياة الامة المسلمة . أما طريقة الشورى فلم يحدد لها نظاما خاصا وتطبيقها متروك للظروف ، [1] وللصورة الملائمة لكل بيئة وزمان . والنظم الاسلامية كلها ليست اشكالا جامدة وليست نصوصا حرفية ، انما هي قبل كل شيء روح ينشأ عن استقرار حقيقة الايمان في القلب ، وتكيف الشعور والسلوك بهذه الحقيقة . [2]

وبهذا النص الجازم " وشاورهم في الامر " (آل عمران : ١٥٩) يقرر الاسلام هذا المبدأ في نظام الحكم - حتى ومحمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) هو الذي يتولاه - . وهو نص قاطع لا يدع للامة المسلمة شكا في أن الشورى مبدأ أساسي لا يقوم نظام الاسلام على أساس سواه . .

لقد جاء هذا النص عقب وقوع نتائج للشورى تبدو في ظاهرها خطيرة مريرة ! فقد كان من جرائها - ظاهريا - وقوع خلل في وحدة الصف المسلم ! اختلفت الآراء فرأت مجموعة أن يبقى المسلمون في المدينة محتمين بها حتى اذا هاجمهم العدو قاتلوه على أفواه الازقة . وتحمست مجموعة أخرى فرأت الخروج للقاء المشركين .

ولم يكن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يجهل النتائج الخطيرة التي تنتظر الصف المسلم من جراء الخروج . . وكان من حقه أن يلغي ما استقر عليه الامر نتيجة للشورى . . ولكنه أمضاها وهو يدرك ما وراءها من الالام والخسائر والتضحيات ، لان اقرار المبدأ وتعليم الجماعة وتربية الامة ، أكبر من الخسائر الوقتية) (٣)

---

(١) سيد قطب : العدالة الاجتماعية ص ١٠٤

(٢ ، ٣) الظلال ٥/ ٣١٦٥ ، و ١/ ٥٠١ باختصار .

تطبيقات عملية فى الشورى :

(أ) لما سار رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الى بدر خرج فاستشار الناس فأشار عليه أبو بكر ، ثم استشارهم فأشار عليه عمر ، فسكت .
فقال رجل من الانصار : انما يريدكم . . . (١)

(ب) وقبل معركة بدر : أشار الحباب بن المنذر - رضى الله عنه - على النبى (صلى الله عليه وسلم) أن يغور المياه كلها غير ماء واحد . . . . (٢)

(جـ) وبعد انتصار المسلمين فى بدر : استشار رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أبا بكر وعمر وعليا - رضى الله عنهم - فى الاسرى . . . . (٣)

(د) وشاور عمر - رضى الله عنه - أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فى سواد الكوفة . (٤)

(هـ) وصير عمر - رضى الله عنه - الامر شورى بين ستة نفر من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) . (٥)

---

(١) انظر : البرهان فورى : كنزل العمال ٤٢٣/١٠
والعصامى : سمط النجوم العوالى ١٩/٢
والبستى : الثقات ١٥٧/١ و ١٥٨
والسفارينى : شرح الثلاثيات ٦٧٩/١
وابن الاثير : الكامل ٨٤/٢

(٢) أبو داود : المراسيل ص ٣٤
والذهبى : التاريخ الكبير ٩٣/١ ، وابن الاثير : الكامل ٨٥/٢

(٣) الهيثمى : مجمع الزوائد ٨٧/٦
وابن القيم : زاد المعاد [illegible]

العـــــدل :

العدل ركيزة أساسية فى الحياة الاسلامية ، وهو شامل لجميــــع العلاقات الانسانية ،غير مقتصر على العلاقة بين الراعى والرعية . والناس فى نظـــر الاسلام سواسية كأسنان المشط ،لا فرق بين ذكر وأنثى أو صغير وكبير أو غنى وفقـير أو حر وعبد أو حاكم ومحكوم أو قوى وضعيف أو وجيه ووضيع . ولا فرق كذلك بـــين جنس وجنس أو لون ولون أو طبقة وطبقة أو قبيلة وقبيلة أو شعب وشعب . . الا بالتقوى :

" يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير " (الحجرات : ١٣) .

والمسلمون متساوون فى الحقوق وفى الواجبات وفى تنفيذ المأمورات واجتنـــاب المنهيات ،فكل مسلم ـ حاكم أو محكوم غنى أو فقير . . ـ مطالب بطاعة المولى جل وعلا . ومن هنا لا يوجد رجال دين فى الاسلام ـ كما هو الحال عند أهل الكتاب ـ لان الجميع مطالبون بتحكيم شريعة الله والاستسلام التام لامر الله والرضا وشـــرح الصدر لما جاء به الدين .

والعدل بمفهومه الشامل ـ وهو الحكم بالاسلام ـ هو الغاية الكبرى من ارسال الرسل وانزال الكتب :

" لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط" (الحديد : ٢٥)

والعدل يكون بالقول :

" واذا قلتم فاعدلوا " (الانعام : ١٥٢)

ويكون بالقضاء بين الناس : " واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل " (النساء : ٥٨) .

((والعدل بايجاز هو أن ينال كل امرئ ثمرة عطه وأن يتحمل تبعة خطئه))(١)

---

(١) أحمد ابراهيم : قيم المجتمع هل هى ثابتة ؟ (ضمن بحوث الندوة ١/ ٣٦٨)

لقد أوجب الاسلام الحكم بالعدل ونهى عن الظلم - بجميع أنواعه - واعتبر (الظلم ظلمات يوم القيامة) [(١)] .

وعدم الحكم بالعدل - الظلم - يؤدى للضلال عن سبيل الله فى الدنيا والعذاب الاليم يوم القيامة :

هاهو المولى عز وجل يأمر نبيه داود - على نبينا وعليه الصلاة والسلام - بالعدل والحق والمساواة ، ويحذره من مغبة الظلم - فالظلم مرتعه وخيم [(٢)] - ومن اتباع الهوى والجور فى الاحكام :

" يا داود انا جعلناك خليفة فى الارض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب " (ص : ٢٦) .

واذا كان هذا التحذير موجها لاحد الانبياء - عليهم الصلاة والسلام - فما بالك ببقية الحكام غير المعصومين ؟ !

والعدل - فى الاسلام - ليس تطوعا ولا نافلة ، بل هو فريضة شرعية وضرورة بشرية ، وقد أمر الله تعالى به نبيه محمدا - صلى الله عليه وسلم - وهو من لا يشك أحد فى أنه - صلى الله عليه وسلم - أعدل العادلين بعد رب العالمين :

" وأمرت لاعدل بينكم " (الشورى : ١٥)

وقد أنزل الله تعالى بضع آيات فى تبرئة ساحة يهودى اتهم بسرقة درع (٣) ، وأمر نبيه - صلى الله عليه وسلم - بالاستغفار مما هم به من الدفاع عن السارق ، ونهاه عن الدفاع عمن خانوا أنفسهم بالمعاصى والاثام !

---

(١) البخارى ٣ / ٩٩

(٢) ابن سلام : الامثال ص ٢٥٩

(٣) سرق طعمة بن أبيرق درعا من قتادة بن النعمان فى جراب دقيق ، فجعل الدقيق ينتثر من خرق فيه فخبأها عند زيد بن السمين اليهودى . = =

قال تعالى : " انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما . واستغفر الله ان الله كان غفورا رحيما . ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم ان الله لا يحب من كان خوانا أثيما . ." (النساء : ١٠٥-١٠٧)

وجاء الاسلام بمبدا عظيم ، مغاير لما كان عليه الناس في الجاهلية من حمية وعصبية وظلم (١) ، هذا المبدأ : هو الاخذ على يد الظالم وكفه عن ظلمه سواء كان أخا عزيزا أو صديقا حميما :

عن أنس رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :

(انصر أخاك ظالما أو مظلوما) قالوا : يارسول الله ! هذا ننصره مظلوما فكيف ننصره ظالما ؟ قال : (تأخذ فوق يديه) . (٢)

وها هو ذا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول في حجة الوداع :

" وان أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث كان مسترضعا في بني سعد فقتلته هذيل . وربا الجاهلية موضوع وأول ربا أضع ربانا ربا عباس بن عبد المطلب فانه موضوع كله " (٣)

= فالتمست الدرع عند طعمة فلم توجد وحلف ما أخذها وماله بها علم فتركوه واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهوا الى منزل اليهودي فأخذوها فقال : دفعها الى طعمة . وشهد له ناس من اليهود . فقالت بنو ظفر - قوم طعمة - : انطلقوا بنا الى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - . فسألوه أن يجادل عن صاحبهم وشهدوا ببراءته وسرقة اليهودي . فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم - أن يفعل فنزلت الاية : " انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله . . " وهرب طعمة الى مكة وارتد ونقب حائطا بمكة ليسرق أهله فسقط الحائط عليه فقتله !

انظر : الغرناطي : التسهيل ١/ ٢٨٠ ، والصابوني : مختصر تفسير ابن كثير ١/ ٤٣٣ .

(١) قال الشاعر يهجو قبيلة آخر :

قبيلته لا يغدرون بذمة ولا يظلمون الناس حبة خردل !

وقال زهير بن أبي سلمى :

ومن لا يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم !

(٢) البخاري ٣/ ٩٨ (٣) مسلم ٢/ ٨٨٩

ويتوقف قرب الحاكم من الله تعالى يوم القيامة أو بعده عنه على عدله أو جـــوره في أحكامه بين الناس :

قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : (ان أحب الناس الى الله يوم القيامة وأدناهم منه مجلسا امام عادل . وأبغض الناس الى الله يوم القيامة وأبعدهم منـــه مجلسا امام جائر) (١) .

وقال أيضا : (ان المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجل وكلتا يديه يمين ، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا) (٢) .

ومن العدل أن يقوم الحاكم بواجباته الملقاة على عاتقه خير قيام ، والا يقصـــر في شيء منها . وأن يتفقد أحوال رعيته ، الفقير قبل الغني والضعيف قبل القوى :

يقول الصديق رضي الله عنه :

(ان أقواكم عندى ضعيف حتى آخذ منه الحق ، وان أضعفكم عندى قوى حتى آخذ له بحقه) (٣)

ويقول الفاروق رضي الله عنه :

(والله ما فيكم أحد أقوى عندى من الضعيف حتى آخذ الحق له ، ولا أضعف عندى من القوى حتى آخذ الحق منه) (٤)

---

(١) الترمذى ٤ / ٦٠٨

(٢) مسلم ٣ / ١٤٥٨

(٣) ابن الجوزى : الشفاء ص ٨٠

وتهذيب سيرة ابن هشام ص ٣٦٥

ومختصر السيرة ص ٤٠٧

(٤) ابن كثير : المختصر ١ / ١٥٩

وكتب عمر لأبي موسى الأشعرى : (ان القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة فافهم اذا أدلى اليك بحجة ، فانه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له بين الناس . = =

(والعدل في الاسلام : هو العدل المطلق الذى لا يميل ميزانه الحب والبغض ،ولا تغير قواعده المودة والشنآن . العدل الذى لايتأثر بالقرابة بين الافراد ، ولا بالتباغض بين الاقوام ،فيتمتع به أفراد الامة الاسلامية جميعا ،لايفرق بينهم حسب ولا نسب ،ولا مال ولا جاه ،كما تتمتع به الاقوام الاخرى ،ولو كان بينها وبين المسلمين شنآن ،وتلك قمة في العدل لا يبلغها أى قانون دولى الى هذه اللحظة ، ولا أى قانون داخلى . بل لا يقاربها كذلك !

والذين يمارون في هذا عليهم أن يراجعوا عدالة الاقوياء والضعفاء بين الامم ، وعدالة المتحاربين بعضهم بالقياس الى بعض . ثم عليهم أن يراجعوا عدالة البيض للحمر والسود في الولايات المتحدة ، وعدالة البيض للملونين في جنوب افريقية ، وعدالة الشيوعيين والوثنيين والصليبيين للمسلمين في روسيا والصين ويوغوسلافيا والهند والحبشة . وفي الاشارة مايغني . فهي أحوال معاصرة يعلمها كل أنسان . (١)

والمهم في عدالة الاسلام أنها لم تكن مجرد نظريات ،بل أخذت طريقها الى واقع الحياة ،فحفظ ((الواقع التاريخي)) منها أمثلة متواترة) . (٢)

= آس بين الناس في وجهك ومجلسك وعدلك ،حتى لاييأس الضعيف من عدلك ولا يطمع الشريف في حيفك) .

انظر الشيرازى : طبقات الفقهاء ص ٣٩ والطبرى : الرياض النضرة ٢/١٦٤

(١) لله در القائل :

أين اتجهت الى الاسلام في بلد تجده كالطير مقصوصا جناحاه !!

(٢) سيد قطب : العدالة الاجتماعية ص ١٠١ و ١٠٢

(وقد أعطى الاسلام أهل الذمة حقوقهم كاملة ولم يظلمهم شيئا ، فدم الذمي كدم المسلم ، والقانون الجنائي والقانون المدني : يطبقان على المسلم والذمي معـــا) (١)

ومن العدل : أن يحاسب الحاكم نفسه وأهل بيته قبل أن يحاسب أفراد رعيته ، لان الناس ينظرون اليه وأليهم نظر الطير الى الحب :

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ : أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : (وأيم الله ! لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها) (٢)

(دخل عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ فوجد غلاما له يعلف ناقته ، فرأى فـــي علفها شيئا ، فأخذ بأذنيه فعركها . ثم ندم فقال لغلامه : قم فاقتص مني . فأبى الغلام . فلم يزل به حتى قام فأخذ بأذنه قال : أعرك ! حتى عرف عثمان أنه قـــد بلغ منه . ثم قال : واها لقصاص الدنيا من قصاص الاخرة !) (٣)

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال :

اشتريت ابلا وارتجعتها الى الحمـــى . فلما سمنت قدمت بها ، فدخل عمر السوق فرأى ابلا سمانا فقال : لمن هذه ؟ فقيل : لعبد الله بن عمر . فجعل يقـــول : ياعبد الله بخ بخ ابن أمير المؤمنين ! قال : فجئته أسعى فقلت : مالك يأمير المؤمنين ؟ قال : ماهذه الابل ؟ فقلت : ابلا أنضاء اشتريتها وبعثت بها الحمى ابتغي مايبتغي المسلمون . فقال : ارعوا ابل ابن أمير المؤمنين . . اسقوا ابل ابن أمير المؤمنين . . ياعبد الله بن عمر ! اغد على رأس مالك واجعل باقيه فـــي

---

(١) انظر المودودي : حقوق أهل الذمة في الدولة الاسلامية من ص ١٣ ـ ٢٠

(٢) انظر : عبد الرزاق : المصنف ١٠ / ٢٠١

والدارمي : سنن الدارمي ٢ / ١٧٣

والطحاوي : شرح معاني الاثار ٣ / ١٧٠

(٣) ابن الازرق : بدائع السلك ٢ / ٦٦٠

بيت مال المسلمين) ! (١)

ومن العدل : أن يثبت الحاكم للمحكومين ـ ولو كانوا من غير المسلمين ـ أن المجال مفتوح أمامهم لرفع ظلامتهم وأخذ حقوقهم غير متمتمين :

(لما ولى معاوية ـ رضى الله عنه ـ اراد أن يزيد كنيسة يوحنا فى المسجد ـ الاموى ـ بدمشق ، فأبى النصارى ذلك . فأمسك . ثم طلبها عبد الملك بن مروان فى ايامه للزيادة فى المسجد وبذل لهم مالا . فأبوا أن يسلموها اليه . ثم ان الوليد بن عبد الملك جمعهم فى أيامه وبذل لهم مالا عظيما على أن يعطوه اياها . فأبوا . فقال : لئن لم تفعلوا لاهدمنها ! فقال بعضهم : يا أمير المؤمنين ! ان من هدم كنيسة جن وأصابته عاهة ! فأمر بهدمها وأدخلها فى المسجد . فلما استخلف عمر بن عبد العزيز ـ رضى الله عنه ـ شكى النصارى اليه مافعل الوليد بهم فى كنيستهم . فكتب عمر الى عامله يأمره برد مازاده فى المسجد عليهم . فكره أهل دمشق ذلك وقالوا : نهدم مسجدنا بعد أن أذنا فيه وصلينا ويرد بيعة ؟! وفيهم يومئذ : سليمان بن حبيب المحاربى وغيره من الفقهاء . وأقبلوا على النصارى فسألوهم أن يعطوا لهم جميع كنائس الغوطة التى أخذت عنوة وصارت فى أيدى المسلمين ، على أن يصفحوا عن كنيسة يوحنا ويمسكوا عن المطالبة بها . فرضوا بذلك وأعجبهم ! فكتب به الى عمر ـ رضى الله عنه ـ فسره وأمضاه) !! (٢)

---

(١) الطبرى : الرياض النضرة ٢ / ١٣٧

بخ بخ : معناه تعظيم الامر وتفخيمه .

وأنضاء : جمع نضو وهو البعير المهزول ، والناقة نضوة ، وقد أنضتها الاسفار فهى منضاة .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٧١

عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - نموذج للحاكم المسلـــم

ان الدولة فى الاسلام لاتعتبر اسلامية بحق الا اذا حكمت بما أنزل الله .(١)

وقد استطاعت الامة الاسلامية - بحكامها ومحكوميها - حين تمسكت بالكتاب والسنـــة وعضت عليهما بالنواجذ ، أن تكون رائدة الامم فى شتى نواحى الحياة ، وبقيت كما وصفها خالقها :

" خير أمة أخرجت للناس " (آل عمران : ١١٠) .

وارتفعت رايات التوحيد - لا اله الا الله - خفاقة فى أرجاء كثيرة من المعمورة ، وأصبح البحر الابيض المتوسط - لاول مرة فى التاريخ - بحيرة اسلامية !(٢)

وفى الاسلام ليس لفرد أو أسرة أو طبقة أو حزب نصيب من الحاكمية ، فالحاكم الحقيقى هو الله سبحانه وتعالى - والسلطة مختصة بذاته تعالى وحده .

---

(١) وقد نعى الله تعالى على اليهود أخذهم لبعض ما أنزل الله وتركهم الباقى ، وعددهم بالخزى فى الدنيا والعذاب الشديد فى الاخرة : " أفتؤمنـــون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منك الا خزى فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون الى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملـــون" (البقرة : ٨٥)

(٢) لله در الرفاعى - رحمه الله - حيث يقول :

ملكنا هذه الدنيا قرونـــا	وأخضعها جدود خالدونـــا
وسطرنا صحائف من ضيـــاء	فما نسى الزمان ولا نسينـــا
حملناها سيوفا لامعـــات	غداة الروع تأبى أن تلينـــا
اذا خرجت من الاغماد يوما	رأيت الهول والفتح المبينـــا
وكنا حين يرمينا أنـــاس	نؤدبهم أباة قادرينـــا
وكنا حين يأخذنا ولـــى	بطغيان ندوس له الجبينـــا
تفيض قلوبنا بالهدى بأسا	فما نغضى عن الظلم الجفونـــا

انظر لحن الكفاح ص ٣٣

وليس لاحد من دون الله شيئ من أمر التشريع . والمسلمون جميعا لا يستطيعون أن يشرعوا من عند أنفسهم أو أن يغيروا شيئا مما شرع الله لهم . والدولة الاسلامية لا يؤسس بنيانها الا على ماجاء به رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من عند ربه عز وجل ، مهما تغيرت الظروف والاحوال ، والولاة الذين بيدهم زمام هذه الدولة لا يستحقون طاعة الناس الا من حيث أنهم يحكمون بالكتاب والسنة ".(١)

والحاكم فى الاسلام يوقن ان الامارة تكليف لا تشريف ، وأنه لا فرق بين الراعى والرعية الا أنه أكثرهم مسؤولية وتبعات والتزامات تجاه الله تعالى ثم تجاه الناس .

والحاكم المسلم يقوم بما نيط به من تكاليف -تجاه ربه تعالى وتجاه الناس- خير قيام ، ويجتهد فى القيام بشئون رعيته واسعادهم وتفقد أحوالهم ، وحل مايواجههم من مشاكل وعقبات ، وفض النزاعات بينهم .

والحاكم المسلم يقوم بالدعوة الى الله ونشر الاسلام وحماية الدعوة والدعاة والجهاد فى سبيل الله .

والحاكم المسلم يعطى رعيته الحرية فى قول كلمة الحق ، ولا يسمح لنفسه - ولا لغيره - بمساس هذه الحرية ، أو تعدى حرمات الله أو الاعتداء على حرية الاخرين .

والحاكم المسلم يتخذ له بطانة صالحة ، تذكره اذا نسى ، وتعينه اذا ذكر ، تحثه على الخير وتدله عليه وتنهاه عن الشر وتحذره منه .

والحاكم المسلم يقسم بالسوية ويعدل فى الرعية - ولو كان فى الرعية من غير المسلمين - ويخشى مع ذلك رب البرية !

والحاكم المسلم ذليل على المؤمنين عزيز على الكافرين ، رفيق بالرعية لا يرهقها ولا يكلفها مالا تطيق .

والحاكم المسلم لا يغفل عن وظيفته ، ولا يغش رعيته :

---

(١) انظر المودودى : نظرية الاسلام السياسية ص ٣٣

يقول رسول الهدى (صلى الله عليه وسلم) :

" ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته الا حرم الله عليه الجنة " (١)

والحاكم المسلم يعرف أنه مسؤول أمام الله عن تقصيره - تجاه دينه أو تجاه نفسه أو تجاه رعيته - ومسؤول أمام الناس أيضا ، فهو راع ومسؤول عن رعيته :

"كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ، فالامام الذى على الناس راع وهو مسؤول عن رعيته " (٢)

وكل مايلزم من شروط وصفات للحاكم المسلم متوفر فى الخلفاء الراشدين - ومنهم عمر بن عبد العزيز - رضى الله عنهم .

وسنأخذ سيرة واحد من هؤلاء ، لتكون قدوة لمن شاء من الحكام - فى أى مكان وأوان - أن يستقيم . انها سيرة أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه ، أحد تلامذة خير المربين وقدوة العالمين ومن شهد له أحكم الحاكمين بأنه على خلق عظيم - صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعه وسار على نهجه الى يوم الدين - .

لله در عمر ! فقد أعزه الله بالاسلام وأعز الاسلام به ! وأضحت سيرته درة متلألئة على جبين التاريخ ! والحديث عنه - رضى الله عنه - بحر لا ساحل له ولا نهاية لقراره ، فلذا سنختار أمثلة من حياته الحافلة بالعجائب ، والتى هى حقائق واقعة وبراهين ساطعة ، على عظمة الاسلام وعظمة نتاجه فى الوجود .

كان عمر - رضى الله عنه - لايختار من عماله وولاته الا من استقامت سيرته وصلحت علانيته . وكان بعد ذلك يستمع الى شكاوى الناس فيه - ان وجدت - ولايطمئن الى اختياره فحسب ثم يدع الامور تجرى كيفما اتفق ! بل كان لا يصدر أحكامه - بحق الوالى أو بحق الرعية - الا بعد تحقيق واف فى القضية .

---

(١) مسلم ٣ / ١٤٦٠

(٢) البخارى : الادب المفرد ص ٦٢ ، والطبرانى : المعجم الصغير ١ / ١٦١

وهذه الحادثة تؤيد ماذهبنا اليه :

(كان من عمال عمر - رضى الله عنه - سعيد بن عامر - رضى الله عنه - فشكاه أهل حمص لعمر وسألوه عزله ! فقال عمر : اللهم لا تفل فراستى فيه اليوم - وقال لهم : ماذا تشكون منه ؟ قالوا : لا يخرج الينا حتى يرتفع النهار . ولا يجيب أحدا بليل . وله يوم فى الشهر لا يخرج الينا ! فقال عمر : على به . فلما جاء جمع بينه وبينهم وقال : ماتنقمون منه ؟ قالوا : لا يخرج الينا حتى يرتفع النهار ! فقال عمر : ماتقول ياسعيد ؟ قال : يا أمير المؤمنين ! انه ليس لاهلى خادم ، فأعجن عجينى ثم أجلس حتى يختمر ثم أخبز خبزى ثم أتوضأ وأخرج اليهم ، قال : وماذا تنقمون منه ؟ قالوا : لا يجيب بليل . قال : قد كنت أكره أن أذكر هذا . انى جعلت الليل كله لربى وجعلت النهار لهم . قال : وماذا تنقمون منه ؟ قالوا : له يوم فى الشهر لا يخرج الينا فيه . قال : ليس لى خادم ، فأغسل ثوبى ثم أجففه فأمسى ! فقال عمر : الحمد لله الذى لم يفل فراستى فيك . يا أهل حمص ! استوصوا بواليكم خيرا) .(١)

وقد طبق المسلمون جميعا - رعاة ورعية - مبدأ (من أين لك هذا) على الخليفة وعلى غيره من العمال والولاة !

وسنرى الان كيف طبق الخليفة هذا المبدأ على أحد ولاته - كما طبقه على نفسه - وكيف أنه لم يقتنع باجابة الصاحبى الجليل (أبى هريرة) :

(لما قدم أبو هريرة من البحرين قال له عمر : ياعدو الله ! وعدو كتابه ! أسرقت مال الله ؟ قال : لست بعدو الله ولا عدو كتابه ولكنى عدو من عاداهما ، ولم أسرق مال الله ! قال فمن أين اجتمعت لك عشرة الاف درهم ؟ فقال : خيلى تناسلت وعطائى تلاحق وسهامى تلاحقت . فقبضها منه عمر ! قال أبو هريرة : فلما صليت الصبح استغفرت لامير المؤمنين !!!) (٢)

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ٢/٣١٤

(٢) أبو عبيد : الاموال ص ٣٤٢ (وانظر التعليق على هذه الحادثه فى كتاب الخطيب : السياسة المالية فى الاسلام ص ٩٢) والبلاذرى : فتوح البلدان ص ١١٢ .

ولا ندرى من أيهما نعجب ؟ أمن عمر الذى طبق هذا المبدأ على أحد كبار الصحابة من ولاته ، بعد أن رأى أن من المصلحة أن يضم أمواله لبيت المال - مع أنه موقن فى قرارة نفسه بصدق عامله - فى سبيل تحقيق هذا المبدأ ؟

أم نعجب من أبى هريرة - رضى الله عنه - الذى رضى بتطبيق هذا المبدأ عليه وتغليب المصلحة العامة على المصلحة الخاصة ؟

ولله در هذا الصحابى الذى تربى على عقيدة (لا اله الا الله) وتخرج من مدرسة النبوة حيث قال : فلما صليت الصبح . . استغفرت لأمير المؤمنين !

وما نظن أن هذه الواقعة حدثت فى غير أمة التوحيد ! فلنردد معا فى اجلال وخشوع :
(صلى الله على صاحب الرسالة وعلى آله وصحبه الغر الميامين وسلم تسليما كثيرا) .

كان عمر رضى الله عنه رجاعا الى الحق غير متماد فى الباطل ، يعرف أن الرجوع الى الحق فضيلة ، وكان يحاسب نفسه وينصف غيره - ولو من نفسه - :

أدب عمر - رضى الله عنه - رجلا يصلى بين النساء ! فقال الرجل : والله لئن كنت أحسنت فقد ظلمتنى ، وان كنت أسات فما أعلمتنى ! فقال عمر : أما سمعت نهيى أن يطوف الرجال مع النساء ؟ فقال الرجل : والله ماسمعت . فالقى عمر له الدرة وقال : اقتص ! فقال الرجل لا أقتص اليوم ! فقال عمر : فاعف . فقال الرجل : لا ! وانصرف . ثم لقيه عمر فى اليوم التالى فقال له : اما أن تقتص أو تعفو . قال: قد عفوت !) (١)

أن العقيدة الاسلامية هى التى ربت الخلفاء الراشدين المهديين على السير على الجادة والاخذ بالعزائم والابتعاد عن المظاهر البراقة الخادعة . والذى لم يعرف عمر - رضى الله عنه - لا يستطيع أن يميزه عن غيره من الناس ، لا بمسكنه ولا بثيابه ولا بطعامه ولا بحرس خاص يحيط به :

---

(١) المجيلدى : التيسير فى أحكام التسعير ص ٤٤

ها هو ذا عمر - أمير المؤمنين - يتخذ الخشن من الطعام ويلبس المرقع من الثياب فيقال له : لو اتخذت طعاما ألين من هذا ! فيقول : أخشى أن تعجل طيباتي بقول الله تعالى :

" أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها " (الاحقاف : ٢٠) (١)

وها هو ذا يسأل سلمان الفارسي : أملك أنا أم خليفة ؟ فيجيبه سلمان : ان أنت جبيت من أرض المسلمين درهما أو أقل أو أكثر ، ثم وضعته في غير حقه فأنت ملك غير خليفة ! فاستعبر عمر (رضي الله عنه) ! (٢)

ما أروع جواب سلمان - رضي الله عنه - لعمر - رضي الله عنه - ! وما أصدقه ! فقد بين سلمان له الفرق بين الخليفة والملك ، بايجاز وصراحة - دون مواربة أو نفاق أو دجل - .

وما أروع استجابة عمر لهذه الموعظة الثمينة الخارجة من الاعماق ! لقد اهتز لها قلبه الشفيف . . فبكى قبل أن تدمع عيناه !!

أن للرعية - في الحكومة الاسلامية - أن تحاسب راعيها وأن تسأله عما يلفت النظر أو مايثير الدهشة والاستغراب :

(جاءت عمر بن الخطاب برود من اليمن . . ففرقها على المسلمين . . فكان نصيب كل رجل بردا واحدا . . وكان نصيب عمر كنصيب واحد منهم . ففصله عمر ثم لبسه وصعد المنبر ، فأمر الناس بالجهاد . فقام اليه رجل وقال : لا سمعا ولا طاعة ! فقال عمر : لم ذلك ؟ قال : لانك استأثرت علينا ! قال عمر : بأي شيء استأثرت ؟ قال : ان الابراد اليمنية لما فرقتها حصل لكل واحد من المسلمين برد منها وكذلك حصل لك ، والبرد الواحد لا يكفيك ثوبا ونراك قد فصلته

---

(١) الشاطبي : الموافقات ١٧٨/٣

(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ١٤٠

قميصا تاما وأنت رجل طويل ، فلو لم تكن قد أخذت أكثر منه لما جاءك منه قميص!

فالتفت عمر الى ابنه عبد الله وقال : ياعبد الله! أجبه عن كلامه . فقام عبد الله وقال ان أمير المؤمنين لما أراد تفصيل برده لم يكفه فناولته من بردى ماتممه به .

فقال الرجل : أما الان فالسمع والطاعة!) . (١)

(كان عمر يخرج فى كل يوم ماشيا وحده ، لا يدع أحدا يخرج معه ، فيمشى على طريق العراق ميلين أو ثلاثة ، فلا يطلع عليه راكب من جهة العراق الا سأله عن الخبر .. .

فبينا هو كذلك يوما ، طلع عليه البشير بالفتح . فلما راه عمر ناداه من بعيد :

ما الخبر ؟ قال : فتح الله على المسلمين ، وانهزمت العجم! (٢)

وجعل يخب ناقته وعمر يعدو معه يسأله ويستخبره ـ والرسول لا يعرفه ـ حتى دخل المدينة . واستقبل الناس عمر يسلمون عليه بالخلافة وامرة المؤمنين فقال الرسول ـ وقد تحير ـ : سبحان الله يا أمير المؤمنين! الا أعلمتنى ؟

فقال عمر : لا عليك . ثم أخذ الكتاب فقرأه على الناس!) .

نعم! كان رضى الله عنه يخرج بنفسه لاستطلاع أخبار المجاهدين ، لانه يعلم أن الله قلده أمر هذه الامة فلا يجوز أن يغفل عنها . ولانه يعلم أنه سيحاسب عن نفسه وعن أحوال رعيته ، لم يكلف ـ رضى الله عنه ـ من يقوم بهذا العمل ويسقطه عنه ، مع أنه لا حرج عليه لو فعل ذلك . ولكن لماذا لا يدع أحدا يخرج معه ؟

---

(١) ابن الطقطقا : الفخرى فى الاداب السلطانية ص ٩٢
والطبرى : الرياض النضرة ٢/١٥٣

(٢) الدينورى : الاخبار الطوال ص ١٢٣ ، وابن كثير : البداية والنهاية ٧/٤٤
وابن الطقطقا : الفخرى فى الاداب السلطانية ص ٨١

اظن ـ والله أعلم ـ أنه لا يريد أن يظهر للناس ذلك فيمدحوه ـ وهو يكره المدح ـ، لانه يرجو ثواب الله تعالى وثناءه وحده ؛ ولا يريد في الوقت نفسه أن يتعب غيره ـ فهو مسؤول عنهم وهم لا يسألون عنه ـ وما دام الأمر متحققا من خروجه هو فلم يضيع وقت غيره ، والوقت أثمن مايملكه الانسان بعد الايمان بالله؟*

أنه ـ رضي الله عنه ـ لم يخرج مرة أو مرتين . . ولم يسأل راكبا أو راكبين . . ثم يشعر بالملل . . بل ان الامر في نفسه أكبر من ذلك ، لأنه يتعلق بأفراد كثر من رعيته .

لله دره . فقد قال لمن عاتبه في اجتهاده نهارا في أمور الناس وليلا في أمور العبادة :

(ان أنا نمت نهاري ضاعت الرعية ، وان نمت ليلي ضيعت نفسي ، فكيف بالنوم معهما ؟ (١)

حقا يامن جعل الله الحق على قلبك ولسانك ، عرفت فالزم ولنعد الى القصة :

لقد قال البشير متحيرا : ألا أعلمتني يا أمير المؤمنين ؟

ولكن لماذا يخبره عمر ؟ هل الامارة مفخرة وتشريف ووسيلة لنيل الجاه والسلطان والاحترام ، واشعار الناس بأنه ظل الله في الارض ؟ . لا .

اذن . فما فائدة الالقاب الفخمة ، والتميز عن الناس بالمظاهر ؟

لله در عمر . وهو يحمل ماتعجز عنه العصبة أولو القوة من الرجال!

يقول طلحة ـ رضي الله عنه ـ :

(رأيت عمر يدخل بيتا . . فدخلت ذلك البيت فاذا عجوز عمياء مقعدة . فقلت

---

* قلت : يقول الجاهلون ـ الذين يقيسون كل شيء بالمادة ـ الوقت من ذهب. وقد كذبوا في ذلك لأن الوقت هو الحياة والحياة مادة وروح .

(١) الطبري : الرياض النضرة ٢/ ١٤٧

ما بال هذا الرجل يأتي هنا ؟ فقالت : انه يتعاهدني بالشيء من الطعام ويقم البيت ويخرج الأذى منه) (١)

يالله . أنه يقوم بكل ذلك دون أن يشعر به أحد حتى هذه العجوز .

وهو لا يطلب الثناء من أحد . الا من الفرد الصمد .

وقد بين عمر - رضي الله عنه - لولاته أن لا فرق بينهم وبين أحد من أفراد الرعية سوى أنهم مكلفون بتعليم الناس أمور دينهم . وأي وال استطال على أحد أفراد المجتمع فضربه أو أخذ منه ماله - بغير حق - فلن يفلت من عقاب الخليفة .

يقول عمر (رضي الله عنه) :

(اني والله ما أرسل عمالي اليكم ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم ولكني أرسلهم اليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم . فمن فعل به سوى ذلك فليرفعه الي ، فو الذي نفسي بيده اذن لأقصنه منه . فوثب عمرو بن العاص فقال : يا أمير المؤمنين ان كان رجل من المسلمين على رعية فأدب بعض رعيته أئنك لمقتصه منه ؟ قال : اي . والذي نفس عمر بيده اذا لأقصيه منه ، وقد رأيت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقصّ من نفسه)(٢)

وهكذا فان الخليفة ان لم يأخذ على يد المعتدي - ولو كان من الولاة - ويأطره على الحق أطرا ، فان أمور الناس ستضطرب ، وسيعّم الفساد العباد ، كما قال جل شأنه :" واتقوا فتنه لاتصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصة"(الانفال : ٢٥)

وفي حالة شعور مساعدي الخليفة من الولاة بأنهم متساوون مع بقية أفراد المجتمع لا امتيازات لهم على غيرهم ، وأن الامام لن يقبل - حال اعتدائهم - غير القصاص

---

(١) ابن الجوزي : الشفاء ص ٨١

(٢) عبد الرزاق : المصنف ٩/ ٤٦٨

وابن تيمية : السياسة الشرعية ص ١٧٣

أو عفو الطرف الآخر ، فان أيا منهم لن يفكر بالظلم ان كان عاقلا ، وبهذا يكون المجتمع آمنا مطمئنا ، يلتزم كل فرد فيه بواجباته ويؤدى حقوقه فى الوقت نفسه .
ولننظر كيف طبق الخليفة عمر شريعة الله على نفسه وعلى أهله قبل أن يطبقها على رعيته :

عن عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) قال :

(شرب أخي عبد الرحمن وشرب معه عقبة بن الحارث ـ أبو سروعة ـ وهما بمصر فى خلافة عمر فسكرا . فلما أصبحا انطلقا الى عمرو بن العاص وهو أمير مصر فقالا : طهرنا فانا قد سكرنا من شراب شربناه .

قال عبد الله : فذكر لى أخي أنه سكر . فقلت : ادخل الدار اطهرك . ولم أشعر أنهما أتيا عمرو بن العاص . فأخبرنى أخي أنه قد أخبر الأمير بذلك .

فقال عبد الله : لا يحلق القوم على رؤوس الناس ، أدخل الدار ، وكانوا اذ ذاك يحلقون مع الحدود ، فدخل الدار فقال عبد الله : فحلقت أخي بيدى . ثم جلدهم عمرو .وسمع بذلك عمر فكتب الى عمرو : ان ابعث الى بعبد الرحمن على قتب ـ بعير ـ ، ففعل ذلك .

فلما قدم على عمر جلده وعاقبه لمكانه منه ثم أرسله . فلبث شهرا صحيحا ثم اصابه قدره فمات . فحسب عامة الناس أنه مات من جلد عمر .) (١)

وعن سالم بن عبد الله بن عمر قال :

(كان عمر اذا نهى الناس عن أمر ، دعا أهله فقال : انى نهيت الناس عن كذا وكذا ، وانما ينظر الناس اليكم نظر الطير اللحم . فان وقعتم وقع الناس . . وان هبتم هاب الناس . وانه والله لا يقع أحد منكم فى شيء نهيت الناس عنه الا أضعف له العقوبة لمكانه منى .) (٢)

---

(١) الغزالى : التبر المسبوك ص ٦٩
وعبد الرزاق : المصنف ٩ / ٢٣٢

(٢) الطبرى : الرياض النضرة ٢ / ١١٩

وها هو ذا عمر يعلّم واحدا من الزعماء المترفين المتكبرين ، أنه لا فرق بين الطبقة الغنية والفقيرة أو بين الأقوياء والضعفاء ، الا باحقاق الحق - أيا كان صاحبه - وابطال الباطل - مهما كانت النتيجة -:

(خرج عمر للحج فحج جبلة بن الأيهم معه ، وبينما جبلة طائفا اذ وطيء رجل من فزاره على ازارة ، فلطمه جبلة فهشم أنفه . فأقبل الفزارى الى عمر وشكا جبلة . فأحضره عمر وقال : افتد نفسك والا أمرته أن يلطمك . فقال جبلة : كيف ذلك ؟ . وأنا ملك وهو سوقه . فقال عمر : ان الاسلام جمعكما وسوى بين الملك والسوقة في الحدّ . فقال جبلة : كنت أظن أنى بالاسلام أعز منى فى الجاهلية . فقال عمر : دع عنك هذا . فقال جبلة : أتنصر . فقال عمر : ان تنصرت ضربت عنقك . فقال جبلة : انظرنى ليلتى هذه . فأنظره . فلما جاء الليل سار جبلة الى الشام بخيله ورجله ثم ذهب الى القسطنطينية). (١)

وقد يقول قائل : ان مصلحة الدعوة الاسلامية تقتضى - آنذاك - ألا يعاقبه عمر ، تأليفا لقلبه - فهو حديث عهد بكفر - ولتكسب الدعوة من وراء اسلامه كثيرا من أتباعه .

ولكن النظرة البعيدة لصاحب النظر الثاقب ، ترى غير مايراه أصحاب النظرية السطحية ، الذين يقيسون الأمور بالكم لا بالكيف بالعدد لا بالنوعية .

فالعقيدة الربانية التى فاء الى ظلها المسلمون جميعا لالبس فيها ولا غموض . وهى تعلم الكافة ألا فضل لأحد على أحد الا بالتقوى .

فلو لم يقتص عمر من جبلة بن الأيهم ، لأحدث ذلك خللا فى المجتمع الاسلامى المتماسك - الذى تتكون أكثريته الساحقة من السوقة لا من الملوك - ولأدى الى الاخلال بأحد ركائز الحكم الاسلامى - الا وهى العدل -.

---

(١) ابن أعثم : الفتوح ١ / ٣٠٢

وابن كثير : المختصر فى أخبار البشر ١ / ١٦١

وما الذى يمنع جبلة ـ لو تغاضى عمر عن فعلته هذه ـ من تكرار ارتكاب ما يخل بمستلزمات الحكم الاسلامى ؟ ومن للضعفاء والسوقة ـ عامة الناس ـ ينتصر لهم من ظلم الأقوياء وأصحاب الجاه والسلطان اذا لم يكن خليفة المسلمين ؟

لقد أعطيت هذه الحادثة الاذن لكل مظلوم ـ حتى ولو كان من غير المسلمين ـ ليقرع باب الحاكم العادل عمر . بل ان بابه لم يغلق ، ولم يحط بمجموعة من الحاشية تمنع وصول شكاوى المظلومين والضعفاء .

وكان بامكان أى واحد أن يدخل على الخليفة فى أى وقت ليأخذ حقه وهو غير متعتع .

ان هذه الحادثة تعلمنا أن خسارة واحد أوعشرة أو مائة أو ألف أو مليون ... ممن لم يدخل الايمان فى قلوبهم ، أهون بكثير من خسارة ركيزة هامة من ركائز الحكم الاسلامى . فليس المهم هو زيادة عدد المسلمين بأية وسيلة وان كان ذلك مهما ـ على حساب التهاون فى تطبيق شرع الله ، انما المهم تعليم الناس أخلاقيات هذه العقيدة .

ومن هنا يخطىء أصحاب الدعوات ـ والله أعلم ـ حين يستكثرون من الأتباع ويقللون من تربيتهم على العقيدة الربانية التى تربى عليها الرعيل الاول ، فأحدثوا ـ مع أنهم قلة ـ أعظم انقلاب فى تاريخ البشرية الطويل .

أمثلة من واقع الحياة السياسية في الاسلام :

==========================

ـ أحبّ اليّ من الامارة .

(لما بلغ عبد الرحمن بن الأسود أن عثمان أراد أن يستعمله على العراقيين قال : والله لركعتين أركعهما أحبّ اليّ من الامارة على العراقين) (١)

ـ ماكنت لأعصيه ميتا .

(مرّ عمر بن الخطاب بامرأة مجذومة وهي تطوف بالبيت ، فقال لها : يا أمة الله . لو جلست في بيتك . فجلست . فمر بها رجل بعد ذلك ، فقال لها : ان الذي كان قد نهاك مات فاخرجي .

فقالت : ماكنت لأطيعه حيا وأعصيه ميتا) (٢)

ـ لاثوب له غيره .

(عاتب مسلمة بن عبد الملك أخته فاطمة ـ زوجة عمر بن عبد العزيز ـ في ترك غسل ثيابه في مرضه . فقالت : انه لاثوب له غيره) (٣)

ـ انا رأيناه لها أهلا .

(لما بويع لأبي بكر جاء أبو سفيان الى علي بن أبي طالب فقال : غلبكم على هذا الامر أذل أهل بيت في قريش . أما والله لأملأنها خيلا ورجالا . فقال علي : مازلت عدوا للاسلام وأهله فما ضر ذلك الاسلام وأهله شيئا ، انا رأينا أبا بكر لها أهلا) (٤)

---

(١) الدباغ : معالم الايمان ١ / ١٦١

(٢) مالك : الموطأ ص ٢٧٣

(٣) الاربلي : خلاصة الذهب ص ٢٣
وابن العماد : شذرات الذهب ١ / ١٢٠

(٤) الزهري : المغازي ص ١٤٨

ـ من يحلب لنا ؟

(كان أبو بكر الصديق يحلب للحيّ أغنامهم ، فلما بويع بالخلافة قالت جارية من الحيّ : الآن من يحلب لنا منائح دارنا ؟ فسمعها الصديق فقال : لأحلبنها لكم ، وأرجو ألا يغرني ما دخلت فيه عن خلق كنت فيه) (١)

ـ أفغرت أفواه بنيك .

(قيل لعمر بن عبد العزيز فى مرض موته : ياأمير المؤمنين . أفغرت ـ أفقرت ـ أفواه بنيك من هذا المال ، وتركتهم فقراء لا شيء لهم . فقال : أدخلوهم عليّ . فأدخلوهم وهم بضعة عشر ذكرا ليس فيهم بالغ ، فلما رآهم ذرفت عيناه ، ثم قال : يابني . والله مامنعتكم حقا هو لكم ، ولم أكن بالذى آخذ أموال الناس فأدفعها اليكم . وانما أنتم أحد رجلين : أما صالح ، فالله يتولى الصالحين واما غير صالح ، فلا أخلف له مايستعين به على معصية الله . قوموا عنى) (٢)

ـ فتنقصنى من حقى ؟

(قال عمر لرجل : أنى لا أحبك . قال : فتنقصينى من حقى شيئا ؟ قال : لا . قال : فما يفرح بالحب بعد هذا الا النساء) (٣)

---

(١) الطبرى : الرياض النضرة ١ / ٢٤٥
يقول الاستاذ محمد قطب : وهذا أبو بكر خليفة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) المهيمن على الدولة الناشئة ومشاكلها المتعددة فى الداخل والخارج لاتمنعه كل هذه المشاغل عن أن تطوف بمشاعره أنبل العواطف الانسانية التى تكفى وحدها لو شغلت قلب انسان أن ترفعه عن مستوى البشر الماديين .
انظر الانسان بين المادية والاسلام ص ١٢٨ .

(٢) ابن تيمية : السياسة الشرعية ص ٢١

(٣) ابن الطقطقا : الفخرى ص ٣٥

ـ بهذا قامت السماوات والأرض .

(بعث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عبد الله بن رواحة ـ رضي الله عنه ـ يقدر على أهل خيبر محصولهم من الثمار والزروع لمقاسمتهم اياها مناصفة حسب عهده بعد فتح خيبر . . . فحاول اليهود رشوته ليرفق بهم . فقال عبد الله : والله لقد جئتكم من عند أحب الخلق اليّ ولأنتم أبغض اليّ من القردة والخنازير ، وما يحملني حبي أياه وبغضي لكم على ألا أعدل فيكم .

فقالوا : بهذا قامت السماوات والأرض) (١)

ـ هذه أحكام الأنبياء .

(ضاع درع لعلي ـ رضي الله عنه ـ فعرفت عند رجل نصراني ـ وقيل : يهودي ـ فخاصمه علي الى القاضي شريح . فقال شريح : ما تقول يا أمير المؤمنين ؟ فقال علي : هذه درعي وقعت مني فقال شريح : ما تقول يانصراني ؟ فقال : ما أكذب أمير المؤمنين الدرع درعي . فقال شريح : ما أرى أن تخرج من يده ، فهل من بينة ؟ فقال علي : صدق شريح .

فقال النصراني : أما أنا فأشهد أن هذه أحكام الأنبياء . . هي والله درعك) (٢)

ـ هذا لمن يموت كثير .

(كان عمر بن عبد العزيز ـ رضي الله عنه ـ قبل خلافته يلبس الحلة بألف دينار ويقول : ما أخشنها . وحين ولي الخلافة كان قميصه وعمامته وجميع مايكون على بدنه من ثوب واحد خشن وتحته جبة صوف تلاقي جلده على بدنه . ويقول : هذا لمن يموت كثير) (٣)

ـ لا خير فينا أن لم نقبل .

(قال رجل لعمر ـ رضي الله عنه ـ : اتق الله . فأكثر عليه ـ ، فقال له قائل :

---

(١) البلاذري : فتوح البلدان ص ٣٥ ، وانظر التعليق على هذه الحادثة في الظلال ٢ / ٧٧٧

(٢) ابن كثير المختصر في أخبار البشر ١ / ١٨٢ ، وحياة الصحابة ١ / ٢٢٨

(٣) ابن العمراني : الأنباء في تاريخ الخلفاء ص ٥١
ومؤلف مجهول : العيون والحدائق ٣ / ٤٠

اسكت فقد أكثرت . فقال عمر : دعه ، لا خير فيهم ان لم يقولوا لنا ، ولا خير فينا ان لم نقبل) (١)

ـ استأذنه فأذن له .

(لما بويع لأبى بكر ـ رضى الله عنه ـ بالخلافة ، كان أسامة بن زيد ـ رضى الله عنهما ـ مبرزا فى جيش أمره عليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من جملتهم عمر ـ رضى الله عنه ـ . فكان أول أمر نفذه فى خلافته أن خرج لتشييع جيش أسامة ماشيا . فهم أسامة بالنزول فمنعه أبو بكر . وأستأذنه فى اقامة عمر ليعينه فى أمور المسلمين . فأذن له فى ذلك) (٢)

ـ لاتمثلوا بالرجل .

(لما ضرب ابن ملجم عليا ـ رضى الله عنه ـ بالسيف . قبض عليه ، وحبس حتى ينظر مايكون من أمر علىّ .

فجمع على ولده وخاصته وقال : يابنى عبد المطلب . لاتجتمعوا من كل صوب تقولون : قتل أمير المؤمنين قتل أمير المؤمنين . لاتمثلوا بالرجل . فأنى سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ينهى عن المثلة ولو بالكلب العقور . وانظروا اذا انا متّ من ضربتى هذه فاضربوا الرجل ضربة واحدة) (٣)

ـ يأكل الخل والزيت .

(كان عثمان ـ رضى الله عنه ـ يطعم الناس طعام الأمارة . ويدخل بيته فيأكل الخل والزيت) (٤)

---

(١) أبو يوسف : الخراج ص ٤٧

(٢) الشيبانى : شرح السير الكبير ١ / ٣٩ والقلقشندى : مآثر الانافة ١ / ٨٤
وابن كثير : المختصر ١ / ١٥٧
وبدران : تهذيب تاريخ ابن عساكر ١ / ١١٨

(٣) ابن الطقطقا : الفخرى ص ٤٢

(٤) ابن الجوزى : الشفاء ص ٨٤

الفصل الثاني

التوجيهات الحربية

تمهيـــد :

يعتبر الجهاد في سبيل الله سادس أركان الاسلام ، وذروة سنامـــه ، والركن العملي للدعوة الاسلامية ، والثمرة الطبيعية للايمان بالله . والجهـــاد الاسلامي ملازم للمسلم طيلة حياته على الارض :

فهو متعلق بمجاهدة النفس حتى تصبح نفسا مطمئنة ، وحتى تبذل كل ماتملك في سبيل الله ، وترى مع ذلك أنها لازالت مقصرة وتخشى ألا يتقبل منها .

وهو متعلق بمجاهدة الشياطين - الانسية والجنية - وعدم الوقوع في حبائلها ، أو فيما تزينه للمعين من شهوات وملذات ، أو ماتلقي في الفؤاد من شكوك وشبهات .

وهو متعلق بمجاهدة الجاهلين والمغفلين ؛ وتعليمهم مايجهلون ، وعـــدم مسايرتهم في الابتعاد عن الحق . وهو متعلق بمجاهدة الظلمة وأعوانهم ، باليد أو باللسان أو بالقلب - كل بما يناسبه - لمنع ظلمهم وفسادهم في الارض .

وهو متعلق بمجاهدة الجائرين ، بقول كلمة الحق أمامهم ولو أدى ذلك لفصل الرأس عن الجسد ، ليكون صاحبه رفيقا لسيد الشهداء حمزة (رضى الله عنه) .

وهو متعلق بمجاهدة الحكام الكفرة ، بالعمل على ازالتهم واراحة البـــلاد والعباد منهم . والعمل على ذلك من خلال الكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح .

وهو متعلق بمجاهدة الأهل - وكل من يعول - بوقايتهم من كل ما يؤدي بهم الى النار (والعياذ بالله) .

وهو متعلق بمجاهدة الاعداء بقتالهم وبذل نفسه وماله وفكره ووقته في سبيـــل الحصول على احدى الحسنيين (النصر أو الشهادة في سبيل الله) .

وهو متعلق بجهاد عام دائم ، بالدعوة الى الله بالحكمة والموعظة الحسنـــة والامر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والا يخشى في الله لومة لائم .

وهو متعلق بأن يخلف أهل الغزاة بخير ، ليحصل له مثل أجرهم .

وهو متعلق بالعمل الجاد لأعادة الناس الى الاسلام من جديد .

وهو متعلق بالسعي والعمل من أجل اعفاف نفسه ومن يعول لتكون يده العاملة من يحبها الله ورسوله (صلى الله عليه وسلم) .

وهو متعلق بجميع أعماله لتكون صحيحه موافقة للكتاب والسنة وخالصة لوجه الله ، لئلا يحبط العمل .

وهو متعلق بالصبر على البلاء ، والرضا بالقضاء ، والشكر على السراء .

وهو متعلق بالصبر على الطاعة ، وعدم التفريط فيها ، وأداء جميع المأمورات على الوجه الاكمل ، واجتناب المنهيات بتاتا .

وهو متعلق بالصبر عن المعاصي ، وتركها ـ مع استطاعتها ـ خوفا ممن يعلم خائنة الاعين وماتخفي الصدور .

وبايجاز : الجهاد متعلق بالمسلم : مع نفسه ، ومع غيره ، من المؤمنين أو الفاسقين أو الظالمين أو الكافرين ، ومع الدولة التي يعيش فيها ، سواء كانت اسلامية أوجاهلية ، وهو متعلق به منذ أن أصبح مكلفا حتى يلقى الله تعالى .

ولا يمكن أن يقوم المرء بمتطلبات الجهاد الكثيرة الا اذا كان صاحب عقيدة تحثه وتجبره على الارتكاز عليها ، ليكون من الناجين في الآخرة ، ومن السعداء في الدارين .

وسنتحدث في هذا الفصل ـ باذن الله ـ عن مفهوم الجهاد الاسلامي ، ونتناول من خلال ذلك : تعريفه ، ومراحله ، ومراتبه ، وهل جهاد الاعداء هو الجهاد الاصغر أم لا ؟

وسندحض افتراءات المخرصين حول الجهاد الاسلامي ونبين أهداف هؤلاء من وراء تشويه حقيقة الجهاد والفتوحات التي نتجت عنه .

وسنرد على الفرية السيفية ، وعلى الفرية الاقتصادية . ثم نبين خطأ كثير من العلماء المسلمين المعاصرين الذين وقعوا في شراك الاعداء ، فقالوا

بأن الجهاد دفاعي فحسب ، وسنرد عليهم بشيء من التفصيل .

ثم نتحدث عن بواعث الجهاد الاسلامي وأهدافه وغاياته ، مستشهدين على ذلك بنماذج حية من سيرة الرعيل الاول الذين تربوا على عقيدة التوحيد فكانوا خير أمة أخرجت للناس .

من آيات الجهاد :

قال الله تبارك وتعالى : " ولاتحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولاهم يحزنون . يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لايضيع أجر المؤمنين" (آل عمران : ١٦٩ - ١٧١)

وقال تعالى : " يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعا . وإن منكم لمن ليبطئن فان أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله علي اذ لم أكن معهم شهيدا. ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة ياليتني كنت معهم فأفوز فوزا عظيما . فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما . ومالكم لاتقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا . الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان ان كيد الشيطان كان ضعيفا . ألم ترى الى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال اذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا الى أجل قريب قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولاتظلمون فتيلا) (النساء : ٧١ - ٧٧)

وقال تعالى : " يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار . ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال أو متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير . . يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون . واطيعوا الله ورسوله ولاتنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا ان الله مع الصابرين . ولاتكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط . . .فاما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون . واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ان الله لايحب الخائنين . ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا انهم لايعجزون . وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لاتعلمونهم الله يعلمهم وماتنفقوا من شيء في سبيل الله يوف اليكم وانتم لاتظلمون . وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله انه هو السميع العليم . وان يريدوا أن يخدعوك فان حسبك الله هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما فى الارض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم أنه عزيز حكيم . ياأيها النبى حرض المؤمنين على القتال ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وان يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون . الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وان يكن منكم ألف يغلبوا ألفين باذن الله والله مع الصابرين" (الانفال : ١٥ و ١٦ و ٤٥ و ٤٦ و ٤٧ و ٥٧ - ٦٦) .

وقال تعالى : " فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى اذا اثخنتموهم فشدوا الوثاق فاما منا بعد واما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم . سيهديهم ويصلح بالهم . ويدخلهم الجنة عرفها لهم . ياأيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم" (محمد : ٤ - ٧)

وقال تعالى : " يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون . يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الانهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم . وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين" (الصف : ١٠ - ١٣) .

من أحاديث الجهاد : (١)

قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " مثل المجاهد في سبيل الله والله أعلم بمن يجاهد في سبيله كمثل الصائم القائم ، وتوكل الله للمجاهد في سبيله بأن يتوفاه أن يدخله الجنة ، أو يرجعه سالما مع أجر أو غنيمة" *

وقال أيضا : " ان في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ، ما بين الدرجتين كما بين السماء والارض" .

وقال أيضا : " والذى نفسي بيده لوددت أني أقتل في سبيل الله ثم أحيا ثم أقتل ، ثم أحيا ثم أقتل ، ثم أحيا ثم أقتل" .

وقال أيضا : " لا يكلم أحد في سبيل الله - والله اعلم بمن يكلم في سبيله - الا جاء يوم القيامة واللون لون الدم والريح ريح المسك" .

وقال ايضا : " ما اغبرت قدما عبد في سبيل الله فتمسه النار" .

---

(١) روى هذه الأحاديث كلها البخارى في صحيحه (كتاب الجهاد ٣ / ٢٠١- ٢٢٤) .

* قوله بأن يتوفاه . . الخ : يحتمل أن يكون قوله (أن يدخله الجنة) بدلا من قوله (أن يتوفاه) ، ويكون قوله (أو يرجعه) عطفا على (أن يتوفاه) ، ويحتمل أن يكون بتقدير (بأن يدخله) ، وقوله (بأن يتوفاه) أى (مع شرط التوفى) .

وقال أيضا : " ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع الى الدنيا وله ما على الأرض من شيء الا الشهيد يتمنى أن يرجع الى الدنيا فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة" .

وقال ايضا : " واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف" .

وقال ايضا : " من جهز غازيا في سبيل الله فقد غزا ، ومن خلف غازيا في سبيل الله بخير فقد غزا " .

وقال ايضا : " رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها ، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وماعليها ، والروحة يروحها العبد في سبيل الله أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها . "

وعن سليمان بن بريدة عن أبيه قال : كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) اذا أمر أميرا على جيش أو سرية (١) أوصاه في خاصته (٢) بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرا . ثم قال : (اغزوا باسم الله في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله اغزوا ولا تغلوا (٣) ولا تغدروا (٤) ولا تمثلوا (٥) ولا تقتلوا وليدا (٦) . واذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم الى ثلاث خصال - أو خلال - فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ثم ادعهم الى الاسلام (٧) فان أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم . ثم ادعهم الى التحول من دارهم الى دار المهاجرين وأخبرهم أنهم ان فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ماعلى المهاجرين . فان أبوا أن يتحولوا منها

---

(١) سرية : قطعة من الجيش تخرج منه تغير وتعود اليه ، وهي تسري في الليل ويخفى ذهابها .

(٢) في خاصته : أي في حق نفس ذلك الأمير خصوصا

(٣) لاتغلوا : لاتخونوا في الغنيمة .

(٤) لاتغدروا : لاتنقضوا العهد .

(٥) لاتمثلوا : لاتشوهوا القتلى بقطع الأنوف والآذان

(٦) وليدا : صبيا ، لأنه لايقاتل .

(٧) ثم : قيل بأنها زائدة ، وقيل : بل دخلت لاستفتاح الكلام والأخذ .

فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجرى عليهم حكم الله الذى يجرى على المؤمنين ولا يكون لهم فى الغنيمة والفئ شئ ؛ الا أن يجاهدوا مع المسلمين . فان هم أبوا فسلهم الجزية . فان هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم . فان هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم . واذا حاصرك أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله (١) وذمة نبيه فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه . ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك . فانكم ان تخفروا (٢) ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله . واذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله ولكن أنزلهم على حكمك ، فانك لا تدرى أتصيب حكم الله فيهم أم لا)) (٣)

وقال (صلى الله عليه وسلم) : (والجهاد ماض منذ بعثنى الله الى أن يقاتل آخر هذه الأمة الدجال ، لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل) ؛ (٤)

وقال (صلى الله عليه وسلم) : (من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغزو مات على شعبة من النفاق) . (٥)

---

(١) ذمة الله : عهد الله .

(٢) تخفروا : تنقضوا العهد .

(٣) انظر : مسلم ٣/١٣٥٧ .
وأبو داود : السنن ٣/٥٢ .
والدارمى : السنن ٢/٢١٥ .
والطبرانى . المعجم الصغير ١/١٢٣ .
وانظر شرحا لحديث فى : الاعتبار فى الناسخ والمنسوخ من الآثار ص ٢١٠ .
وعون المعبود ٧/٢٧٣ .

(٤) سعيد الخراسانى : السنن القسم الثانى ٣/١٥٢ .
وانظر نصب الراية ٣/٣٧٧ .

(٥) الحاكم : المستدرك ٢/٧٩ .

وعن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال . وجدت امرأة مقتولة فى بعض تلك المغازى ، فنهى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن قتل النساء والصبيان (١)

ووصى أبو بكر الصديق (رضى الله عنه) يزيد بن أبى سفيان (رضى الله عنه) - وقيل : أسامة بن زيد (رضى الله عنهما) - قائلا : ((أيها الناس . أوصيكم بتقوى الله ، لا تعصوا ولا تغلوا ولا تجبنوا ولا تغرقوا نخلا ولا تحرقوا زرعا ولا تحبسوا بهيمة ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تقتلوا شيخا كبيرا ولا صبيا صغيرا ولا امرأة . وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له)) (٢) .

ووصى عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - سعد بن أبى وقاص حين ولاه قيادة الجيش المتجه الى العراق : (أما بعد : فانى آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال . . وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسا منكم من عدوكم . . وانما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة ، لأن عددنا ليس كعددهم . . . ولا تقولوا أن عدونا شر منا فلن يسلط علينا ، فرب قوم سلط عليهم من هو شر منهم . . وترفق بالمسلمين فى سيرهم . . ونح منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة فلا يدخلها من أصحابك الا من تثق بدينه ، ولا يرزأ أحد من أهلها شيئا ، فان لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء بها كما ابتلوا بالصبر عليها ، فما صبروا فتولوهم خيرا ، ولا تنتصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح) (٣)

---

(١) الطرسوسى : مسند ابن عمر ص ٤٦ . ومالك : الموطأ ص ٢٧٧ .
والطحاوى : شرح معانى الآثار ٣ / ٢٢٠ .

(٢) مالك : الموطأ ص ٢٧٧ .
والشيبانى : شرح كتاب السير الكبير ١ / ٤١ .
والمرزوى : مسند أبى بكر ص ٧٠ .
والخراسانى : السنن القسم الثانى ٣ / ١٥٨ .
وبدران : تهذيب تاريخ ابن عساكر ١ / ١١٨ .
والطبرى : تاريخ الأمم والملوك ٣ / ٢١٢ .

(٣) محمد الخضرى : اتمام الوفاء فى سيرة الخلفاء ص ٦٠ و ٦١ (مقتطفات) .

تعريـــف الجهـــاد :

الجهاد : هو بذل الوسع في القتال في سبيل الله مباشرة أو معاونـة بمال أو رأى أو تكثير سواد أو غير ذلك .

أو هو : بذل الجهد في قتال الكفار لاعلاء كلمة الله (١) .

وفريضة الجهاد على نوعين* . أحدهما : فرض عام متعين على كل أحـد ممن يستطيع المدافعة والقتال وحمل السلاح من البالغين الأحرار . وذلـك أن يحل العدو بدار الاسلام محاربا لهم ، فاذا كان ذلك وجب على جميـع أهل تلك الدار أن ينفروا ويخرجوا اليه خفافا وثقالا وشبابا وشيوخا ، ولا يتخلف أحد يقدر على الخروج من مقاتل أو مكثر .

وان عجز أهل تلك البلدة عن القيام بعدوهم ، كان على من قاربهـم وجاورهم أن يخرجوا قلوا أو كثروا ، على حسب مالزم أهل تلك البلدة حـتى يعلموا أن فيهم طاقة على القيام بهم ومدافعتهم . وكذلك كل من علم بضعفهم عن عدوهم وعلم أنه يدركهم ويمكنه غياثهم لزمه - أيضا - الخروج اليهم .

ولو قارب العدو دار الاسلام ولم يدخلها لزمهم أيضا الخروج اليـه .

والثانى : يتعلق بالامام ، وهو أن عليه اغزاء طائفة الى العدو . وكل سـنة يخرج معهم مرة بنفسه ، أو يخرج من يثق به ، ليدعوهم الى الاسلام ويرغبهم ويكف أذاهم ، ويظهر دين الله عليهم ، ويقاتلهم حتى يدخلوا فى دين الاسلام أو يعطوا الجزية . (٢)

---

(١) البهوتى : كشاف القناع ٢٨/٣ .
والشوكانى : نيل الأوطار ٢٣٦/٧ .
والعاصمى : حاشية الروض المربع ٢٥٣/٤ .

* انظر أنواع الجهاد الكثيرة فى كتاب سعيد حوى : جند الله ثقافة وأخلاقا ص ٣٦٥ فما بعدها .

(٢) ابن عبد البر : كتاب الكافى ٤٦٢/١ و ٤٦٣ .
وانظر الدردير : الشرح الصغير ٢٦٧/٢ - ٢٧٥ .

والجهـــاد : فرض على الكفاية ، اذا قام به قوم سقط عن باقيهم ولـــم يأثموا بتركه . وان لم يقم به من يكفى أثم الناس كلهم . (١)

وأقل ما يفعل مرة فى العام ، الا من عـــذر . (٢)

والرباط (٣) أفضل من المقام بمكة اجماعا . (٤)

ولا يقتل من العدو صبى ولا امرأة ولا شيخ ولا راهب ولا زمن ولا أعمى ـ ونحوهم ـ مالم يكن لهم رأى أو تدبير أو مشاركة فى القتال . (٥)

---

(١) الحسن الشيبانى : شرح كتاب السير الكبير ١/٨٨ .
وابن قدامه : المغنى ٩/١٩٦ .
وابن مفلح : المحرر فى الفقه ٢/ ١٧٠ .
وابن هبيرة : الافصاح عن معانى الصحاح ٢/٢٧٣ .
والبهوتـــى : كشاف القناع ٣/٢٨ .
والعاصمى : حاشية الروض المربع ٤/٢٥٤ .

(٢) ابن قدامة : المغنى ٩/١٩٨ .
وابن مفلـــح : المحرر ٢/ ١٧٠ .
والبهوتى : كشاف القناع ٣/٣٢ .
والدردير : الشرح الصغير ٢/٢٧٢ .

(٣) الرباط : هو الحبس على الشئ وملازمته . وأصل الرباط : هو ما تربط به الخيل . ثم قيل لكل أهل ثغر يدفع عمن خلفه رباط .
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه ، وان مات جرى عليه عمله الذى كان يعمله وأجرى عليه رزقه وأمـــن الفتان) .
مســـلم ٣/ ١٥٢٠ .

(٤) البعلى : الاختيارات العلمية (ضمن الفتاوى الكبرى لابن تيمية) ٥/١٨٥ .

(٥) ابن رشـــد : بداية المجتهد ١/٣٢٧ .
وابن تيمية : السياسة الشرعية ص ١٤٤ .
والحجاوى : زاد المستقنع ص ١٠١ .
وابن هبيرة : الافصاح ٢/٢٧٤ .
وابن مفلح : المحرر ٢/١٧١ .

مراحـــل الجهـــاد (١) :

نـزل الأمـر بالجهاد في سـبيل الله على مراحل :

فقد كان النبي - صلى الله عليه وسلم - مأمورا في الابتداء بتبليغ الرسالة والاعراض عن المشركين ، قال تعالى : " فاصفح الصفح الجميل " (الحجر : ٨٥) وقال تعالى : " فاصدع بما تؤمـر وأعرض عن المشركين " . (الحجر : ٩٤) .

ثم أمر - صلى الله عليه وسلم - بالمجادلة بالأحسن ، كما قال تعالـى : " ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسـن " (النحـل : ١٢٥) . وقال تعالى : " ولاتجادلوا أهل الكتـاب الا بالتي هي أحسـن " (العنكبوت : ٤٦) .

ثم أذن لهم في القتال بقوله : " أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقديـر " (الحج : ٣٩) .

ثم أمروا بقتال الكفار ان كانت البداية منهم ، بما تلا ذلك من آيـات .

ثم أمروا بالقتال بشـرط انسلاخ الأشهر الحرم ، كما قال تعالى : " فاذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم " (التوبة : ٥) .

ثم أمروا بالقتال مطلقا بقوله تعالى : " وقاتلوا في سبيل الله واعلمـوا أن الله سميع عليم " (البقرة : ٢٤٤) .

---

(١) انظر : الحسن الشيباني : شرح كتاب السير الكبير ١ / ١٨٨ .
ملحوظة : بين فضيلة الشيخ صالح اللحيدان مراحل تشريع الجهـاد بيانا رائعا ، وقال بأن الجهاد مر بمراحل كان فيها يسير من مرحلة الى مرحلة حتى وصل الى المرحلة الأخيرة التي أصبح فيها واجبا على كـل مسلم قادر . وهذا يفسر لنا أن الجهاد كان يساير الدعوة ولابد للدعوة من جهاد . وبين حفظه لله كيف أن القتال تدرج بهذه الصورة حتى كان آخر الأمر واجبا لاتردد في وجوبه . انظر كتابه : الجهاد في الاسلام ص٤٣-٤٥ .

* انظر عبد القاهر البغدادي : الناسخ والمنسوخ ص٢ و ١٨٩-١٩١ و ٢٢٥ و ٢٢٢ و ٢٧٤ و ٢٧٦ .

فاستقر الأمر على هذا . ومطلق الأمر يقتضي اللزوم . الا أن فريضة القتال لمقصود اعزاز الدين وقهر المشركين ، فاذا حصل المقصود بالبعض سقط عن الباقين .

مراتب الجهاد :

الجهاد عدة مراتب هي : جهاد النفس وجهاد الشيطان وجهاد الكفار وجهاد المنافقين وجهاد أرباب الظلم والبدع .

فجهاد النفس على أربع مراتب : أن يجاهدها على تعلم الهدى . وأن يجاهدها على العمل به بعد علمه . وأن يجاهدها على الدعوة اليه ، والا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله . وأن يجاهدها على الصبر على مشاق الدعوة ، ويتحمل ذلك كله لله تعالى .

وجهاد الشيطان مرتبتان : جهاده على دفع مايلقى من الشبهات ويكون بعده اليقين . وجهاده على دفع مايلقى من الشهوات ويكون بعده الصبر .

وجهاد الكفار والمنافقين : وهو أربع مراتب : بالقلب . وباللسان - وخاصة للمنافقين - وبالمال . وبالنفس - وخاصة للكفار - .

وجهاد أرباب الظلم والبدع والمنكرات : وهو ثلاث مراتب : باليد : اذا قدر على ذلك . وباللسان : اذا لم يقدر باليد . وبالقلب : اذا عجز عن اليد واللسان .

ولا يتم الجهاد الا بالهجرة ، ولا الهجرة والجهاد الا بالايمان . والراجون لرحمة الله هم الذين قاموا بهذه الثلاثة . قال تعالى : " ان الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم" (البقرة : ٢١٨) .

وكما أن الايمان فرض على كل أحـد ، ففرض عليه هجرتان في كل وقت : هجرة الى الله عز وجل بالاخلاص . وهجرة الى رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالمتابعـة .

وفرض عليه جهاد نفسه وشيطانه فرض عين لا ينوب فيه أحد عن أحـد . وأما جهاد الكفار والمنافقين فقد يكتفى فيه ببعض الأمـة) .(١)

هل جهـاد الأعداء هو الجهاد الأصغـر ؟

هناك كلام مشهور على الألسنة ينص على أن جهاد النفس هو الجهـاد الأكبر وأن جهاد العدو هو الجهاد الأصغر .

واعتبر بعض الكتاب المحدثين (٢) ـ قصيري الباع في علوم الحديـث الشريف ـ أن هذا الكلام المشهور على الألسنة حديثا ـ صحيحا أوحسـنا أو ضعيفا ـ وكتبوا بناء على هذا الحديث الموضوع بحوثا ومقالات، في جهـاد النفس وأنه مقدم على جهاد الأعداء . وسننقل فيما يأتي ماقاله بعض علمـاء الحديث الثقات في هذا الحديث الموضوع :

---

(١) محمد بن عبد الوهاب : مختصر زاد المعاد من ١٨١-١٨٣ بتصرف يسير .

(٢) قام الاستاذ أحمد جمال ـ حفظه الله ـ بتأليف كتاب يدور حول هذا الحديث الموضوع بعنوان (الجهاد في الاسلام مراتبه ومطالبه) تحدث فيه عن جهاد النفس من ص٩ -٣١ . وقال في ص٢٣ : الحديث الضعيف خير من آراء الرجال) . وقد دافع عن هذا الحديث بقوة .

قلت : يجب ألا يكون الحديث شديد الضعف حتى يكون خيرا من آراء الرجال فما بالك اذا كان موضوعا . انظر شروط الأخذ بالحديث الضعيف فـي الألباني : مقدمة ضعيف الجامع الصغير ١/ ٤٤ - ٥١ .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية (١) ـ رحمه الله ـ عن هذا الحديث الموضوع:
(لا أصل له . ولم يروه أحد من أهل المعرفة بأقوال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأفعاله . وجهاد الكفار من أعظم الأعمال بل هو أفضل ماتطوع به الانسان)(٢)

وقال العلامة القارى ـ رحمه الله ـ:

(قال العسقلاني : هو مشهور على الألسنة . وهو من كلام ابراهيم بن عبلة في الكنى للنسائي .

قلت : ذكر الحديث في الاحياء ، ونسبه العراقي الى البيهقي من حديث جابر وقال : هذا اسناد فيه ضعف .

وقال السيوطي : روى الخطيب في تاريخه من حديث جابر قال : قدم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من غزاة لهم فقال : (قدمتم خير مقدم ، قدمتم من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر . قالوا : ما الجهاد الأكبر ؟ قال : (مجاهدة العبد هواه) .(٣)

وقال الامام حسن البنا ـ رحمه الله ـ: (هذا الأثر ليس بحديث على الصحيح . قال ابن حجر : هو مشهور على الألسنة من كلام ابراهيم بن عبلة .
قال العراقي : رواه البيهقي بسند ضعيف عن جابر .
ورواه الخطيب في تاريخه عن جابر)(٤)

وقال العلامة محمد أمين المصري ـ رحمه الله ـ: (.. وبعد هذا كله فليس

---

(١) قلت: ومعروف أن كل حديث لا يعرفه الامام ابن تيمية بحديث .. انظر مقدمة العلامة الألباني ـ حفظه الله ـ للكلم الطيب لابن تيمية ص١٢ .

(٢) ابن تيمية : الفرقان ص٧٣ .
(٣) على القارى : الموضوعات ص٤٤ و ٤٥ .
(٤) حسن البنا : رسالة الجهاد آخر صفحة .

يسمى قتال العدو جهادا أصغر .. ويروون في ذلك حديثا ذكره الخطيب في تاريخه من طريق يحيى بن العلاء قال : حدثنا ليث عن عطاء ابن أبي رباح عن جابر قال : قدم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من غزاة له فقال لهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: (قدمتم خير مقدم من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر مجاهدة العبد هواه) .

قال البيهقي بشأنه : اسناده ضعيف وتبعه العراقي في تخريجه الاحياء . وحكم السيوطي أيضا بضعفه في جامعه الصغير .

((وحين نرجع الى كتب التراجم لنعرف من هو يحيى بن العلاء ـ راوي الحديث ـ نجد في ترجمته مايزهدنا في حديثه ومايحملنا على هجر مايرويه .

((يقول الذهبي في ميزانه : قال أبو حاتم : ليس بالقوي .

وضعفه ابن معين . وقال الدارقطني : متروك .

وقال الامام أحمد : كذاب يضع الحديث .

ويمضي العلامة المصري قائلا : ((وبعد هذه الشهادات التي نتلوها بشأن هذا الرجل يجب أن نلفت الأنظار الى أن هذا الحديث برواية هذا الرجل لاتجوز روايته ولاذكره على سبيل التنبيه لأنها رواية متروكة ساقطة .)) (١)

وهذا الحديث الموضوع الذي قال عنه ابن تيمية لاأصل له ، يناقض قول الله تعالى : " لايستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما . درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفورا رحيما" (النساء : ٩٥و٩٦)

---

(١) محمد أمين المصري : سبيل الدعوة الاسلامية ص٧١و ٧٢ .

ولله در ابن المبارك ـ رحمه الله حيث يقول :

أيها الناسك الذى لبس الصوف وأضحى يعد فى العباد

الزم الثغر والتعبد فيه ليس بغداد مسكن الزهاد (١)

ولله دره حيث يقول مخاطبا عابد الحرمين* :

ياعابد الحرمين لو أبصرتنا لعلمت أنك بالعبادة تلعب

من كان يخضب خده بدموعه فدموعنا بدمائنا تتخضب

ريح العبير لكم ونحن عبيرنا رهج السنابك والغبار الأطيب(٢)

---

* يقصد به الفضيل بن عياض (رحمه الله) .

(١) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ٢١/١ .

(٢) محمد عثمان جلال : عبد الله بن المبارك ص ١٥٠ .

ورهج : غبار ، والسنابك : طرف مقدم الحافر والمراد الغبار الذى يتصاعد بسبب سير الخيول .

افتراءات حـــــول الجهـــــاد :

لقد تعرض الاسلام والمسلمون لهجمات عنيفة وحروب طويلة من قبل أعـداء الله ، منذ أن بزغت شمس الدعوة الاسلامية وأضاءت أفئدة أتباعها بنور اللـــه الى يومنا هذا والى مابعده ....

وأعداء الله يعرفون أن بالاسلام حياة المسلمين وسعادتهم وفوزهم وعزهـم فى الدارين ، وبغيره موتهم وشقاؤهم وخسارتهم وذلهم فى العاجلة والآجلـة . ولذا تنوعت وسائلهم فى حربهم لهذا الدين العظيم ، فتارة يحاربونه وجهـا لوجه ـ كما حدث ذلك فى كثير جدا من المعارك الحربية ـ ، وتارة يحاربونه بصورة غير مباشرة عن طريق التظاهر به ومحاربته من الداخل كما فعل (ابن السوداء)عبد الله بن سبأ (لعنه الله)* عن طريق اثارة الفتن والخلافات بين المسلمين ـ. وصدق الله العظيم " ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكـــم عن دينكم ان استطاعوا " (البقرة : ٢١٧) .

وبعد أن فشل أعداء الله ـ على مر القرون ـ فى استئصال شأفة المسلمين والقضاء عليهم ، لجأوا لوسائل جديدة خبيثة ـ أشد خطرا وفتكا من وسائلهم القديمة ـ توفر عليهم كثيرا من الجهود والخسائر هذه الوسائل هى :ـ

الاســـتشراق . والتنصير ـ التبشــــير ـ .

والغزو الكفرى ـ الفكـرى ـ .

والهدف من هذه المحاولات الجديدة هو تشكيك المسلمين بدينهـــم ، وادخالهم فى دين جديد ، أو اخراجهم من الاسلام الى غير دين .

---

* انظر كتاب شيخنا الميدانى ـ حفظه الله ـ مكائد يهودية عبر التاريخ ص ١٦٢ فما بعدها وكتاب عبد الله الغريب (وجاء دور المجوس) ص٧٥ .

وصدق الله العظيم : " ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل ان هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير " (البقرة : ١٢٠)

وأصبحت أساليبهم الجديدة تارة بالقذف والطعن والشتم .. وتارة بالمدح ووضع السم فى الدسم .. وتارة ـ بالتعاون مع عملائهم ـ باثارة الشبهات حوله والتشكيك فيه .

" قدّر كاتب تركى فى كتابه (جذور الصهيونية) عدد ماطبع ووزع من نسخ العهدين ـ القديم والجديد ـ بواسطة ارساليات التبشير خلال مائة وخمسين عاما بما يزيد على ألف مليون نسخة مترجمة الى (١٣٠١) لغة ، عدا النشرات والمجلات الاخرى . كما قدر أن تكاليف هذه المطبوعات لا تقل عن (٦٠) ألف مليون ليرة تركية .). (١)

وقد كشفت الدراسات التى ناقشها مؤتمر عدم الانحياز الذى انعقد فى كولمبو أن حوالى (٢٫٥٠٠) محطة اذاعية فى (٦٤) لغة قومية تشن هجوما صريحا وضاريا على الاسلام. (٢)

يقول شيخنا الفاضل محمد قطب (حفظه الله) :

" حاول أعداء الاسلام فى الحروب الصليبية الاولى أن يحطموه كنظام أو كدولة حامية للنظام .. ولكنهم ادركوا أنهم فشلوا .. فعادوا فى الحروب الصليبية الحديثة يحاولون أن يحطموه كعقيدة ، ليضمنوا ألا تقوم الدولة ولا يقوم النظام .. ومن بين حربهم له كعقيدة أن يقولوا للمسلمين ـ المثقفين منهم بصفة خاصة ـ ان العقيدة لم يعد لها اعتبارا فى هذا العصر الذى نعيش فيه . وان المهم ليس هو العقيدة انما هو النظام. فاذا خلوا الى شياطينهم قالوا : ان الديمقراطية أو الشيوعية ليست نظاما فحسب وانما هى عقيدة ـ أو فلسفة كما يقولون ..

(١ ، ٢) ابراهيم الجبهان : معاول الهدم والتدمير فى النصرانية وفى التبشير ص ١٩ .

الاسلام ، وبين ماجاءت به حضارة الغرب من أفكار ونتائج ونظريات في ميادين الحياة ، وكان عماد هذا العمل هو تفسير الاسلام تفسيرا عصريا يلائم الفكر السائد ، ومحاولة ايجاد نقط التقاء بين الخطين على تباينهما .

" وقد ألجأ هذا الهجوم الفكري هذه المدارس الى مواقف دفاعية غريبة عن الاسلام ، اذ جردته من كثير من أحكامه الصريحة ، وجاءت لها بمعان جديدة بعيدة كل البعد عن روح الاسلام، مع أن هذه الأحكام كلها بلغ فيها الاسلام الغاية العليا في الاحكام والسمو ، ولكنها عادت في منطق العقول المهزومة مثالب أو نقاط ضعف تحتاج الى دفاع . أو هي فضائل صالحة لزمانها واحتاج التطور البشري الى تعديلها . وكان من أخبث وأخطر نتائج هذا الغزو أن انحلت روح المقاومة والجهاد ، أو فترت وتراخت عن العهد بها دائما ، ذلك العهد الذي وثقه القرآن عبر التاريخ في نفوس المسلمين ، والذي كان يرهب أعداء الله دائما " (١)

والمستشرقون ومن بينهم (توماس أرنولد) يحاولون التقليل من أهمية الجهاد الاسلامي في الفتوحات ، ويركزون على الجهاد الدفاعي ، وعلى انتشاره عن طريق التجارة ، وعن طريق القدوة ، والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ، وأن هناك أسبابا شتى لانتشار العقيدة الاسلامية . وهذا نموذج من كلامهم يبين للحصيف كيف يضعون السم بالدسم : يقول أرنولد في كتابه الدعوة الى الاسلام - والذي كثيرا ما يستشهد بكلامه معظم الكتاب المسلمين المحدثين ، على أنه انصاف للمسلمين :

" يرجع انتشار هذا الدين في تلك الرقعة الفسيحة من الارض الى أسباب شتى : اجتماعية وسياسية ودينية .

وهكذا كان الاسلام منذ بدء ظهوره دين دعوة من الناحية النظرية أو الناحية التطبيقية .

" وقد كانت حياة محمد تمثل هذه التعاليم ذاتها . وكان النبي نفسه يقوم

---

(١) انظر عبد الستار سعيد : الغزو الفكري ص ٩٢ - ٩٧

و حسان محمد حسان : وسائل مقاومة الغزو الفكري ص ١٠ ، ١١ ، ٦٨

فى معركة بلاط الشهداء لتغير وجه العالم نهائيا .. والذى لقن أتباعه أحفاد هؤلاء من الصليبيين الغزاة دروسا لا تنسى ، ومرغوا كذلك أنوف أحفاد القردة والخنازير بالذل والتراب أبد الدهر.

وانما كتب ما كتب تعبيرا عن الحقد الأسود الذى يكنه للاسلام ، وذلك للتشكيك فى ماضى المسلمين المجيد ، وللانشغال بالرد عليهم فى حاضرهم ، ولئلا يعود المسلمون الى مابه شماتتهم الدنيوية والأخروية . فلو أنهم سلكوا فى كتاباتهم نمطا واحدا هو الهجوم والتشكيك ، لظهر لكل ذى عينين زيفهم وهدفهم الشنيع ، ولأدى ذلك لرد فعل من قبل الكثيرين . ولكنهم ساروا فى اتجاهين : اتجاه يهاجم الاسلام ويذمه . واتجاه يتظاهر بمدح الاسلام .. ولكنه أثناء ذلك يضع السم بالدسم لينخدع الكثيرون .

ويهدف المستشرقون - وغيرهم من الأعداء - من مهاجمة الجهاد الاسلامى والقاء الشبهات حوله والصاق التهم بأصحابه ، الى تحقيق هذه الاهداف :

- التشكيك فى صلاحية الاسلام - لكل زمان ومكان - وفى ملاءمته للفطرة البشرية ، وأن الحضارة والمدنية الحديثة - جاهلية القرن العشرين - لا تناسبها (همجية) الجهاد الاسلامى . وذلك ليندفع الكتاب المسلمون المهزومون الى التخلى عن مبدأ الجهاد ، أو تفسيره تفسيرا باطلا - يخالف تفسير السلف الصالح - كما فعل معظم الكتاب المحدثين .

- تشويه تاريخ وحقيقة الفتوحات الاسلامية وانها لم تكن فى سبيل الله بل كانت لحب العرب الشديد للفروسية والغزو والنهب - كما كانوا فى الجاهلية - وذلك ليشعر المسلم - المتقدم الى الخلف بالنقص أو بعقدة الذنب أمام الأجانب ، فيهاجم - فى منطقة اللاشعور داخل نفسه - فكرة الجهاد ، ويصفها بأنها رجعية من غابر الازمان ، لا تتناسب مع ما حققه العالم - المتحضر - من ايجاد هيئة الامم ومجلس الأمن .

من أفلت من طوق أعداء الله وشراكهم الرواد الثلاثة : (البنا وقطب والمودودى) ومن سار على نهجهم من أبناء حركات البعث الاسلامى فى ارجاء المعمورة .

ـ القول بأن الاسلام دين الأمان والسلام والمحبة والتسامح والصفح ، لم ينتشر ـ ولا ينتشر ولن ينتشر ـ الا عن طريق التجارة والقدوة والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة : وان هذا الدين لا يبدأ أحدا بهجوم الا اذا اعتدى عليه ، وآخر الدواء الكى ! وأنه لا يتدخل فى شؤون البلاد والعباد المجاورة له المخالفة له الا اذا تحرش هؤلاء فيه أو اعتدوا عليه .

وهؤلاء الماكرون يمسكون بالعصا من الوسط ويلعبون على الحبلين ـ كما يقال ـ فالذى لا يتفق معهم فى أن الاسلام انتشر بالقوة والسيف والاكراه عليه أن يوافقهم فى القول المغاير لهذا الاتجاه تماما ـ والذى لا خيار فيه ـ وهو أنه لم ينتشر بالجبر بل انتشر بالقدوة والدعوة والتجارة والحكمة .

وقد ركز هؤلاء الخبثاء على حوادث معينة ، أحسن المسلمون فيها معاملة أعدائهم ـ الحربيين والمعاهدين وأهل الذمة ـ لايهام المسلمين أن طبيعة الاسلام السمحة لا تحتاج الى استعداد وجهاد ، ولو حصل اعتداء على الاسلام والمسلمين فانه يرد عليه ، ولكن بأدب الاسلام العظيم .

كلمات حق جميلة . يراد بها طمس حق واظهار أباطيل . يراد بها أن يترك أبناء المسلمين الاستعداد للجهاد ويكتفوا بالكلام ، وأن يرددوا قول الشاعر فى مدحنا :

ملكنا فكان العفو منا سجية
فلما ملكتم سال بالدم أبطح

وما عجب هذا التفاوت بيننا
فكل اناء بالذى فيه ينضح

لقد نجحت هذه المحاولات الخبيثة التى يراد بها صرفنا عن واجبنا فى انقاذ الانسانية من الخسران المبين فى الدارين ، فقامت شخصيات اسلامية

مرموقة بالدعوة لزمالة الأديان ، وعقدت موءتمرات لهذا الغرض* وفند المهزومون كون الجهاد هجوميا كما هو دفاعي ، ولم يفرقوا - كما خطط لهم - بين ازالة العقبات والعوائق من طريق الدعوة وبين الاكراه على اعتناق الدين .

والآن الى دحض أهم أفتراءاتهم وهي : الفرية السيفية والفرية الاقتصادية والفرية الدفاعية - التي يشترك معهم فيها من وقع تحت تأثيرهم من المسلمين .

---

* انظر حسين عبدالهادي : دعوى تقارب الأديان (مجلة كلية الشريعة بأبها عدد ٣ ص ٥٢٦ / ١٤٠١هـ .

د ـ نقض الفرية السيفية :

((ان الاسلام دين الله الأخير الذى يتكفل بهداية البشرية الى يوم يرث الله الأرض ومن عليها . وعليه تتوقف نجدتها وخلاصها وصلاحها وفلاحها . فلا بد ـ اذن ـ أن يبقى الى يوم القيامة يوجهها فى دينها ودنياها ، وينير لها الطريق فيما يتصل بأولها وآخرها .)) (١)

وان قتال أعداء الله والجهاد فى سبيل الله مقصود بـه :

تحرير البشر من عبودية غير الله وصرفها لله عز وجل وحده ، ثم تأمين حرية الدعوة ونشرها بين العالمين ، وازالة العقبات والعوائق التى تحول بينها وبين الوصول الى الناس .

والمجاهد المسلم لايقاتل ـ ولايعد نفسه لذلك ـ الا لتكون كلمة الله هى العليا : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : ((من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله)) . (٢) واذا تحقق النصر على يديه فانه يشكر الله عز وجل ، ويوقن ـ فى الوقت نفسه ـ أن هذا النصر ليس الغاية النهائية من جهاده فى سبيل الله وانما هو عاجل بشراه ، وهو وسيلة لأعظم غاية ، ألا وهى رضوان الله تعالى والفوز بالجنة والنجاة من النار ، وأكرم بها من وسيلة .

فليست الغاية من الجهاد الاسلامى ـ كما هو الحال فى الحروب الجاهلية ـ سفك الدماء أو اذلال العباد أو تخريب الديار أو فرض السيطرة على الآخرين . . بل هو فى الله ولله . ولولا سيف الحق الذى انتضاه المجاهد فى سبيل الله لما انتشر النور والتوحيد والهدى فى أرجاء المعمورة .

---

(١) الندوى : التفسير السياسى للاسلام ص٣ .

(٢) البخارى : ٣/ ٢٢٣ .

ولعل من نافلة القول التذكير بأن المسلمين الأوائل ـ كأبى بكر وعلى وزيد وطلحة وعثمان والزبير وسعد (رضى الله عنهم أجمعين) ـ دخلوا فى دين الله . والاسلام لايزال غضا طريا ، والكفر ضارب أطنابه فى الأرض ، وكل من أسلم فى العهد المكى ناله الأذى والاضطهاد ـ حتى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فهل يصدق عاقل أن الاسلام انتشر بالقوة أو الجبر بين هؤلاء الصحابة الكرام ؟ .

ولماذا تحمل هؤلاء من العذاب مالا يحتطه البشر فى سبيل عقيدتهم ؟ وهل السيف والاكراه هما اللذان حملا الأوس والخزرج ـ رضى الله عنهم ـ على الدخول فى دين الله أفواجا ؟ .

ولماذا انتشر الاسلام بعد صلح الحديبية بين القبائل العربية عن غير طريق الحرب ، أكثر مما انتشر بعد قيام المعارك ؟ ولو أن المسلمين دخلوا الدين عن طريق القوة ، فلماذا لم يتخلوا عنه حين ذهاب سلطان الاسلام عنهم؟ ولماذا بقوا متمسكين به فى الحروب الصليبية والدمار التترى ؟ وما الذى أجبر المغول فيما بعد على اعتناق الاسلام ، مع أنهم الأقوياء وغيرهم مستضعفون ؟ . وان بقاء أتباع اليهودية والنصرانية فى البلاد العربية حتى اليوم ، لأكبر دليل على أن الاسلام لايكره الآخرين على اعتناقه ، والا لقضى على اتباع هاتين الديانتين ولأجبرهما على اعتناق الاسلام من أول يوم . مع الاشارة الى أن النصارى فعلوا ماتقشعر منه الأبدان ولايكاد يصدقه عاقل ، فى الحروب الصليبية فى الشرق وفى المغرب ـ الأندلس ـ ، ولاتكاد تجد مسلما واحدا فى الأندلس اليوم مع أن المسلمين حكموها عدة قرون . .

ولاتنسى مافعله يهود فى دير ياسين ، ومافعله اليهود والنصارى فى لبنان ـ وخاصة فى مخيمى صبرا وشاتيلا ـ .

كيف ينتشر الاسلام بالعنف والقسوة فى أمة يقول رسولها -صلى الله عليه وسلم- ((من قتل معاهدا فى غير كنهه* حرم الله عليه الجنة)) (١) . ؟ .

وفى رواية أخرى : ((ما من عبد يقتل نفسا معاهدة الا حرم الله عليه الجنة ورائحتها أن يجدها)) . (٢)

ان الاسلام يعرض دعوته على الناس سلميا ، فان وقف أمامه حاجز يعيق البشر عن استماع ماجاء به من هدى ونور وبرهان فانه يزيل هذا العائق من وجه الدعوة - كما ذكرنا ذلك آنفا - ويمضى فى طريقه داعيا العباد الى الدخول فيه أو اعطاء الجزية أو القتال .

أما بالنسبة للوثنيين فلا يقبل منهم الا اعتناق الدعوة أو السيف . وكتابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم - فى السنة السابعة للهجرة الى ملوك الأرض (٣) يدعوهم فيها الى الاسلام دليل على أن هذا الدين لا يشهر السيوف فى وجه أعدائه من أول يوم وانما - كما يقال - آخر الدواء الكى .

ولنستمع لواحدة من الرسائل التى أمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم - بكتابتها ، وأرسلها مع دحية الكلبى -رضى الله عنه - الى هرقل عظيم الروم :

((بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله الى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى . أما بعد : فانى أدعوك بدعاية الاسلام . أسلم تسلم . وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين . وان توليت فان عليك اثم

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند ٥/٣٦ و ٣٨ ،
والنسائى : السنن ٨/٢٥ .
وأبو داود : السنن ٣/١١١ .
والدارمى : السنن ٢/٢٣٥ . واسناده حسن انظر عون المعبود ٧/٤٤١
ومعنى كنهه *وقته الذى يجوز فيه قتله .

(٢) أخرجه أحمد فى المسند ٥/٣٦ و ٣٨ ، والنسائى : السنن ٨/٢٥ .
والحاكم : المستدرك ٢/١٢٦ وقال : صحيح على شرط البخارى ووافقه الذهبى .

(٣) انظر أسماء الرسل والمرسل اليهم وماجاء فى هذه الرسائل فى :
خليفة بن خياط : تاريخ خليفة بن خياط ص ٧٩ .
والخراسانى : السنن (القسم الثانى) ٣/٢٠٠ . =

الاريسيين .(١) ((ويأهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون)) (آل عمران : ٦٤)*

= وابن الأثير : أسد الغابة ١/ ٧٣ .

وابن كثير : المختصر ١/ ١٤١ ،

وعلى السبكي : الرسائل النبوية ص١٢٨ فما بعدها .

ومحمد حميد الله : مجموعة الوثائق السياسية ص٧٧ - ١١٣ .

(١) وفي هذا الكتاب جمل من القواعد والفوائد : منها : دعاء الكفار الى الاسلام قبل قتالهم . ومنها : استحباب تصدير الكتاب بسم الله الرحمن الرحيم وان كان المبعوث اليه كافرا . ومنها : التوقي في الكتابة واستعمال الورع فيها ، فلا يفرط ولا يفرط ، ولهذا قال (صلى الله عليه وسلم) : عظيم الروم ولم يقل : ملك الروم لأنه لا ملك له ولا لغيره الا بحكم دين الاسلام . ولم يقل : الى هرقل فقط بل أتى بنوع من الملاطفة فقال : عظيم الروم . أى الذى يعظمونه ويقدمونه .
وقد أمر الله تعالى بالانة القول لمن يدعى الى الاسلام . ومنها : استحباب البلاغة والايجاز وتحرى الألفاظ في المكاتبة . ومنها : البيان الواضح أن من كان سببا لضلالة أو سبب منع من هداية كان آثما ، لقوله (صلى الله عليه وسلم) : (وان توليت فان عليك اثم الأريسيين) . ومنها : استحباب أما بعد في الخطب والمكاتبات .

ومعنى بدعاية الاسلام : أى بدعوته ، وهى كلمة التوحيد . وفي رواية أخرى : (أدعوك بداعية الاسلام)، وهى بمعنى الأولى ، ومعناها : الكلمة الداعية الى الاسلام .

والاريسيين : هكذا وقع في هذه الرواية الأولى في مسلم ، وهو الأشهر في روايات الحديث وفي كتب أهل اللغة . ووقع في الرواية الثانية في مسلم وفي أول صحيح البخارى (اليريسيين) ، واختلفوا في المراد بهم على أقوال : أصحها وأشهرها أنهم الأكارون أى الفلاحون والزارعون . ومعناه : ان عليك اثم رعاياك الذين يتبعونك وينقادون بانقيادك . ونبه بهؤلاء على جميع الرعايا لأنهم الأغلب ولأنهم أسرع انقيادا . فاذا أسلم أسلموا واذا امتنع امتنعوا (وهذا القول هو الصحيح) . الثاني : =

وسنورد فيما يأتي كلام بعض الأساتذة الذين أثبتوا أن الاسلام لم ينتشر بالسيف أو الجبر والاكراه ، بل انتشر عن طريق الاقتناع به بالحكمة والموعظة الحسنة ، وفرق كبير بين تحطيم الحواجز من أمامه وازالة الطواغيت وظلمهم عن كواهل عباد الله ، وبين الاكراه على اعتناق مبادئه ، فقد قال تعالى : " لااكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لاانفصام لها والله سميع عليم " (البقرة : ٢٥٦) . وقال تعالى : " أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين " (يونس : ٩٩) .

يقول الأستاذ العقاد ـ رحمه الله ـ : ((فى نحو مائة سنة ـ وصلت الدعوة الاسلامية من مكة الى حدود الهند والصين شرقا والى شواطئ البحر الأطلسى غربا . ودخل فى الاسلام معظم القاطنين بين هذين الطرفين . وفى أقل من خمسين سنة شاع الاسلام بين أبناء القارة الافريقية الذين اتصلوا بالبلاد الاسلامية .

((وجاء الاستعمار الأوربى فى القرن التاسع عشر للميلاد فوجد الاسلام منتشرا ـ ولايزال ينتشر بين هؤلاء الافريقيين . وحاول المبشرون أن يدركوه فلم يستطيعوا بعد خمسين سنة أن يقنعوا بدعايتهم القوية الغنية عشر العدد الذى دان بالاسلام بغير دعاية منتظمة ولا اغراء)) (١)

= أنهم اليهود والنصارى وهم أتباع عبد الله بن أريس الذى تنسب اليه الأروسية من النصارى ولهم مقالة فى كتب المقالات ويقال لهم الاروسيون . الثالث : أنهم الملوك الذين يقودون الناس الى المذاهب الفاسدة ويأمرونهم بها .

انظر تعليقات المرحوم محمد فؤاد عبد الباقى على صحيح مسلم ٣/١٣٩٦ . وانظر معنى الاريسيين فى كتاب غريب الحديث للخطابى ١/٤٩٩ و ٥٠٠ .

* قلت : من من المسلمين اليوم كتب لزعماء الدول الكبرى يدعوهم فيها الى الاسلام اقتداء برسول الهدى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؟ .

(١) عباس محمود العقاد : مايقال عن الاسلام ص١٥٧ . وانظر كتاب الاسلام لأحمد شلبى ص١٩٣ - ١٩٧ .

ويقـول الاستاذ العطـار :

((أي سيـف حمله الاسلام في أندونيسيا والصين والفلبين والحبشـة وافريقية الشرقية والغربية والوسطى ؟ وأي سيف أدخل كل مدن مصر وقراهـا والهند وسيام والقرم وغيرها من الأقطار ؟ بعض المدن دخلها الاسلام عنوة ـ وهي معدودة ـ وأما سائر المدن والقرى فقد دخلت في الاسلام طوعـا واختيارا .

((وأي سيف أدخل ملايين السود والبيض في أمريكا وأوربا في هذا العصر ؟ وأي دم أهرقه الاسلام عند دخوله أقطار القارات جميعها ؟

((وان الدم الذي أجرته الأمم الصليبية فيما بينها من حروب عدوانيـة أنهار ماتزال جداولها تجري حتى الآن . أما الدم الذي سال بسيف الاسلام فلايعدو أن يكون قطرة في هذه الأنهار المسيحية ..) (١) .

((ولا يربو عدد المقتولين من الفريقين ـ المسلم والكافر ـ في جميع الغـزوات والسرايا والمناوشات التي ابتدأت من السنة الثانية للهجرة ودامت الى السـنة التاسعة على : ألف وثمانية عشر نفرا . المسلمون منهم (٢٥٩) والكفار (٧٥٩)) (٢) .

ويقول الاستاذ حسين مؤنـس : ((والفتوح في العصر الراشدي ومابعده ماكانت قط حروبا على شعوب وانما على أعداء الشعوب . فلم يحارب العـرب (٣)

---

(١) أحمد عبد الغفور العطار : انسانية الاسلام ص ٩٨ و ٩٩ .

(٢) الندوي : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٢٩٠ .

(٣) من الملاحظ أن الكاتب يستعمل لفظ (العرب) بدلا من لفظ (المسلمين) . ومعروف أن الجيش الاسلامي كان من أجناس متعددة جمعتهم عقيدة التوحيد ولم يكن من العرب وحدهم . ومن العرب من وقف في جانب الفرس والـروم ضد المسلمين . ومن العرب من لايزال يهوديا أو نصرانيا الى اليـوم ..

أهل الشام أو أهل مصر ، وانما حاربوا الروم الذين كانوا يسخرون أهـــل الشام وأهل مصر لمصالحهم ومصالح دولتهم ، وكانوا يعارضون دخول الاسلام تلك البلاد حفاظا على مصالحهم ، فلما انكسرت شوكة الروم ترك العرب أهـل الشام وأهل مصر ليتعرفوا على الاسلام ويدخلوا فيه اذا أرادوا .

((ولم تكن الحروب للاستيلاء على البلاد ، بل لانتزاعها من غاصبيها وردها الى أهلها ، وتركهم بعد ذلك أحرارا فى أن يؤمنوا أو لا يؤمنوا)) (١)

---

(١) حسين مؤنس : الاسلام الفاتح ص٧ و ٢٨ بتصرف .

دحــــض الفريــــة الاقتصـــادية :

ان الانسان العاقل لايمكن أن يزهق روحه فى سبيل أشياء مادية ثانويــة ، فما بالك بالمسلم العادى ، فما بالك بالصحابة الكرام الذين هم خير أمـــة أخرجت للناس ؟ .

لقد كان الصحابة (رضوان الله عليهم) الذين فتحوا البلاد ونشروا فيهـا الاسلام يفضلون الموت على الحياة - كما سنرى فيما بعد باذن الله - فى معاركهم الحربية مع أعداء اللــه .

يقول شيخنا الغزالى - حفظه الله - .

((ان الانسان ربما يحارب على الخبز . . ولكنه لا يطلب الشهادة فى سبيله . ان الانسان يريد أن يظفر بالطعام ليعيش به ، لا أن يموت فى طلبه . فما بال هؤلاء العرب المسلمين طلبوا الموت حيثما ذهبوا ، وحقروا العيش أينما توجهوا ؟ .

((ما بالهم وقد فتحت لهم مصر ورأوا الخصب فى أرضها ورغد العيش على ضفاف نيلها ، جاوزوها الى صحارى النوبة وسهوب افريقية ؟ ما بالهم وقد فتحت لهم الأندلس ورأوا النعيم المقيم ، جاوزوا جبال البرانس ليستشهدوا فى بـــلاط الشــهداء ؟

((وما بالهم يتركون النعيم والخير العميم والعز المقيم فى الأرض الـــتى سيطروا عليها ، ليجوزوا فيافى قاحلة ، ويحاربوا أقواما غلاظا شدادا فــى بلاد تنتظرهم فيها قبورهم ؟ .

ان الأمر أعظم مما توهموا وأسمى مما قالوا .)) (١) .

---

(١) محمد الغزالى : مع الله ص١٧١ .

((لقد صارع المسلمون الشرك فى قلب الجزيرة العربية أكثر من عشرين عاما ، سقط خلالها من خيرة المسلمين فى الغزوات وحروب المرتدين والتنبئين ومانعى الزكاة ، وكانت كل هذه الحروب تدور رحاها فى البادية القفراء بعيدة عن الأطماع فى مواطن الخصب بالشمال .

((وطالما حاول المسلمون الانتصار دون حرب وغنائم ، كما حصل فى فتح مكة . وطالما حصلوا على غنائم ثم ردوها لأصحابها بعد اسلامهم كما حصل فى حنين والطائف .

((وقد وقعت معارك عنيفة داخل صفوف المسلمين ، بدأت بموقعة الجمل واستمرت بعد ذلك وسقط آلاف الضحايا فى هذه المعارك ، وماكانت تضيف أرضا خصبة ولا هناء ولا بذخا .)) (١) .

لقد كانت غوطة دمشق وصعيد مصر وسواد العراق (٢) ، تكفى المسلمين ـ بل وتزيد عن حاجتهم المادية ـ فماذا فتحوا غيرها من البلاد غير الخصبة ؟ وقد اتهم المسلمون بهذه التهمة ـ الاقتصادية ـ منذ فجر الاسلام ، وفكر أعداء الله بهذا التفكير ـ المادى ـ ، ولكنهم ردوا على أعقابهم أمام صلابة المسلمين واستعلائهم على متاع الأرض .

فليس من بواعث الجهاد الاسلامى ، الحصول على مال أو متاع أو مغنم أو جاه أو سلطان ، أو الاستيلاء على أراض جديدة ، أو نهب خيرات البلاد والعباد ، انما الهدف الأول والأخير من الجهاد : هو نشر دعوة الله فى الأرض وحمايتها وتحرير البشرية من كل ظلم وطاغوت .

---

(١) أحمد شلبى : الاسلام ص ٢٠٦ و ٢٠٧ .

(٢) سمى سواد العراق بذلك : للخضرة التى فى النخيل والشجر والزرع ، لأن العرب قد تلحق لون الخضرة بالسواد فتضع أحدهما موضع الآخر .

وقيل : سمى بذلك لأن العرب حينما جاؤوا نظروا الى مثل الليل من النخيل والشجر والماء .

انظر الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ١٢/١ .

وهذه أمثلة تبين لنا أن ليس من أهداف المسلمين الحصول على الدنيا ومغانمها بقدر هداية الناس الى الصراط المستقيم ، وأن الدنيا اذا جاءت فهي عرضية وليست الغاية الكبرى أو الهدف المنشود . وتبين لنا أن أعداء هذا الدين ظنوا - من بداية الدعوة - أن أتباع هذا الدين يسعون لتحقيق أهداف مادية .

جاء في تهذيب السيرة :

((ثم ان أشراف قريش من كل قبيلة ، وهم عتبة بن ربيعة ، وأخوه شيبة ، وأبو سفيان ، والنضر بن الحارث ، وأبو البخترى بن هشام ، والأسود بن المطلب ، وزمعة بن الأسود ، والوليد بن المغيرة ، وأبو جهل بن هشام ، وعبد الله ابن أبي أمية ، والعاص بن وائل ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج ، وأمية بن خلف . اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة ، ثم قال بعضهم لبعض : ابعثوا الى محمد - صلى الله عليه وسلم - فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه . فبعثوا اليه أن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك فأتهم . فجاءهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سريعا وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه بداء . وكان - صلى الله عليه وسلم - عليهم حريصا يحب رشدهم ويعز عليه عنتهم . حتى جلس اليهم . فقالوا له : يامحمد . انا قد بعثنا اليك لنكلمك . وانا والله مانعلم رجلا من العرب أدخل على قومه مثل ماأدخلت على قومك ، لقد شتمت الآباء وعبت الدين وشتمت الآلهة وسفهت الأحلام وفرقت الجماعة ، فما بقي أمر قبيح الا قد جئته فيما بيننا وبينك .

فان كنت انما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا ، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا . وان كنت انما تطلب به الشرف فينا ، فنحن نسودك علينا .

وان كنت تريد به ملكا ، ملكناك علينا . وان كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه قد غلب عليك ، بذلنا لك أموالنا فى طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نعذر فيك .

فقال لهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: (مابى ماتقولون . ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم . ولكن الله بعثنى اليكم رسولا ، وأنزل علىّ كتابا ، وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ونذيرا . فبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم . فان تقبلوا ماجئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وان تردوه علىّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم) .(١)

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : (بعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خيلا قبل نجد . فجاءت برجل من بنى حنيفة يقال له (ثمامة بن أثال) سيد أهل اليمامة . فربطوه بسارية من سوارى المسجد . فخرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : (ماذا عندك ياثمامة) ؟(٢) فقال : عندى يامحمد خير . ان تقتل تقتل ذا دم(٣) ، وان تنعم تنعم على شاكر . وان كنت تريد المال فسل تعط فيه ماشئت .

---

(١) عبد السلام هارون : تهذيب السيرة ٦٦و٦٧ .
والأصبهانى : دلائل النبوة ١/ ٧٥ و ٧٦ .

(٢) ماذا عندك ياثمامة : أى ماالظن بى أفعل بك ؟

(٣) ان تقتل تقتل ذا دم : أى ان تقتل تقتل صاحب دم ، لدمه موقع يشتفى بقتله قاتله ، ويدرك قاتله به ثأره أى لرئاسته وفضيلته ، وحذف هذا لأنهم يفهمونه فى عرفهم .
وقيل : تقتل من عليه دم مطلوب به وهو مستحق عليه ، فلا عتب عليك فى قتله .

فتركه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى كان بعد الغد . فقال : ماعندك ياثمامة ؟ قال : ماقلت لك . ان تنعم تنعم على شاكر ، وان تقتل تقتل ذا دم ، وان كنت تريد المال فسل تعط منه ماشئت . فتركه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى كان من الغد . فقال : ماذا عندك ياثمامة ؟ فقال : عندى ماقلت لك . ان تنعم تنعم على شاكر وان تقتل تقتل ذا دم ، وان كنت تريد المال فسل تعط منه ماشئت . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أطلقوا ثمامة . فانطلق الى نخل (١) قريب من المسجد فاغتسل ثم دخل المسجد فقال : أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله يامحمد . والله ماكان على الأرض وجه أبغض اليّ من وجهك فقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلها اليّ ، والله ماكان من دين أبغض اليّ من دينك فأصبح دينك أحب الدين كله اليّ . والله ماكان من بلد أبغض اليّ من بلدك فأصبح بلدك أحب البلاد كلها اليّ . وان خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة فماذا ترى ؟ فبشره رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأمره أن يعتمر . فلما قدم مكة قال له قائل : أصبوت (٢) ؟ فقال : لا ولكني أسلمت مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا والله . لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ (٣)

---

(١) فانطلق الى نخل : انطلق الى نخل فيه ماء فاغتسل منه .

(٢) أصبوت : أى أخرجت من دينك ؟

(٣) مسلم ٣/١٣٨٦ .

وأبو داود : السنن ٣/٧٦ .

(وجاء رجل من الأعراب الى النبى - صلى الله عليه وسلم - فآمن به واتبعه . فقال : أهاجر معك ، فأوصى به بعض أصحابه . فلما كانت غزوة خيبر غنم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - شيئا ، فقسمه ، وقسم للأعرابى ، فأعطى أصحابه ماقسم له ، وكان يرعى ظهرهم ، فلما جاء دفعوه اليه . فقال : ماهذا ؟ قالوا : قسم قسمه لك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، فأخذه فجاء به النبى - صلى الله عليه وسلم - فقال : ماهذا يارسول الله ؟ قال : قسم قسمته لك . قال : ماعلى هذا اتبعتك ، ولكن اتبعتك على أن أرمى ههنا - وأشار الى حلقه - بسهم ، فأموت ، فأدخل الجنة ، فقال : أن تصدق الله يصدقك ، ثم نهضوا الى قتال العدو ، فأتى به الى النبى - صلى الله عليه وسلم - وهو مقتول . فقال : هو هو ؟ قالوا : نعم . قال صدق الله فصدقه . فكفنه النبى - صلى الله عليه وسلم - فى جبته ، ثم قدمه فصلى عليه . وكان من دعائه له : اللهم هذا عبدك خرج مهاجرا فى سبيلك قتل شهيدا ، وأنا عليه شهيد) .(١)

(لما جمع هرقل للمسلمين الجموع وبلغ المسلمين اقبالهم اليهم لوقعة اليرموك . ردوا على أهل حمص ماكانوا أخذوا منهم من الخراج . وقالوا : قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم ، فأنتم على أمركم . فقال أهل حمص : لولايتكم وعدلكم أحب الينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ، ولندفعن مع عاملكم جند هرقل عن المدينة) .(٢)

---

(١) أخرجه عبد الرزاق فى المصنف ٣/٥٤٥ ، والنسائى ٤/٦١ ومن طريقه البيهقى (فى السنن الكبرى ٤/١٥ و ١٦) واسناده صحيح ورجاله ثقات .

(٢) البلاذرى : مفتوح البلدان ص١٨٧

هذه الحوادث ـ وغيرها من الحوادث تثبت للأعداء قبل الأصدقاء ـ مع أننا لسنا بحاجة لشهادة الأعداء ـ أن الفتوحات الاسلامية نابعة من العقيدة الاسلامية ومرتكزة عليها ، وأنه لا صلة للجهاد بالاقتصاد لا من قريب ولا من بعيد .

وها هو ذا عبادة بن الصامت (رضى الله عنه) يقول للمقوقس عظيم القبط : (أما ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم وأنا لا نقوى عليهم فلعمري ماهذا بالذى تخوفنا به ولا بالذى يكسرنا عما نحن فيه . وان كان ما قلتم حقا ، فذلك والله أرغب مايكون فى قتالهم ، وأشد لحرصنا عليهم ، لأن ذلك أعذر لنا عند الله اذا قدمنا عليه ، ان قتلنا عن آخرنا كان أمكن لنا من رضوانه وجنته ، وما من شئ أقر لأعيننا ولا أحب الينا من ذلك . وانا منكم حينئذ على احدى الحسنيين ، اما أن تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا ان ظفرنا بكم أو غنيمة الآخرة ان ظفرتم بنا ، وانها لأحب الخصلتين الينا بعد الاجتهاد منا .

وان الله عز وجل قال لنا فى كتابه ((كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين)) . (البقرة : ٢٤٩) .

وما منا من رجل الا وهو يدعو ربه صباح مساء أن يرزقه الشهادة وألا يرده الى بلده ولا الى أرضه ولا الى أهله وولده .

وليس لأحد منا هم فيما خلفه ، وقد استودع كل واحد منا ربه أهله وولده ، وانما همنا ما أمامنا .

وأما قولك : انما فى ضيق وشدة فى معاشنا وحالنا ، فنحن فى أوسع السعة ، لو كانت الدنيا كلها لنا ما أردنا منها لأنفسنا أكثر مما نحن فيه .

فانظر الذى تريـــد فبينـــه لنا فليس بيننا وبينك خصلة نقبلها منك ولا نجيبك اليها الا خصلة من ثـلاث (١) ....) .

(أرسل رستم الى سعد بن أبى وقاص ـ رضى الله عنه ـ يسأله توجيه بعـض أصحابه اليه . فوجه اليه المغيرة بن شعبة ـ رضى الله عنه ـ فقال له رستـــم : قد علمت أنه لم يحملكم على ما أنتم فيه الا ضيق المعاش وشدة الجهد ، ونحــن نعطيكم ما تتشبعون به ونصرفكم ببعض ما تحبون . فقال المغيرة : ان اللـــه بعث الينا نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فسعدنا باجابته واتباعه . وأمرنـــا بجهاد من خالف ديننا حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون . ونحن ندعوك الى عبادة الله وحده والايمان بنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ والا فالسيف بيننـــا وبينكم) . (٢)

(كتب عمر بن عبد العزيز ـ رضى الله عنه ـ الى عامله على مصر ـ أن يضـــع الجزية عمن أسلم من أهل الذمة . فكتب اليه عامله يراجعه ويقول : ان الاسلام قد أضر بالجزية ، وأن خزائن الحكومة قد نضبت مواردها . فكتب اليه عمـــر يؤنبه ويعزره ويقول له : (ان الله بعث محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ هاديا ولم يبعث جابيا) . (٣)

هذه الحوادث كلها تسجل بمداد من نور فى سجل الحروب البشرية ، وتثبت للعالمين أن غاية الجهاد الاسلامى : هى أن تكون كلمة الله هى العليا وكلمـــة الذين كفروا السـفلى .

---

(١) ابن تغرى بردى الأتابكى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ١/ ١٤ . والسيوطى : حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة ١/ ١١٢ و ١١٣ .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣٥٨ .

(٣) محمد عنان : مواقف حاسمة فى تاريخ الاسلام ص ٢٨ . وفى رواية (والله لودت أن الناس كلهم أسلموا حتى نكون أنا وأنت حراثين نأكل من كسب أيدينا) . انظر ابن الجوزى : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٨١ .

لقد حكم الاسلام أجيالا كثيرة وقرونا طويلة وأجناسا متنوعة وأرجاء واسعة . . .
كان الفرد والمجتمع والدولة خلال حكمه أكثر الناس أمنا وطمأنينة وسعادة واستقراراً
فى الحياة ، وأبعد الخلق عن مشاكل الحياة .

وان من واجب مفكرى الاسلام اليوم أن ينطلقوا ـ من استعلائهم بايمانهم ـ
فى اتجاهين :ـ

الأول : تكرار القول بأن شبهات أعداء الدين هى افتراءات وأباطيل وليست
شبهات ، وأن كل مايتعلق بالاسلام فوق الاتهام . وصدق الله العظيم :
" كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون الا كذبا " (الكهف : ٥) .

والثانى : أخذ زمام المبادرة من الأعداء ، والهجوم على باطلهم ، ثم الاستشهاد
بكلام عقلائهم ومفكريهم بأن حضارة الغرب فى طريقها الى الانهيار .

ويطول بنا المقام لو تتبعنا كل افتراء ودحضناه* ولكننا نقول بايجاز : اننا
نرفض القيام بدور المحاماة عن الاسلام ، لأنه : " تنزيل من رب العالمين "
(الحاقة : ٤٣) وهذا العمل ـ فى نظرنا ـ جريمة كبرى تعدل جريمة القاء
الشبهات والشكوك حوله . . .

من هو الذى يريد أن نثبت له أن أيا من أحكام الاسلام صحيحة ومناسبة
ولا تتعارض مع العقل والمنطق ؟

أليس هو تلك الذرة الضعيفة المشوشة فى هذا الكون الفسيح ، الذى لم
يكتشف أسرار نفسه بله أسرار الكون من حوله ؟ .

وصدق الله العظيم : " فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى
فى الصدور " (الحج : ٤٦) .

---

* انظر كتاب شيخنا محمد قطب (شبهات حول الاسلام) .

د حـــض الفريـــة الدفاعيـــة :

أشـــاع هذه الفرية وروجهـا أشـد المستشرقين خبثا وحقدا ودهـــاء وكراهية للاسلام والمسلمين .

ومؤدى هذه الفرية : أن البلاد لم تفتح بسيوف المجاهدين ، وأن الاسلام لايشهر سيفا في وجوه مناوئيه الا اذا بدؤوه هم بالهجوم عليه ، وأن الحـروب الاسلامية لم تكن لنشر عقيدة التوحيد بل هي ـ فحسب ـ لرد اعتداءات الآخرين .

ووضع المستشرقون هذه الفرية بغلاف براق ـ باطنه فيه السم الناقع ، وظاهـره فيه الرحمة والعدل ـ حتى يركن اليهم المسلمون ويقولوا ـ كما حدث وتوقعوا ـ .

(الحمد لله . ان بعض المستشرقين تخلى عن عصبيته وحقده ، وصار هدفهم الوصول الى الحقيقة لاغير ، وهاهو قسم منهم يدافع عن الاسلام بحرارة . هاهم يقولون ـ لاكما قال المتعصبون منهم ـ ان الاسلام لم ينتشر بالسيف ، ولا يحمل دعوته للمخالفين ، ولايعتدى الا اذا اعتدى عليه ، ولا يفكر في حرب من لم يحاربه) .

والحقيقة التي غابت عن الكثيرين أن كلام هؤلاء المستشرقين هو استدراج للمغفلين والجاهلين طبيعة هذا من المسلمين .

ولايهدف هؤلاء الأعداء الا الى تحقيق حاجة في نفوسهم هي ذبح المسلمين بسيف من ذهـب !

نعم . قد يقول هؤلاء كلاما جميلا عن الاسلام فينصفوه ، ولكنهم يهدفـون من وراء ثنائهم على الاسلام أن يطمئن القارئ اليهم ، فاذا وثق بنزاهتهم وبحثهم العلمي . قالوا مايريدون ، من غمز ولمز وتحريف للكلم عن مواضعه وتركيز علـى شئ معين بالذات . واستمروا بعد ذلك ـ وقبل ذلك ـ في مدحهم الاسلام والمسلمين كأنهم لم يسيئوا للاسلام والمسلمين . وذلك اشعارا للقارئ أنهم أسدوا للاسـلام خدمة جليلة بدفاعهم عنه ، وأنهم طلاب حقيقة لاغير .

وقد تحقق ماأراده ـ وخطط له ـ هؤلاء الأعداء ، ونجحوا فى ذلك نجاحا باهرا . وكان من نتيجة هذا الاسلوب الجديد فى حرب الاسلام والمسلمين أن وقع معظم الكتاب المسلمين المحدثين ـ المهزومين أمام الفكر اليهودى الصليبى الوثنى الشيوعى الحاقد الماكر ـ فى حبائل المستشرقين ، وقصروا مبدأ الجهاد الاسلامى على الدفاع فحسب ، مجاراة لهؤلاء الأعداء .

والرد على هذه الفرية الدفاعية ، هو رد على الباحثين المسلمين ورد كذلك على المستشرقين والمستغربين . وهو تأكيد كذلك على أن بواعث الجهاد الاسلامى وغاياته هى : تحرير الانسانية من كل عبودية لرب البرية .

وفى الوقت الذى كان فيه تلاميذ المدرسة العقلية الحديثة يسمحون لأعداء الله بوضع الاسلام فى قفص الاتهام ثم يقومون هم بدور المحامى عنه ، والتنازل أثناء ذلك عن أشياء من العقيدة الاسلامية ـ لئلا يقال بأن الاسلام لا يصلح لكل زمان ومكان أو يتعارض مع المدنية الحديثة ـ جاءت كتابات الأستاذين الجليلين أبى الأعلى المودودى وسيد قطب ـ عليهما الرحمة والرضوان لتقلب هذه الأوضاع الجاهلية رأسا على عقب ، ولتعيد الثقة بالاسلام فى نفوس أتباعه من جديد ، ولتهدم معاول الباطل وتفرقها شذر مذر .

نعم . لقد يسر الله تعالى لهذه الأمة الاسلامية مجددى القرن الرابع عشر الهجرى ، الامام حسن البنا (فى البلاد العربية) والامام المودودى (فى البلاد غير العربية) ففطنا لمكائد الصليبية واليهودية العالمية ، وقاما بشرح مبادئ الاسلام وحقائقه بين الناس ، وسنا سنة حسنة بالقيام بأخذ زمام المبادرة من الأعداء ، والهجوم على جاهلية القرن العشرين وكشف معايبها للعيان .

وربيا جيـلا من المسلمين آمـن بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمـد - صلى الله عليه وسلم - نبيا ورسـولا .

وتبعهما في هذا الطريق رائد الفكر الاسلامي المعاصر الاستاذ سيد قطب - رحمه الله - فكتب عن الاسلام باستعلاء ، ورفض أن يتدسس بهذا الدين تدسسا - لأى كان - ، وشن هجوما عنيفا على الجاهلية المعاصرة ، وانتقد بشدة ما ذهب اليه المحدثون - الذين وقعوا تحت ضغط الهجوم الاستشراقي الماكر - من مجاراة أعداء الله .

ثم بين بما لا مزيد عليه تعريف الحاكمية وأهميتها ودورها ، وأزال كذلك ما ران على مبدأ الجهاد من ركام ، فكان كتابه الظلال (في ظلال القرآن) وجاء كتابه المعالم (معالم في الطريق) .

وهؤلاء الرواد الثلاثة (البنا والمودودى وقطب) كان لهم أكبر الأثر في تربية الجيل على الجهاد ، وكانت كتاباتهم عن الجهاد ضوءا أنار أفئدة المؤمنين وكشف مكائد المجرمين وبدد ظلمات المعاندين . *

والحقيقة أن هؤلاء الأئمة - رحمهم الله - لم يأتوا بجديد لم يتطرق اليه السلف الصالح في الحديث عن ذروة سنام الاسلام (الجهاد) ، ولكنهم أزالوا ما تراكم على الحقائق البدهية من ران - عبر السنين - وأعادوا الأمور الى وضعها الصحيح . ورفض هؤلاء الثلاثة ما ذهب اليه كثير من علماء المسلمين ، من تنصيب أنفسهم محامين للدفاع عن الاسلام بعد وضعه في قفص الاتهام . ولسان حالهم - رحمهم الله - يقول : (ان الاسلام - هذا العملاق العظيم - أكبر من أن يحاكم في محاكم الأقزام . ومن الظلم للاسلام اعتباره عملاقا لأنه أكبر من هذه الكلمة - . ومن الظلم أيضا اعتبار أعدائه أقزاما ، لأنهم لن يصلوا في يوم ما الى مستوى الأقزام . ومن الظلم كذلك مجرد التفكير في محاكمة دين الله العظيم !) .

---

* انظر كتاباتهم عن الجهاد في كتاب (الجهاد في سبيل الله) .

ولابد من الاشارة فى هذا الصدد الى أن من ذهب من المحدثين الى الدفاع عن الاسلام - بعد وضعه فى قفص الاتهام (١) - هو اجتهاد منهم كما نظن - فى خدمة الاسلام والمسلمين ، وهم مأجورون - باذن الله - على نياتهم ، ولا نظن فيهم الا الحرص على الاسلام والخير للمسلمين . ولابد من الاشارة كذلك الى أن من علماء المسلمين ومفكريهم وكتابهم - كالأئمة رشيد رضا ومحمد أبو زهرة ومحمود شلتوت وكالاستاذ العقاد (رحمهم الله جميعا) - من قد يكون أكثر اطلاعا على علوم الاسلام من أحد روادنا الثلاثة ، ولكن الاطلاع والمعرفة شىء ، وفقه الدعوة والاستعلاء والفتوحات الربانية شىء آخر . ومن نافلة القول التأكيد على أن الرجال تعرف بالحق ولا يعرف الحق بالرجال ، وكل انسان يؤخذ من قوله ويترك الا المعصوم (صلوات الله وسلامه عليه) .

وسنورد فى هذا الفصل - ان شاء الله - ماقاله أحد هؤلاء المحدثين* الذى أصبح كتابه (آثار الحرب فى الفقه الاسلامى) مرجعا لكثير من الدارسين للجهاد والعلاقات الدولية فى الاسلام .

وسنورد بعد ذلك أسماء بعض من لم يفهموا حقيقة الجهاد الاسلامى وطبيعته التى وصل اليها روادنا الثلاثة - رحمهم الله - وهى أن الجهاد دفاعي وهجومى فى الوقت نفسه (٢)، وانه تحرير لكل انسان فى الأرض من كل عبودية لغير الله عز وجل .

---

(١) انظر كتاب (الاسلام فى قفص الاتهام) لشوقى أبو خليل ، وقل معى : وا أسفاه على من يظن أنه يحسن الى الاسلام صنعا بمثل هذا العمل .

(٢) يقول العلامة ابن باز - حفظه الله -: (والجهاد جهادان : جهاد طلب ودفاع . والمقصود منهما جميعا : هو تبليغ دين الله ودعوة الناس اليه) . انظر رسالته فضل الجهاد والمجاهدين ص٣٨ .

* هو وهبة الزحيلى (هداه الله تعالى للرجوع الى الحق وعدم التمادى فى الباطل) .

يقول وهبة الزحيلي : (اقتلع الاسلام من قلوب المسلمين جذور الحقد الديني بالنسبة لأتباع الديانات السماوية الأخرى ، وأقر بوجود زمالة عالمية بين أفراد النوع البشري ، ولم يمانع أن تتعايش الأديان جنبا الى جنب) .

ولا يصح للمسلمين وغيرهم أن يفهموا أن الدعوة المحمدية انتشرت تحت ظلال السيوف نتيجة لاقتران ظهورها خارج الجزيرة العربية بظهور الدولة الاسلامية ، وامتزاج تاريخ الفتوحات السياسية والدولية بتاريخ الفتح الديني لأن قبول الاسلام كان بمعزل تام عن الخضوع لسلطان الدولة التي كانت مهمتها رد العدوان عن المؤمنين بالدين الجديد) .

(وأما حروب الاسلام ضد قريش والفرس والروم فانها لم تكن لنشر العقيدة بالسيف ، وانما هي تأديب لمن يكفرون بحرية العقيدة الاسلامية ، ويفتنون الناس عما تؤمن به قلوبهم وتطمئن له عقولهم) .

(والحقيقة أن الدعوة بالحسنى الى الدين كانت في المدينة أيضا ، وكل ما استجد في التشريع المدني هو الاذن بالقتال لرد العدوان وحماية الدعوة ، بعد أن قوي المسلمون ، وبعد أن تكونت لهم دولة وأصبح لهم وطن) .

(ولعل الأصول العامة ـ وهي الدعوة الى مبدأ توحيد الاله الحق ، والمحافظة على النفوس والعقول والأنساب والأعراض والأحوال ـ التي يشترك فيها الاسلام مع بقية الأديان ، وعدم خروجه على المألوف في أذهان المتدينين بالأديان السابقة ، هي من الدعائم التي قبل الناس بها الاسلام) .

(ماهو الباعث على القتال عند المسلمين؟ الجهاد مشروع في الاسلام اضطرارا قال تعالى : " كتب عليكم القتال وهو كره لكم " (البقرة : ٢١٦) .

وفي الحديث : ((ان الله جعل عذاب هذه الأمة في الدنيا القتل)) فسمي الجهاد عذابا لهذه الأمة) (١) ؟ .

---

(١) الزحيلي : آثار الحرب في الفقه الاسلامي ص٦٣و٦٧و٧٨و ٨٤ .

(وقال الرسول (صلى الله عليه وسلم) : الجهاد ماض الى يوم القيامة)
ولايفهم من الفرضية أن الجهاد مبدأ هجومي عدواني ، وانما هو على العكس
مبدأ وقائي) . (وقد حققنا في ختام هذا البحث : أن موقف الرسول في كل
حروبه كان دفاعيا) . (فما كان المسلمون يفاجئون قوما بحرب الا بعد أن يظهر
منهم روح العداء ، ومعارضة الدعوة والوقوف في وجهها والتحقير من شأنها) .
(والجهاد وان بقي على الفرضية - والفرضية عند الزحيلي كما ذكر آنفا هي :
مبدأ وقائي فحسب . . . - فانه أداة عاقلة في يد المسلم ، وليس وسيلة طائشة
تستعمل للسيطرة على العالم ، أو لتثبيت السلطان وتوسيع الملك ، أو لمحو
الديانات الأخرى ، وتحويل دار الحرب الى دار الاسلام بدون مبرر كما يدعى
بعض الكاتبين الغربيين) .

(والخلاصة : أن الأصل في علاقات المسلمين بغيرهم هو السلم . والحرب
عارض لدفع الشر واخلاء الدعوة ممن وقف أمامها . وتكون الدعوة الى الاسلام
بالحجة والبرهان لا بالسيف والسنان) .

((وفقهاؤنا قرروا : أن الأصل في العلاقات هي الحرب ، دون أن يكون
لذلك سند تشريعي ، الا ماكان تصويرا منهم للواقع ، حيث كان الاسلام
ككل دعوة جديدة ، معارضا من قبل الناس ، لأن مبادئ الاخوة الانسانية
والمساواة بين الخلق ، والتكافل الاجتماعي ، ومبادئ الحرية والعدالة ،يخشاها
الحكام ، لئلا يعجل بسقوط عروشهم . فحاربوا المسلمين ودام الصراع قرونا طويلة ،
فاعتبر الفقهاء أن الحرب هي أصل العلاقات مع الأعداء ، حتى يأمنوا جانبهم ،
اما باعتناق الاسلام ، أو بالتعاهد مع المسلمين) .

(وفى صدد المقارنة مع القانون الدولى ، نجد أن ماانتهينا اليه من اعتبار السلم أصل العلاقات فى الاسلام هو الأمر المقرر لدى فقهاء القانون الدولى) (١) .

(وقرر جمهور الفقهاء أن الباعث على القتال ليس هو الكفر و مخالفة الدين وانما هو العدوان . والعدوان كما عرفنا : هو حالة اعتداء مباشر أو غير مباشر على المسلمين والذميين ، أو على أموالهم وبلادهم ، أو على الدعاة والمرشدين ، أو على فئة مستضعفة أو مماهذة ، وتقدير ذلك راجع الى ولاة الأمور) .

(والحكمة من تشريع الجهاد هى : اما رد العدوان ، أو المحافظة على جماعة المسلمين ، أو منع ظلم الحكام الذين يعادون نهضة الاصلاح وحركة التبشير الدينى ، حتى يعم الخير والايمان ، وتسود المحبة والوئام بين جميع الناس) .

(أما مبدأ تخيير العدو بين قبول الاسلام أو العهد أو القتال ، الذى كان سائدا فى حروب المسلمين فهو ليس من قواعد النظام العام . . .) .

(وأما مبدأ الحياد القانوني ـ الذى عرف حديثا ـ فلا تجد فيه منافاة لتعاليم الاسلام ، اذ أن القرآن قرر أصل هذا المبدأ ، ووجدت أمثلة فى التاريخ الاسلامى تشبه من الناحية الفعلية حالة الحياد .

واذن فان الاسلام يقر التنظيم الدولى بالوضع الحاضر ، ويسعى لاقامة أمن دولى بالمعنى المعروف حديثا . ولا فارق بين الشريعة والقانون الدولى : الا فى أن القانون باعتباره ينظم العلاقات بين دول كثيرة فهو لا يلاحظ الآن فارق العقيدة والدين . وأما الشريعة فانها تقيم التنظيم الدولى على أساس دينى ، ولكن بدون تعصب أو حقد على الآخرين) .

---

(١) المصدر نفسه : ص ٨٦ و ٨٩ و ٩١ و ٩٧ و ١٣٦ و ١٣٧ .

(ووجدنا أن التشريع الاسلامي يحرص على انهاء الحرب بكل وسيلة تضمن بقاء السلم) .

(والفتح : هو آخر الطرق المشروعة في الاسلام . وقد كان ذلك سائدا عند مختلف الأمم . غير أن الفتوحات الاسلامية لم تكن حروبا دينية تهدف القضاء على الدين المخالف . وانما كانت عند قيام سبب من أسباب الحرب ، ورفض الاسلام أو العهد) . (١)

(وليس من الضروري أن يستمر المسلمون في حربهم حتى النصر أو الفناء ، لأن ذلك تهور لا يقره منطق) ! ؟ ..

(وليست الحروب دائمة في الاسلام الا بمقدار مشروعيتها وهو تحقق وصف الحرابة والعدوان . والاسلام بريء من تهمه النظرة العدائية بالفطرة الى شعوب الأرض - كما يدعى المستشرقون -) .

(ومن أمثلة الآراء الجديدة لنا ربط مشروعية الجهاد بوجود العدوان ، وترك تقدير ذلك لولى الأمر . وأن الدنيا دار واحدة وليست دارين كما قرر فقهاؤنا) ! ؟ .

(ويمكننا أن نستخلص من دراستنا أسسا جديدة للتنظيم الدولي الحاضر بشكل يكفل تماما صيانة السلم العالمي ، وتلك الأسس مستمدة من أصول الدعوة الاسلامية ومبادئها الدولية :

منها : منع استخدام القوة الا للدفاع عن النفس) :

(فمثلا : قول الفقهاء : ان جميع الحربيين تستباح دماؤهم في الحرب وتغنم جميع أموالهم (العقارية والمنقولة) هذا الحكم كان صحيحا حينما كانت الحرب في الماضي تعتبر كفاحا بين شعبي الدولتين . أما اليوم حيث اقتصرت

---

(١) المصدر نفسه : ص ٧٧١ - ٧٨٠ .

الحرب على الجيوش المنظمة ، فينبغي حصر أثر الحرب فيهم دون غيرهم من بقية الشعب ، وفي حدود مايختص بالحكومات فقط) .

(حرصا منا على بيان صلاحية الاسلام لكل زمان ومكان نضع مشروعا لقانون حرب دولي مستمد من الاسلام :

المادة (١) الأصل في علاقة المسلمين بغيرهم هي السلم ، والدنيا دار واحدة ، والحرب ضرورة -

المادة (٢) الجهاد عند وجود العدوان ، وتقدير وجوده راجع لولاة الأمور . .

المادة (٥٢) تنتهي الحرب بالتحكيم بالمعنى الدولي الحديث . . . ولا يشترط كون الحكم . مسلما حينئذ . (١)

وقد وقع هؤلاء السادة في بعض ماوقع فيه الزحيلي ، وقالوا بأن الجهاد دفاعي :

عباس محمود العقاد (٢)

ومحمد عبد الله دراز (٣)

ومحمود شلتوت (٤)

ومحمد أبو زهرة (٥)

وعبد الله غوشة (٦)

---

(١) المصدر نفسه من ص ٧٨٢-٧٨٩ و ص ٧٩٧ (مقتطفات) .
(٢) العقاد : مايقال عن الاسلام ص ٥٧ و ١٥٨ ، وعبقرية الصديق ص ١٠٩
(٣) دراز : دراسات في العلاقات الاجتماعية والدولية ص ١٤٢ و ١٤٣ .
ونظرات في الاسلام ص ٢٠٣ - ٢٠٦ .
(٤) شلتوت : الاسلام عقيدة وشريعة ص ٤٦١ و ٤٦٢ .
(٥) أبو زهرة : العلاقات الدولية في الاسلام ١ / ١١٢ و ١١٦ و ١٣٧ (ضمن مجمع البحوث)
والجهاد ص ٦٨ و ٩١ و ٩٢ (ضمن مجمع البحوث) .
(٦) غوشة : الجهاد طريق النصر ص ٢٢ و ٢٥ و ١١٥ .

ومحمد الصادق عرجون (١)

والسيد سابق (٢)

وأحمد عبد الغفور العطار (٣)

والسيد عبد الحافظ عبد ربه (٤)

وعبد المتعال الصعيدى (٥)

وأحمد شلبى (٦)

وتوفيق على وهبه (٧)

وعطية صقر (٨)

ويوسف عبد الرزاق (٩)

وحامد سلطان (١٠)

وعفيف طبارة (١١)

---

(١) عرجون : الموسوعة فى سماحة الاسلام ٢ / ٩٣٣ و ٩٨٥ و ١٠٢٠ و ١٠٢٦ .

(٢) سابق : عناصر القوة فى الاسلام ص ٢١٠ و ٢١١ .
وفقه السنة ٣ / ٢٢ - ٢٦ .

(٣) أحمد العطار : انسانية الاسلام من ص ٩٠ - ٩٨ .

(٤) السيد عبد ربه : فلسفة الجهاد فى الاسلام ص ٤٦ و ٤٦ و ١٥٧ و ١٩٦ .

(٥) عبد المتعال الصعيدى : دراسات دينية وأدبية من ص ٣ - ٢٧ .

(٦) أحمد شلبى : الاسلام ص ١٩٢ و ١٩٩ و ٢٠٠ و ٢٠٣ .

(٧) توفيق وهبه : الجهاد فى الاسلام ص ٩ - ١٣ و ٢٥ .

(٨) عطية صقر : الدعوة الاسلامية دعوة عالمية ص ٤٠٨ - ٤١٩ .

(٩) يوسف عبد الرزاق : دعوة الحق ص ٧٧ و ١٣٧ - ١٣٩ .

(١٠) حامد سلطان : أحكام القانون الدولى فى الشريعة الاسلامية من ص ١١٢ - ١١٩ .

(١١) عفيف طبارة : روح الدين الاسلامى ص ٣٩٢ - ٣٩٤ .

وعبد الرحمن عـزام (١)

وعبد الكريم عثمـان (٢)

وعبد العزيز جاويـش (٣)

وصلاح الدين المنجـد (٤)

ويوسـف الشـال (٥)

وحامـد عبد القادر (٦)

ومحمـد جمال الدين محفوظ (٧)

وأبو لبابة حسـين (٨)

ومحمـد شـديد (٩)

---

(١) عبد الرحمن عزام : الرسالة الخالدة ص٩٢ - ١١٩ .

(٢) عبد الكريم عثمان : معالم الثقافـة الاسلامية ص٢٢٣ - ٢٢٥ .

(٣) عبد العزيز جاويش : الاسلام دين الفطرة والحرية ص٢٨ - ٣٧ .

(٤) صلاح الدين المنجد : المجتمع الاسلامي في ظل العدالة ص٤٣ .

(٥) يوسف الشال : الاسلام وبناء المجتمع الفاضل من ص٣٢٣ - ٣٣١ .

(٦) حامد عبد القادر : الاسلام ظهوره وانتشاره في العالم ص٢٣٠ - ٣١٥ .

(٧) محمد محفوظ : المدخل الى العقيدة والاستراتيجية العسكريـة الاسلامية ص٤١ و ٤٤ و ٨٧ .

(٨) أبو لبابة حسين : الاسلام والحرب ص١٠ و ١٩ و ٢٢ .

(٩) محمد شديد : منهج القرآن في التربية ص٣٣ - ٣٥ .

ومحمد الرواى (١)

وعثمان الشرقاوى (٢)

ومحمد عطية الابراشى (٣)

وصبحى المحمصانى (٤)

وصبحى الصالح (٥)

ومحمد الحبيب بلخوجة (٦)

ومحمد اسماعيل ابراهيم (٧)

وعلى عبد الحليم محمود (٨)

ومحمود محمد على (٩)

---

(١) محمد الراوى : الدعوة الاسلامية دعوة عالمية من ص٥١٢ - ٥٥٢ .

(٢) عثمان الشرقاوى : شريعة القتال فى الاسلام ص١١٩ و ١٣٠ .

(٣) محمد الابراشى : عظمة الاسلام ص ٢٧٦ - ٢٨٥ .

(٤) صبحى المحمصانى : القانون والعلاقات الدولية فى الاسلام ص١٥٥ و١٨٠ و
و ١٩٠ - ١٩٤ .

(٥) صبحى الصالح : النظم الاسلامية ص ٥٢٠ .

(٦) محمد بلخوجة : مواقف الاسلام ص ١١ - ١٣ و ٢٥ و ٢٦ .

(٧) محمد ابراهيم : الجهاد ركن الاسلام السادس ص ٦٣ .

(٨) على محمود : الدعوة الاسلامية دعوة عالمية من ص٣٢٢ - ٣٣٤ .

(٩) محمود على : الجهاد فى التشريع الاسلامى ص٤٢ - ٤٨ .

ومحمد رشيد رضا (١)

ومحمد أمين المصرى (٢)

ومحمود فايد (٣)

وعبد الكريم الخطيب (٤)

ومحمد البهى (٥)

وأحمد غلوش (٦)

وأحمد الحوفى (٧)

ومجاهد هريدى (٨)

وأحمد غنيم (٩)

---

(١) محمد رشيد رضا : الوحى المحمدى ص ٢٣٦ فما بعدها .

(٢) محمد أمين المصرى : لمحات فى وسائل التربية ص ١٢٧ - ١٣٧ .

(٣) محمود عبد الوهاب فايد : التربية فى كتاب الله ص ١٢ .

(٤) عبد الكريم الخطيب : الاسلام فى مواجهة الماديين ص ١٨٤ - ١٨٨ وص ١٩٨ .

(٥) محمد البهى : خمس رسائل الى الشباب المسلم ص ٨٧ و ٨٨ .

(٦) أحمد غلوش : الدعوة الاسلامية من ص ٢٦١ - ٢٧٠ .

(٧) أحمد الحوفى : سماحة الاسلام ص ٨ و ٤٥ و ٤٧ و ٥٢ و ٥٦ و ٦١ و ٧٢ .

(٨) مجاهد هريدى : منهج القرآن والسنة فى العلاقات الانسانية ص ٢٢٠ و ٢٥٦ .

(٩) أحمد غنيم : الجهاد الاسلامى ص ٢٠ و ٢٣ و ٣٢ و ٣٣ .

والآن الى دحض الفرية الدفاعية :

أقول هل ننتظر أعداءنا - وقد قال الله عنهم " ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة واولئك أصحاب النار هم فيها خالدون " (البقرة : ٢١٧) حتى يهاجمونا فى عقر دارنا - بحجة أن الجهاد دفاعى - ثم نعلن النفير بعد ذلك ؟ ومعروف أنه ماغزى قوم قط فى عقر دارهم الا ذلوا .

لقد كانت غزوات رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خمسا وعشرين غزوة (١) - وفى رواية أخرى : تسع عشرة غزوة (٢) - وكانت بعوثه وسراياه أكثر من ستين بعثا وسرية . (٣) (أى بمعدل غزوتين وثلاث بعوث فى السنة) . فلم كل هذا الجهاد المتواصل اذا كان الهدف من الجهاد هو الدفاع لا الطلب والدفاع ؟ .

ويقول رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " ان الله زوى لى الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وان أمتى سيبلغ ملكها مازوى لى منها . وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض)) (٤) .

---

(١) الحسنى : العقد الثمين ١/ ٢٧٥ .

(٢) مسلم ٣/ ١١٤٧ وعن جابر بن عبد الله (رضى الله عنهما) قال : غزوت مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) تسع عشرة غزوة . قال جابر ولم أشهد بدرا ولا أحدا منعنى أبى . فلما قتل عبد الله يوم أحد لم أتخلف عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فى غزوة قط . انظر مسلم ٣/ ١٤٤٨ . قلت : وهذا دليل على أنها أكثر من تسع عشرة غزوة ، لأن جابر شهد جميع الغزوات باستثناء بدر وأحد .

(٣) الحسنى : العقد الثمين ١/ ٢٧٥ .

(٤) مسلم ٤/ ٢٢١٥ ومعنى زوى : جمع .
والمراد بالكنزين : الذهب والفضة ، وهما كنزا كسرى وقيصر ملكى العراق والشام .

فلو لم يكن الجهاد هجوميا ـ لازالة طغيان كسرى وقيصر ـ فكيف تتحقق هذه النبوءة النبوية الكريمة ـ وقد تحققت بعده ـ ؟

وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ((ان الله تعالى بعثني بالسيف بين يدى الساعة وجعل رزقي تحت رمحي ـ أو ظل رمحي ـ وجعل الذل والصغار على من خالفني ومن تشبه بقوم فهو منهم)) (١) .

فكيف نفسر هذا الحديث لو كان الجهاد دفاعيا فحسب ؟ .

---

(١) الشيباني : شرح كتاب السير الكبير ١ / ١٦ .

والمراد بقوله بعثني بالسيف : أى بعثني بالقتال في سبيل الله .
كما قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله فاذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم الا بحقها وحسابهم على الله) .
ولأن القتال في حق غيره من الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ لم يكن مأمورا به وخص رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بذلك .
وقوله بين يدى الساعة : أى بالقرب من القيامة ، قال تعالى : " اقتربت الساعة وانشق القمر " (القمر : ١) . وقيل في تفسير قوله تعالى : " فيم أنت من ذكراها " (النازعات : ٤٣) فيم السؤال عن الساعة وأنت من أشراطها ؟ ومعنى قوله وجعل رزقي تحت رمحي : قيل كان هذا في ابتداء الاسلام ، كان الغازى اذا جن الليل فركز رمحه عند قوم فعليهم أن يضيفوه ، فان لم يفعلوا ذلك حتى أصبح ، كان متمكنا من أن يغرمهم . ثم نسخ ذلك . وقيل المراد به : حل الغنائم لهذه الأمة ، فانها ماكانت تحل لأحد قبلها . ولم يرد بالظل حقيقة الظل ، لكن أراد به الأمان . ومنه قوله : السلطان ظل الله في الأرض . يريد به الأمان .
ومعنى قوله وجعل الذل والصغار على من خالفني : أى ذل الشرك .
والمراد من الصغار : صغار الجزية ، على ماقال تعالى : ((وهم صاغرون)) (التوبة : ٢٩) ..
وقوله ومن تشبه بقوم فهو منهم : أى تشبه بالمجاهدين في الخروج معهم =

ان الجهاد الاسلامي فريضة شرعية وضرورة بشرية ومصلحة عامة للانسانيـــة ، فلذا أمر به المسلمون لانقاذ العالمين من كل عبودية لغير الله عز وجــــل ، ورحمة بالناس وتخليصا لهم من الظلم والظلمات فلو كان الجهاد دفاعيا مقتصرا على حالة الاعتداء عليه - فحسب - فكيف تتم الدعوة الى الله بين النـــــاس والله تعالى يقول : " وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا" (سبأ : ٢٨) . ويقول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : ((بعثت الى كل أحمر وأســود)) (١) وفي رواية أخرى : ((أرسلت الى الخلق كافــة)) (٢) ،

فلو كان الجهاد دفاعيا فحسب لانتفت بعثته - صلى الله عليه وســـلم - للخلق كافة ، أحمرهم وأسودهم ، ولانتهى ذروة سنام الاسلام منذ أمد بعيد ؟ . وكيف يتم ايصال عقيدة التوحيد لجميع البشر دون استعداد وجهاد وبطولـة وفداء ومعارك لازالة هيلمان الباطل وجبروت الطغاة عن كواهل الناس حـتى يسمعوا صوت الحق والقوة والحرية ؟

وكيف نفسر أمر الله تعالى للمؤمنين بمجاهدة أعداء الدين في كثير من سور القرآن - وخاصة سورة التوبة* ، وهي من أواخر ما نزل من السور - لو كان الجهاد دفاعيا غير هجومي ؟ .

قال الله تعالى : ((فاذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيــث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ان الله غفور رحيم . . . ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا باخراج الرسول وهم بدؤوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشـــوه

= والسعي في بعض حوائجهم وتكثير سوادهم ، فيكون منهم في استحقـــاق الغنيمة في الدنيا والثواب في الآخرة .
انظر شرح هذا الحديث في شرح كتاب السير الكبير ١ / ١٦ - ١٨ .

* يقول فضيلة الشيخ عطية السالم في ترجمته للامام الشنقيطي (رحمه الله) بأن الشنقيطي رجع في أواخر حياته عن القول في الأشهر الحرم بأنها منسوخـة وذهب الى أنها محكمة ، وهو الحق الذي ينبغي اعتماده والتعويل عليه . انظر ترجمة الشيخ الشنقيطي في الجزء الأخير من الأضواء ص ٥٨ .

(١ ، ٢) مسلم ١ / ٣٧١ .

ان كنتم مؤمنين . قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين . أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خبير بما تعملون . . قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ماحرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون" (التوبة : ٥ و ١٣ - ١٦ و ٢٩) .

وكيف نفسر فتح مصر لو كان الجهاد دفاعيا فحسب ؟

(عن يزيد بن أبي حبيب أن عمرو بن العاص كان بفلسطين على ربع من أرباعها ، فتقدم بأصحابه الى مصر . فكتب الى عمر بن الخطاب فيه - وكان قد سار بغير اذن - فكتب اليه عمر بكتاب أتاه وهو أمام العريش فحبس عمرو الكتاب ولم يقرأه حتى بلغ العريش ، فقرأه فاذا فيه : من عمر بن الخطاب الى العاص ابن العاص . أما بعد : فانه بلغني أنك سرت ومن معك الى مصر وبها جموع الروم ، وانما معك نفر يسير . ولعمري لو كانوا ثكلى أمك ماتقدمت . فاذا جاءك كتابي هذا فان لم تكن بلغت مصر فأرجع) . فقال عمرو : الحمد لله . أية أرض هذه ؟ قالوا : من مصر . فتقدم الى جموع الروم فقاتلهم فهزمهم)(١) .

وهل كان الخلفاء الراشدون - رحمهم الله - سيتوقفون عن الفتوحات الاسلامية وحمل هذه العقيدة الى من حولهم ، لو أن الفرس أو الروم التزموا جانب الصمت ولم يعتدوا على المسلمين ؟. كلا والله .

وكيف نفسر قول ربعي بن عامر (رحمه الله) وهو يخاطب رستم قائلا : (. . الله ابتعثنا والله جاء بنا ، لنخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا الى سعتها ، ومن جور الأديان الى عدل الاسلام . فأرسلنا بدينه الى خلقه لندعوهم اليه ، فمن قبل منا ذلك قبلنا ذلك منه ، ورجعنا عنه

---

(١) الكندي : الولاة والقضاة ص ٧ و ٨ .

وتركناه وأرضه يلمها دوننا . ومن أبى قاتلناه أبدا حتى نفضي الى موعود الله تعالى ...) (١) لوكان الجهاد دفاعيا فحسب ؟

نعم لقد فهم الرعيل الأول المهمة الملقاة على عاتقه ، أحسن الفهم . ولكن خلف من بعدهم : خفافيش أعماها النهار بضوئه ووافقها قطع من الليل مظلم .

لقد فهم السلف الصالح - رحمهم الله - حقيقة الجهاد وبواعثه أكثر من كثير من العلماء المحدثين. فها هو ذا ابن كثير - رحمه الله - يقول فى تاريخه :

((استهلت هذه السنة - سنة ثلاث عشرة من الهجرة - والصديق - رضى الله عنه - عازم على جمع الجنود ليبعثهم الى الشام ، وذلك بعد مرجعه من الحج ، عملا بقوله تعالى : " يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين" (التوبة : ١٢٣) .

وبقوله تعالى : " قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ماحرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون" (التوبة : ٢٩) .

واقتداء برسول الله - صلى الله عليه وسلم -)) (٢) .

ويقول الاستاذ أحمد الأحمد ساخرا من الكتاب المهزومين : ((لماذا لم تظهر فكرة الحرب الدفاعية قبل وقوعنا تحت ضغط الاستعمار الغربى وتخاذلنا أمام مخططاته الرهيبة ومخططات المبشرين والمستشرقين ؟

((لماذا لم يقل بهذه الفكرة أحد من علماء هذه الأمة - سلفها أو خلفها - ؟ أجهلوا جميعا هذا التفسير العبقرى للحرب فى الاسلام حتى جاء ضحايا المخططات فاكتشفوه ، وقدموه غذاء عصريا للفكر الاسلامى ؟ .

---

(١) الطبرى : تاريخ الأمم ٤/ ١٠٧ ،
وابن كثير : البداية والنهاية ٧/ ٣٩ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ٧/ ٢ .

((لماذا خلت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الحاسمة في وجوب القتال من هذه البدعة ـ بدعة الحرب الدفاعية ـ ؟

((ان هذه البدعة تشبه أن تكون مقدمة للقول بما ذهبت اليه القاديانية (١) من الغاء الجهاد بالسيف والاكتفاء بالجهاد عن طريق البيان .) (٢)

ويقول العالم الرباني الشهيد سيد قطب (طيب الله ثراه) :

((ان الحرب التي يخوضها الاسلام هي حرب التحرير البشرية : الحرب على النظم الاقطاعية والاستبدادية وعبودية البشر للبشر ، وعلى الطغيان والظلم والشطط ، وعلى الخرافات والأوهام والأساطير .

حرب التحرير بكل معانيها وفي كل ميادينها . الحرب الخالصة من الهوى ومن الدوافع الاقتصادية والعنصرية والتحكمية . الحرب التي يشرف الانسانية أن يخوضها : لأنها تقرير للصفات الانسانية وللحقوق الانسانية وللمبادئ الانسانية .

انها الحرب التي تحمل معها المساواة والعدالة والكرامة لكل كائن بشرى ، وتحققها في عالم الواقع وعالم المثال . . تحققها في التشريع والتنفيذ . . تحققها للأسود والأبيض والمسلم وغير المسلم . تحققها في صورة واحدة وبأداة واحدة وفي مستوى واحد لجميع الناس .

ان الاسلام يستبعد من حسابه أن تقوم حرب أو أن يتم فتح بقصد اكراه أحد على الدخول في الاسلام ، أو بقصد سيادة عنصر أو تغليب جنس أو بقصد جر المغانم . أو بقصد اكتساب أمجاد شخصية للملوك والقواد أو ارضاء نزعات الاستعلاء والسيطرة والبروز التي تهيمن على أولئك الرجال فيسخرون من أجلها الشعوب لاضافة شارة الى تاج أو وسام الى رداء !

---

(١) انظر : أبو الحسن الندوى : القاديانى والقاديانية .
وعبد الرحمن عميرة : القاديانية .
واحسان الهى : القاديانية .

(٢) أحمد محفوظ الأحمد : ماهى علاقة الأمة المسلمة بالأمم الأخرى ص ٣٩٣ و ٣٩٤ .

ومن ثم يتعين باعث واحد وهدف واحد للفتح الاسلامى هو (لتكون كلمة الله هى العليا) ، فتحقيق كلمة الله وجعلها هى العليا يتضمن أن يصبح الاسلام لله هو دين البشرية كافة . الا أن الطريقة لأن يفيئ الناس الى هذا الدين الأخير لا يجوز أن تخرج على القاعدة الكلية التى قررها " لا اكراه فى الدين " (البقرة : ٢٥٦) (١)

((والمهزومون روحيا وعقليا ممن يكتبون عن (الجهاد الاسلامى) ليدفعوا عن الاسلام هذا (الاتهام) يخلطون بين منهج هذا الدين فى النص على استنكار الاكراه على العقيدة ، وبين منهجه فى تحطيم القوى السياسية المادية التى تحول بين الناس وبينه ، والتى تعبد الناس للناس وتمنعهم من العبودية لله .. وهما أمران لا علاقة بينهما ، ولا مجال للالتباس فيهما .. ومن أجل هذا التخليط - وقبل ذلك من أجل تلك الهزيمة . - يحاولون أن يحصروا الجهاد فى الاسلام فيما يسمونه اليوم : (الحرب الدفاعية) ...

والجهاد فى الاسلام أمر آخر لا علاقة له بحروب الناس اليوم ولا بواعثها ولا تكييفها كذلك .. ان بواعث الجهاد فى الاسلام ينبغى تلمسها فى طبيعة (الاسلام) ذاته ودوره فى هذه الأرض ، وأهدافه العليا التى قررها الله ، وذكر الله أنه أرسل من أجلها هذا الرسول بهذه الرسالة وجعله خاتم النبيين وجعلها خاتمة الرسالات ..

أما محاولة ايجاد مبررات دفاعية للجهاد الاسلامى بالمعنى الضيق للمفهوم العصرى للحرب الدفاعية ، ومحاولة البحث عن أسانيد لاثبات أن وقائع الجهاد الاسلامى كانت لمجرد صد العدوان من القوى المجاورة على (الوطن الاسلامى) -

---

(١) انظر : دراسات اسلامية ص ٢٢٢ و ٣٨ و ٣٩ مقتطفات .

وهو فى عرف بعضهم جزيرة العرب ـ فهى محاولة تنم عن قلة ادراك لطبيعة هذا الدين ولطبيعة الدور الذى جاء ليقوم به فى الأرض . كما أنها تشى بالهزيمة أمام ضغط الواقع الحاضر ، وأمام الهجوم الاستشراقى الماكر على الجهاد الاسلامى .

ان الجهاد ضرورة للدعوة ، اذا كانت أهدافها هى اعلان تحرير الانسان اعلانا جادا ، يواجه الواقع الفعلى بوسائل مكافئة له فى كل جوانبه ، ولا يكتفى بالبيان اللفظى النظرى ، سواء كان الوطن الاسلامى ـ دار الاسلام ـ آمنا أم مهددا من جيرانه ...) (١)

((ان بعض المغرضين من أعداء الاسلام يرمونه بالتناقض ، فيزعمون أنه فرض بالسيف فى الوقت الذى قرر فيه : ألا اكراه فى الدين .. أما بعضهم الآخر: فيتظاهر بأنه يدفع عن الاسلام هذه التهمة ، وهو يحاول فى خبث أن يخمد فى حس المسلم روح الجهاد ، ويهون من شأن هذه الأداة فى تاريخ الاسلام وفى قيامه وانتشاره . ويوحى الى المسلمين بطريقة ملتوية ناعمة ماكرة ـ أن لا ضرورة اليوم أو غدا للاستعانة بهذه الأداة . وذلك كله فى صورة من يدفع التهمة الجارية عن الاسلام . وهؤلاء وهؤلاء كلاهما من المستشرقين الذين يعملون فى حقل واحد فى حرب الاسلام وتحريف منهجه وقتل ايحاءاته الموحية فى حس المسلمين ، كى يأمنوا انبعاث هذا الروح الذى لم يقفوا له مرة فى ميدان . والذين أمنوا واطمأنوا منذ أن خدروه وكبلوه بشتى الوسائل ، وكالوا له الضربات الساحقة الوحشية فى كل مكان . وألقوا فى خلد المسلمين أن الحرب بين الاستعمار وبين وطنهم ليست حرب عقيدة أبدا تقتضى الجهاد . انما هى فقط حرب أسواق وخامات ومراكز وقواعد .. ومن ثم فلا داعى للجهاد . لقد انتضى

---

(١) انظر : معالم فى الطريق ص ٨٢ و ٨٣ و ٩١ و ٩٢ .

الاسلام السيف وناضل وجاهد فى تاريخه الطويل لا ليكره أحدا على الاسلام ولكن ليكفل عدة أهداف كلها تقتضى الجهاد (١) :

((ان العقيدة الاسلامية تعلم أصحابها - فيما تعلم - أن ليس لهم فى أنفسهم شئ فكلهم لله تعالى . وأنهم حين يخرجون للجهاد فى سبيل الله يخرجون له .. ويتحركون له .. ويقاتلون له .. بلا هدف آخر لذواتهم فى هذا الجهاد)) (٢)

ويقول فضيلة الشيخ عبد العزيز السلمان :

((والقائل أن الكفار لا يقاتلون الا دفاعا فقط مايخلو من أمرين :
اما أن يكون من أعداء المسلمين قصده تثبيطهم عن الجهاد ، على ماهم عليه من الوهن والكسل .

واما أن يكون جاهلا بنصوص الكتاب والسنة وغزوات النبى - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه وفتوحاتهم .

ولم يعهد فى غزواته - صلى الله عليه وسلم - وبعوثه وسراياه - وكانت كلها بعد الهجرة فى مدة عشر سنوات - أن العدو قصده وهاجمه فى بلده - المدينة وحواليها - قط ، بل هو الذى كان يغزوهم حيثما كانوا مما يبلغه الخف والحافر ، الا غزوتى أحد والأحزاب .

((لقد أوجب الله تعالى على المسلمين أن يبدأوا بالقتال من أبى الاسلام من المشركين والكفار بعد دعوتهم الى الخضوع له أو الدخول فيه حيث كانوا ، وفرض على الأمة أن تهاجمهم وتبدأهم به كل وقت سوى الأشهر الحرم .

(١ ، ٢) انظر الظلال ١/ ٢٩٣ و ٢٩٤ .
وأحمد فائز : طريق الدعوة فى ظلال القرآن ٢/ ١١٨ .

((وليس بدء أهل الكفر بالقتال بعد ابائهم عن الاذعان والدخول تحت سلطان الاسلام اعتداء عليهم وظلما ، بل ذلك لمصلحتهم* - كالسفيه -، ولحق الاسلام - كقتل مانع الزكاة والمرتد - ، ولمنعهم عن الظلم والعداون . يدل على هذا قتال النبي - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه وبدؤهم المشركين والفرس والروم بعد رفض رؤسائهم كتاب النبي - صلى الله عليه وسلم - بغير اعتداء منهم على أحد من المسلمين .

((ولكنها مكيدة افرنجية ونزعة أوربية ، أريد بها تأخر المسلمين وموتهم على ماهم فيه من الضعف وماعلاهم من ذل الاستعباد .

" فمدعى أن الاسلام لايجيز بداءة عدوه بالقتال متقول عليه ماليس فيه .

((ومن يظن بأن جهاد الكفار واكراههم في دين الاسلام لاعلاء كلمة الله بدون أن يتعرضوا للمسلمين بسوء من الاعتداء المنهي عنه في القرآن فانه خاطئ : لأن قتال الكفار واجب حيثما كانوا بعد عرض الدعوة عليهم ، لأن الشرك بالله - الذي هم فيه - هو بنفسه جناية واعتداء على الله تعالى وفساد كبير في الأرض ، والله تعالى أمر بازالته بقوله : " وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله " (الأنفال : ٣٩) .

((وجاهد الصحابة الكرام وفتحوا العراق والشام ومصر والروم .. قهرا لاعلاء كلمة الله .

---

* يقول الشيخ صالح اللحيدان (حفظه الله) في كتابه الجهاد في الاسلام ص ١١٠ (من المعلوم أن الأطباء لو قرروا أن في الانسان عضوا خطيرا يشكل ضررا على بقية أجزاء الجسم فانه يبتر . فكذلك يجب قتال الكفار ابتداء ، لأنهم يقودون أنفسهم - من حيث يعلمون أو لايعلمون - الى عاقبة وخيمة في الدارين) .

" ولا ندرى ما معنى الجهاد - عند من قصره على الدفاع - ؟

" فان كان الجهاد غزو الكفار بالمال والنفس لاعلاء كلمة الله - كما هو عرف الشرع وما يعرفه المسلمون - فقد أنكروه وخطأوا فاعله ، من حيث أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لم يفعله - بزعمهم الخاطئ - انما قاتل دفاعا .

" وان كان فى عرفهم أن الجهاد هو دفع العدو عن النفس والوطن ، فهو شئ طبيعى لا مزية لمن قام به ، حتى أضعف الحيوان يدافع عن نفسه الى أن يعجز . الا أن يقال فى حق المؤمن اذا مات دون ماله ونفسه ، فهو شهيد)) (١) - .

هذا وقد رد الزميل عابد السفيانى فى رسالته (دار الاسلام ودار الكفر) على هؤلاء المهزومين من ناحية فقهية ، وهذه خلاصة رده عليهم : ان قول بعض المحدثين ان العلة فى القتال هى الاعتداء وأن الجهاد لرد العدوان الواقع أو المتوقع وأن الأصل فى علاقة المسلمين بالكافرين هو السلم : قول مخالف للكتاب والسنة والاجماع .

وان ما نسبه بعض المحدثين الى جمهور الفقهاء من أن العلة فى القتال عندهم هى الاعتداء وأن الجهاد لرد العدوان وأن الأصل السلم : غير صحيح ومذهب الجمهور على خلاف ما نسب اليهم دلت على ذلك كتبهم وشهد بذلك المحدثون أنفسهم .

---

(١) عبد العزيز السلمان : الأسئلة والأجوبة الفقهية ٣ / ٦٩ - ٨٠ باختصار وانظر : صالح اللحيدان : الجهاد من ص ٩٩ - ١٢٨ فقد أجاد وأفاد (شكر الله له) .

وان تخيير الكفار غير المعتدين بقتال - بين ثلاث خصال ابتداء واجب .
واعتراض المحدثين على ذلك وتقييده بشرط الاعتداء اعتراض باطل .

وان القتال في الاسلام ليس اكراها على الاعتقاد بل هو لاخضاع الكفار لسلطان الاسلام . واعتراض المحدثين على وجوب الجهاد ابتداء بآية " لا اكراه في الدين " (البقرة : ٢٥٦) اعتراض مردود .

وان الكفار مطلقا يقاتلون للخضوع لسلطان الاسلام وأحكامه ، ويجوز أخذ الجزية منهم بشرط الخضوع لأحكام الاسلام إلا المرتدين .

وانه لا يجوز اقرار طائفة من المشركين مطلقا في جزيرة العرب لا بالجزية ولا بغيرها ، بل يجب اخراجهم منها .

وان القرآن الكريم نهى عن ولاء الكفار ومودتهم أشد النهي في مواضع متكررة . فقول بعض المحدثين ان ولاء الكفار ومودتهم أصل قرآني يدل على أن الأصل السلم ، قول مناقض لصريح الكتاب والسنة (١) .

---

(١) عابد السفياني : دار الاسلام ودار الكفر ص ٢٥٧ بتصرف يسير .

بواعث الجهـــاد :

ان الغاية من الجهاد الاسلامي غاية عقدية بحتة ، هي أن تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى (١) ، لئلا تكون فتنة ويكون الديـــن كله لله تبارك وتعالى . وهداية العالمين واخراجهم من ظلمات الشرك الى نـــور التوحيد ومن جور الاديان والاهواء والنحل الى عدل الاسلام ومن ضيق الدنيا وعذاب الآخرة الى سعـــة الدينا والاخرة وسعادة الدارين معا .. كل هذا هو باعـــث الجهاد الاكبر وغايته المثلى وأمله المنشود . وكل مايتعلق بالجهاد الاسلامي مرتكز على العقيدة الالهية التي رضيها الله عز وجل لعباده وبعث من أجلها الرســل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وأنزل بسببها الكتب السماوية . "ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة" (الانفال : ٤٢) . وليس من بواعث الجهاد ـ كمـــا تخرص بذلك الافاكون ممن رددنا عليهم ودحضنا افتراءاتهم وكشفنا سوء طوياتهـــم بما يشفى الغليل ولله الحمد ـ حب القتال (٢) وسفك الدماء واكراه الناس علـــى الاسلام :

قال تعالى : "أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين" (يونس : ٩٩) .

وقال تعالى : "فذكر انما أنت مذكر . لست عليهم بمصيطر" (الغاشية : ٢١،٢٢)

---

(١) عن أبي موسى (رضي الله عنه) قال : جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم ـ فقال : الرجل يقاتل للمغنم والرجل يقاتل للذكر والرجل يقاتل ليرى مكانــه ، فمن في سبيل الله ؟ قال (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو فـــي سبيل الله) . البخاري ٣/٢٦ .

(٢) قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : "لا تتمنوا لقاء العدو ، فاذا لقيتموهم فاصبروا" .

انظر مسلم ٣/١٣٦٢

وليست الغاية من الحروب الاسلامية ـ كما أشرنا الى ذلك مرارا احتلال الديار أو نهب الاموال أو سبى الذرية أو اذلال الشعوب ـ كما هى الحال فى الحروب الجاهلية ـ وانما الهدف منها تحرير الانسانية من كل عبودية ـ بشرية أو وثنية ـ وصون كرامة الافراد والمجتمعات ورفع الظلم عنهم بغض النظر عن معتقداتهم، وتركهم بعد ذلك أحرارا فى اختيار الدين الذى يريدون . ولم ير العالم ـ قديما وحديثا ـ فاتحا أرحم ولا أعدل من المجاهدين المسلمين . لان هؤلاء المؤمنين لا يبتغون من وراء جهادهم مالا ولا متاعا ولا جاها ولا ملكا ولا استعبادا للاخرين ، بل كل أهدافهم محصورة فى نيل احدى الحسنيين ، النصر أو الشهادة .

والعقيدة الاسلامية التى دفعت المجاهدين فى سبيل الله للفتوحات الاسلامية هى التى ربت أصحابها على قمة الاخلاق الكريمة والاداب العالية والقيم المثلى والمبادئ السامية . والتى يظن من يسمعها لاول وهله أنها من الاساطير أو من المستحيلات ولكن هذه المستحيلات فى قواميس الجاهلية حقيقة ساطعة فى تاريخ الاسلام :

شهد الانام بفضلها حتى العدا والحق ماشهدت به الاعداء

وقد ربت هذه العقيدة ـ كما سنرى فيما بعد باذنه تعالى ـ نفوس أتباعها على تلبية داعى الجهاد ونداء الفلاح فى حالة العسر واليسر والمنشط والمكره . وقد أثنى المولى تبارك وتعالى على هؤلاء المؤمنين ثناء عاطرا أبد الدهر بقوله .:

" من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا " (الاحزاب : ٢٣) .

وبقوله : " ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم" (التوبة : ١١١) .

والعقيدة الاسلامية تعلم أصحابها - فيما تعلم - أن ليس لهم من أنفسهم شيء - فهم وما يملكون لمن بيده الخلق والامر عز وجل - وأن الله قد اشترى نفوسهم منهم وثمن ذلك الجنة . ولذا فان المؤمنين لا يرهبون أعداءهم - ولو كانوا أكثر منهم عددا وأحسن عدة - ولا ينكصون على أعقابهم فيفرون من الزحف ، لماذا ؟

طمعا في رضوان الله تعالى ورغبة فيما عنده ، ثم الفوز على الاعداء . وازالة الطواغيت الذين يمنعون وصول هذه العقيدة الى أسماع البشر .

وخوفا من سخط الله وعقابه - في حال ترك الجهاد - اما بالذل في الدنيا ، أو العذاب الاشد في الاخرة ، أو بهما معا (والعياذ بالله) : " يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الادبار ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال أو متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير " (الانفال : ١٥ ، ١٦) .

وهذه العقيدة تفرض على أصحابها أن يعدوا أنفسهم فيأخذوا بجميع الاسباب المادية ويستعدوا لمواجهة عدوهم بكل ما توصلوا اليه من وسائل حربية حديثة ، والقاعدة في ذلك الامر الرباني :

" وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة " (الانفال : ٦٠) *

وبعد بذل الجهد والاتهياء من الاستعداد - ماديا ومعنويا - عليهم مجابهة عدوهم والاتكال على الله عز وجل ، والحرص على نيل احدى الحسنيين (النصر أو الشهادة) ، وكلاهما سيان عند رجل العقيدة الربانية .

---

* من الملاحظ : أن المولى عز وجل قال في الاية التي قبل هذه الاية " ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا انهم لا يعجزون " فبين ان الاعداء لا يعجزون ثم طلب مع ذلك من المؤمنين الاعداد التام ...

وهذه العقيدة تعلن للملأ جميعا أنه لا يتقبل جهاد أحد الا اذا كان صاحب عقيدة يهدف من وراء جهاده اعلاء كلمة الله .

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال :

(شهدنا مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال لرجل ممن يدعي الاسلام : هذا من أهل النار . فلما حضر القتال قاتل الرجل قتالا شديدا فأصابته جراحة . فقيل : يارسول الله . الذي قلت انه من أهل النار فانه قد قاتل اليوم قتالا شديدا وقد مات . فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) : الى النار . قال : فكاد بعض الناس أن يرتاب . فبينما هم على ذلك اذ قيل انه لم يمت ولكن به جراحا شديدا ، فلما كان من الليل لم يصبر على الجراح فقتل نفسه ، فأخبر النبي (صلى الله عليه وسلم) بذلك . فقال : الله أكبر أشهد أني عبد الله ورسوله ثم أمر بلالا فنادى بالناس: انه لا يدخل الجنة الا نفس مسلمة وان الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر) (١)

وفي رواية أخرى : (فاستعجل الموت فوضع نصل سيفه بالارض وذبابه بين ثدييه ثم تحامل عليه فقتل نفسه . فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عند ذلك : ان الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار وان الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة) (٢)

وطريقة العقيدة الربانية في تربية نفوس المؤمنين المجاهدين على حب الجهاد في سبيل الله طريقة فريدة وعجيبة : فهي أولا تنشئ الايمان في القلوب ، ثم تجعل هذا الايمان يزداد بالعمل الصالح وبالتقوى ومكارم الاخلاق .

ثم تعلم أصحاب الايمان : الطاعة المطلقة لرب العالمين ، وتقديم هذه الطاعة على كل مافي الحياة الدنيا .

(١ ، ٢) البخاري ٣٤/٤

وسلم ١٠٦/١

وابن هشام : السيرة ٣٤/٣

ثم تعلمهم : التسليم التام للقضاء والقدر - خيره وشره - ثم الصبر الجميل في كل الاحوال - باستثناء الصبر على الذل والاستعباد . - ثم تجعلهم يحبون لقاء الله ويحنون لدخول الجنة ، والاستراحة من نكد الدنيا .

ثم تغرس هذه العقيدة في نفوس معتنقيها : حب كل ما يؤدى لرضوان الله ، من نشر دعوته بين الناس ورفع رايته فوق أرجاء المعمورة ، واتباع أوامره واجتناب منهياته ، ولو أدى ذلك لفقد النفس أو الاموال أو الاهل أو المنصب أو الجاه . .

وأهم وسيلة تنتهجها العقيدة لتهيئة النفوس للجهاد - بعد الايمان بالله - هي تعميق الايمان باليوم الاخر : وما فيه من نعيم مقيم وسعادة دائمة أعدها الله لعباده المؤمنين - وخاصة المجاهدين - . أو العذاب الاليم والشقاء الخالد والذل والهوان (والعياذ بالله) في حالة النكوص عن الجهاد والاعراض عن تبليغ دعوة الله . وتؤكد هذه العقيدة على المؤمنين أن الغاية الكبرى من الجهاد (هي نيل احدى الحسنيين (النصر أو الشهادة) وأن الوسيلة الى ذلك : بذل الوسع وافراغ الطاقة في سبيل تحقيق رضوان الله والفوز بالجنة والنجاة من النار .

يقول الامام ابن القيم :

(لما كان الجهاد ذروة سنام الاسلام ، ومنازل أهله أعلى المنازل في الجنة ، كما لهم الرفعة في الدنيا ، كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في الذروة العليا منه ، واستولى على أنواعه كلها ، فجاهد في الله حق جهاده بالقلب والجنان ، والدعوة والبيان ، والسيف والسنان ، وكانت ساعاته موقوفة على الجهاد ، ولهذا كان أعظم العالمين عند الله قدرا . وأمره تعالى بالجهاد من حين بعثه فقال : " فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا " (الفرقان : ٥٢) . فهذه سورة مكية أمره فيها بالجهاد بالبيان . وكذلك جهاد المنافقين انما هو بالحجة وهو أصعب من جهاد الكفار ، وهو جهاد خواص الامة ، وورثة الرسل ، والقائمون به أفراد في العالم ، والمعاونون عليه - وان كانوا هم الاقلين عددا - فهم الاعظمون عند الله قدرا .

(ولما كان من أفضل الجهاد قول الحق مع شدة المعارض - مثل أن يتكلم به عند من يخاف سطوته - كان للرسل (صلوات الله وسلامه عليهم) من ذلك الحظ الاوفر. وكان له (صلى الله عليه وسلم) من ذلك أكمل الجهاد وأتمه . ولما كان جهاد أعداء الله في الخارج فرعا على جهاد النفس ، كان جهاد النفس مقدما على جهاد العدو بجهادهما ، وبينهما عدو ثالث لا يمكنه جهادهما الا بجهاده ، وهو واقف بينهما يثبط العبد عن جهادهما وهو الشيطان . قال تعالى : "ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا " (فاطر : ٦) . والامر باتخاذه عدوا تنبيه على استفراغ الوسع في محاربته . فهذه ثلاثة أعداء أمر العبد بمحاربتها ، وسلطت عليه امتحانا من الله ، وأعطى العبد مددا وقوة ، وبلى أحد الفريقين بالاخر . وجعل بعضهم لبعض فتنة ليبلو أخبارهم) (١)

ويقول شيخنا محمد قطب (حفظه الله) :

(انه لا شيء يمكن أن يقنع الانسان بالتنازل عن المتاع الزائد عن الحد المدفوع اليه بفطرته ، والالتزام بالحدود التي رسمها الله لهذه الدوافع وأمر الناس الا يمتدوها لكي لا يعطبوا ولا يهلكوا .. لا شيء يمكن أن يقنع الانسان بذلك الا الايمان الجازم بأن ما يتركه هنا في الدنيا - من أجل طاعة الله - يلقاه في الاخرة مضاعفا لا في الدرجة فحسب .. بل في النوع كذلك ، حيث النعيم الخالد الذي لا يزول .... وأن ما يعصى الله فيه في الدنيا - اندفاعا وراء شهواته - يعذب عليه عذابا لا تطيقه النفوس والابدان . وتصبح الموازنة بين متاع هنا في الدنيا زائف زائل ، ليس أقل عيوبه ما يشوبه من القلق الدائم على انتهائه ، وبين متاع هناك خالد لا يزول ، ومن نوع أجمل وأعمق وأمتع وأصفى .. وموازنة كذلك بين ألم من عدم تحقيق القدر الزائد من المتاع - وهو محتمل في جميع أحواله - وألم في الاخرة يفوق طاقة الاحتمال ....

---

(١) محمد بن عبد الوهاب . مختصر زاد المعاد ص ١٧٧ - ١٧٩ .

والمؤمن مكلف باقرار منهج الله فى الارض لتكون كلمة الله هى العليا ، ويكون النظام الربانى هو القائم بين الناس . ولكن الجاهلية لا تترك هذا الامر يتم فى يسر لم تصنع ذلك مرة واحدة خلال التاريخ . ولا بد من جهاد لاقرار منهج الله . جهاد يحرم الانسان حتى من المتاع المباح . . ويعرضه لان يفقد ماله أو راحته أو أمنه أو أهله . . بل قد يعرضه للتعذيب والتشريد . . وقد يعرضه للموت بوسيلة من وسائل القتل . . وذلك غير القتال فى سبيل الله وما يصاحبه من المشقة والحرمان الذى يصل الى الموت فى ساحة القتال . .

فماذا يعوض المؤمن عن ذلك كله ، ويغريه بتحمل العذاب فى الحياة الدنيا بشتى صنوفه ، الا ذلك الايمان الجازم بأن كل حرمان يتعرض له فى الارض - فى سبيل مرضاة الله - جزاؤه النعيم الخالد الذى لا ينفد ؟ وماذا يمنعه من التقاعس - خوفا من عذاب الارض - الا الايمان الجازم بأن عذاب الله عن هذا التقاعس هو العذاب الاشد ، والذى يجل عن الاحتمال ؟

" قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين " (التوبة : ٢٤) .

لذلك كان التذكير الدائم - للمؤمنين - باليوم الاخر ، لكى يتقووا على الجهاد ولا تقعد بهم مشقاته وعذاباته وحرمانه عن المضى فيه ابتغاء مرضاة الله . . ولهم على ذلك الجنة والنعيم المقيم . . (١)

---

(١) محمد قطب : دراسات قرآنية ص ٦٦ - ٦٨ بتصرف يسير .

وفيما يلي ننقل كلاما قيما لبعض علمائنا المعاصرين تحدثوا فيه عن طبيعة الجهاد وغايته وبواعثه النبيلة :

يقول الامام المودودى :

(وغاية الجهاد في الاسلام : هي هدم بنيان النظم المناقضة لمبادئه ، واقامة حكومة مؤسسة على قواعد الاسلام مكانها . وهذه المهمة غير منحصرة في قطر دون قطر ، بل هي شاملة لجميع أنحاء المعمورة .

(والاسلام لا يريد بهذه الحملة أن يكره من يخالفه في الفكرة على ترك عقيدته والايمان بمبادى الاسلام ، وانما يريد الحزب الاسلامي أن ينتزع زمام الامر ممن يؤمنون بالمبادى والنظم الباطلة ، حتى يستتب الامر لحملة لواء الحق) (١)

ويقول العلامة الندوى :

(وجهاد المسلم انما هو لتنفيذ شريعة الله واعلاء كلمة الله ونفاذ أحكامه . فلا حكم الا لله ولا أمر الا له . وغاية الجهاد ألا تبقى في الدنيا قوتان متساويتان متنافستان تتجاذبان الاهواء والانفس . قال تعالى : " وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله " (البقرة : ١٩٣)

(ومن مقتضيات هذا الجهاد أن يكون الانسان عارفا بالاسلام الذى يجاهد لاجله وبالكفر والجاهلية التي يجاهد ضدها ، فلا تخدعه المظاهر ولا تغره الالوان .

(ويجب أن يكون استعداد المجاهدين كاملا وقوتهم تامة ، يقارعون الحديد بالحديد ويقابلون الريح بالاعصار ، ويواجهون الكفر وأهله بكل مايقدرون عليه وبكل ما امتدت اليه يدهم ، وبكل ما اكتشفه الانسان ووصل اليه العلم في ذلك العصر ، من سلاح وجهاز واستعداد حربي . لايقصرون في ذلك ولا يعجزون " (٢)

---

(١) المودودى : الجهاد في سبيل الله ص ٣٥ و ٤٢

(٢) الندوى : ماذا خسر العالم ص ١٨٧ و ١٨٨

ويقول الشهيد سيد قطب :

(لقد جاهد الاسلام أولا : ليدفع عن المؤمنين الاذى والفتنة التى كانوا يسامونها . وليكفل لهم الامن على أنفسهم وأموالهم وعقيدتهم . وقرر ذلك المبدأ العظيم " والفتنة أشد من القتل " (البقرة : ١٩١) فاعتبر الاعتداء على العقيدة والايذاء بسببها وفتنة أهلها عنها أشد من الاعتداء على الحياة ذاتها . فالعقيدة أعظم قيمة من الحياة وفق هذا المبدأ العظيم . واذا كان المؤمن مأذونا فى القتال ليدفع عن حياته وعن ماله فهو من باب أولى مأذون فى القتال ليدفع عن عقيدته . . . وقد كان المسلمون يسامون الفتنة عن عقيدتهم ويؤذون ، ولم يكن لهم بد أن يدفعوا هذه الفتنة عن أعز ما يملكون .

وجاهد الاسلام ثانيا : لتقرير حرية الدعوة - بعد تقرير حرية العقيدة - فقد جاء الاسلام بأكمل تصور للوجود والحياة ، وبأرقى نظام لتطوير الحياة . جاء بهذا الخير ليهديه الى البشرية كلها ، ويبلغه الى أسماعها وقلوبها ، فمن شاء بعد البيان والبلاغ فليؤمن ومن شاء فليكفر . ولا اكراه فى الدين . ولكن ينبغى قبل ذلك أن تزول العقبات من طريق ابلاغ هذا الخير للناس كافة ، كما جاء من عند الله تعالى . وأن تزول الحواجز التى تمنع الناس أن يسمعوا وأن يقتنعوا وأن ينضموا الى موكب الهدى اذا أرادوا . ومن هذه الحواجز أن تكون هناك نظم طاغية فى الارض تصد الناس عن الاستماع الى الهدى ، وتفتن المهتدين أيضا . فجاهد الاسلام ليحطم هذه النظم الطاغية ، وليقيم مكانها نظاما عادلا يكفل حرية الدعوة الى الحق فى كل مكان ، وحرية الدعاة . . .

ومايزال هذا الهدف قائما ، ومايزال الجهاد مفروضا على المسلمين ليبلغوه ان كانوا مسلمين .

وجاهد الاسلام ثالثا : ليقيم فى الارض نظامه الخاص ويقرره ويحميه .. وهو وحده النظام الذى يحقق حرية الانسان تجاه أخيه الانسان ، حينما يقرر أن هناك عبودية واحدة لله الكبير المتعال ، ويلغى من الارض عبودية البشر للبشر فى جميع أشكالها وصورها . فليس هنالك فرد ولا طبقة ولا أمة تشرع الاحكام للناس وتستذلهم عن طريق التشريع . انما هنالك رب واحد للناس جميعا هو الذى يشرع لهم على السواء ، واليه وحده يتجهون بالطاعة والخضوع ، كما يتجهون اليه وحده بالايمان والعبادة سواء . فلا طاعة فى هذا النظام لبشر الا أن يكون منفذا لشريعة الله ، موكلا عن الجماعة للقيام بهذا التنفيذ ، حيث لا يملك أن يشرع هو ابتداء ، لان التشريع من شأن الالوهية وحدها ، وهو مظهر الالوهية فى حياة البشر ، فلا يجوز أن يزاوله انسان فيدعى لنفسه مقام الالوهية وهو واحد من العبيد .

جاهد الاسلام ليقيم هذا النظام الرفيع فى الارض ويقرره ويحميه وكان من حقه أن يجاهد ليحطم النظم الباغية التى تقوم على عبودية البشر للبشر ، والتى يدعى فيها العبيد مقام الالوهية ، ويزاولون فيها وظيفة الالوهية - بغير حق - ولم يكن بد أن تقاومه تلك الانظمة الباغية فى الارض كلها وتناصبه العداء . ولم يكن بد كذلك أن يسحقها الاسلام سحقا ليعلن نظامه الرفيع فى الارض .. ثم يدع الناس فى ظله أحرارا فى عقائدهم الخاصة . لا يلزمهم الا بالطاعة لشرائعه الاجتماعية والاخلاقية والاقتصادية والدولية ، أما عقيدة القلب فهم فيها أحرار . وأما أحوالهم الشخصية

فهم فيها أحرار يزاولونها وفق عقائدهم ، والاسلام يقوم عليهم يحميهم ويحمي حريتهم في العقيدة . ويكفل لهم حقوقهم . ويصون لهم حرماتهم في حدود ذلك النظام (١)) .

ويقول فضيلة الشيخ كامل الدقس :

(وقد وضعت هذه الاية الكريمة "يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة "(التوبة : ١٢٣) قاعدة من أهم قواعد الاصول العسكرية في القتال . وخطة الحركة الجهادية التي تشير اليها هذه الاية هي (البدء بالاقرب فالاقرب) . وقد سار عليها النبي (صلى الله عليه وسلم) في جهاده ودعوته ، وسار عليها خلفاؤه من بعده بصفة عامة ، وسارت عليها الفتوحات الاسلامية تواجه من يلون (دار الاسلام) مرحلة فمرحلة . وذلك لان القتال شرع لتأمين حرية نشر الدعوة الاسلامية وحرية الدين والدفاع عن المسلمين وعدم فتنتهم أو التعرض اليهم . وندرك من هذا النص الذي يجعل (الانطلاق) بهذا الدين هو الاصل الذي ينبثق منه مبدأ الجهاد ، وليس هو مجرد (الدفاع) كما كانت الاحكام المرحلية أول العهد باقامة الدولة الاسلامية في المدينة . ولهذا فقد أمر الله المؤمنين بالغلظة على الكفار والشدة عليهم ، ليكون ذلك أهيب وأوقع للفزع في قلوبهم . والغلظة تجمع الجرأة والصبر على القتال وشدة العداوة .

" ولما كان الجهاد قد كتب على المسلمين لضمان الحرية في نشر الدعوة وصيانتها

---

(١) سيد قطب : الظلال ١/ ٢٩٤ و ٢٩٥ بتصرف يسير

وحماية متبعيها والداعين اليها ، فقد اقترنت الدعوة الى الجهاد بتعبير (سبيل الله) .

والجهاد يشمل بذل المال والجهد مطلقا فى سبيل نصرة دين الله ، ومجاهدة النفس والشيطان ، لانهما عدوان للانسان .

والدعوة الاسلامية دعوة عالمية يجب على المسلمين تبليغها للناس كافة ، وازالة كل العقبات التى تعترض طريق الدعاة بالقوة ، لتحرير كافة الناس من عبادة العباد الى عبادة رب العباد وحده .) [1]

---

(١) كامل الدقس : العلاقات الدولية فى الاسلام من ص ٦٣٨ - ٦٤٠
وآيات الجهاد فى القرآن الكريم ص ٤٩٧

أمثلة على أثر العقيدة في تربية المجاهدين

واهـا لريح الجنـة !!

(عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال : غاب أنس بن النضر عن قتال يوم بدر . فقال : غبت عن قتال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المشركين ، لئن أشهدني الله قتالا ليرين الله ما أصنع ، فلما كان يوم أحد انكشف المسلمون ، فقال : اللهم انى أبرأ اليك مما جاء به هؤلاء المشركون ، وأعتذر اليك مما صنع هؤلاء " يعني المسلمين ـ ، فمشى بسيفه ، فلقيه سعد بن معاذ فقال : أى سعد انى لاجد ريح الجنة ـ دون أحد . قال سعد : يارسول الله فما استطعت أن أصنع ما صنع. قال أنس : فوجدناه بين القتلى به بضع وثمانون جراحة بين ضربة بسيف وطعنة برمح ورمية بسهم ، فما عرفناه حتى عرفته أخته ببنانه . قال أنس : فكنا نتحدث أن هذه الاية " من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا " (الاحزاب : ٢٣) نزلت فيه وفى أصحابه) (١)

مع الذين أنعم الله عليهم :

(مر المسلمون يوم القادسية على رجل من المسلمين وقد قطعت يداه ورجلاه وهو يفحص ـ يبحث التراب بما بقى من أطرافه لشدة ألم القطع ـ ويقول : " مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا " (النساء : ٦٩)

---

(١) انظر : ابن المبارك : الجهاد ص ٦٧
والذهبى : التاريخ ١ / ٢٠٠
وابن كثير : الفصول ص ١٣١
وابن الاثير : الكامل ٢ / ١٠٩
والاصبهانى : حلية الاولياء ١ / ١٢١
وابن حزم : جوامع السيرة ص ١٦٢
وابن الجوزى : تلقيح فهوم الاثر ص ١٤٣

فقال له رجل : من أنت ياعبد الله ؟

قال : امرؤ من الانصـــار) (١)

حسبنا الله ونعم الوكيل :

(بعد انتهاء معركة أحد أذن مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم - في النـاس بطلب العدو ، وألا يخرج أحد الا من حضر يوم أمس . وانما خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مرهبا للعدو وليبلغهم انه خرج في طلبهم ليظنوا به قوة ، وأن الذى أصابهم لم يوهنهم من عدوهم . فخرج (صلى الله عليه وسلم) والمسلمـــون معه حتى انتهى الى حمراء الاسد - وهى من المدينة على ثمانية أميال - واستعمـــل على المدينة ابن أم مكتــوم .

عن أبى السائب :

أن رجلا من الصحابة كان قد شهد أحدا قال : شهدنا أحدا مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنا وأخى ، ورجعنا جريحين . فلما أذن مؤذن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بالخروج فى طلب العدو قلت لاخى : أتفوتنا غزوة مع رسول اللـه - صلى الله عليه وسلم - ؟ - والله مالنا من دابة نركبها وما منا الا جريح ثقيل - ، فخرجنا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكنت أيسر جراحا منه ، فكان اذا غلب حملته على عقبه ، حتى انتهينا الى ما انتهى اليه المسلمون .

وندم المشركون لم لم يتمموا على أهل المدينة ويجعلوها الفيصلة.قال الحسن البصرى - رحمه الله - فى قوله تعالى " الذين استجابوا لله وللرسول من بعد ما أصابهـم القـــرح "

ان أبا سفيان وأصحابه أصابوا من المسلمين ما أصابوا ورجعوا فقال رسول اللــــه (صلى الله عليه وسلم) ان أبا سفيان قد رجع ، وقد قذف الله فى قلبه الرعـــب

---

(١) الرحبى : فقه الملوك ص ٢٣٩

فمن ينتدب في طلبه ؟ فقام النبي (صلى الله عليه وسلم) وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وناس من الصحابة فتبعوهم . فبلغ أبا سفيان أن النبي (صلى الله عليه وسلم) يطلبه فلقي عيرا من التجار فقال : ردوا محمدا ولكم من الجمل كذا وكذا وأخبروهم اني قد جمعت لهم جموعا وأني راجع اليهم . فجاء التجار وأخبروا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بذلك .فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم)والمؤمنون : " حسبنا الله ونعم الوكيل " أي قالوا : الله كافينا وحافظنا ومتولي أمرنا ، ونعم الملجا والنصير لمن توكل عليه جل وعلا)[1]

وهذه العقيدة هي التي دفعت حنظلة الغسيل (رضي الله عنه) لتلبية نداء الجهاد سريعا ، فترك زوجته ـ وهو جنب ـ ولم يرجع الا بالشهادة في سبيل الله .[2]

لا كونن أول من يرجع الا أن يقتل :

(كان أبو محجن لا يزال يجلد في الخمر ، فلما أكثر عليهم سجنوه وأوثقوه . فلما كان يوم القادسية رآهم يقتتلون ، فكأنه رأى المشركين وقد أصابوا في المسلمين فأرسل الى امرأة سعد يقول لها : ان أبا محجن يقول لك : ان خليت سبيله وحملتيه على هذا الفرس ، ودفعت اليه سلاحا ، ليكونن أول من يرجع الا أن يقتل .

وقال : كفى حزنا أن تلتقي الخيل بالقنا وأترك مشدودا على وثاقيا

اذا شئت عناني الحديد وغلقت مصاريع من دوني تصم المناديا

فأمرت زوجة سعد بحل قيوده عنه ، وحمل على فرس كان في الدار ، وأعطى سلاحا ثم جعل يركض حتى لحق بالقوم . فجعل لا يزال يحمل على رجل فيقتله ويدق صلبه . . فنظر اليه سعد فتعجب وقال : من هذا الفارس ؟ فلم يلبثوا الا يسيرا حتى هزم

---

(١) انظر الصابوني : مختصر تفسير ابن كثير ١ / ٣٣٨ وصفوة التفاسير ١ / ٢٤٤ وتهذيب سيرة ابن هشام ص ١٧٧ - ١٧٦ .

(٢) ابن الاثير : الكامل ٢ / ١١٠

واليمني : شرح بهجة المحافل ١ / ٢٠٨

الله العدو ، فرجع أبو محجن ورد السلاح ، وجعل رجليه في القيود كما كان . فجاء سعد . فقالت له زوجته* : كيف كان قتالكم ؟ فجعل يخبرها ويقول : لقينا ولقينا ، ، حتى بعث الله رجلا على فرس أبلق ، لولا أني تركت أبا محجن في القيود لظننت أنها بعض شمائل أبي محجن . فقالت : والله انه لابو محجن . كان من أمره كذا وكذا ، فقصت عليه القصة . فدعا سعد به ، وحل عنه قيوده وقال له : لا نجلدك في الخمر أبدا . فقال أبو محجن : وأنا والله لا تدخل في رأسي أبدا . انما كنت آنف أن أدعها من أجل جلدك . (١)

اجتهد الا يراه أحد :

(لما توجه المسلمون الى بدر ، خرج عمير بن أبي وقاص ـ وكان غلاما ـ وكان يخاف الا يقبله رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لصغر سنه ، فكان يجتهد ألا يراه احد ، وكان يتوارى ، فسأله أخوه سعد بن أبي وقاص عن ذلك ، فقال : أخاف أن يردني رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأنا أحب الخروج ، لعل الله أن يرزقني بالشهادة . فأراد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يرده . فبكى عمير . ورق له قلب النبي (صلى الله عليه وسلم) فأجازه . قال سعد : فكنت أعقد له حمائل سيفه ـ لصغره ـ فقتل ببدر وهو ابن ست عشرة سنة ، قتله عمرو بن عبد ود) . (٢)

---

(١) ابن أعثم : الفتوح ١ / ٢٠٧-٢٠٩
وابن قدامة : كتاب التوابين ص ١٣٠
والبلاذري : فتوح البلدان ص ٣٦

* يجوز أن نقول (زوجه) و (زوجته) ولكن الاول أصح وأشهر ، وهذا لا يعني عدم جواز قولنا (زوجته) فقد ورد في صحيح مسلم ٤ / ٢١٧٩ قوله (صلى الله عليه وسلم) : (لكل امرئ منهم زوجتان اثنتان ..) .

(٢) البستي : الثقات ١ / ١٥٢ وابن الجوزي : صفة الصفوة ١ / ٣٩٤

اني لارجو أن أطا بعرجتي هذه في الجنة :

(كان عمرو بن الجموح أعرج شديد العرج ، وكان له أربعة بنون يغزون مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) . فلما توجه المسلمون الى أحد ، قال له بنوه : ان الله عز وجل قد جعل لك رخصة ، فلو قعدت فنحن نكفيك ، فقد وضع الله عنك الجهاد . فأتى عمرو رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال : يارسول الله ان بني هؤلاء يمنعون أن أخرج معك . والله اني لارجو أن استشهد فأطا بعرجتي هذه الجنة . فقال له رسول الله (صلى الله عليه وسلم) . أما انت فقد وضع الله عنك الجهاد . وقال لبنيه : وما عليكم أن تدعوه لعل الله يرزقه الشهادة ؟ فخرج مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقتل يوم أحد شهيدا (رضى الله عنه) (١)

ثلاثون يعترضون ثلاثمائة :

(بعث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عمه حمزة في ثلاثين رجلا من المهاجرين ، يعترض عيرا لقريش جاءت من الشام ، وفيها أبو جهل في ثلاثمائة . فالتقوا واصطفوا للقتال . . فمشى مجدي بن عمرو - وكان حليفا لهما جميعا - بين هؤلاء وهؤلاء حتى حجز بينهم ، فلم يقتتلوا) (٢)

---

(١) ابن المبارك : الجهاد ص ٦٩
وابن الجوزي : تلقيح فهوم الاثر ص ١٤٤

(٢) خليفة بن خياط : تاريخ خليفة بن خياط ص ٦٢
والحسني المكي : العقد الثمين ٢٣٨/١
وأبو هلال العسكري : الاوائل ص ١٧٣
واليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ٦٩/٢
والمسعودي : التنبيه والاشراف ص ٢٠٠
والعصامي : سمط النجوم العوالي ٤/٢
والذهبي : التاريخ الكبير ٨٦/١
وابن الاثير : الكامل في التاريخ ٧٧/٢
وابن سيد الناس : عيون الاثر ٢٢٥/١

وثلاثة آلاف يحاربون مائتي ألف . .

(ثم خرج القوم حتى نزلوا معان . فبلغهم أن هرقل قد نزل بمآب من أرض البلقاء بمائة ألف من الروم ومائة ألف من العرب . فأقاموا بمعان يومين . فقالوا : نبعث الى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فنخبره بكثرة عدونا ، فاما أن يمدنا بالرجال واما أن يأمرنا بأمره . فشجع الناس عبد الله بن رواحة فقال : ياقوم . ان التي تكرهون للتي خرجتم لها اياها تطلبون الشهادة . وما نقاتل الناس بعدد ولا كثرة ، وانما نقاتلهم بهذا الدين الذى أكرمنا الله به ، فربما فعل . وان تكن الاخرى فهي الشهادة ، وليست بشر المنزلتين . فقال الناس : صدق والله ابن رواحة . ثم لقوا جموع الروم) (١)

وثلاثون يحاربون مئات الالاف :

(كانت جيوش المسلمين بالقادسية واليرموك بضعا وثلاثين ألفا فى كل معسكر ، وجموع فارس مائة وعشرون ألفا بالقادسية ، وجموع هرقل أربعمائة ألف ، فهزموهم باذن الله) (٢)

لولا هذا البحر لمضيت أجاهد !

(قال عقبة بن نافع وقد وصل البحر : (اللهم انك تعلم أنى أطلب السبب الذى طلبه وليك ذو القرنين ، الا يعبد الا الله . اللهم اشهد أنى قد بلغت المجهود ، ولولا هذا البحر لمضيت فى البلاد أقاتل من كفر بك ، حتى لا يعبد أحد دونك) (٣)

أيـن المفـر ؟

(جاز طارق بن زياد الى الاندلس فى ألف وسبعمائة رجل ، وتحصن بجبل الفتح ووصل اليه الملك رذريق فى تسعين ألفا . فلقيهم طارق واقتتلوا ثلاثة أيام أشد قتال .

---

(١) بدران : تهذيب تاريخ ابن عساكر ١/ ٩٤

(٢) ابن العماد : شذرات الذهب ١/ ٢٧

وابن الازرق : بدائع السلك ١/ ١٣٨

(٣) ابن أبى دينار : المؤنس فى أخبار افريقيا وتونس ص ٣١

والدباغ : معالم الايمان فى معرفة أهل القيروان ١/ ٥١

فرأى طارق ما بالناس من الشدة ، فحرضهم على الصبر ورغبهم فى الشهادة ، وقال :
أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم . فليس الا الصبر منكم والنصر من ربكم
وأنا فاعل شيئا فافعلوا كفعلى . والله . لاقصدن طاغيتهم فاما أن أقتله أو أقتل
دونه . ثم حمل مع أصحابه عليه حملة رجل واحد ، فقتل رذريق ، وانهزمت الروم (١)

نفى لهم بعهدهم :

يقول حذيفة بن اليمان (رضى الله عنه) : ما منعنى أن أشهد بدرا الا أنى خرجت
أنا وأبى حسيل ، فأخذنا كفار قريش ، قالوا : انكم تريدون محمدا ؟ فقلنا : ما نريده
ما نريد الا المدينة . فأخذوا منا عهد الله وميثاقه لننصرفن الى المدينة ولا نقاتل معه .
فأتينا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فأخبرناه الخبر . فقال (انصرفا . نفى
لهم بعهدهم ونستعين الله عليهم) (٢)

ان يكن فى الجنة أصبر :

(عن أنس قال : انطلق حارثة ابن عمتى الربيع نظارا يوم بدر ، وما انطلق لقتال ،
فاصابه سهم فقتله ، فجاءت عمتى أمه الى النبى (صلى الله عليه وسلم) فقالت :
يارسول الله . ان ابنى حارثة ان يكن فى الجنة أصبر وأحتسب ، والا فسترى ما أصنع .
فقال : يا أم حارثة . انها جنات كثيرة ، وان حارثة فى الفردوس الاعلى .) (٣)

ولكن قولوا : اللهم احقن دماءنا ودماءهم :

(بلغ عليا (رضى الله عنه) ان حجر بن عدى وعمرو بن الحمق يظهران شتم
معاوية ولعن أهل الشام . فارسل اليهما أن كفا عما يبلغنى عنكما . فأتياه فقالا :
يا أمير المؤمنين . ألسنا على الحق وهم على الباطل ؟ قال : بلى ورب الكعبة

---

(١) ابن الازرق : بدائع السلك ١٧٦/١

(٢) مسلم ١٤١٤/٣

(٣) ابن أبى شيبة : المصنف ٢٩٠/٥
وابن المبارك : الجهاد ص ٧٢

المدنية . قالوا : فلم تمنعنا من شتمهم ولعنهم ؟ قال : كرهت لكم أن تكونوا شتامين لعانين ، ولكن قولوا (اللهم احقن دماءنا ودماءهم وأصلح ذات بيننا وبينهم واهد هم من ضلالتهم ، حتى يعرف الحق من جهله ويرعوى عن الغى من لجج به) (١)

- ما أحسن حمرة الدم على البياض . .

(عن السرى بن يحيى قال : كانوا فى غزوة عليهم يحيى . فقال أحدهم : ما أحسن حمرة الدم على البياض . فسمع أبوه ذلك فقال له : أقسمت عليك لتنزلن . قال : فنزل . ثم اعتزل عن الصف فقام يصلى ، فجعل يدعو ، فالتفت اليه أبوه ، فقال لمن معه : هذا عمرو يستشفع على بربه . اركب يابنى ان شئت . فركب . . فاستشهد .) (٢)

- أما جابيا فلا . .

(دخل عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - المسجد فبصر بالنعمان بن مقرن - رضى الله عنه - يصلى ، فقعد عمر الى جنبه ، فلما قضى صلاته قال له : أما انى سأستعملك . فقال النعمان : أما جابيا فلا . ولكن غازيا . قال : فأنت غاز فأرسله .) (٣)

- حتى الغلمان !

(عن سمرة بن جندب - رضى الله عنه قال : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يعرض غلمان الانصار فى كل عام فيلحق من أدرك منهم . قال : فعرضت عاما فألحق غلاما وردنى . فقلت : يارسول الله . لقد ألحقته ورددتنى ولو صارعته لصرعته . قال فصارعه . فصرعته . . فالحقنى .) (٤)

---

(١) الدينورى : الاخبار الطوال ص ١٦٥

(٢) ابن المبارك : الجهاد ص ١١٤

(٣) المسعودى : مروج الذهب ٢ / ٣٣١
والبلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٢٥ والرحبى : فقه الملوك ص ٢٤٩

(٤) الحاكم : المستدرك على الصحيحين ٢ / ٦٠

ـ انما تكثر الجنود بالنصـــر .

(لما أقبل خالد بن الوليد ـ رضى الله عنه ـ من العراق ، قال رجل من نصـارى العرب لخالد : ما أكثر الروم وأقل المسلمين . فقال خالد : ويلك . أتخوفـــنى بالروم ؟ انما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلا ن لا بعدد الرجال .) (١)

ـ لو ولى على امرأة لسمعت .

(لما جاء عزل خالد بن الوليد عن قيادة الجيش وتولية أبى عبيدة ـ رضى الله عنه ـ القيادة مكانه ، قال خالد : والله لو ولى على عمر امرأة لسمعت و أطعت .) (٢)

ـ فركب البحر . . فمات .

(قرأ أبوطلحة ـ رضى الله عنه ـ هذه الاية : " انفروا خفافا وثقالا " (التوبة : ٤١) فقال : أرى ربنا يستنفرنا شيوخا وشبابا . جهزونى أى بنى جهزونى .

فقال بنوه : قد شهدت مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأبى بكر وعمر ـ رضى الله عنهما ـ ، فنحن نغزو عنك . فقال : جهزونى . .

فركــب البحر ، فمـــات . .) (٣)

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٧/ ٩

(٢) اليافعى : مرآة الجنان ١/ ٦٩

وابن العماد : شذرات الذهب ١/ ٢٦

(٣) الحاكم : المستدرك ٢/ ١٠٤

والبيهقى : السنن الكبرى ٩/ ٢١